تفسير القشيري

المسمى

لطائف الإشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلق عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الثاني

المحتوى:

أول سورة يونس - آخر سورة العنكبوت

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Qušayri
"Laṭā'f al-'išārāt"
(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran
Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Qušayri
Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: *Dar Al-Kotob Al-ilmiyah*
Pages: 1408 (3volumes)
Year: *2007*
Printed in: *Lebanon*
Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات
التصنيف: تفسير قرآن
المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري
المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن
الناشر: دار الكتب العلميــة - بيروت
عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الثانية

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)
ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)

الطبعة الثانية
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ سماعُها يوجِب شِفَاءَ كلِّ عابد، وضياءَ كلِّ قاصد، وعزاء كلِّ فاقد، وبلَاءَ كلِّ واجد، وهُدُوَّ كلِّ خائف، وسُلُوَّ كل عارف. وأَمَانَ كل تائب، وبيانَ كلِّ طالب. قلوبُ العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله، وكروبُ الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الألف مفتاح اسم «الله»، واللام مفتاح اسم «اللطيف» والراء مفتاح اسم «الرحيم». أقسم بهذه الأسماء إن هذه الكتابَ هو الموعودُ لكم يوم الميثاق. والإشارة فيه أنا حققْنَا لكم الميعاد، وأَطْلنا لكم عِنان الوداد... وانقضى زمانُ الميعاد، فالعَصَاةُ مُلْقَاة، والأيامُ بالسرور مُتَلَقَّاة، فبادِروا إلى شُرْبِ كاساتِ المحابِّ، واستقيموا على نَهْجِ الأحباب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.

تعجبوا من ثلاثة أشياء: من جواز البعث بعد الموت، ومن إرسال الرسل إلى الخَلْق، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مِنْ بين الخلق. ولو عرفوا كمال مُلْكِه لم يُنْكِروا جواز البعث، ولو علموا كمالَ ملكه لم يجحدوا إرسالَ الرُّسل إلى الخلْق، ولو عرفوا أنَّ له أنْ يفعلَ ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد ـ ﷺ ـ بالنبوة مِنْ بين الخَلْق، ولكنْ سُدَّتْ بصائرُهم فتاهوا في أودية الحيرة، وعَثَرُوا ـ من الضلالةِ ـ في كل وَهْدَةٍ. وكان الأستاذ أبو علي الدَّقاق ـ رحمه الله ـ يقول: جَوَّزُوا أن يكون المنحوتُ من الخشبِ والمعمولُ من الصخر إلهاً معبوداً، وتعجبوا أن يكون مثلُ محمد ـ ﷺ ـ في جلالةِ قَدْرِه رسولاً..!! هذا هو الضلال البعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وهو ما قدَّموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها، وفنونِ عباداتٍ صَدَقُوا في القيام بقضائها.

ويقال هو ما قُدم الحقُّ لهم يومَ القيامة، مع مقتضى العناية بشأنهم، وما حَكَمَ لهم من فنونِ إحسانه بهم، وصنوفِ ما أفردهم به من امتنانهم.

ويقال: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان إرادتهم، فإنَ لأَقْدامِ المريدين المرفوعةِ لأَجْلِ اللَّهِ حُرْمَةً عند الله، ولأيامِهم الخاليةِ في حالِ تردُّدِهم، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةِ تحيّرهم. . مقاديرَ عند الله. وقيل:

مَـنْ يَـنْـسَ داراً قـد تـخـونـهـا رَيْـبُ الزمان فإنـي لسـت أنسـاكـا

وقيل:

تـلـك الـعـهـودُ تـشـدُّهـا لِـتَـحُـلَّـهـا عنـدي كـمـا هي عـقـدهـا لـم يُـخـلـلِ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لا يحتاج فِعْله إلى مُدّةٍ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة؟ فَخَلَقَ السموات والأرضَ في ستة أيام، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ الله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم. فأخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ بما يَقْرُب من فَهْم الخلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره، وحاصلةٌ بتدبيره، فلا شريكَ يعضده، وما قضى فلا أحد يردُّه. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: هو الذي يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه، وهو الذي يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبهُ.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: تعريف وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: تكليف؛ فحصول التعريف بتحقيقه، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح، فإن لها في مواطن

التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبِّيه وذويه، كما قيل:

أيا قداماً من سَفرةِ الهجر مرحباً ... أناديك لا أنساك ما هبَّت الصَّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى، والثواب والحسنى. والعاصي إذا رجع إلى ربِّه فَبَغتِ الإفلاس وخسران الطريق؛ فيتلقى لِباس الغفران، وحُلَّة الصفح والأمان، فرحمةُ مولاه خيرٌ له من نُسُكِه وتقواه.

قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾: موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى، وموعودُ العاصي الرحمة والرِّضى. والجنَّةُ لُطفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحق؛ فاللُّطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل، والنَّعْتُ لم يزل.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: مَنْ كان له في جميع عمره نَفَسٌ على وصفِ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففي الإشارة: تكون لذلك إعادة، وأنشدوا:

كلُّ نَهرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى ... فإليه الماءُ يوماً سيعودُ

قوله جلَّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

أنوار العقول نجومٌ وهي للشياطين رجوم، وللعلوم أقمار وهي أنوار واستبصار، وللمعارف شموس ولها على أسرار العارفين طلوع، كما قيل:

إنَّ شمسَ النهار تَغرُبُ بالليل ... وشمسُ القلوب ليست تَغِيبُ

وكما أَنَ في السماء كوكبين شمساً وقمراً؛ الشمسُ أبداً بضيائها، والقمرُ في الزيادة والنقصان؛ يُسْتَرُ بمحاقِه ثم يكمل حتى يصير بدراً بنعت إشراقه، ثم يأخذ في النقص إلا أَنْ لا يبقى شيءٌ منه لتمام امتحاقه، ثم يعود جديداً، وكل ليلة يجد مزيداً، فإذا صار بدراً تماماً، لم يَجِدْ أكثر من ليلةٍ لكَمَالِه مقاماً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُه ويتِمّ نَقْصُه.

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هو مُتَرَدِّدٌ بين قَبْضِه وبَسْطِه، وصَحْوِه ومَحْوِه، وذهابه وإيابه؛ لا فَنَاءَ فيستريح، ولا بقاءَ له دوامٌ صحيحٌ، وقيل:

كلَّما قُلْتُ قد دنا حَلُّ قيدي ... كَبَّلوني فأوثقوا المِسْمَارا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾.

اخْتُصَّ النهارُ بضيائه، وانفرد الليلُ بظلمانه، من غير استيجابٍ لذلك، ومن غير استحقاق عقاب لهذا، وفي هذا دليلٌ على أَنَّ الردَّ والقبولَ، والمَنْعَ والوصولَ، ليست

معلولةً بسببٍ، ولا حاصلةً بأمرٍ مُكْتَسَبٍ؛ كلَّا.. إنها إرادةٌ ومَشِيئَةٌ، وحُكْمٌ وقضية.

النهارُ وقتُ حضورِ أهلِ الغفلة في أوطان كَسْبِهِم، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم، قال قائلهم:

هو الشمس، إلا أنَّ للشمسِ غَيبةً وهـذا الـذي نـعـنـيـه لـيـس يـغـيـبُ

والليلُ لأحدِ شخصين: أمَّا للمُحِبِّ فَوَقْتُ النَّجوى، وأمَّا للعاصي فَبَثُّ الشكوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أنكروا جوازَ الرؤية فَلَمْ يرجوها، والمؤمنون آمنوا بِجَوَازِ الرؤية فأمَّلُوها.

ويقال: لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحبُّوه لأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألَّا يطلبوه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبُّوا، ولو أحبُّوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا لرجوا، ولو رجعوا لأمَّلوا لقاءه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾: أصحابُ الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فَحُرِمُوا الجنةَ، والزُّهَّادُ والعُبَّادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة، وقد عَلِمَ كلُّ أناسٍ معشْرَبهم، ولكلِّ أحدٍ مقامٌ.

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فمأواهم العذابُ والفرقة، فدليلُ الخطاب أن الذي يرجو لقاءه رآه، ومآلُه ومنتهاه الوصلةُ واللقاء والزُّلْفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

كما هداهم اليومَ إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة.

ويقال أَمَّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكةُ تتلقَّاهم والحقُّ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] نحشرهم، والعاصون يَبْقَوْن منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحون في مطاحات[١] القيامة.

---

(١) المطاح والمطاحة: المسلك الوعر المُهلك (ج) مطاوح.

والحقُّ - سبحانه - يقول لهم: عِبَادي، إنَّ أصحابَ الجنة - اليومَ - في شُغلٍ عنكم، إنهم في الثواب لا يتفرَّغون إليكم، وأصحابُ النار من شدة العذابِ لا يرقبون لكم معاشِرَ المساكين.

كيف أنتم إنْ كان أشكالكم وأصحابُكم سبقوكم؟ وواحدٌ منهم لا يهديكم فأنا أهديكم. لأني إنْ عاملتُكم بما تستوجِبُون... فأين الكرمُ بحقنا إذا كنا في الجفاء مِثْلَهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قالتُهم الثناءُ على الله، وذلك في حال لقائهم. وتحيتهم في تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: والحمد ها هنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمدِ أبديٍّ سرمديٍّ، والحقُّ - سبحانه - يُحَيِّيهم بسلامٍ أزليٍّ وكلام أبدي، وهو عزيزٌ صمديٌّ ومجيدٌ أحديٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي لو أَجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضَجَرِهم لعَجَّلنا إهلاكَهم، ولكن تَحَمَّلْنَا ألا نُجيبَهم، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءَهم. وربما يشكو العبدُ بأنَّ الربَّ لا يجيب دُعاءَه، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابَتَهُ لُطْفاً منه وأنَّ في ذلك بلاءً لو أجابه، كما قيل:

أُنَاسٌ أعرضوا عنَّا ... بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظنَّهم فينا ... فهلَّا أحسنوا الظنَّا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

إذا امتُحِنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أَنْ يرومَ التخلُّصَ مما ناله، فيعلمَ أنَّ غيرَ الله لا يُنْجِيه، فتحمله الضرورةُ على صِدْق الالتجاءِ إلى الله، فإذا كَشَفَ اللَّهُ عنه ما يدعو لِأَجْلِه شَغَلَتْه راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة، وزَايَلَه ذلك الالتياع، وصار كأنه لم يكن في بلاءٍ قط:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذ اكتسى ... ولم يكُ صُعلوكاً إذا ما تَموَّلا

ويقال بلاءٌ يُلْجِئُك إلى الانتصاب بين يَدَيْ معبودِك أجدى لك من عطاءٍ يُنْسِيك ويكفيك عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاك الظالمين، كما في الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنّة لسلّط اللّهُ عليه الخراب». والظلمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَه ـ عند حوائجه ـ في المخلوقين، وتعلّق قلبُه بهم في الاستعانة، وطَلَبِ المأمول فقد وَضَعَ الشيءَ في غير موضعه، وهو ظلم؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفاه، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله، ولا ترتفع حاجتُه من غيره، وكان من فقره وحاجته في مَضَرَّةٍ. فإنْ صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنةٌ عظيمةٌ.

وعلى هذا القياس إذا أحبَّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته في غير موضعها، وهذا ظلم؛ وعقوبَتُه خرابُ روحه لِعَدَمِ صفاءِ ودِّه ومحبته لله، وذهاب ما كان يجده من الأُنس بالله، إذا بقي عن الله يُذيقه الحقُّ طعمَ المخلوقين، فلا له مع الخُلقِ سَلْوة، ولا من الحقِّ إلا الجفوة، وعدم الصفوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

عرَّفناكم بِسِرِّ مَنْ قَبْلَكُم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإذا اعتبرتم بهم نَجْوتُم، ومن لم يعتبرْ بما سمعه اعتبر به من تبعه.

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم، ومَنْ لم يعتبرْ بِمَنْ سَبَقَه اعتبرَ به مَنْ لَحِقَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إذا اقترحوا عليك بأنْ تأتيَهم بما لم نأمركَ به، أو تُرِيَهُم ما لم نُظْهِرْ عليك من الآياتِ.. فأَخبِرْهم أنّكَ غير مُسْتَقِلٍ بِك، ولا موكولٍ إليك؛ فنحن القائمُ عليكَ، المصّرفُ لكَ، وأنتَ المتّبعُ لما نُجريه عليك غيرَ مُبْتَدِعٍ لِما يَحصُل منك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قد عِشْتُ فيكم زماناً، وعرفتم أحوالي فيما تطلبون مني عليه برهاناً، فما ألفيتموني (...)[١] بل وجدتموني في السداد مستقيماً، وللرشاد مستديماً، فلولا أنَّ

---

(١) بياض في الأصل.

الله تعالى أرسلني، ولِمَا حَمَّلَني مِنْ تكليفه أَهَّلَني لمَا كنتُ بهذا الشرع آتياً ولا لهذا الكتاب تالياً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما لكم تعترضون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الكَذِبُ في الشرع قبيحٌ، وإذا كان على الله فهو أقبح.

ومِنَ المفتَرين على الله: الذين يُظْهِرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين، وجزاؤُهم أَنْ يُحْرَمُوا ذلك أبداً، فلا يَصِلون إلى شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ذمَّهُم على عبادة ما ليس منه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ.

فدليلُ الخطاب يقتضي أَنْ يكونَ المعبودُ منه الضَّرُّ والنفع، ومِنْ فَرْطِ غباوتهم أنهم انتظروا في المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجَدُ منه الضَّرُّ والنَّفْعُ في الحال. ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً، ولو كان كما قالوا لَعلِموا أنه سبحانه لا يَعْزُبُ عن علمه معلومٌ.

ومعنى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُ﴾: خلافه. ومَنْ تَعَلَّقَ قلبُه بالمخلوقين في استدفاع المضَارِّ واستجلاب المسَارِّ فكالسالكِ سبيلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام؛ إذ المنْشِيءُ والموجِدُ للشيءِ مِنَ العَدم هو الله ـ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا، والحق ـ سبحانه ـ سَبقَ قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة، ولذلك لا يُجِيبُهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة.

وإنما اختلفوا لأنَّ الله خَصَّ قوماً بعنايته وقبوله، وآخرين بإهانته وإبعاده، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أخبر أنه ـ عليه السلام ـ في سَتْرِ الغَيْبة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقاصُرِ

علمه عما سيحدث، فهو في ذلك بمنزلتهم، إلا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف، فكما أنهم في الانتظار لما يحدث في المستأنف فهو أيضاً في انتظار ما يوجِدُ ـ سبحانه ـ من المقادير. والفَرْقُ بينه ـ عليه السلام ـ وبينهم أنه يشهد ما يحصل به ـ سبحانه ـ ومنه، وهم مُتَطَوِّحون في أودية الجهالة؛ يُحيلُون الأمرَ مرةً على الدَّهْرِ، ومرةً على النجم، ومرةً على الطبع.. وكلٌّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

يعني إذا أصابهم ضُرٌّ ومحنة فرحمناهم وكَشَفنا عنهم، أحالوا الأمر على غيرِنا، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم: «مُطِرْنَا بنوء كذا»(١)، ومثل قولهم إن هذه سعادة نجْمٍ أو مساعدةُ دولة أو تأثيرُ فَلَكٍ أو خيراتُ دهر.

فهذا كان مكرُهم أما مكر الله ـ سبحانه ـ بهم فهو جزاؤهم على مكرهم. والإشارة في هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجبة أو فترة.. فإذا جاء الحقُّ بكشفٍ أو تجلٍّ أو إقبال فَمِنْ حقِّهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحقِّ مَكَرَ الله بهم بأَنْ شتَّتهم في تلك الأحوال من غير تَرَقٍّ عنها أو وجود زيادة عليها، وهذا مَكْرُه بخَوَاصِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

يريد أنهم يُصْبِحون في النِّعم يجرُّون أذيالَهُم، ثم يُمْسُون يبكون لَيَالِيَهُم. وقد يَبِيتُون والبهجةُ مَلَكَتْهُم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكَتْهُم، وأنشدوا:

أقمتَ زماناً والعيونُ قريرةٌ ... وأصبحتَ يوماً والجفونُ سوافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكَشْفِ البلاء.

فلمَّا أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره يرجِعون، وعلى مناهجهم ـ في تمرُّدهم يسلكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري (أذان ١٥٦)، (استسقاء ٢٨)، (مغازي ٣٥)، ومسلم (إيمان ١٢٥)، وأبو داود (طب ٢٢)، والترمذي (تفسير سورة ٤٠٥٦)، والنسائي (استسقاء ١٦)، والدارمي (رقاق ٤٩)، والموطأ (استسقاء ٤)، وأحمد بن حنبل ١، ٨٩، ١٠٨، ١٣١، ٢، ٤١٥، ٤٥٥، ٥٢٥، ٣، ٤٢٩، ٤، ١١٧.

بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ معناه: تُمَتِّعكم أياماً قلائلَ، ثم تَلْقَوْن غِبَّ ذلك وتبدأون تقاسون عذاباً طويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

شَبَّهَ الحياةَ الدنيا بالماء المُنَزَّلِ من السماء يَنْبُتُ به النباتُ وتَخْضَرُّ الأرضُ وتَظْهَرُ الثمار، ويوطِّن أربابُها عليها نفوسَهم، فتصيبهم جائحةٌ سماوية بغتةً، وتصير كأن لم تكن.

كذلك الإنسانُ بعد كمال سِنِّه وتمام قُوَّتِه واستجماع الخصال المحمودة فيه تَخْتَرِمُه المَنِيَّة(١)، وكذلك أموره المنتظمةُ تَبْطُلُ وتختلُّ لوفاته، كما قيل:

فَقَدْنَاه لمَّا تمَّ واختمَّ بالعُلَى كذاك كسوفُ البدرِ عند تمامه

ومن وجوه تشبيه الأحوال الدنيوية بالماء المُنَزَّلِ من السماء أن المطرَ لا ينزل بالحيلة، كذلك الدنيا لا تساعدها إلا القسمة.

ثم إن المطر إن كان لا يجيء إلا بالتقدير فقد يُسْتَسْقَى.. كذلك الرزق ـ وإنْ كان بالقسمة ـ فقد يُلْتَمَسُ من الله ويُسْتَعْطى.

ومنها أن الماء في موضعه سببُ حياة الناس، وفي غير موضعه سببُ خرابِ الموضع، كذلك المال لمستحقه سببُ سلامته، وانتفاع المتصلين به، وعند مَنْ لا يستحقه سبب طغيانِه، وسببُ بلاءِ مَنْ هو متصل به، كما قيل: نِعَمُ الله لا تُعاب ولكنه ربما استعجم على إنسان، وكما قيل:

يا دولةً ليس فيها من المعالي شظيَّةْ زولى فما أنتِ إلا على الكرام بَلِيَّةْ(٢)

ومنها أن الماء إذا كان بمقدارٍ كان سببَ الصلاح، وإذا جاوز الحدَّ كان سببَ الخراب.. كذلك المال إذا كان بقَدْرِ الكفاية والكفاف فصاحبه مُنَعَّمٌ، وإذا زاد وجاوز الحدَّ أوجب الكُفران والطغيان.

ومنها أن الماءَ ما دام جارياً كان طيباً، فإذا طال مكثه تغيَّر.. كذلك المال إذا

---

(١) اخترمت المنية فلاناً: أخذته.

(٢) الشظية: عظم الساق أو العظم الصغير الوحشي من عظمي الساق.

أنفقه صاحبُه كان محموداً، فإذا ادَّخره وأمسكه كان معلولاً مذموماً.

ومنها أن الماءَ إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى، وإذا كان غيرَ طاهرٍ فبالعكس.. كذلك المال إذا كان حلالاً، وبعكسه لو كان حراماً.

ويقال كما أن الربيعَ تتورد أشجارُه، وتظهر أنوارُه، وتخضرُّ رِباعُه، وتتزين بالنبات وِهَادُه وتِلاعه[1] لا يُؤْمَن أَنْ تصيبَه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب. كذلك مِنَ الناسِ مَنْ تكون له أحوالٌ صافية، وأعمالٌ بشرط الخلوص زاكية؛ غصونُ أُنسِه مُتَدَلِّية، ورياضُ قربِه مونِقةٌ.. ثم تصيبه عَيْنٌ فيذبل عودُ وِصاله، وتنسدُّ أبوابُ عوائدِ إقباله، كما قيل:

عينٌ أصابَتْكَ إنّ العينَ صائبةٌ والعينُ تُسْرِعُ أحياناً إلى الحَسَدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

دعاهم إلى دار السلام، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجِب لهم الوصول إلى دار السلام؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره. والدعاء من حيث التكليف، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف.

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص.

ويقال التَكليف بحقِّ سلطانه، والتعريف بِحُكْمِ إحسانه.

ويقال الدعاء قَوْلُه والهداية طَوْلُه؛ دَخَلَ الكلُّ تحت قوله، وانفرد الأولياءُ بتخصيص طَوْلِه. دار السلام دار الله لأن السلام اسم مِنْ أسمائه.

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها؛ سالمون من الحُرقَة وسالمون من الفُرقة؛ سَلِموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه، وسَلِموا من الفُرْقة فوصلوا إلى عزيز لقائه.

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُه عن السجود للِصَنَم، وَسِلَم قلبُه عن الشِّرْكِ والظُلم.

ويقال تلك الدار درجات؛ والذي سَلِمَ قلبُه عن محبة الأغيار درجتُه أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُه من الذنوب والأوضار.

ويقال قوم سلمت صدورُهم من الغِلِّ والحسد والحقد؛ وسَلِمَ الخَلْقُ منهم؛

---

(١) التلاع: (ج) التلعة: ما ارتفع من الأرض وأشرف، أو هي ما انهبط منها (ضد).

فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة، وليس لهم على أحد شيء؛ «فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمحسنُ من سَلِمَ الخَلقُ بأجمعهم من قلبه»[(١)].

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: طريق المسلمين، فهذا للعوام بشرط علم اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[(٢)].

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿أَحْسَنُوا۟﴾: أي عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالُهم على مقتضى الإذن.

ويقال: «أحسنوا»: لم يُقَصِّروا في الواجبات، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات.

ويقال: «أحسنوا»: أي لم يَبْقَ عليهم حقٌّ إلا قاموا به؛ إن كان حقَّ الحقِّ فَمِنْ غير تقصير، وإن كان من حقِّ الخَلْق فأداءٌ من غير تأخير.

ويقال «أحسنوا»: في المآل كما أحسنوا في الحال؛ فاستداموا بما فيه واستقاموا، والحسنى التي لهم هي الجنة وما فيها من صنوف النِّعم.

ويقال: الحسنى في الدنيا توفيق بدوام، وتحقيق بتمام، وفي الآخرة غفران مُعَجَّل، وعيان على التأبيد مُحَصل.

قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: فعلى موجِب الخبر وإجماعِ السلف النظرُ إلى الله. ويحتمل أن تكون «الحسنى»: الرُّؤية، «والزيادة»: دوامُها. ويحتمل أن تكون «الحسنى»: اللقاء، «والزيادةُ»: البقاء في حال اللقاء.

ويقال الحسنى عنهم لا مقطوعة ولا ممنوعة، والزيادة لهم لا عنهم محجوبة ولا مسلوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (إيمان ٥)، (رقاق ٢٦)، ومسلم (إيمان ٦٤ ـ ٦٥)، وأبو داود (جهاد، ٢) والترمذي (قيامة ٥٢)، (إيمان ١٢)، والنسائي (إيمان ٨، ٩، ١١)، والدارمي (رقاق ٤، ٨) وأحمد بن حنبل ٢/ ١٦٠، ١٦٣، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٤، ٣٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦/ ١٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٠٣)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤)، والهيثمي في (موارد الظمآن ١٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥١٣) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٣٤، ١٠/ ٩٤)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٣٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب، وبعكسه حديث الكفار حيث قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠].

«والذلة» التي لا تصيبهم أي لا يُرَدُّوا مِنْ غير شهودٍ إلى رؤية غيره، فهم فيها خالدون في فنون أفضالهم، وفي جميع أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والذين كسبوا السيئاتِ وعملوا الزَّلاتِ لهم جزاء سيئة مثلها، والباء في «بمثلها»: صلة أي للواحد واحد.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: هو تأبيد العقوبة.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ما لهم من عذابه من عاصم، سِيمُوا ذُلَّ الحجاب. ومُنُوا بتأبيد العذاب، وأصابهم هوان البعاد. وآثارُ الحجاب على وجوههم لائحة فإِنَّ الأَسِرَّةَ تدلُّ على السريرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله، فتقول الأصنام: ما أمرناكم بعبادتنا. فيدعون على الشياطين التي أطاعوها، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها، وتقول الأصنام: كفى بالله شهيداً، على أنّا لم نأمركم بذلك؛ إذ كُنَّا جماداً. وذلك لأنَّ اللَّهَ يُحْيِيها يوم القيامة ويُنْطِقها.

وفي الجملة... يتبرَّأ بعضُهم مِنْ بعض، ويذوقُ كلٌّ وبالَ فِعْلِه.

وفائدةُ هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم؛ فاشتغالُهم ـ اليومَ ـ بذلك مُحَالٌ، ولهم في المآلِ ـ مِنْ ذلك ـ وبالٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طَعْمَ هوانِهم؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعدَ عن الله، والطرْدَ من قِبَلِ الله، وذلك جزاءُ مَنْ آثَرَ على اللَّهِ غيرَ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

كما تَوَحَّدَ الحقُّ ـ سبحانه ـ بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً، وكما لا خالِقَ سواه فلا رازقَ سواه.

ثم الرزق على أقسام: فللأشباح رزق: وهو لقوم توفيق الطاعات، ولآخرين خذلان الزَّلات. وللأرواح رزق: وهو لقومٍ حقائق الوصْلة، ولآخرين ـ في الدنيا ـ الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهْلة.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد، وبعضها يعميها عن التحقيق.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: يخرج المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾: ولكنْ ظنًّا... لا عن بصيرة، ونطْقاً... لا عن تصديق سريرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

ما يكون من موضوعاتِ الحق، ومتعلقاتِ الإرادة، ومتناولاتِ المشيئة، ومُجَنَّساتِ التقدير، ومُصَرَّفاتِ القدرة ـ فهي أشباحٌ خاوية، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

سَبَق لهم الحُكْمُ، وصَدَقَ فيهم القولُ؛ فلا لِحُكْمِه تحويل ولا لقوله تبديل، فإنَّ العلَلَ لا تُغيِّر الأزل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

كَشَف قبيحَ ما انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخلْقُ والإعادة، وأثبت أن المعبودَ مَنْ مِنه الخَلْقُ والإعادة.

قومٌ جعلوا له في الإيجاد شركاءَ بدعوى القَدَرِ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة. وكل هذا جنوحٌ إلى الكُفرِ وذهابٌ عن الدِّين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه، ومعناه أنه موجود، وأنه ذو الحق، وأنه مُحِقُّ الحقّ.

والحقُّ من أوصاف الخَلْق ما حَسُنَ فعله وصحَّ اعتقاده وجاز النطق به.

و﴿ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾: أي إلى الحق هدايته. وهداه له وهداه إليه بمعنىً؛ فَمَنْ هداه الحقُّ للحقِّ وَقَفَه على الحقِّ، وعزيزٌ منْ هداه الحقُّ إلى الحقِّ للحقِّ، فماله نصيبٌ وما له حَظٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الظَّنُّ يُنافي اليقين، فإنه ترجيح أحد طَرَفَيْ الحكم على الآخر من غير قَطْعٍ.

وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع؛ فالظنُّ في أوصاف الحقِّ معلولٌ، والقطع ـ في أوصاف النَّفْس ـ لكل أحدٍ معلول. والعَبْدُ يجب أن يكون في الحال خالياً عن الظن إذْ لا يَعْرفُ أحدٌ غيْبَ نَفْسِه في مآلِه.

وفي صفة الحقِّ يجب أن يكونَ العبدُ على قطعٍ وبصيرة؛ فالظنُّ في الله معلول، والظن فيما مِنَ الله غير محمود. ولا يجوز بوجهٍ منَ الوجوه أن يكون أهلُ المعرفةِ به سبحانه ـ فيما يعود إلى صفته ـ على الظن، كيْف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيِّه ـ عليه السلام ـ أنْ يقول: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]؟ وكما قلنا:

طَلَعَ الصباحُ فلات حين سراج ... وأتى اليقين فلات حين حجاج
حصل الذي كُنَّا نؤمِّل نَيْلَه ... من عَقْد ألويةٍ وحلِّ رتاج[١]
والبعد قَوَّضَ بالدُّنو خيامه ... والوصلُ وَكَّدَ سَجْلَه[٢] بعِاج[٣]
قَدْ حَانَ عَهْدٌ للسرور فحيهلا ... لهواجم الأحزان بالإزعاج

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

انسدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمى على عمى، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدىً على هدى، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقومٍ سببَ تحَيُّرِهم، ولآخرين موجبَ تَبصُّرِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

---

(١) الرتاج: الباب العظيم. أو الباب المغلق وعليه باب صغير (ج) رُتُج.
(٢) السَّجْل: الدلو العظيمة مملوءة. أو فيها ماء قلّ أو كثر (ج) سجال وسجول.
(٣) العناج: خيط أو سَير يُشدّ في أسفل الدلو ثم يُشدّ في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠).

كلَّتْ القرائح، وخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة، واعترف كلُّ خطيب مِصقَعٍ بالعجز عن معارضة هذا الكتاب، فلم يتعرَّض لمعارَضته إلا مَنْ افتضح في قالته.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قابلوا الحقَّ بالتكذيب لِتَقاصُرِ علومهم عن التحقيق، فالتحقيقُ من شرط التصديق، وإنما يؤمِن بالغيب مَنْ لوَّح ـ سبحانه ـ لقلبه حقائق البرهان، وصَرَفَ عنه دواعي الرِّيَب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فأمَّا الذين آمنوا فهم الذين كَحَلَ الحقُّ أبصارَ قلوبِهم بنور اليقين، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وَسَمَ قلوبَهم بالعمي فزلُّوا ـ بالضلالة ـ عن الهُدَى.. تلك سُنَّةُ الله في الطائفتين، ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بَرِحَ الخفاءُ، واستبانت الحقائق، وامتاز الطريقان، فلا المحسنُ بِجُرْمِ المسيءِ مُعَاقَبٌ، ولا المسيءُ بِجُرْمِ المحسن مُعاتَب، كُلٌّ على حِدَةٍ بما يعمله وعلى ما يفعله مُحَاسَب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

من استمع بتكلفه ازداد في تَخَلُّفِه بزيادة تصرفه، ومَنْ استمع الحقَّ بِتَفَضُّلِه ـ سبحانه ـ استغنى في إدراكه عن تَعَمُّلِه. والحقُّ ـ سبحانه ـ يُسْمِعُ أولياءَه ما يناجيهم به في أسرارهم، فإذا سمعوا دعاء الواسطة قابلوه بالقبول لِمَا سَبَقَ لهم من استماع الحقِّ. ومَنْ عَدِمَ استماعَ الحقِّ إياه من حيث التفهيم لم يَزِدْه سماعُ الخَلْقِ إلا جحداً على جحد، ولم يحظَ به إلا بُعْداً على بُعْد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

مَنْ سُدَّتْ بصيرتُه بالغفلة والغيبة لم يَزِدْه إدراكُ البَصَرِ إلا حجبةً على حجبة، ومَنْ لم ينظر إلى الله بالله، ولم يسمع من الله بالله، فقصاراه العمى والصمم، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله: «فبي يسمع وبي يبصر»(١).

---

(١) هذا حديث قدسي يُروى هكذا «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...» أخرجه البخاري (رقاق ٣٨).

وأنشد قائلهم:

تأمَّلْ بعين الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

نَفَى عن نَفْسِه ما يستحيل تقديره في نعته، وكيف يوصَفُ بالظلم وكلُّ ما يُتَوَهَّمُ أَنْ لو فَعَلَه كان له ذلك؟ إذ الحقُّ حقُّه والمُلْكُ مُلْكُه. ومَنْ لا يَصِحُّ تقديرُ قبيحٍ منه ـ أَنَّى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

الأيامُ والشهور، والأعوام والدهور بعد مُضيها في حُكْم اللحظة لمن تفكَّرَ فيها، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتي من الوقت قريب، وكأنَّ قَدْرَ الماضي من الدهر لم يُعْهَدْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

معناه أن خبره صدق، ووعده ووعيده حق، وبعد النَّشْرِ حَشْرٌ، وفي ذلك الوقت مُطَالَبَةٌ وحسابٌ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب، وما أسرع ما يكون المعلومُ مُشاهَداً موجوداً!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لم يُخْلِ زماناً مِنْ شَرْعٍ، ولم يُخْلِ شرعاً مِنْ حُكْمٍ، ولم يُخْلِ حُكْماً مما يُعْقِبُه من ثوابٍ وعقاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب، فأمّا أهل التحقيق فليس لهم لواردٍ يرِدُ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده، أو استعجالٌ على حين كَوْنِه، ولا إذا وَرَدَ استقالٌ لما تضمنه حُكْمُه؛ فهم مطروحون في أَسْرِ الحُكْم، لا يتحرك منهم ـ باختيارهم ـ عِرْقٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الملوكُ متى يكون له مِلْك؟!

وإذا كان سيِّدُ البرايا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.. فَمَنْ نَزَلَتْ رُتْبَتُه، وتقاصرَتْ حالتُه متى يملك ذرةً أو تكون باختياره وإيثاره شمةٌ؟

طاح الذي لم يكن ـ في التحقيق، وتفرَّدَ الجبارُ بنعت الملكوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

مَنْ عَرَفَ كمالَ القُدرة لم يأمَنْ فجأةَ الأخذِ بالشدة، ومن خاف البيات لم يستلذ السُّبات.

ويقال مَنْ توسَّدَ الغفلةَ أيقظته فجاءةُ العقوبة، ومَنْ استوطن مركب الزَّلَّة عَثَرَ في وَهْدَةِ المحنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير.

ويقال لا حُجَّة بعد إزاحة العلة، ولا عذْرَ بعد وضوح الحجة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

لا تُكَلَفُ نَفسٌ إلا تجرع ما منه سَقَتْ، ولا يحصد زارعٌ غَلَّةَ ما منه زرع، وفي معناه قالوا:

سَنَنْتِ فينا سَنَناً قَذَفَ البلايا عقبه
يصبر على أهوالها مَنْ برَّ يوماً رَبَّه

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

صرِّحْ بالإخبار عند استخبارهم، وأَعْلِمْ بما يزيل الشُّبْهَةَ عمَّا التَبس على جُهَّالِهم، وأَكِّدْ إخبارَكَ بما تذكره مِنَ القَسَم واليمين، مضافاً ذلك إلى ما تُسْلِفُه من التَّبيين. على أنه لا ينفعهم نُصْحُك، ولا يُؤَثِّر فيهم وعظُكَ.. كيف لا؟ وقد جُرِّعوا شرابَ الحُجبة، وَوسُمُوا بَكِيِّ الفُرقة؛ فلا بصيرة لهم ولا (....)[1] ولا فهمَ ولا حصافة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

لا يُقْبَلُ منهم عَدْلٌ ولا سَرَفٌ[1]، ولا يحصل فيما سَبَقَ لهم من الوعيد خَلَفَ. ولا ندامة تنفعهم وإنْ صَدَقوها، ولا كرامة تنالهم وإنْ طلبوهَا، ولا ظُلْمَ يجري عليهم ولا حيف، كلا... بل هو اللَّهُ العَدْلُ في قضائه، الفَرْدُ في علائه بنعت كبريائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الحادثات بأسْرِها لله مِلْكاً، وبه ظهوراً، ومنه ابتداءً، وإليه انتهاء؛ فقولُه حقٌّ، ووعدهُ صِدْقٌ، وأمره حَتْمٌ وقضاؤه باتٌّ. وهو العَلِيُّ، وعلى ما يشاء قويٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة فنفوسُ العابدين تَلَفُها فنون المجاهدات، وقلوب العارفين شَرفُها عيون المشاهدات.

ويقال يحيي مَنْ أقبل عليه، ويميت مَنْ أعرض عنه.

ويقال يحيي قلوب قوم بجميل الرجاء، ويميت قلوبَ قوم بِوَسْم القنوط[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الموعظة للكافة.. ولكنها لا تنجع في أقوام، وتنفع في آخرين؛ فَمَنْ أصغى إليها بسَمْعِ سِرِّه اتضح نورُ التحقيق في قلبه، ومَنْ استمع إليها بنعت غَيْبَتِه ما اتصف إلا بدوام حجبته.

ويقال الموعظة لأربابِ الغيبة لِيَؤوبُوا، والشُّفاء لأصحاب الحضور ليطيبوا.

ويقال «الموعظة»: للعوام، «والشفاء»: للخواص، «والهُدى» لخاص الخاص، «الرحمة» لجميعهم، وبرحمته وصَلوا إلى ذلك.

ويقال شفاءُ كلِّ أحدٍ على حَسَبِ دائه، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجوذ القربة، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة.

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاءُ العارفين بالقرب والمناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

«الفضل»: الإحسانُ الذي ليس بواجبٍ على فاعله «والرحمة» إرادة النعمة وقيل هي النعمة.

---

(١) السَّرَف: مجاوزة الحدّ.

(٢) القنوط: اليأس.

والإحسان على أقسام كذلك النعمة، ونِعَمُ اللَّهِ أكثر من أنْ تحْصَى.

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات، والرحمة ما أزاحَ عنهم من الآفات.

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجراء الطاعات، ورحمته مَا عَصَمَهم به من ارتكاب الزَّلات. ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق.

ويقال فضل الله ما يُخصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه، ورحمته يخصُّ به أهلَ الزلَّات من وجوه غفرانه.

ويقال فضل الله الرؤية، ورحمته إبقاؤهم في حالة الرؤية.

ويقال فضل الله المعرفة في البداية، ورحمته المغفرةُ في النهاية.

ويقال فضل الله أنْ أَقَامَكَ بشهود الطلب، ورحمته أن أشهدك حقَّه بحكم البيان إلى أنْ تراه غداً بكشف العيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ أي بما أَهَّلَهم له، لا بما يتكلَّفون من حَرَكاتهم وسَكَنَاتهم، أو يَصِلُونَ إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعملهم. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي ما تُتحفُونَ به من الأحوال الزاكية خيرٌ مِمَّا تجمعون من الأموال الوافية.

ويقال الذي لَكَ منه ـ في سابق القسمة ـ خيرٌ مما تتكلَّفُه من صنوف الطاعة والخدمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

يعَنِّفُهم ويُقَرِّعهُم[1] على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم، ويُظْهِر كذبهم فيما تقوَّلُوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في إمهال مَنْ أجرَم، والعِصْمةِ لِمَنْ لم يُجْرِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) قرّعه: عنّفه وأوجعه باللوم والعتاب.

خَوَّفَهم بما عرفَّهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤية ما سيفعلونه من فنون أعمالهم. والعلْمَ بأنه يراهم يوجِبُ استحياءَهم منه، وهذه حال المراقبة، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحي منه، وتَرَكَ متابعة هواه، ولا يحُوِّم حَوْلَ ما نهاه، وفي معناه أنشدوا:

كأنَّ رقيباً منك حَالٌ بمهجتي　　　إذا رُمْتُ تسهيلاً عليَّ تَصعَّبَا

وأنشدوا:

أُعَاتِبُ عَنْكَ النَّفْسَ في كلِّ خَصْلَةٍ　　　تعاتبني فيها وأنت مقيم

﴿وما يعزُبُ عن ربك من مثقال ذرة﴾: وكيف يخفى ذلك عليه، أو يتقاصر علمه عنه، وهو منشئُه وموجِدُه؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة، وإنما قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾: ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم ـ لعدم اكتفائهم في الامتناع عمَّا نُهُوا عنه ـ برؤيته وعلمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل، وهو مَنْ تَوَالَت طاعاته، من غير أن يتخللها عصيان.

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول؛ فيكون الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن.

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي فيعصمه الحقُّ ـ سبحانه ـ على دوام أوقاته من الزلَّات.

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً.

والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يُلِمُّ بِذَنْبٍ أَلْبَتَّةَ، والمحفوظُ قد تحصُل منه هَنَات، وقد يكون له ـ في الندرة ـ زَلَّاتٌ، ولكن لا يكون له إصرار: ﴿أولئك الذين يتوبون من قريب﴾ [النساء: ١٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

حسنٌ ما قيل إنه ﴿لا خوف عليهم﴾: في الدنيا، ﴿ولا هم يحزنون﴾: في العاقبة. ولكن الأَوْلى أَنْ يقال إن الخواص منهم لا خوفٌ عليهم في الحال ـ لأنَّ حقيقةَ الخوفِ توقُّع محذورٍ فيٌّ المستقبل، أو ترقُّب محبوب يزول في المستأنف.. وهم بِحُكْمِ الوقت؛ ليس لهم تطلّعُ إلى المستقبل. والحزن هو أن تنالهم حُزُونة في الحال، وهم في رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت. فالوليُّ لا خوفٌ عليه في الوقت، ولا له حزن بحال، فهو بحكم الوقت.

ولا يكون وليّاً إلا إذا كان موفَّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات. وكلُّ خَصْلَةٍ حميدة يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هي صفة الأولياء. ويقال الوليُّ مَنْ فيه هذه الخصلة.

ويقال الوليُّ من لا يُقَصِّر في حقِّ الحق، ولا يؤخِّر القيام بحق الخَلق؛ يطيع لا لخوف عقاب، ولا على ملاحظةِ حسن مآب، أو تطلع لعاجلِ اقتراب، ويقضي لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً، ولا يقتضي من أحدٍ حقاً له، ولا ينتقم، ولا ينتصف ولا يشمت ولا يحقد، ولا يقلد أحداً مِنّةً، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قَدْراً ولا قيمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

هذه صفة الأولياء؛ آمنوا في الحال، واتقوا الشِّرْكَ في المآل. ويقال ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي قاموا بقلوبهم من حيث المعارف. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف.

ويقال «آمنوا» بتلقي التعريف. «واتقوا»: بالتقوى عن المحرمات بالتكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

القيام بالأمر يدل على الصحة؛ فإذا قاموا بما أُمِروا به، واستقاموا بِتَرْكِ ما زُجروا عنه بَشَّرَتْهُم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام، وبشَّرتهم الحقيقة باستجياب الإكرام، بما كوشِفوا به من الإعلام.. وهذه هي البشرى في عاجلهم. وأما البُشرى في آجِلِهم: فالحقُّ ـ سبحانه ـ يتولَّى ذلك التعريف، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١].

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهم بنفوسهم بسقوط مآربهم، وأيُّ مُلْكٍ أتمُّ من سقوط المآرب، والرضا بالكائن؟ هذه هي النعمة العظمى، ووجدانُ هذه الحالة هو البشرىٰ الكبرى.

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلْق أنَّ للخلْق عِدَةً بالجميل، والذي له نَقْدٌ ومحصول.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

العبدُ ما دام متفرقاً يضيقُ صدرُه ويستوحش قلبُه بما يسمع ويشهد من الأغيارِ والكفارِ ما تَتَقدَّسُ عنه صفةُ الحقّ، فإنْ صار عارفاً زالَتْ عنه تلك الصفة لتحققه بأنَّ الحقَّ سبحانه وراء كلّ طاعةٍ وزَلَّةٍ، فلا له ـ سبحانه ـ من هذا استيحاش، ولا بذلك استئناس.

ثم يتحقق العارفُ بأنَّ المُجَرِيَ لطاعةِ أربابِ الوفاق ـ اللّهُ، والمُنْشِىءُ لأحوال أهل الشِّقاقِ ـ اللّهُ. لا يبالي الحقُّ بما يجري ولا يبالي العبدُ بشهود ما يجري، كما قيل:

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرْفا فَنَعْتُ الخَلْقِ فيهم مستعار

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

لله مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض مِلْكاً، ويبدي عليهم ما يريد، حكما جَزْماً؛ فلا لقبوله عِلَّة، ولا موجِبَ لردِّه زَلَّة، كلا... إنها أحكامٌ سابقة، لم تُوجِبْها أجرامٌ لاحقة، ولا طاعاتٌ وعباداتٌ صادقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

الليلُ لأهل الغفلة بُعْدٌ وغيبة، ولأهل الندم توبة وأوبة[1]، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة؛ فالليل بصورته غير مُؤْنِسٍ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل:

وكم لظلامِ الليلِ عندي من يَدٍ تُخَبِّر أن المانوية تكذب[2]

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الوَلَدُ بعض الوالد، والصمدية تَجِلُّ عن البعضية، فَنَزَّهَ الله نَفْسَه عن ذلك بقوله ﴿سبحانه﴾.

ثم إنه لم يعجِّلْ لهم العقوبة ـ مع قبيح قالتهم ومع قدرته على ذلك ـ تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده.

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّده، فلا قسيمَ له، ولا يجوز في نعته التبني أيضاً لِتَفَرُّدِه وأنه لا شبيهَ له.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾: الغِنَى نَفْيُ الحاجة، وشهوةُ المباشرةِ حاجة، ويتعالى عنها سبحانه.

---

(١) الأوبة: المرة من الأوب. والأوب: العادة أو الجهة والناحية.

(٢) المانوية: أتباع ماني بن فاتن وهو رجل ظهر في زمن سابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام وادعى النبوة وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وقال: إن العالم مصنوع من النور والظلمة وأنهما لم يزالا قديمين حساسين سميعين بصيرين. المانوية مذهب تأثر بالبوذية والغنوصية، كما أخذ عن الزرداشتية قضت النصرانية على هذا المذهب حوالي ٥٠٠ م. (صبح الأعشى ١٣/ ٢٩٨).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

ليس لهم بما هم فيه استمتاع، إنما هو أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة، فلا قَدَمٌ لهم بعد ذلك تُرْفَع، ولا نَدَمٌ ينفع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيِّه ـ ﷺ ـ لِمَا كان يمسُّه من مقاساة الشِّدَّة من قومه، فإنَّ أيامَ نوحٍ ـ وإنْ طالَت ـ فما لَبِثَتْ كثيراً إلا وقد زالت، كما قيل:

وأحسَنُ شيءٍ في النوائب أنها إذا هي نابت لم تكن خلدا

ثم بيَّنَ أنه كان يتوكل على ربِّه مهما فعلوا. ولم يحتشم عبدٌ ـ ما وَثِقَ بربِّه ـ منْ كلِّ ما نَزَلَ به. ثم إن نوحاً ـ عليه السلام ـ قال: «إني توكلت على الله»(١) وهذا عين التفرقة، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

إذا كان عمله لله لم يَطْلُبْ الأَجْرَ عليه من غير الله، وهكذا سنَّته في جميع أولياء الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

أغرق قومَه بأمواج القَطْرة، وفي الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة، وحفظ نوحاً ـ عليه السلام ـ وقومه في السفينة، وفي الحقيقة نَجَّاهم في سفينة السلامة. وكان نوحٌ في سابق حكمه من المحروسين، وكان قومُه في قديم قضائه من جملة المُغْرَقين، فَجرَتْ الأحوال على ما جَرَتْ به القسمةُ في الأزل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود (أدب ١٠٣)، والترمذي (دعاء ٣٤)، وابن ماجه (دعاء ١٨)، وأحمد بن حنبل ١/ ٦٦، ٦، ٣٠٦.

قصَّ عليه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أنباءَ الأولين، وشرح له جميع أحوال الغابرين، ثم فَضَّلَه على كافتهم أجمعين، فكانوا نجوماً وهو البدر، وكانوا أنهاراً وهو البحر، ثم به انتظم عِقْدُهم، وبنورِه أَشْرَقَ نهارُهم، وبظهوره خُتِم عددُهم، كما قيل:

يـومٌ وحَـسْـبُ الـدهـرِ مـن أَجْـلِـه حـيًّـا غـدٌ والـتـفـت الأمـسُ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

ما زَادَهم الحقُّ سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَه في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هدًى إلا ويزيد في قلوبهم عَمًى، ثم خفى عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين[1].

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]: نظروا من حيث كانوا لـم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا، وكذا صفةُ مَنْ أَقصتْه السوابقُ، وردَّته المشيئة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا، واستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا... فلحقهم شؤمُ العقيدةِ وسوءُ الطريقة حتى توهموا أن الأنبياءَ عليهم السلام إنما دَعَوْهم إلى الله لتكونَ لهم الكبرياءُ على عباد الله، ولم يعلموا أنهم إنما دَعَوْهم إلى الله بأمر الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾.

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبرَّأ منهم وتَوَعدَّهم بقوله: لأفعلنَّ ولأصنعنَّ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تؤول إلى العداوة والبغضة، قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

أَمَرَهُم أمراً يُظْهِرُ به بُطْلانَهم ليُدخِلَ الحقَّ على ما أتوا به من التمويه، فلذلك قال موسى عليه السلام: «إن الله سيبطله»؛ فلمَّا التقمت عصا موسى ـ جميع ما جاءوا به من حِبَالِهم وعِصِيِّهم ـ حين قَلَبَها اللَّهُ حيَّةً.. عَلِمُوا أنَّ اللَّهَ أبطل تلك الأعيان وأفناها.

---

(١) الآية (٧٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

من جملة ما أَحقَّه أن السَّحَرَة كان عندهم أنهم يَنْصُرون فرعون ويجيبونه فكانوا يُقْسِمون بِعِزَّته حيث قالوا «بِعِزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون» وقال الحقُّ ـ سبحانه: بعزتي إنكم لمغلوبون، فكان على ما قال تعالى: دون ما قالوه، وفي معناه قالوا:

كم رَمَتْني بِأَسْهُمٍ صائباتٍ وتَعَمَّدْتُها بِسَهْمٍ فطاشا

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أهلُ الحقيقة في كل وقتٍ قليلٌ عَدَدُهم، كبيرٌ عند الله خَطَرُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

بيَّن أن الإيمان ليس من حيث الأقوال.. بل لا بد فيه من صدق الأحوال قصداً.

وحقيقةُ التوكل تَوَسُّلٌ تقديمُه مُتَّصِلٌ، ثم يعلم أنه بفضله ـ سبحانه ـ تَحْصَلُ نجاتُه، لا بما يأتي به من التكلُّف ـ هذه هي حقيقة التوكل[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

تبرأنا مما مِنَّا مِنَ الحوْل والمُنَّة، وتحققنا بما منك من الطوْل والمِنَّة.

فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك في عقوبتك بانتقامك، وارحمنا بلطفك وإكرامك، ونجِّنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عليهم فَأَذْلَلْتَهم، وبِكَيِّ فراقك وسَمْتَهم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَهَّدْ إليهم لعبادتنا مَحَالَّ وهي نفوسهم، ولمعارفنا منازِلَ وهي قلوبهم، ولمحبتنا مواضعَ وهي أرواحهم، ولمشاهدتنا معاهِدَ وهي أسرارهم؛ فنفوس العابدين بيوت الخدمة، وقلوب العارفين أوطان الحشمة، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة، وأسار الموحدين منازل الهيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾

---

(١) انظر حديث القشيري عن التوكل بالرسالة ص١٦٢.

(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

لما يَئِس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السُّخْطة وإذاقة الفرقة. ومن المعلوم أنّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مِنْ حقهم العصمة، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى في الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الاستقامةُ في الدعاء تَرْكُ الاستعجال في حصول المقصود، ولا يَسْقُطُ الاستعجالُ من القلب إلا بوجدان السكينة فيه، ولا تكون تلك السكينة إلا بِحُسْن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب.

ويقال ينبغي للعبد أن يستقلَّ بالله ما أمكنه فعند هذا يقلُّ دعاؤه. ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب ـ في جوازه ـ فالواجب ألا يستعجل، وأن يكون ساكِنَ الجأشِ.

ويقال من شرط الدعاء صِدْقُ الافتقار في الابتداء، ثم حُسْنُ الانتظار في الانتهاء، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار.

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضي على الغيب، والخمود عن الاستعجال بحُسْنِ الثقة، وجميل الظّن.

ويقال في الآية تنبيهٌ على أنَّ للأمورِ آجالاً معلومة، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم في الوقت المعلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

حَمَلَتْ العِزَّةُ فِرعونَ على تَقَحُّمِ البحر على إثرهم، فلمَّا تحقَّقَ الهلاكُ حَمَلَتْه ضرورةُ الحيلةِ على الاستعاذة، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار.

ويقال لما شهد صَوْلَةَ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة، لكن: «بعد شهود البَاسْ لا ينفع التخاشعُ والابتئاسْ».

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أَبَعْدَ طولِ الإمهال، والاصرار على ذميم الأفعال، والرَّكْضِ في ميدان الاغترار، وانقضاء وقت الاعتذار؟! هيهات! لقد استوجَبْتَ أن تُرَدَّ في وجهك، فلا لِعُذْرِك قَبُولٌ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصولٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

لَنُشهِرَنَّ تعذيبَكَ، ونُظْهِرَنَّ ـ لِمَنْ استبصر ـ تأديبَك، لِتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ عِبْرة، وتزدادَ حين أَفَقْتَ أَسَفاً وحسرةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أذْلَلْنَا لهم الأيامَ، وأكثرنا لديهم الإنعامَ، وأكرمنا لهم المقامَ، وأتَحْنَا لهم فنونَ الحسناتِ، وأدَمْنَا لهم جميع الخيراتِ... فلمَّا قابلوا النعمة بالكفران، وأصَرُّوا على البَغْيِ والعدوان أذقناهم سوءَ العذاب، وسَدَدْنا عليهم أبوابَ ما فتحنا لهم من التكريم والإيجاب، وذلك جزاءُ مَنْ حَادَ عن طريق الوِفاق، وجَنَحَ إلى جانب الشِّقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

ما شكَّ ـ ﷺ ـ فيما عليه أُنزِل، ولا عن أحدٍ منهم ساءَل، وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل.

ويقال صفةُ أهل الخصوص ملاحظةُ أنفسِهم وأحوالِهم بعين الاستصغار.

ويقال فإنْ تَنَزَّلْتَ منزلةَ أهلِ الأدب في تَرْكِ الملاحظات فَسَلْ عَمَّن أرسلنا قَبْلَكَ فهل بَلَّغْنَا أحداً منزلتك؟ وهل خَصَصْنَا أحداً بمثل تخصيصكَ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ما كان منهياً عنه، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً، فلا بدّ من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة. وإنما لم يَجُزْ في صفته ـ ﷺ ـ التكذيبُ بآياتِ الله؛ لأنه نُهِيَ عنه لا لكونه قبيحاً بالعقل حتى يقال كيف نُهِيَ عنه وكان ذلك بعيداً منه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالأعداء[1] حَقَّتْ عليهم كلمةٌ بالعقاب، والأولياء حقت عليهم كلمةٌ بالثواب؛ فالكلمة أزليَّة، والأحكام سابقة، والأفعال في المستأنف على ممر الأوقات على موجب القضية لاحقة، فالذين نصيبهم من القسمة الشِقْوةُ لا يؤمِنون وإن شاهدوا كل دلالة، وعاينوا كل معجزة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قومُ يونس تداركتْهم الرحمةُ الأزليةُ فيما أجرى عليهم من توفيقِ التضرع،

---

(١) الآية (٩٧) لم ترد.

فكَشَفَ عنهم العذابَ، وصَرَفَ عنهم ما أظلَّ عليهم من العقوبة بعد ما عاينوا من تلك الأبواب؛ فبرحمته وصلوا إلى تضرعهم، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

كيف يعتصي عليه سبحانه مرادٌ ـ والذي يبقي شيءٌ عن مراده ساهٍ أو مغلوبٌ؟ والذي يستحق جلالَ العِزَّةِ لا يفوته مطلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لا يمكن حَمْل الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشيئة؛ لأنه للكافة بالإيمان، والذي هو مأمورٌ بالشيء لا يقال إنه غير مأذون فيه. ولا يجوز حملُ هذه الآية على معنى أنه لا يُؤمِنُ أحدٌ إلا إذا ألجاه الحقُّ إلى الإيمان واضطره ـ لأنَّ موجِبَ ذلك ألا يكون أحدٌ في العَالَم مؤمناً بالاختيار، وذلك خطأ، فدلَّ على أنه أراد به إلا أنْ يشاءَ اللَّهُ أنْ يُؤمِنَ هو طوعاً. ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمِن طوعاً ثم لا يؤمِن؛ لأنه يُبْطِلُ فائدةَ الآية، فَصَحَّ قولُ أهل السُّنَّة بأنَّ ما شاءَ اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

الأدلة ـ وإنْ كانت ظاهرة ـ فما تغْنِي إذا كانت البصائرُ مسدودةً، كما أن الشموسَ ـ وإن كانت طالعة ـ فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وما انتفَاعُ أخي الدنيا بمقلته ... إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

تَمَنِّي ألطافِ أنوارِ الحقيقةِ تَعَنٍّ في تسويل، واستنادٌ إلى غير تحصيل، وتمادٍ في تضليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ ها هنا معناها «منّا»، فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً، فيجب الشيءُ من الله ـ لصدقه ـ ولا يجب عليه ـ لِعِزَّتِه.

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنَجِّي الرسلَ والمؤمنين جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن كنتم في غطاء الرَّيْبِ فأنا في ضياءٍ مِنَ الغيبِ، إنْ كنتم في ظلمة الجهل فأنا في شموس الوَصْلِ، إن كنتم في سدفة الضَّلالة فأنا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة.

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق: فأنتم وقعتم في وهدة العِوَجِ، وأنَا ثابِتٌ على سَوَاء النَّهَجِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي أَخْلِصَ قلبَك للدِّين، وجَرِّدْ قلبَكَ عن إثبات كلِّ ما لَحِقَه قهرُ التكوين، وكنْ مائلاً عن الزيغ والبِدع، داخِلاً في جُمْلَةِ مَنْ أخلص في الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

لا تعبدْ ما لا تنفعكَ عِبَادتُه ولا تَضُرُّك عبادتُه، وتلك صفة كل ما يعبَد من دون الله. واستعانة الخلق بالخَلْق تمحيقٌ للوقتِ بلا طائلٍ؛ فَمَنْ لا يَملِكُ لنَفسه ضَرّاً ولا نَفعَاً كيف يستعين به مَنْ هو في مثل حاله؟ وإذا انضاف الضعيفُ إلى الضعيف ازدادَ الضعفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كما تفرَّد بإبداع الضُرِّ واختراعه فلا شريكَ يُعَضِّدُه.. كذلك توحَّدَ بكشف الضرِّ وصَرْفِه فَلا نصيرَ يُنجِدُه.

ويقال هوَّنَ على المؤمِنِ الضُرَّ بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ حيث أضافه إلى نفسه، والحنظلُ يُسْتَلَذُّ مِنْ كفِّ مَنْ تحبه.

وفَرَّقَ بين الضُرِّ والخير بإضافة الضرِّ إليه فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولم يقل: وإنْ يُرِدْكَ بضرٍ ـ وإنْ كان ذلك الضرُّ صادراً عن إرادته ـ وفي ذلك من حيث اللفظ دِقَّة.

ويقال: عَذُبَ الضرّ حيث كان نفعه؛ فلمَّا أوجب مقاساة الضُرِّ من الحرَبَ أبدل مكانَه السرورَ والطَّرَب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

مَنْ استبصر رَبِحَ رُشْدَ نفسِه، ومَنْ ضلَّ فقد زاغ عن قَصْدِه؛ فهذا بلاءٌ اكتسب، وذلك ضياء وشِفاء اجتلب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قِفْ عند جريان أحكامنا، وانسلِخْ عن مرادِك بالكلية، ليُجْرِيَ عليك ما يريد، والله أعلم بالصواب.

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقولِ قوم فَبَصَّرَتْها، وعلى قلوب آخرين فَجَّرِدَتْها، فالتي بَصَّرَتْها فبنور برهانه، والتي جَرَّدتها فبقهر سلطانه.. فعالِمٌ سَلَكَ سبيلَ بحثه واستدلاله فَسَكَنَ لمَّا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصاله فطاح لمَّا لاحت لَمعَةٌ ممن تقدَّس بالإعلام باستحقاق جلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية.

واللام إشارة إلى لُطْفِه بأهل التوحيد.

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البَرِيَّةِ.

وهي في معنى القَسَم: أي أقسم بانفرادي بالربوبية ولطفي بمن عَرَفَني بالأحدية، ورحمتي على كافة البرية ـ إنَّ هذا الكتابَ أُحْكِمَتْ آياتُه.

ومعنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي حُفِظَتْ عن التبديل والتغيير، ثم فُصِّلَتْ ببيان نعوتِ الحقّ فيما يتصف به من جلال الصمدية، وتعبَّد به الخَلْقُ من أحكام العبودية، ثم ما لاح لقلوب الموحِّدين والمحبين من لطائف القربة، في عاجِلِهم البُشْرى بما وَعَدَهم به من عزيز لقائه في آجِلهم، وخصائصهم التي امتازوا بها عَمَّنْ سواهَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي فصلَتْ آياتُه بألا تعبدوا إلا الله.

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه «نذيرٌ» مبينٌ بالفرقة، «وبشيرٌ» بدوام الوصلة، (فالفرقة بل في عاجله واحداً).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

استغفروا رَبَّكم أولاً ثم توبوا إليه بعده.

والاستغفار طلب المغفرة، يعني قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النَّظرة،

وحَمْل الرجاء والثقة بأنه لا يُخَلّد العاصِيَ في النار، فلا محالةَ يُخْرِجُه منها. . فابْتَدِئوا باستغفاركمْ، ثم توبوا بِتَرْكِ أوزاركم، والتَنَقّي عن إصراركم.

ويقال استغفروا في الحال مما سلف، ثم إنْ ألْمَمْتُم بزلَّةٍ أخرى فتوبوا.

ويقال استغفروا في الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة ـ إلى مآلِكم ـ مما أسلفتم من قبيح أعمالكم.

ويقال ﴿ٱسْتَغْفِرُوا﴾: الاستغفار هو التوبة، والتنقي من جميع الذنوب، ثم «توبوا» منْ تَوَهُّم أنكم تُجَابُون بتوبتكم، بل اعلموا أنه يُجِيبكم بِكَرَمِه لا بأعمالكم.

ويقال «الاستغفار»: طَلَبُ حظوظكم مِنْ عَفونا. . فإذا فعلْتُم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب، وارجعوا إلينا، واكتفوا بنا، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي نُعَيِّشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً.

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص.

ويقال هو القناعة بالموجود.

ويقال هو ألا يخرجَه إلى مخلوق، ولا يجعل لأحد عليه مِنَّةً لا سيما للئيم.

ويقال هو أن يوفقه لاصطناع المعروف إلى المستحقين.

ويقال هو أن تُقْضَى على يديه حوائج الناس.

ويقال هو ألا يُلِمَّ في حال شبابه بِزَلَّةٍ، وألا يتصفَ بأنه عن الله في غفلة.

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجري عليه من نَوْعَي العسر واليسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

مَنْ زادتْ حسناتُه على سيئاتِه أعطاه جزاءَ ما فَضَلَ له من الطاعات، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات. . . هذا بيان التفسير.

ويقال مَنْ فَضَّلَه بحسن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه ويزيده. .

ويقال هو أن يستر عليه فضلَه حتى لا يلاحظ حالَه ومقامه، بل ينظر إلى نفسه، وما منه ومَا لَه. . بِعَيْن الاستحقار والاستصغار.

ويقال هو أن يرقيه عن التعريج في أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية، ويُنقيّه عن (. . . . .)[1] البشرية، والتكدر بما يبدو من مفاجآت التقدير.

(١) بياض في الأصل.

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجري في الوقت.

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه هِمَّتُه، ويُبَلِّغَه فوق ما يستوجبه محلّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله، وتنتفي الظنونُ، ويحصل اليأسُ مِنْ غير الله بكل وجه، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار، والحقُّ يُجْرِي عليه ما سَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي يسترون ما تنطوي عليه عقائدهم، ويُضْمِرون للرسول ـ عليه السلام ـ وللمؤمنين خِلافَ ما يُظْهِرون، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُطَّلِعٌ على قلوبهم، ويعلم خفايا صدورِهم، فتلبيسُهم لا يُغْني عنهم من الله شيئاً، وكان الله ـ سبحانه ـ يُطْلِعُ رسولَه ـ عليه السلام ـ على ما أَخْفَوْه إمَّا بتعريفِ الوحي، أو بإشهادٍ لِقُوَّةِ نورٍ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراسة، فكل مؤمن له بِقَدْرِ حاله من الله هداية، قال ﷺ: «اتقوا فراسةَ المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»[1] ولقد قال قائلهم.

أَبِعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِفُؤَادي؟ ... كلُّ ما في الفؤاد للعين بادِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

أراح القلوبَ من حيرة التقسيم، والأفكارَ من نَصَبِ التفكير في باب الرزق حيث قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فَسَكَنَتْ القلوبُ لمَّا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرزقَ على الله.

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ في غَلَطٍ من حسبانه. ثم إن اللَّهَ سبحانه بيَّن أَنَّ الرزقَ الذي «عليه» ما حالُه فقال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وما كان في السماءِ لا يوجد في السوق، ولا في التَّطواف في الغرب والشرق.

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته.

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٤، ٦/ ١١٨)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١)، (البغوي ١٤/ ٣١)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤، ٧/ ٢٥٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠) وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/ ١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

ويقال للنفوسِ رزقٌ هو غذاءُ طريقُه الخَلقُ، وللقلوب رزق وهو ضياءٌ مُوجِدُهُ الحق.

ويقال لم يقل ما يشتهيه أو مقدار ما يكفيه بل هو موكولٌ إلى مشيئته؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه ومِنْ مُقَتَّرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قيل أراد به به أصلابَ الآباءِ وأرحامَ الأمهات، أو الدنيا والآخرة. ويقال مُسْتَقَرُّ المريدِ ببابِ شيخِه كمستقرِّ الصبيِّ بباب والديه. ويقال مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المَشَاهد، فالمساجِدُ مستقرُّ نفوسِ العابدين، والمشاهِدُ مُسْتَقَرُّ قلوب العارفين.

ويقال مستقرُّ المحب رأسُ سِكَّةِ محبوبِه لعلَّه يشهده عند عبوره.

ويقال المساجِدُ للعابدين مستقرُّ القَدَم، والمشاهِدُ للعارفين مستقرُّ الهِمَم، والفقراء مستقرهم سُدَّةُ الكَرَم.

ويقال الكلُّ له مثوىً ومستقر، أما الموحِّد فإنه لا مأوى له ولا مستقر ولا مثوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودَعُ التوفيق من الله، والقلوبُ مستودعُ التحقيق من قِبَلِ الله.

ويقال القلوبُ مستودعُ المعرفة؛ فالمعرفة وديعة فيها. والأرواح مستودع المحبة فالمحابُ ودائع فيها. والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وأَحْسَنُ الأعمالِ موافقةُ الأمرِ، ولم يَقُلْ أكثر عملاً.

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه.

ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً.

ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الابتلاءُ مِنْ قِبَلِه تعريفُ الملائكة حالَ من يبتليه في الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

استبعدوا النَّشْرَ لِتَقاصُرِ علومهم عن التحقُّق بكمال قدرة الحق، ولو عرفوا ذلك

لأيقنوا أن البعث ليس بمعتاصٍ في الإيجاد ولا يمستحيلٍ في التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

يقول: إنْ أَمْهَلْنَا، وأخَرَّنا عليهم العذابَ لا يَرْعَوُون، بل يستعجلون العقوبة. ولئن عَجَّلْنا لهم العقوبةَ لا يتوبون ولا يستغفرون... استولى عليهم الجهلُ في الحالَيْن، وعَمِيَتْ بصائرُهم عن شهودِ التقدير والإيمان بالغيب في النوعين. ويوم يأتيهم العذابُ فلا مناصَ ولا منجاةَ ولا مراحَ لهم منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾.

تَكَدُّرُ ما صفا من النِّعم، وتَغيُّرُ ما أُتيح من الإحسان والمِنَن حالٌ معهودةٌ وخُطَّة عامة، فلا أحدَ إلا وله منها خِطَّه[1] فَمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه، ولم يتضاعفْ في كل نَفَسٍ تَلَهفُّهُ وكَرْبُه ففي ديوان النسيان، وأثبت اسمه في جملة أهل الهجران. ومن استمسكَ بعروة التضرع، واعتكف بعقوة التذلل، احتسى كاساتِ الحسرة عُلَلاً بعد نهل طاعته للحق بنعت الرحمة، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوال القربة، وأطْلَعَ عليه شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل.

تَقَشَّعَ غيمُ الهجرِ عن قمر الحبِّ وأشرق نورُ الصبح في ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ في التحقيق، ولا يُعدُّ زوالُها وتكدُرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل، لكنَّ المحنة الكبرى والرزيةَ العظمى ذبولُ غصنِ الوصال؛ وتكدرُ مشرب القرب، وأفولُ شوارق الأُنْسِ، ورَمَدُ بصائر أرباب الشهود... فعند ذلك تقوم قيامتُهم، وهناك تُسْكَبُ العَبَراتُ. ويقال إذا نَعَقَ في ساحاتِ هؤلاء غرابُ البيْن ارتفع إلى السماء نُوَاحُ أسرارهم بالويل، ومن جملة ما يبثون ن نحيبهم ما قلتُ:

قولاً لِمنْ سَلَبَ الفؤادَ فراقُه ولقد عَهِدْنا أن يُباحَ عِتاقُه
بَعُدَ الفراقِ... فبالذي هو بيننا هَلَّا رحمتم مَنْ دنا إزهاقُه؟
عهدي بمن جحد الهوى أزمان كُـ ـنَّا بالصبابةِ ـ لا يَضيق نِطاقُه
والآن مُذْ بَخِلَ الزمانُ بوصلنا ضاق البسيطة حين دام فراقُه

(١) الخُطَّة: الحال والأمر والخطب، والخِطَّة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك وقد خطها لنفسه خطاً واختطها وهو أن يعلّم عليها علامة بالخط ليُعلم أنه قد احتازها ليبنيها داراً. (لسان العرب ٧/٢٨٨ ـ ٢٩٠).

هل تُرتَجى من وصلِ عِزِّك رجعةٌ تحنو على قمرٍ يدوم محاقُه؟
إن كان ذاك كما تروم فأخبِروا أنَّى له أن يعودَ شروقُه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

إذا كشفنا الضُرَّ عنهم رحمةً مِنَّا عادوا إلى تهتكهم بدلاً من أن يتقربوا إلينا، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا، وكلما أتحْنا لهم من إمهالنا أَمِنوا لمكرنا، ولم يخافوا أنْ نأخذَهم فجأة بقهرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الإنسان في الآية السابقة اسم جنس.

وإلا للاستثناء منه، وقيل بمعنى «لكن»، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك، أي لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك، فإنهم لصبرهم على ما به أُمِروا، وعما عنه زُجِروا، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزَّلات.. فلهم مغفرة وأجر، مغفرة لعصيانهم، وأجرٌ على إحسانهم. والفريقان لا يستويان، قال قائلهم.

أَحبابُنا شتَّان وافٍ وناقِصٌ ولا يستوي قطُّ مُحبٌّ وباغض

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

اقترحوا عليه أن يأتي بكتابٍ ليس فيه سَبُّ آلهتهم، وبيَّن الله ـ سبحانه ـ له ألا يتركَ تبليغ ما أُنزِل عليه لأَجْلِ كراهتهم، ولا يُبَدِّلَ ما يُوحَى إليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وهذا على وجه الاستبعاد؛ أي لا يكون منك تركُ ما أُوحِيَ إليك، ولا يضيق صَدرُك بما يبدو من الغيب.. ومَنْ شرح الله بالتوحيد صدرَه، ونوَّر بشهود التقدير سِرَّه ـ متى يلحقه ضيقُ صدرٍ أو استكراهُ أمرٍ؟ ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: أي أنت بالإرسالِ منصوبٌ، وأحكامُ التقدير عليكَ مُجْرَاةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

في الآية بيانُ أنَّ المكلَّفَ مُزَاحُ العِلَّةِ لِمَا أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهِّلَ له من

التحقيق. وأنَّ الإيمانَ بالواسطة ـ صلى الله عليه وسلم وآله ـ واجبٌ لِما خُصَّ به من المعجزات التي أوضحها الكتابُ المُنَزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذي عجز الكفار عن معارضته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يعني فإن لم يستجيبوا لكم يعني إلى الإتيان بمثله ـ وهم أهل بلاغة ـ فتحققوا أنه من قِبَلِ الله، وليس على سنة التحقيق (. . . . .)[1] إنما العمى في بصائر من ضلُّوا عن الحقّ، وتاهوا في سدفة الحيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

مَنْ قَنَع منهم بدنيا الدناءةُ صِفَتُها وَسَّعْنَا عليه في الاستمتاع بأيام فيها، ولكن عَقِبَ اكتمالِها سيرى زوالَها، ويذوق بعد عسلِها حَنْظَلَها.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهم، وظهرت لهم ـ بخلاف ما احتسبوا ـ آلامُهم، حَبِطَتْ أعمالُهم، وحاق بهم سوء حالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فيه إضمار ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . لا يستويان.

والبيِّنةُ لأقوامٍ برهانُ العِلْم، ولآخرين بيانُ الأمر بالقطع والجزم؛ يُشهِدِهم الحقُّ ما لا يطلع عليه غيرُهم، كما قلت:

ليلى من وجهك شمس الضحا ... (...............................)[1]

فالناس في الظلمة من ليلهم ... ونحن من وجهك في الضوء والشاهد

فالذي يتولاه فهو مشاهِدٌ، وفي الخبر «أولياءُ الله الذين إذا أرادوا ذكر الله . . . .»[2]

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١٧٣٣).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً، واستوجب المقت، وعقوبته ألَّا يُرْزَق بركةً في أحواله، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبَه، فيفضحه بين الخلق، والشهداءُ قلوبُ الأولياء، ومَنْ شهدت القلوبُ عليه بالردِّ فهو غيرُ مقبولٍ عند الحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب، ومِنْ صدِّهم عن السبيل أن يُظهِروا من أنفسهم أحوالاً تُخِلُّ بأحكام الشريعة، ولا يَرَوْن ذلك كبيرةً في الطريقة، ويُوهِمون المُسْتَضْعفين من أهل الاعتراض عليهم أنَّ لهم في ذلك رخصة، فَيضِلُّون ويُضِلُّون. ومن جملة صدِّهم عن السبيل تغريرهم بالناس، وإيقاعهم في الغَلَطِ، ويرتفقون بشيءٍ مما في أيديهم من حطام الدنيا، ولا يَسْتَحُون منْ أَخْذِ شيءٍ لا يستوجبونه بأي وجه حقٍّ، ويُدَاهِنُون في دين الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية.

مَنْ هذه[1] صفتهم لا يربحون في تجارتهم، ولا يلحقون غايةَ طلبوها؛ فيبقون عن الحق، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخَلق. خَسِرتْ صفْقتُهُمْ، وبَارَتْ بضاعتُهم، لَقُوا الهوان، وذاقوا اليأس والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

لا محالةَ أنهم في الآخرة أشدُّ خسراناً، وأوفر ـ من الخيرات ـ نقصاناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ﴾.

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ... وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ...﴾ الآية.

مثلُ الكافر في كفره كالأعمى والأصم، ومَثَلُ المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير ـ هذا بيان التفسير.

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّه، والأصمُّ الذي طَرِش بسَمْع

---

(١) الآية (٢١) لم ترد.

قلبه؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سر تقديره في أفعاله، ولا بنور فراسةٍ توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه، ولا بسَمْع القبولِ استجابَ لدواعي الشريعة، ولا بِحُكْم الإنصاف انْقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسرِّه من تلويحات الحقيقة.

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، والغائبات له حضور، والمستورات له كشف. فالذي يسمع فَصِفَتُه ألا يسمعَ هواجسَ النَّفس ولا وساوس الشيطان؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً، ثم من خواطر التعريف قدراً، ثم يكاشف بخطاب من الحق سِرًّا[1].

فهؤلاء لا يستويان، ولا في طريق يلتقيان:

راحَتْ مُشَرِّقَةً ورُحْتُ مُغَرِّباً فمتى التقاءُ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

كان نوحٌ عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمْراً وأشدَّهم بلاءً، وسمي نوحاً لكثرة نَوْحِه على نَفْسِه.. وسببُ ذلك أنه مرَّ بكلبٍ فقال: ما أقبحه! فأوحى الله إليه أَنْ اخلقْ أنت أَحْسَنَ من هذا. فأخذ يبكي وينوح على نفسه كلَّ ذلك النَّوْح. فكيف بحالِ مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره في مدة تكليفه ـ ولم يحصل منه لله كثير من ولاية!؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

أنكروا صحة كوْنِه نبيًّا لمشاكلته إياهم في الصورة، ولم يعلموا أن المباينة بالسريرة لا بالصورة.

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾: نظروا إلى أتباعه نَظْرَةَ استصغارٍ، ونَسَبُوهم إلى قِلَّةِ التحصيل.. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَّطَ اللَّهُ عليه، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِه، فبالمعاني يحصل الامتيازُ لا بالمباني:

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

---

(١) انظر الرسالة القشيرية عن حديث القشيري عن السماع ص٣٣٥.

فإن أكُ في شِراركم قليلاً فإني في خِيارِكم كثير

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

الصُبحُ لا خَلَلَ في ضيائه لِكَوْن الناظرين عمياناً، والسيفُ لا خَلَلَ في مَضَائِه لِكَوْنِ الضاربين صبياناً. . . وكيف لِبَشَرٍ من قدرةٍ على هداية مَنْ أَضَلَّه اللَّهُ ـ ولو كان نبيًّا؟

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُصْحٌ، ولا ينجح في المُصِرِّ وعظٌ!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

سُنَّة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ألا يطلبوا على رسالتهم أجراً، وألّا يُؤَمِّلُوا لأنفسهم عند الخَلق قَدْراً، عَمَلُهُم لله لا يطلبون شيئاً من غير الله. فَمَنْ سَلَكَ من العلماء سبيلَهم حُشِرَ في زمرتهم، ومَنْ أَخَذَ على صلاحِه مِنْ أحدٍ عِوَضاً، أو اكتسب بسداده جاهاً لم يَرَ من الله إلا هواناً وصَغَاراً،

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

مجالسةُ الفقراءِ اليومَ ـ وهم جُلَساءُ الحقِّ غداً ـ أجدى من مجالسة قومٍ من الأغنياء هم من أهل الردِّ.

ومَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَه الله وأدناه استوجب الخِزْيَ في دنياه، والصَّغَارَ في عقباه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

لا أتخطَّى خَطِّي عما أبلغت مما حملتُ من رسالتي، ولا أتعدَّى ما كُلِّفْتُ به، ولا أزيد عما أُمِرْتُ، ولن أخرجَ عن الذي أنبأوني، بل أنتصب بشاهدي فيما أقاموني.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إن أولياء الله سبحانه في أثوابهم ولا يراهم إلا من قارَبَهُم في معناهم. اللَّهُ أعلمُ بأحوالهم، وفي الجملة: طيرُ السماءِ على أُلّافها تقع.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أوضح لهم من البراهين مالوا أنعموا النظر فيه لتمَّ لهم اليقين، ولكنهم أصروا

على الجحود، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

أقَرَّ بالعبودية، وتَبَرَّأ عن الحول والقوة، وأحال الأسرَ على المشيئة. ولقد أنصف مَنْ لم يُجَاوِزْ حَدَّه في الدعوى. والأنبياء عليهم السلام ـ وإن كانوا أصحاب التحدي للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ لم يُساعده تعريفُ الحقّ ـ بما له بحكم العناية ـ لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ في النهاية.

ويقال مَنْ لم يُوَصِّلْه الحقُّ للوصال في آزاله لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ في حاله.

ويقال مَنْ سَبَقَ الحُكْمُ له بالضلالة أنَّى ينفعه النصحُ وبَسْطُ الدلالة؟

ويقال من لم تساعدْه قسمةُ السوابق لم ينفعه نُصْحُ الخلائق.

قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: من المحال اجتماع الهداية والغواية؛ فإذا أراد اللَّهُ بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية.

ثم بيَّن المعنى في ذلك بأن قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ لِيَعْلَم العالِمون أنَّ الربَّ تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

ومهما وصفتموني فإني أُجِيبُ اللَّهَ.. وكُلٌّ مُطالَبٌ بفعله دون فِعْلِ صاحبِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

عرَّفه الحقُّ أنَّه غنيٌّ عن إيمانهم، فكَشَفَ له أحكامَهم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قد سبق الحكمُ بشقائهم، فعند ذلك دعا عليهم نوحٌ ـ عليه السلام ـ بالإهلاك.

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للمطمع في إيمانهم مساغٌ، فلما حَصَل العكسُ نطق بالتماس هلاكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

أي قُمْ ـ بشرط العبودية ـ بصنع السفينة بأمرنا، وتحقق بشهودنا، وأنَّك بمرأى

منا. ومَنْ عَلِمَ اطلاعه عليه لم يلاحِظْ نَفْسَه ولا غيرَه، لا سيما وقد تحقق بأنَّ المُجْرِي هو سبحانه.

وقال له: راعِ حَدَّ الأَدَبِ، فما لم يكن لك إذْنٌ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطِبْنا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بالغَرَقِ ـ وأمواج بحر التقدير تتلاطم ـ فكلٌّ في بحار القدرة مُغْرَقُون إلا من أهَّلَه الحقُّ بِحُكْمِه فَحَمَلَه في سفينة العناية.

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغَرْقَى في بحار القَطْرة، ومِنْ قبلُ كانوا غرقى في بحار القدرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

لما تَحقَّقَ بما أمر اللَّهُ به لم يأبَه عند إمضاءِ ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشاهِد له قبلَ الوجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

لا طاعةَ لمخلوقٍ في مقاساة تقديره ـ سبحانه ـ إلا من تحمل عنه بفضله ما يحمله بحُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

طال انتظارُهم لِمَا كان يَتَوَعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد، ولم يَزِدْهُم تطاولُ الأيامِ إلا كفراً، وصَمَّمُوا على عقد تكذيبهم.

ثم لمَّا أتاهم الموعودُ إياهم بغتةً، وظهر من الوضع الذي لم يُحِبُّوه فآرَ الماءُ من التنور المسجور(١)، وجادت السماءُ بالمطر المعبور.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: استبقاءً للتناسل.

ويقال: قد يؤتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِه؛ فإن إبليسَ جاء إلى نوحٍ ـ عليه السلام ـ.

وقال: احْمِلني في السفينة فأبَى نوحٌ عليه السلام، فقال له إبليس: أمَا عَلِمْتَ أني من المُنْظَرين إلى يومٍ معلوم، ولا مكانَ لي اليومَ إلا في سفينتك؟

فأوحى الله إلى نوح أن يَحْمِلَه معه.

---

(١) التَّنُّور: ضرب من الكوانين يُخبز فيه، أعلاه أضيق من أسفله (اللسان ٤/ ٩٥) المسجور: المملوء (اللسان ٤/ ٣٤٥).

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان، وأُمِرَ بِحَمْل إبليس وهو أصعب الأعداء! وفي هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخَلْق؛ كأنه قيل له: يا نوح. . ابنك لا تحمله، وعدوك فَأَدْخُلْه، فالله سبحانه فعّالٌ لما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالشقاوة. وفيه تعريف بأن حُكْمَ الأزَل لا يُرَدُّ، والحقُّ ـ سبحانه ـ لا يُنَازَعُ، والجبَّارُ لا يُخَاصَمُ، وأن مَنْ أقصاه ربُّه لم يُدْنِه تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وَعْظ.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولكن بَارَكَ الحقُّ ـ سبحانه ـ في الذين نجَّاهم من نَسْلِه، ولم يدخل خَللٌ في الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أَهْلَك مِنْ قومه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عَرَفَ أَنَّ نجاتَه من القَطْرةِ لمَّا تقَاطرَتْ ليست بالحِيَلِ ـ وإنْ تَنوّعَتْ وكَثُرَتْ، فباسم اللَّهِ سلامتُه، وبتوكلِه على الله نجاتُه وراحتُه، وبتفضله ـ سبحانه ـ صلاحُه وعافيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وكان في معزل بظاهره، وكان في سرِّ تقديره أيضاً بمعزلٍ عما سبق لنوح وقومه من سابق فضله. فحينما نطق بِلسانِ الشفقةِ وقال: ﴿يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ـ لم يقل له: ولا تكن من الكافرين؛ لأن حالته كانت مُلْتبِسةً على نوح إذ كان ابنُه ينافقه ـ فقيل لهُ: يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنا من الكافرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

أَخْطأَ مِنْ وجهين: رأى الهلاكَ من الماءِ وكان مِنَ اللَّهِ، ورأى النجاةَ والعِصمةَ من الجبلِ وهما من الله، فقال له نوح: لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله. قيل أراد لا معصومَ اليوم من الله. وقيل لا أحدَ يَعْصِم أحداً من أمر الله، لكنْ مَنْ رَحِمَه ربُّه فهو معصومٌ من ذلك، وله عاصمٌ وهو الله.

ولقد كان نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواجُ الماءِ وحالَتْ بينهما وصار من المُغْرَقِين، فلا وعظُه ونُصْحُه نفعاه، ولا قولُه وتذكيره نَجَّيَاه وخَلصَّاه.

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح عَرَّفْنَا العَالَم بدعائك ولا عليكَ إنْ عَرَفَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلما غَرِقَ ابنُ نوح سَكَنَ الموجُ ونضَبَ الماءُ وأقلعت السماء، وكأنه كان المقصودُ من الطوفانِ أَنْ يَغرِقَ ابنُ نوح ـ عليه السلام ـ وقيل:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدهرُ بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

خَاطَبَ الحقَّ ـ سبحانه ـ في باب ابنِهِ، واستعطفَ في السؤال فقال:

و﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾: فقال له: إنَّه ليست مِنْ أهل الوصلة قِسْمَتُه ـ وإنْ كان من أَهلِكَ نَسَباً ولُحمَةً، وإنَّ خطابَك في بابه عملٌ غيرُ صالح، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ صالح.

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾: أي سَتَرْتُ غيبي في حال أوليائي وأعدائي، فلا يُعْلَمُ سِرُّ تقديري.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾: وذلك لحُرْمةِ شيخوخته وكِبَرِه، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في وَلَدِه، فتَدارَكَ بِحُسْنِ الخطابِ قَلْبَه.

وقيل إن ابنَ نوح بَنَي من الزجاج بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة، فلما ركب نوحٌ السفينةَ دَخَلَ ابنُه في البيتِ الذي اتخذه من الزجاج، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البوْلَ حتى لمتلأ بيْتُ الزجاج من بَوْلِه؛ فَغَرِق الكلُّ في ماء البحر، وغرق ابنُ نوحٍ في بَوْلِه! ليُعْلَمَ أنه لا مفرَّ مِنَ القَدَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

نَسِيَ نوحٌ ـ عليه السلام ـ حديثَ ابنه في حديث نفسه، فاستعاذ بفضله واستجار بلطفه، فوجد السلامةَ من ربِّه في قوله جل ذكره:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

طَهَّرَ وجهَ الأرضِ من أعدائه، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلائه، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه.

والأممُ التي أخبر أنه سَيُمَتِّعُهم ثم يَمَسُّهم العذابُ هم الذين ليسوا من أهل السعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أعلمناكَ بهذه الجملة، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلَّمه من شخص، أو من قراءةِ كتاب؛ فإنْ قابَلَكَ قومك بالتكذيب فاصبِرْ، فَعَنْ قريبٍ تنقلب هذه الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

كَلَّفَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالذهاب إلى الخَلْق لا سيما وقد عاينوا ـ بالحق ـ مَنْ تَقَدَّمَهُم من فترة الملأ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أَمَرهُم الحقُّ بالتوجُّهِ إليهم فَرَضُوا، وأظهروا الدلالةَ، وأَدَّوْا الرسالةَ، ولكن ما زادَ الناسُ إلا نفرةً على نفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إِلَّا وأَخْبَرَ أنه ليس له أنْ يطلبَ في الجملة أجراً إِلَّا من اللَّهِ لا من غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار، مِنْ توهمكم أن نجاتَكم باستغفارِكم. بل تَحققُوا بأنكم لا تجدون نجاتَكم إلا بفضلِ ربِّكم؛ فَبِفَضْلِه وبتوفيقه توصَّلْتُم إلى استغفاركم لا باستغفاركم، وصلتم إلى نجاتكم، وبرحمته أهَّلَكُم إلى استغفاركم، وإِلَّا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم.

والاستغفار قَرْع باب الرزق، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه، فتح عليه أبوابَ رحمته، وَيَسَّرَ له أسبابَ نعمته.

ويقال يُنَزِّل على ظواهركم أمطارَ النِّعمة، وعلى ضمائرِكم وسرائرِكم يُنَزِّل أنواعَ المِنَّة، ويزيدكم قوة على قوة؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرِزْقِ، وقوةً تحصلون بها تحسين أصناف الخُلُقِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ما زادهم هودُ عليه السلام بَسْطا في الآية وإيضاحاً في المعجزة إلا زادهم اللّهِ تعالى عَمًى على عَمًى، ولم يرزقْهم بصيرةً ولا هديً، ولم يزيدوا في خطابِهم إلا بما دَلُّوا على فَرْطِ جهالتهم، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهابهم، وقالوا:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وكيف ظَنُّوا أنَّ آلهتَهم تَمسُّ أعداءَهم بسوءٍ وهي لا تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءَها؟ فهؤلاء الغوايةُ عليهم مُسْتَوْلية. ثم إن هوداً عليه السلام أفْصَحَ عن فضل ربّه عليه؛ وصَرَّحَ بإخلاصه وحُسْنِ يقينه فقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ثم قال:

﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

فلم يَختخ معهم إلى تضرع واستخذاء، ولا راوَدُهم في سَلم واستمهال، ولم يَتَّصِفْ في ذلك بركونٍ إلى حَوْله ومُنَّته، ولم يستند إلى جِدّه وقوّته بل قال:

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أخبر أنه بموعودِ الله له بنُصْرتِه واثق، وأنه في خلوص طاعته لربِّه وفي صفاء معرفته (غيرُ مُفارِقٍ).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أوحينا إليه أنْ قُلْ لهم: إنْ تَوَلَّوْا ولم تُؤمنوا بي فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتي، وإني واثقٌ بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوامٍ آخرين سواكم أطْوعَ له منكم، وإنْ أفناكم ما اختلَّ مُلْكُه؛ إذِ الحقُّ ـ سبحانه ـ بوجود الأغيار لا يلحقه زينٌ ـ وإنْ وَحَّدُوا، وبفقدهم لا يَمُسه شَيْنٌ ـ وإنْ جحدوا وألحدوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ولما جاء أمْرنا بإهلاكِهم نَجَّيْنا هوداً والذين آمنوا برحمتنا، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاةَ بوسيلةِ نُبُوته، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، ليَعْلَمَ الكافةُ أَنَّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومَنْ دونَهم عتيقُ رحمته، وغريقُ مِنَّتِه، لا لاستحقاقِ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله في شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

في إنزالِ قصصهم تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم وآله ـ فيما كان يقاسي من العناء، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء، والعِدَةُ بتبديل ـ ما كانوا يلقَوْنه من الشِدَّة ـ بالرجاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة، أمَّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تَبِعَه من اللَّعنة، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأبيد العقوبة. وبقاؤهم عن رحمة الله أصعبُ من صنوف كل تلك المحنة، وكما قيل:

لِمَنْ ابتغى عوضاً لِسَلْمى فَلَمْ يَجِد ... تَبَدَّلَتْ وتبدلنا واحسرتا

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

عُقَيْبَ ما مضى من قصة عادٍ ذُكرَ ثمود، وثمودهم قوم لصالح، وقد انخرطوا في الغيِّ في سِلْكِ مَنْ سَبَقَهم، فَلَحِقَتْ العقوبةُ بجميعهم. ثم أخبر أنهم قابلوا نَبِيَّهم ـ عليه السلام ـ بالتكذيب، ولم يقفوا على ما نبَّهَهُم عليه من التوبة والتصديق، وأصَرُّوا على الإقرار أنهم في شأنه لفي شكٍ مريب.

ثم بيَّن أنَّ صالحاً لم يُعرِّجْ ـ في التبليغ ـ على تقصير.

وبَعْدَ تَمَرُّدِهم وامتناعهم عن الإنابةِ، وإصرارهم على تَرْكِ الإجابة حقَّ عليهم ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونجَّى نبيَّهم ـ عليه السلام ـ، ونجَّى مَنْ اتَّبعَه من كل عقوبة. سُنَّةٌ منه ـ سبحانه ـ في إنجاءِ أوليائه أمضاها، وعادةٌ في تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن

جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ بالبشارة. وأخبر أن إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ أنْكَرَهُم، ولم يَعْرِفْ أنهم ملائكةٌ. فيُحتمل أنَّه ـ سبحانه ـ أراد أن تكونَ تلك البشارة فجأةً من غير تنبيهٍ لتكونَ أَتَمَّ وأبلغَ في إيجاد السرور، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ويقال إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان صاحبَ النبوة والخُلَّة والرسالة فلا بُدَّ أن تكونَ فراستُه أعلى من فراسة كلِّ أحدٍ، ولكنه في هذه الحالة لم يَعْرِفْ الملائكةَ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد إمضاءِ حُكْم يَسُدُّ على مَنْ أرادَ عيونَ الفراسة، وإنْ كان صاحبُ الفراسة هو خليل الله، كما سَدَّ الفراسة على نبيِّنا ـ ﷺ ـ في قصة الإِفْكِ إلى الوقت الذي نزل فيه الوحيُ، وكذلك التبس على لوطٍ ـ عليه السلام ـ إلى أن تبيَّن له الأمر.

وتكلموا في هذه «البشرى» ما كانت؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق؟ أنَّه سيولد له ولد ومن نَسْله وسُلالته؛ قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

ويقال بسلامة قومه ـ حيث كانوا مُرْسَلين بإهلاك قوم لوط ـ عليه السلام.

ويقال بشارة بالخُلَّة وتمام الوصلة.

ويقال إن الخُلَّة والمحبة بناؤهما كتمان السِّرِّ؛ فَيَعْلَمَ أنهم أُرْسِلُوا بشارةٍ ما ولم يكن للغير اطلاع، قال قائلهم:

بين المحبين قولٌ لست أفهمه

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم: «سلاماً» وأن ذلك كان من الله، وأيُّ بشارة أتمُّ من سلام الحبيب؟ وأيُّ صباحٍ يكون مُفْتَتَاً بسلام الحبيب فصَبَاحٌ مباركٌ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ.

قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]: لمَّا توهمهم أضيافاً قام بحقِّ الضيافة، فقدَّم خَيْرَ ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال في موضعٍ آخر: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. والمحبةُ توجِبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما مِنْكَ للحبيب، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم السُّفرة(١) مِمَّا حضر في الوقت.

(١) السُّفرة: طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يُحمل في جلد مستدير فنقل اسم الطعام إليه وقيل: السفرة: التي يؤكل عليها سميت سفرة لأنها تبسط إذا أُكل عليها. (اللسان ٤/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يَدُه ما يُقدَّم إليه من الطعام، والامتناعُ عن أكل ما يُقدَّم إليه معدودٌ في جملة الجفاء في مذهب أهل الظَّرْف.[١] والأكل في الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي خاف أنه وقع له خَلَلٌ في حاله حيث امتنع الضِّيفانُ عن أكل طعامه؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم.

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة؛ فلمّا امتنعوا عن الأكل، وعَلِمَ أنهم ملائكةٌ خافَ أنْ يكونوا قد أُرسِلُوا لعقوبة قومه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

كانت امرأتُه قائمةً بخدمة الأضياف، فضحكت تَعَجُّباً مِنْ أَنْ يكونَ لمثلها في هذه السِّنِّ ولدٌ.

وقيل كان سرورُها السلامة. ويحتمل أنها ضحكت تعَجُّباً من امتناع الضِّيفان عن الأكل. أو تَعَجبَتْ من كوْن الملائكة في صورة البشر لَمَّا عَلِمَتْ أنهم ملائكة. ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالوَلَد وقد بُشِّرتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب، ثم أفصَحَتْ عما ينطوي عليه قلبُها من التعجب فقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾!

فأحال الملائكة خَلْقَ الوَلَدِ على التقدير: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟ فزال موضِعُ التعجب، وقالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فبقي الدعاء في شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعي: كما صَلّيْتَ وباركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

والبركة الزيادة؛ فقد اتصل النَّسْلُ من الخليل، وبنو إسرائيل منهم ـ وهم خَلْقٌ كثير، والعرب من أولاد إسماعيل ـ وهم الجَمُّ الغفير[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوطٍ بحقِّ الله لا لحظِّ نَفْسِه سَلِمَ له الجِدال، وهذا يدلُّ على علوِّ شأنه حيث تجاوزَ عنه ذلك.

---

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. فالظرف في اللسان البلاغة، وفي الوجه الحَسن، وفي القلب الذكاء. (لسان العرب ٩/٢٢٨ ـ ٢٢٩ مادة: ظرف).

(٢) الجمّ الغفير: الجمع الكثير (ج) جمام وجموم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

والإشارة فيه أنه كان يقَابِل ما وَرَدَ على ماله ونفسِه وولده بالاحتمال، ولمَّا كان حقُّ الحقِّ في حديثِ قومِ لوط أخَذَ في الجِدالِ إلى أن أبَانَ له سلامةَ لوط ـ عليه السلام ـ وقال الله سبحانه: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا فإنَّ الحُكْمَ بعذابِهم قد نَزَل، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْريَ عليهم من قومه ما لا يجوز في دِين الله؛ فذلك الحزنُ كان لحقِّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساةَ الحزنِ لحقِّ الله محمودةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

قوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: قيل إنه أراد به نساء أمته، فنبيُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة.

ويقال إنه أراد بناتِه منْ صُلْبِه.

«أليس منكم رجل رشيد» يرتدي جلبابَ[1] الحشمة، ويؤثِر حقَّ الله على ما هو مقتضى البشرية، ويرعى حق الضيافة، ويترك معصية الله؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

أصرُّوا على عصيانهم، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً، وهذه صفة البهائم؛ لا يَرْدَعُها عقلٌ، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

لو أن لي قوةً فأمنعكم عن ارتكابِ المعصية؛ فإنَّ أهمَّ الأشياء على الأولياء ألا يَجْريَ من العصاةِ ما ليس الله فيه لا رضاء.

---

(١) الجلباب: القميص أو الثوب المشتمل على الجسد كله.

ويقال: لو كان لي قدرةٌ لإيصال الرحمةِ إليكم ـ مع ارتكابكم المعاصي ـ لَرَحِمْتُكم وتجاوزتُ عنكم.

ويقال لو أنَّ لي قوةً لهَدَيْتُكم إلى الدِّين، ولَعَصَمْتُكم عن ارتكاب المخالفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾.

لمَّا ضَاقَ به الأمْر كَشَفَ اللَّهُ عنه الضُرَّ فَعَرَّفَ إليه الملائكةُ وقالوا: لا عليكَ فإنهم لا يصلون إليكَ بسوءٍ، وإنَّا رُسُلُ ربك جئنا لإهلاكهم، فاخرُجْ أنت وقومُكَ من بينهم، واعلمْ أنَّ مَنْ شَارَكَهم في عملهم بنوعٍ فَلَهُ مِنْ العذابِ حِصَّة. ومن جملتهم امرأتك التي كانت تدل القوم على المَلَكِ لفعلة الفاحشة، وإن العقوبة لاحقةٌ بها، مُدْرِكَة لها.

والإشارة منه أن الجسارةَ على الزَّلّةِ وخيمةُ العاقبةِ ـ ولو بعد حين، ولا ينفع المرءَ اتصالُه بالأنبياء والأولياءِ إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

ما هو كائِنٌ فقريبٌ، والبعيدُ ما لا يكون. وإنَّ مَنْ أقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ عليه ـ ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية ـ تصور له الحال كأنه وقتُ مُباشَرَتِه لتلك الزَّلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾.

سُنَّةُ الله في عباده قلبُ الأحوال عليهم، والانقلابُ مِنْ سِمَاتِ الحدوث، أمّا الذي لا يزول ولا يحولُ فهو الذي لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية.

وإنَّ مَنْ عاش في السرور دهراً ثم تبدل يُسْرُه عُسْراً فَكَمَنْ لم يَرَ قطُّ خيراً، والذي قاسَى طولَ عمره ثم أُعْطِي يُسْراً فكمن لم يَرَ عُسْراً.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبةَ لاحقةٌ بمن سَلَكَ سبيلَهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقَهم، كما قيل:

ومَنْ يَرَني ولم يعتبر بَعْدِي   فإنَّ لكلِّ معصيةٍ عقابا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أخبر سبحانه عن قصتهم، وما أصابهم من العذاب الأليم، وما نالهم من البلاء العظيم.

وفي الظاهر لهم كانت أجرامُهم كاليسيرة، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة، ولا يقولون إنها كبيرة، وإن ذلك تطفيف في المكيال.

وليس قَدْرُ الأَجرام لأعيانها، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظُمَ شأنُها، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ولما أن قال لهم شعيب:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

يعني القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُعْقِبِ للوَبالِ لم يقابلوا نصيحَته لهم إلا بالعِناد والتمادي فيما هو دائمٌ من الجحد[١] والكنود[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

استوطؤوا مركب الجهل، واستحلبوا مشربَ التقليد، وأغفَوْا قلوبَهم من استعمال الفكرِ، واستبصارِ طريقِ الرُّشدِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

البيِّنَةُ نورٌ تَسْتَبْصِرُ به ما خَفِيَ عليك تحت غطاء الغفلة.

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية، وحُسْنُ توليه لشأنك ـ في جميع ما فيه صلاحك ـ من إتمام النعمة ودوام العصمة.

وقيل الرزق الحسنُ ما تعنّي صاحبُه لِطَلَبِه، ولم يصبْه نَصَبٌ بسببه.

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرَّزّاق.

---

(١) الجحد: قلة الخير، والجحود: الإنكار مع العلم.

(٢) الكنود كند النعمة: جحدها ولم يشكرها.

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنْسِي الرزّاق، ويحمل صاحبَه على التوسعة والإنفاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

يمكن للواعظ أو الناصح أنْ يساهِل المأمورَ في كل ما يأمره به، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه؛ فإنَّ الإتيانَ بجميع الطاعات غيرُ مُمْكن، ولكنَّ التجرُّد عن جميع المحرَّمات واجبٌ.

ويقال مَنْ لم يكنْ له حُكْمٌ على نفسه في المنع عن الهوى لم يكن له حُكْمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

مَدَارُ الأمرِ على الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح؛ فيَقْرِنُ اللّهُ به حسن التيسير، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

حقيقةُ التوفيق ما ينفق به الشيء، وفي الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة، وهو قدرة الطاعة، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعي وفنون المَنْهيات يُعدُّ من جملة التوفيق ـ على التوسُّع.

والتوفيقُ باللّهِ ومن اللّهِ، وهو ـ سبحانه ـ بإعطائه متفضِّلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

التوكل تفويض الأمر إلى الله، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير، والثقة بالموعود عند عدم الموجود. ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب.

ويقال التوكلُ السكون، والثقةُ بالمضمون.

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرَّبّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

تورثكم مُخالَفَتُكم إياي فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللّهِ أَنْ يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدَّمَكم من الذين سِرْتُم على منهاجهم، وما عهدُكم ببعيد بمن تحققتم كيف حَلَّتْ بهم العقوبة، وكيف أنهم ما زادتْهم كثرةُ النصيحةِ إلَّا غُلُوًّا في ضلالتهم، وعُتُوًّا في جهالتهم، وكما قيل.

وكمْ صُغْتُ في آثاركم من نصيحةٍ   وقد يستفيد البغضةَ المُتَنَصِّحُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

الاستغفار هو التوبة.

ومعنى قوله ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي توبوا ثم لا تُنقِضُوا توبتَكم؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة؛ فإذا لم يتصل وفاءُ المآلِ بصفاءِ الحال لم يحصل قَبُولٌ، وكأن لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ.

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: يرحم العصاةَ ويودُّهم.

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحلُوب بمعنى محلوب. والرحمةُ تكون للعاصي لأنَّ المطيعَ بوصف استحقاقه للثواب على طاعاته، ثم ليس كلُّ من يُحِبُّ السلطانَ في محلّ الأكابر، فالأصاغِرُ من الجُنْدِ قد يحبون المَلِكَ، وأنشدوا:

ألا رُبَّ مَنْ يدنو ويزعم أنه يودُّك، والنائي أودُّ وأقربُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فَحُرِمُوا فَهْمَ معاني الخطاب، وأقرُّوا على أنفسِهم بالجهل، وأحالوا إعفاءَهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته، فعاتبَهُم عليه:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أترون مِنْ حقّ رهطي[1] ما لا تَرَوْنَ من حقّ ربي؛ وإنَّ ربي يُكافئكم على أعمالكم بما تستوجبون في جميع أحوالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

أرخى لهم ستر الإمهال فلمّا أصرُّوا على تماديهم في الغواية حلَّت بهم العقوبة، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نارٍ، ولا في دِيارِ الظالمين ديَّار، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) الرَّهط: ما دون العشرة من الرجال، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته والأقربون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ﴾.

كَرَّر قصة موسى عليه السلام تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمره، وتنبيهاً على علوّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التي أرسله بها، ومعجزاته الباهرة، وبراهينه القاهرة.

ويقال أصعبُ عدوٍّ قَهَرَهُ أولا نَفْسُه، وقد دَله ـ سبحانه ـ على ذلك لمَّا قال: إلهي! كيف أطلبك؟

فقال: عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي.

فَنَبَّهَه إلى استصغارِه لنفسه، وانكساره لله بقلبه، فزادت صولتُه لما صار معصوماً عن شهود فضلٍ لنفسه؛ والسلطانُ الذي خصَّه به استولى على قلوبِ مَنْ رآه، كما قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فما رآه أحدٌ إلا أحَبَّه، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون ـ وهو رضيع ـ كما في القصة، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموت لمّا طالبه بقبض روحه.. كما في الخبر، «وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه لمّا رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية، وقتل القبطيَّ لما استعان به مَنْ وافقه في العقيدة، وقال الله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] لمَّا أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة... ففي جميع هذا تَجَاوَزَ اللَّهُ عنه لمَا أعطاه من السلطان والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

رضوا بمتابعة فرعون، فاستحقوا ما استحقه. لم يشعروا بخطئِهم، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعاً. وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤُهم ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم ـ وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بمعبوده، وأسرف في مجاوزة حدوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

بَعُدُوا في عاجلهم من الإيمان، وفي آجلهم من الغفران والجنان. والذي لهم في الحال من الفُرقة أعظمُ ـ في التحقيق ـ من الذي لهم في المآلِ من الحُرقَة، وهذه صفةُ مَنْ امتحنه اللَّهُ باللعنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

لم يكن في جملة مَنْ قصَّ عليه مِنَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مَنْ أكثر منه تبجيلا، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً، فكما تَقَدَّم على الأنبياءِ ـ عليهم السلام تقدَّمَتْ أمتُه على الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

لا يجوز الظلمُ في وصفه؛ فَتَصَرُّفُه في مُلْكه بحقّ إلهيته ـ مطلقٌ؛ يحكم بحسب إرادته ومشيئته، ولا يتوجه حقٌّ عليه، فكيف يجوز الظلمُ في وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر، ولكن في صفته لا يجوز العذر إذ الخلقُ خلقُه، والمُلْكُ مُلْكُه، والحُكْمُ حُكْمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

إنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يمهل ولكن لا يهمل، ويحكم ولكن لا يعجّل، وهو لا يُسأل عمّا يفعل.

وقيل إذا أخذ النفوسَ بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها، وإذا أخذ القلوبَ بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

مشهودٌ يشهدِه مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق في ذلك اليوم.

ويقال الأيام ثلاثة: يومٌ مفقود وهو أمسِ ليس بيدك منه شيء، ويومٌ مقصود وهو غدٌ لا تدري أتدركه أم لا، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذي أنت فيه؛ فالمفقودُ لا يرجع، والمقصود ربما لا تبلغ، والمشهود وقتك وهو مُعَرَّضٌ للزوال.. فاستغله فيما ينفع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

الأَجَلُ لا يَتَقَدَّم ولا يتأخر لكل (...)[1]، والآجالُ على ما عَلِمها الحقُّ ـ سبحانه ـ وأرادها جاريةٌ؛ فلا طلبٌ يُقَدِّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجلُه، وكذلك للوصول وقت، فلا طلب مع رجاء الوصول، ولا طلب مع خوف الزوال، ولقد قيل:

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها ... متوقِّعٌ لقواصمِ الظَّهرِ
وفضيلةُ البلوى ترقبُ أهلِها ... عَقِبَ البلاءِ ـ مَسَرَّةَ الدهرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

الشقيُّ من قُسِم له الحرمانُ في حاله، والسعيد مَنْ رُزِق الإيمان في مآله.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال الشقاء على قسمين: قومٌ شقاؤهم غير مؤيد، وقومٌ شقاؤهم على التأييد وكذلك القول في السعادة. الشقيُّ مَنْ هو في أَسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير، والسعيد مَنْ رَجعَ من ظلماتِ التدبير، وحصل على وصف شهود التقدير.

ويقال الشقيُّ من كان في رق العبودية ظانًّا أَنَّ منه طاعاته، والسعيد مَنْ تحرر عن رقِّ البشرية وعَلِمَ أن الحادثاتِ كلها لله سبحانه.

وأمَّا الأشقياء ـ على التأبيد ـ فهم أهل الخلود في مقتضى الوعيد، والسعداء ـ على التأبيد ـ من قال الله تعالى في صفتهم: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن يزيد على مُدَّةِ السموات والأرض.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن ينقلهم إلى نوعٍ آخر من العذاب غير الزفير والشهيق.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أَنْ يُدْخِلَهم النار؛ فلا استثناء لبعض أوقاتِهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبَّد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

لهم اليوم جنات القُربة، ولهم غداً جنات المثوبة. والكفار اليوم في عقوبة الفرقة، وغداً في عقوبة الحرقة.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده. أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض.

وفي قوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ـ أي عطاء غير مقطوع ـ دليلٌ على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

لا يريد أنَّه عليه السلام في شَكٍ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضاهين لآبائهم، كما تقول: لا شكَّ أنَّ هذا نهارٌ.

ويقال الخطابُ له والمرادُ به لأُمَّتِه.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: تجازيهم على الخبر بخير وعلى الشر بضُر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي، وهو التوراة.

واختلفوا في كونه رسولاً، فمِنْ مُصَدِّقٍ ومِنْ مُكذِّب.

ثم أخبر أنه ـ سبحانه ـ حَكَمَ بتأخير العقوبة، ولولا حكمته لعجَّل لهم العقوبة.

وفائدةُ الآية من هذا التعريفِ التخفيفِ على المصطفى ـ ﷺ ـ فيما كان يلقاه من قومه من التكذيب، ففي سماع قصة الأشكال ـ وبعضُهم من بعض ـ سلوة، ولقد قيل:

أجارتَنا إنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيب

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، وكرَّر ذلك في القرآن في كثير من المواضع إبلاغاً في التحذير، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير.

ثم إن الجزاءَ على الأعمال معجَّلٌ ومؤجَّل، وكلُّ مَنْ أعرض عن الغفلة وجَنَحَ إلى وصف التيقظ وَجَدَ في معاملاته ـ عاجلاً ـ الربحَ لا الخُسران، وآجلاً الزيادةَ لا النقصان، وما يجده المرءُ في نفسه أتمُّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يحتمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب؛ أي سَلْ من الله الإقامة لَكَ على الحقّ.

ويحتمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه.

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقِّها من غير إخلالٍ بها، فلا يكون في سلوك نهج الوِفاقِ انحرافٌ عنه.

ويقال المستقيمُ مَنْ لا ينصرف عن طريقه، يواصل سيره بمسراه، وورعه بتقواه ويتابع في ترك هواه.

ويقال استقامة النفوس في نفي الزَّلَّة، واستقامة القلوب في نفي الغفلة، واستقامة الأرواح بنفي العلاقة، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة.

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسَهم عن العبادة وألا يُخِلُّوا بأدائها، ويقضون عسيرَها ويسيرَها. واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها. واستقامة

التائبين ألا يُلِمُّوا بعقوة زلة فَيَدَعُونَ صغيرَها وكبيرَها. . . وعلى هذا النحو استقامة كلِّ أحدٍ. قوله ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: أي فَلْيَستَقِمْ أيضاً مَنْ معك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

لا تعملوا أعمالَهم، ولا ترضوا بأعمالِهم، ولا تمدحوهم على أعمالهم، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف لهم، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم، ولا تساكنوهم بقلوبكم، ولا تخالطوهم، ولا تعاشروهم. . . كل هذا يحتمله الأمرُ، ويدخل تحت الخطاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

أي استَغْرِقْ جميعَ الأوقاتِ بالعبادات، فإنَّ إخلالَكِ لحظةً من الزمان بفَرْضٍ تؤديه، أو نَفْلٍ تأتيه خَسْرَةٌ عظيمةٌ وخُسرَانٌ مبينٌ.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحسنات ما يجود بها الحق، والسيئات ما يذنبها العبد، فإذا دخلت حسناتُه على قبائح العبد مَحَتْها وأَبطَلَتْها.

ويقال حسناتُ القُربة تَذْهَبُ بسيئات الزَّلَّة.

ويقال حسناتُ الندم تَذْهَبُ بسيئات الجُرْم.

ويقال (انسكاب) العَبْرَة تُذْهِبُ العَثْرَة.

ويقال حسنات العرفان تُذْهِبُ سيئاتِ العصيان.

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات الإصرار.

ويقال حسناتُ العنٰاية تذهب سيئات الجناية.

ويقال حسنات العفو عن الإخوان تذْهِبُ الحقدَ عليهم.

ويقال حسنات الكَرَم تُذْهِبُ سيئاتِ الخَدَم.

ويقال حسنُ الظنِّ يُذْهِبُ سوأتهم بكم.

ويقال حسنات الفضل من الله تُذْهِبُ سيئاتِ حسبان الطاعة من أنفسكم.

ويقال حسناتُ الصدق تَذْهَبُ بسيئاتِ الإعجاب.

ويقال حسناتُ الإخلاص تَذْهَبُ بسيئاتِ الرياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الصبر تجرُّع كاساتِ التقدير من غير تعبيس.

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنُ: العاملُ الذي يعلم أنَّ الأجرَ على الصبر والطاعة بفضله ـ سبحانه ـ لا باستحقاق عملٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

معناه لم يكن فيكم مِنْ هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل.

وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم مَنْ يَنْهى عن الفساد، ويحفظ الدِّين، ويطيعون أنبياءَهم ـ إلا قليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

أي لم يُهلِكْ اللّهُ أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك مَنْ كان ظالماً.

ويقال معناه: لو أهلك الله أهلَ القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن المُلكَ مُلكُه، والخلْقَ عبيدُه.

ويقال «المصلح» مَنْ قام بحقِّ ربِّه دون طلب حظِّه.

ويقال: «المصلح» من آثر نجاته على هلاكه.

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَه طاعتُه، ومصلحٌ تصْلِحُ قلبَه معرفةُ سَيِّدِه. ومصلح تُصْلِحُ سِرَّه مشاهدةُ سيِّدِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

لو شاء لَجَعلهم أربابَ الوفاق ثم لا يوجبون لمُلْكِه زَيْناً، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلافِ ثم لا يوجِبُون لمُلْكِه شَيْنا.

ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه كذلك أراد بهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩] في سباق حكمه فعصمهم عن الخلاف في حاصل أمورهم، وأقامهم به، ونصبهم له، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي لا تبديلَ لقوله، ولا تحويلَ لحُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليْه من أنباء المرسلين، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذي رقّاه إليه، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه.

ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع، ولم يذكر قصَته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه،

وفَرْقٌ بين من يفعل بما يسمع وبين مَنْ يَستقل بِمَنْ منه يسمع، وأنشدوا:

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَنِي حَنِيناً فَزِدْنِي مِنْ حديثِكَ يا سعدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

إن الذين يجحدون التوحيد، ويؤثِرون على الحقّ غيرَ الحق، ولم يُصَدِّقوا الوعيد، يوشِكُ أَنْ يَنصَبّ عليهم الانتقامُ فيغرقون في بحار العقوبة، ويسقطون في وهاد الهوان، فلا لويلهم انتهاءٌ، ولا لِذُلِّهم انقضاءٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

عمَّى عن قلوبهم العواقبَ، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيامَ بما كَلَّفهم في الحال، فقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ فإنْ تقسَّمَ القلبُ وتَرَجَّمَ الظَنُّ وخيف سوءُ العاقبة.. فتوكَّلْ عليه أي اسْتَدْفِعْ البَلاءَ عنك بِحُسْنِ الظَّنِّ، وجميل الأمل، ودوام الرجاء.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أحاط بكل شيءٍ عِلْماً، وأمضى في كل أمرٍ حُكْماً.

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم مِنْ وَسَمَ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهرَه بالعبودية، وسرائرَه بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُه إلى المراتب العَلِيَّة، وأُزْلِفَتْ رتَبتُه من المنازل السنيَّة.

أو أن الاسم مشتق من السِّمة أو من السموّ.

وقدَّم الله ـ سبحانه ـ اسمَ اللَّهِ في هذا المحل على اسميه الرحمٰن والرحيم على وجه البيان والحكم، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية.

والإشارة من الباء ـ التي هي حرف التضمين والإلصاق ـ إلى أنَّ «به» عَرَفَ مَنْ عَرَف، و «به» وقف مَنْ وقف؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه، والواقف دونه مربوط بخذلانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنَّةُ الأحباب في سَتْر المحابِّ؛ فالقرآنُ ـ وإنْ كان المقصودُ منه الإيضاحَ والبيانَ ـ ففيه تلويح وتصريح، ومُفَصَّلٌ ومُجْمَلٌ، قال قائلهم:

أبكي إلى الشرق إنْ كانت منازِلُكم ... مما يلي الغربَ خوفَ القيل والقالِ

ويقال وقفت فهُومُ الخَلْق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه ـ ﷺ ـ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة أفرد الحبيبَ بفهمه، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب، يقول قائلهم:

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه ... قولٌ، ولا قلم للخلق يحكيه

وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة: وهي أنَّ منْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني، ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وَصْلِه؛ فأنزل اللَّهُ هذه الحروف التي لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها

بِعَدَم السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطَالَبةٌ بالفهم، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرِقين في عين الجَمْع، ولذا قيل: استراح من العقل له.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذي وعدناك.

وقيل هذا تعريفنا: إليك بالتخصيص، وإفرادُنا لك بالتقريب ـ قد حقَّقْناه لكَ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود.

والإشارة من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هنا هنا إلى حُكْمِه السابق له بأَنْ يُرَقِّيَه إلى الرتبة التي لا يبلغها غيرُه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] أي حين كلَّمنا موسى عليه السلام، وأخبرناه بعلوّ قَدْرِك، ولم تكن حاضراً، وأخبرناه بأننا نُبَلِّغُك هذا المقامَ الذي أنت فيه الآن. وكذلك كلُّ مَنْ أوحينا إليه ذَكَرْنَا له قِصَتَكَ، وشَرَحْنَا له خِلقَتك، فالآنَ وقتُ تحقيق ما أخبرنا به، وفي معناه أنشدوا:

سُقْياً لمعهدِكَ الذي لو لم يكن ... ما كان قلبي للصبابةِ معهدا

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعني بعد التوراة ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني أمة محمد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

في إنزال الكتاب عليه، وإرسالِ الرسول إليه ـ تحقيقٌ لأحكام المحبة، وتأكيدٌ لأسباب الوصلة؛ فإنَّ مَنْ عَدِمَ حقيقة الوصول استأنس بالرسول، وَمنْ بَقِيَ عن شهود الأحباب تَسَلّى بوجود الكتاب، قال قائلهم:

وكتُبُكَ حَوْلي لا تُفارقُ مضجعي ... ففيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لخلوّه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو يعرِّض لوقوع التقصير.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: ففيه ذكر الأحباب.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لأن فيه عفوَ يوسف عن جناياتِ إخوته.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لما فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: بالإضافة إلى ما سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لأنه غير مخلوق.

ويقال لمَّا أخبره الله ـ سبحانه ـ أن هذه القصةَ أحسنُ القصصِ وجد رسولُ الله ـ ﷺ ـ لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه؛ فعَلِمَ أن الله تعالى لم يُرَقِّ أحداً إلى مثل ما رقاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

أي الذاهبين عن فهم هذه القصة. أي ما كنتَ إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها، أي إنك لم تَصِلْ إلى معرفتها بكدِّك وجهدك، ولا بطلبك وجِدِّك.. بل هذه مواهبُ لا مكاسب؛ فبعطائِنا وَجَدْتَها لا بعنائك، وبِتَفَضُّلِنَا لا بتعلُّمِكَ، وبِتَلَطُّفِنا لا بتكلُّفِك، وبنا لا بك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

لما ذكر يوسف ـ عليه السلام ـ رؤياه لأبيه عَلِمَ يعقوبُ ـ عليه السلام صِدْقَ تعبيرها، ولذلك كان دائم التذكُّر ليوسف مدةَ غيبته، وحين تطاولتْ كان يَذْكُرُه حتى قالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] فهو كان على ثقةٍ من صِدْقِ رؤياه.

فإنْ قيل: فإذا كان الصبيُّ لا حُكْم لِفعلِه فكيف يكون حكم لرؤياه؟ وما الفرق؟ فيقال: إن الفعل بِتَعَمُّدٍ يحصل فيكون مُعَرَّضاً لتقصير فاعله، أمَّا الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان.

ويقال إنَّ حقَّ السِّرِّ ولو كان على مَنْ هو قريب منك؛ فإن يوسف لما أظهر سِرَّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاءُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

إذا جاء القضاءُ لا ينفع الوعظ والحذر؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام، ولكن لمَّا سبق التقديرُ في أمر يوسف ـ عليه السلام ـ حصل ما حصل.

ويقال إن يوسف خَالَفَ وصية أبيه في إظهارِ رؤياه إذ لو لم يُظْهِرْها لما كادوا له، فلا جَرَم بسبب مخالفته لأبيه ـ وإن كان صبياً صغيراً ـ لم يَعْرَ مِنَ البلايا.

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويلُه سجودَ الإخوة له رأى ما تعبيره: وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾؛ فدخل الإخوة الحَسَدَ أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لِفَرْطِ شفقة الأبوة.

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يسجد الأبُ ولا خالته حيث قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فإن يوسفَ صانَهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

أي كما أمرك بهذه الرؤيا التي أَرَاكَها يجتبيك ويُحْسِنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا، وكما أكرمك بوعد النعمة أكرمك بتحقيقها.

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر، فما يحصل للعبد من الخيرات ـ لا بتكلفه ولا بتعمده ـ فهو قضية الاجتباء.

ويقال من الاجتباء المذكور أَنْ عَصَمَه عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه.

ويقال من قضية الاجتباء إسباله الستر على فعل إخوته حيث قال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يذكر خلاصَه من البئر ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: ٩٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

أي لتعرِفَ قَدْرَ كلِّ أحد، وتقفَ على مقدار كلِّ قائلٍ بما تسمع من حديثه.. لا مِنْ قوله بل لِحدَّةِ كياستك وفَرْطِ فراستك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

مِنْ إتمامِ النعمة توفيقُ الشكرِ على النعمة، ومن إتمام النعمة صَوْنُها عن السَّلبِ والتغيير، ومن إتمام النعمة التَّحرز[1] منها حتى تَسْهُلَ عليكَ السماحةُ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

يعني لكلِّ ذي مِحنة حتى يعلم كيف يصبر، ولكلِّ ذي نعمة حتى يعلم كيف يشكر.

ويقال في قصتهم كيفية العفو عن الزَلَّة، وكيفية الخَجْلَةِ لأهل الجفاءِ عند اللقاء.

ويقال في قصتهم دلالاتُ لطفِ الله سبحانه بأوليائه بالعصمة، وآياتٌ على أنَّ المحبة (...)[2] من المحنة.

ويقال فيها آياتٌ على أَنَّ من صَدَقَ في رجائه يُخْتَصُّ ـ يوماً ـ ببلائه.

---

(١) تحرّز منه: توقاه.

(٢) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

عُرِّفُوا على ما سَتَرُوه من الحَسَدِ، ولم يحتالوا في إخراج ذلك من قلوبهم بالوقيعة في أبيهم حتى قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ويقال لما اعترضوا بقلوبهم على أبيهم في تقديم يوسف في المحبة عاقبهم بأن أمهلهم حتى بسطوا في أبيهم لسانَ الوقيعة فوصفوه بلفظ الضلال، وإن كان المرادُ منه الذهابَ في حديث يوسف عليه السلام، ولمّا حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ ـ سبحانه ـ حتى أَقَامَهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخرُّوا له سُجَّداً ليَعلَموا أَنَّ الحسودَ لا يسود.

ويقال أطولُ الناسِ حُزْنا مَنْ لَاقى الناسَ عن مرارةٍ، وأراد تأخيرَ مَنْ قَدَّمه اللَّهُ أو تقديمَ مَنْ أَخَّرَه اللَّهُ؛ فإخوةُ يوسف ـ عليه السلام ـ أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوقَ السرير!

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

أي يخْلُصْ لكم إقبالُ أبيكم عليكم، وقديماً قيل: مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فَاتَه الكلُّ؛ فلمَّا أرادوا أن يكون إقبالُ يعقوب ـ عليه السلام ـ بالكليَّةِ ـ عليهم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ويقال كان قَصْدُهم ألا يكونَ يوسفُ أمامَ عينه فقالوا: إمَّا القتلُ وإمَّا النَّفْيُ، ولا بأسَ بما يكونُ بعد ألا يكونَ يوسف عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾.

عَجَّلوا بالحرام، وَعلَّقُوا التوبةَ بالتسويف والعزم، فلم يمحُ ما أَجَّلُوا من التوبة ما عجَّلوا من الحَوْبة(١).

ويقال لم تَطِبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن بابِ اللَّهِ بالكليّة فدبَّروا لحُسْنِ الرجوع قبل ارتكاب ما دعته إليه نُفُوسُهم، وهذه صفة أهل العرفان بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

إخوةُ يوسف ـ وإنْ قابلوه بالجفاء ـ مَنَعَتْهُم شفقةُ النَّسَبِ وحُرْمةُ القرابةِ من الإقدام على قتله؛ فقالوا لا تقتلوه وغَيِّبُوا شَخْصَه.

---

(١) الحوب: الإثم والهلاك.

ويقال إنما حَمَلَهم على إلقائه مرادُهم أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم، فلمَّا أرادوا حصولَ مرادهم في تغييبه لم يبالغوا في تعذيبه.

ويقال لمَّا كان المعلومُ له ـ سبحانه ـ في أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى اللَّهُ في قلبِ قائلهم حتى قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾.

ثم إنه ـ وإن أبلاه في الحال ـ سَهَّلَ عليه ذلك في جَنْبِ ما رقَّاه إليه في المآل، قال قائلهم:

كم مرةٍ حَفَّت بِكَ المكارِه خارَ لَكَ اللَّهُ ـ وأنت كاره

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾.

كلامُ الحسودِ لا يُسمَع، ووعدُه لا يُقْبل ـ وإنْ كانا في مَعْرِضِ النُّصحِ؛ فإنَّهُ يُطْعِمُ الشَهْدَ ويَسْقِي الصَّاب.

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب ـ عليه السلام ـ ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] ولكن إذا جاء القضاءُ فالبصيرةُ تصير مسدودةً.

ويقال من قِبَلِ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ في يوسف ـ عليهما السلامُ ـ من بلائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحةُ نَفْسٍ في اللعب، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه ـ وإنْ كان يشُقُّ عليه فراقُه، ولكنَّ المحبَّ يؤثِرُ راحةَ محبوبه على محبةِ نَفْسِه.

ويقال ما رَكَنَ إلى قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ـ أي مِنْ قِبَلِهم ـ حتى قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]؛ فَمَنْ أسلم حبيبَه إلى أعدائه غُصَّ بتحسِّي بلائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

يَحزُنني أن تذهبوا به لأني لا أصْبِر عن رؤيته، ولا أطيق على فُرقتِه... هذا إذا كان الحالُ سلامته.. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟!

ويقال: لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب، ففي الحبر ما معناه: «إنما يُسَلِطُ على ابن آدم ما يخافه»[1] وكان في حقه أن يقول أخافُ الله لا الذئب، وإنْ

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٧٢٥٧)، وابن حجر في (لسان الميزان ٢/ ١٨٣).

كانت مَحَالُ الأنبياءِ عليهم السلام ـ محروسةً من الاعتراض عليها.

ويقال لمَّا جرى على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ من حديث الذئب صار كالتلقين لهم، ولو لم يسمعوه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

لَحِقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: لأنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقٌ بأن يقال قد خسرت صفقتُه.

ويقال لمَّا عدُّوا القوة في أنفسهم حين قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ خُذِلُوا حتى فعلوا.

ويقال لمَّا ركَنَ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لَقِيَ ما لَقِيَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الجوابُ فيه مُقَدَّر؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر فعلوا ما عزموا عليه. أو فلمَّا ذهبوا به وألقوه في غيابة الجُبِّ أوحينا إليه؛ فتكون الواو صلة. والإشارة فيه أنه لمَّ حَلَّتْ به البلوى عجَّلنا له التعريفَ بما ذكرنا من البُشْرَى؛ ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمِّلٌ له من البلاء العنيف.

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحيُ مَنْ قِبَل مولاه، وكذا سُنَّتُه تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاءِ إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ الصفاء، وفنون لطائف الولاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾.

تمكينُ الكذَّاب من البكاء سِمَةُ خذلان الله تعالى إياه، وفي الخبر: «إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكي ما شاء».

ويقال: لا يَبْعُدُ أَنْ يقال إنهم وإنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا، فَعَلَاهُمْ البكاءُ لندمهم ـ وإن لم يُظْهروا لأبيهم ـ وتَقَوَّلُوا على الذِّئبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

لم يُؤثِّرْ تزويرُ قَالَبِهم في إيجاب تصديق يعقوب ـ عليه السلام لكذبهم بل أخبره قلبُه أنَّ الأمرَ بخلاف ما يقولونه فقال:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

فَعَلم على الجملة وإنْ لم يعلمْ على التفصيل. . وهكذا تقرع قلوبَ الصديقين عواقبُ الأمور على وجه الإجمال، إلى أنْ تَتَّضحَ لهم تفاصيلُها في المستأنف.

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أُغْفلوا عن تمزيق قميصه حتى عَلم يعقوب تَقَوُّلَهم فيما وصفوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

ليس كلُّ من طلب شيئاً يُعطى مرادَه فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسفَ عليه السلام.

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف ـ في الحقيقة ـ حُرّاً.

ويقال لـمَّا أراد اللَّهُ تعالى خلاصَ يوسف ـ عليه السلام ـ من الجُبِّ أزعج خواطر السَّيارة في قصد السفر، وأعدمهم الماءَ حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص، ولهذا قيل: ألا رُبَّ تشويشٍ يقع في العَالَم، والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ. كما قيل: رُبَّ ساعٍ له قاعد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّـٰهِدِينَ﴾.

لم يعرفوا خسرانهم في الحال ولكنهم وقفوا عليه في المآل.

ويقال قد يُبَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغَبْن.

ويقال: لم يحتشموا من يوسف ـ عليه السلام ـ يوم باعوه ثمنِ بَخْسٍ، ولكن لـمَّا قال لهم: أنا يوسف ـ وقع عليهم الخجل، ولهذا قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء.

ويقال لـمَّا خَرُّوا له سُجَّداً علموا أنَّ ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمنٍ بخسٍ.

ويقال لـمَّا وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا في نعمته، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه في مقام الذُلِّ قائلين ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، وفي معناه أنشدوا:

ستسمع بي وتذكرني وتطلبني فلا تجدِ

ويقال ليس العَجَبُ ممن يبيع مثلَ يوسف ـ عليه السلام ـ بثمنٍ نَجْسٍ إنما العَجَبُ ممن (. . . .)[1] مثل يوسف ـ عليه السلام ـ بثمن بخس، لا سيَّما ﴿وَكَانُواْ

---

(١) بياض في الأصل.

﴿فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الخرق لا غاية له، وكذا العجب لا نباته له.

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف ـ عليه السلام ـ بثمنٍ بخسٍ، إنما العجب ممن يبيع وقته الذي أعزُّ من الكبريت الأحمر بعَرَضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا.

ويقال إنَّ السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بدراهم، والذين وقفوا على جماله وشيءٍ من أحواله غالوا ـ بمصر ـ في ثمنه حتى اشتروه بزنته دراهم ودنانير مراتٍ ـ كما في القصة، وفي معناه أنشدوا:

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاي مُطَّرَحاً فعند غيرِك محمولٌ على الحَدَقِ(١)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

لمَّا نودي على يوسف في مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ ـ سبحانه ـ حتى أصابتهم الضرورةُ ومَسَّتْهُمْ الفاقةُ حتى باعوا من يوسف ـ عليه السلام ـ جميعَ أملاكهم، ثم باعوا كلُّهم منه أنفُسَهم ـ كما في القصة ـ وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام، فصاروا بأجمعهم عبيدَه، ثم إنه عليه السلام لما مَلَكَهم مَنَّ عليهم فأعتقهم؛ فَلَئِنْ مَرَّ عليه بمصرَ يومٌ نودي فيه عليه بالبيع؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد مَلَكَ جميعَ أملاكهم، ومَلَكَ رقابَ جميعهم؛ فيومٌ بيومٍ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] يومان شَتَّان بينهما!

ثم إنه أعتقهم جميعاً... وكذا الكريمُ إذا قدر غفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أراد مَنْ حَسَدَه ألا تكونَ له فضيلةٌ على إخوته وذويه، وأراد اللَّهُ أن يكونَ له مُلْكُ الأرضِ، وكان ما أراد اللَّهُ لا ما أراد أعداؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

أرادوا أن يكونَ يوسفُ عليه السلام في الجُبِّ، وأراد اللَّهُ ـ سبحانه ـ أن يكون يوسف على سرير المُلْكِ؛ فكان ما أراد الله، والله غالبٌ على أمره.

وأرادوا أن يكون يوسفُ عبداً لمن ابتاعوه من السيارة، وأراد اللَّهُ أن يكونَ عزيزَ مصر ـ وكان ما أراد اللَّهُ.

ويقال العِبْرَةُ لا ترى من الحقِّ في الحال، وإنما الاعتبارُ بما يظهر في سِرِّ تقديره في المآل.

---

(١) الحدق: (ج) الحدقة: السواد المستدير وسط العين. و (في الطب): فتحة مستديرة ضيقة وسط قرينة العين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من جملة الحُكمْ الذي آتاه اللّهُ نفوذُ حُكْمِه على نَفْسِه حتى غَلَبَ شهوته، وامتنع عما رَاوَدَته تلك المرأةُ عن نَفْسِه؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكْمَ له على غيره.

ويقال إنما قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي حين استوى شبابُه واكتملت قُوّته، وكان وقت استيلاء الشهوة، وتوفر دواعي مطالبات البشرية ـ آتاه الله الحِكْمَ الذي حبسه على الحقّ وصَرَفَه عن الباطل، وعَلِمَ أنَّ ما يعقب اتباع اللذاتِ من هواجم النَّدم أشدُّ مقاساةً من كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة... فآثَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع. وذلك الذي أشار إليه الحقُّ ـ سبحانه من جميل الجزاء الذي أعطاه هو إمدادُه بالتوفيق حتى استقام في التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾: [العنكبوت: ٦٩] أي الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سُبلَ الصبرِ على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائقُ المواصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

لما غَلّقَتْ عليه أبوابَ المسكنِ فَتَحَ الله عليه باب العصمة، فلم يُضِرْه ما أُغْلِقَ بعد إكرامه بما فُتِحَ.

وفي التفسير أنه حفظ حُرْمةَ الرجل الذي اشتراه، وهو العزيز.

وفي الحقيقة أشار بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إلى ربِّه الحقِّ تعالى: هو مولاي الحق تعالى، وهو الذي خلَّصني من الجُبِّ، وهو الذي جعل في قلب العزيز لي محلاً كبيراً فأكرم مثواي فلا ينبغي أنْ أُقْدِمَ على عصيانه ـ سبحانه ـ وقد غمرني بجميل إحسانه.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها: إن العزيز أمرني أنْ أنفعَه. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فلا أَخُونُه في حُرْمَتِه بظهر الغيب.

ويقال لمَّا حفظ حُرْمة المخلوقِ بظهر الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة في الحال ومَكَّنَه من مواصلتها في المآل على وجه الحَلاَل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه ـ بغير اختياره ولا بِكَسْبِه ـ كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف، فلم يكن «الهمُّ» منه ولا منها زَلَّةً، وإنما الزَّلَّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ، فأمّا نفسُ الهمّ فليس مما يَكْسِبُه العبد.

ويقال اشتركا في الهمّ وأُفْرِد ـ يوسف عليه السلام ـ بإشهاده البرهان.

وفي تعيين ذلك البرهان ـ ما الذي كان؟ ـ تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالخَبَرِ المقطوع به.

وفي الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقِّ إياه بآية من آيات صُنْعِه، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ صَرَفَ عنه السُّوءَ حتى لم يوجَد منه العزمُ على ذلك الفعل ـ وإنْ كان منه همٌّ ـ إلا أن ذلك لم يكن جُزْماً كما ذكرنا.

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهمِّ ـ كشفٌ، والسوءُ المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفْسُ الزنا، وقد صرفهما الله تعالى عنه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: لم تكن نجاتُه في خلاصه، ولكن في صرفِ السوء عنه واستخلاصه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

استبقا، هذا ليَهْرَبَ، وهذه للفعلة التي كانت تطلب.

ولم يضر يوسفَ ـ عليه السلام ـ أَنْ قَدَّتْ[١] قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحَّ عليه قميصُ تقواه.

ويقال لم تَقْصِدْ قَدَّ القميصِ وإنما تَعَلَّقَتْ به لتَحْبِسَه على نفسها، وكان قصدُها بقاءَ يوسف ـ عليه السلام ـ معها، ولكن صار فعلُها وَبالاً على نَفْسِها، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتَها وشفاءَها.

ويقال تولَّد انخراقُ القميصِ من قبضها عليه وكان في ذلك افتضاح أمرها؛ لأن قَبْضَها على قميصه كان مزجوراً عنه.. لِيُعْلَمَ أنَّ الفاسِدَ شَجُّه[٢] فاسدٌ.

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحالِ أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدَّامِه.. كذلك صاحبُ البلاءِ في الهوى مسلوبُ التمييز.

ويقال لمّا لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصَه ليكونَ لها في إلقائها الذَّنْبَ على يوسف ـ عليه السلام ـ حُجَّةٌ، فَقَلَبَ اللَّهُ الأمرَ حتى صار ذلك عليها حجة، وليوسف دلالة صدق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: لـمَّا فَتَحَا البابَ وجدا سيدها لدى الباب، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد؛ إذا خَرَجَ العبدُ عن الذي هو عليه من التكليف في الحال وقع في ضِيق السؤال.

---

(١) انقد الثوب: انشق.

(٢) شجه: جرح وجهه أو رأسه.

ويقال قال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ ولم يقل سيدهما لأن يوسف في الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيزُ له سيداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

شَغَلَتْهُ بإغرائها إياه بيوسف عن نَفْسِها بأن سَبَقَتْ إلى هذا الكلام.

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتلَه؛ ففي عين ما سَعَتْ به نظرت له وأَبْقَتْ عليه.

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترضَ بذلك، وستزيد؛ فالعذاب الأليم يعني الضَرب المُبَرِّح.. كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج.

ويقال أوقعت السجن الذي يبقى مؤجَّلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل ليُعْلَم أَنّ السجنَ الطويل ـ وإنْ لم يكن فيه في الظاهر ألم ـ فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجِع؛ لأنه ـ وإنْ اشتدّ فلا يقابله.

ويقال قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ فذِكْرُ الأهل ها هنا غايةُ تهييج الحميّة وتذكيرٌ بالأَنَفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أفصح يوسف عليه السلام بِجُرْمِها إذ ليس للفاسق حُرْمَة يجب حِفْظُها، فلم يُبَالِ أَنْ هَتَك سترها فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾ فلمَّا كان يوسفُ صادقاً في قوله؛ ولم يكن له شاهدٌ أنطق اللّهُ الصبيَ الصغير الذي لم يبلغ أوانَ النطق. ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً في نفسه لم يبالِ اللّهُ أن يُنْطِقَ الحجرَ لأجله.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ...﴾ لما اتضح الأمرُ واستبان الحالُ وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾: دلّت الآيةُ على أَنَّ الزنا كان مُحرّماً في شرعهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

لم يُرِدْ أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف: أَعرِضْ عن هذا الحديث، ثم قال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ﴾: دلَّ على أنه لم يكن في شرعهم على الزنا حدٌّ ـ وإن كان مُحَرّماً حيث عَدَّه ذنباً.

ويقال ليس كلُّ أحد أهلاً للبلاء؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأمّا

الأجانب فَيُتَجَاوَزُ عنهم ويُخْلَى سبيلُهم ـ لا لكرامةِ مَحَلِّهم ـ ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريءَ السَّاحةِ، وظهرت للكلِّ سلامةُ جانبه وابتُلِيَ بالسجن. وامرأة العزيز في سوء فِعْلها حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، وقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.. ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنَّ الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النِّسوةُ فيها لسانَ الملامة.

ولما كانت أحسن منهن قيمةً ـ فقد كُنَّ من جملة خَدَمِها ـ كانت أسرعَ إلى الملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

أرادتْ أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة، وتَنْفِيَ عن نفسها أن تكون لها أهلاً، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ، فلمّا رأينه تَغَيَّرْنَ وتحيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾: وقد كان بشراً، وقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ولم يكن مَلَكاً.

قوله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾: أثَّرتْ رؤيتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أيديَهن بدل الثمار، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تتمالكن حتى قَطَّعْتنَّ أيديَكُنَّ! فكيف أصبر وهو في منزلي؟! وفي معناه أنشدوا:

(أنت عند الخصام عدوي.. ....)[١].

ويقال[٢] إن امرأة العزيز كانت أَتَم في حديث يوسف ـ عليه السلام ـ من النسوة فَأَثَّرتْ رؤيتُه فيهن ولم تُؤَثِّرْ فيها، والتَّغَيُّرُ صفة أهل الابتداء في الأمر، فإذا دام المعنى زال التغيُّر؛ قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام: هكذا كُنَّا حتى قَسَتْ القلوبُ. أي وَقَرَتْ وصَلُبَتْ. وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تَعَوَّدَ شُرْبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمعُ له صوت.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٧٨ ـ ٨٠ عند حديث القشيري عن التلوين والتمكين مركزاً على رأي الدقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

الاختبار مقرونٌ بالاختيار؛ ولو تمنّى العافية بدل ما كان يُدْعى إليه لعلَّه كان يُعافَى، ولكنه لما قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾ طُولِبَ بِصِدْقِ ما قال.

ويقال إن يوسف عليه السلام نَطَقَ من عين التوحيد حيث قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فقد عَلمَ أن نجاته في أن يَصْرِفَ ـ سبحانه ـ البلاءَ عنه لا بتكلُّفِه ولا بتَجنبِه.

ويقال لمَّا آثر يوسفُ ـ عليه السلام ـ لحوقَ المشقة في اللّهِ على لذَّة نفسه آثره عَصْرُه حتى قيل له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لمَّا رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيكِ الإغاثة... كذلك ما اغبرَّ لأحدٍ ـ في الله تعالى ـ قَدَمٌ إلَّا روَّحه بِكَرَمِه وتولَّاه بِنِعَمِه ـ إنه هو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال السائلين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

لمَّا سَجَنَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ مع ظهور براءة ساحته اتقاءَ على امرأته أن يُهتَكَ سترُها حوَّل اللّهُ مُلْكهَ إليه، ثم في آخر الأمر حَكَمَ اللّهُ بأن صارت امرأته بعد مقاساتها الضُر... وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ.

ويقال لمَّا ظُلِمَ يوسفُ عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر أمرها بما كانٍ فيه هتك سترها، فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لصحبة السجن أثرٌ يظهر ولو بعد حين؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأنساه الشيطانُ ذكر ربِّه فبقي يوسف في السجن زماناً، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال: فأَرْسِلوا إلى يوسف وقيل له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ... أَفْتِنَا﴾ الآية [يوسف: ٤٦] فالصحبة تُعْطى بَرَكَاتِها وإن كانت تُبْطِي.

قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعةٌ، بها يَتَوَسَّلُ إلى استجلاب إحسانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

التَّثَبُّتُ في الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجيبهما ولم يُسْرِعْ الإجابةَ في الوقت.

ويقال لمَّا أَخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبَهما بالوعد؛ وإذا لم يكن نَقْدٌ فليكن وَعْدٌ.

ويقال لمَّا فاتحوه بسؤالهم قدَّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...﴾ ثم قال:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ولما فَرغَ من تفسير التوحيد، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكتَ حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود، وفي الخبر: «مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَرَ مِنْ ذِكْرِه».

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآلِ؛ واحدٌ صُلبَ، وواحِدٌ قُرِّبَ ووُهِبَ.. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فَمِنْ مرفوعٍ: فوق السِّماكِ[1] مَطْلَعُه، ومن مدفونٍ: تحت التراب مضجعُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

يتبيَّن أنَّ تعبير الرؤيا ـ وإنْ كان حقاً ـ فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع.

ثم إنه عاتب يوسفَ عليه السلام لأنه نَسِيَ في حديثه مَنْ يستعين به حين قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

---

(١) السِّماك: السماكان: نجمان نيران. يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل. يقال: بلغ فلان السماك؛ أي: بلغ رتبة عالية. (اللسان ١٠/ ٤٤٣).

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عِوَضاً على ما عَلَّمه، وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، عَلِّمْ مجاناً كما عُلِّمْتَ مجاناً.

ولما استعان بالمخلوقِ طال مُكْثُه في السجن، كذلك يجازي الحقُّ ـ سبحانه ـ مَنْ يُعَلِّقُ قلبَه بمخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

كان ابتداءُ بلاءِ يوسف ـ عليه السلام ـ بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَها وأظهرها، وكان سببُ نجاتِه أيضاً رؤيا رآها المَلِكُ فأظهرها، ليُعْلَم أَنَّ اللَّهَ يفعل ما يريد؛ فكما جعل بلاءَه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا؛ لِيَعْلَمَ الكافةُ أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير؛ فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاثُ أحلام[1] فلم يُضِرْه ذلك، ولم يؤثِّرْ في صحة تأويلها.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾: مَنْ طلَبَ الشيءَ مِنْ غيرِ موضِعه لم يَنَلْ مطلوبه، ولم يَسْعَد بمقصوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

لمَّا كان المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّر الرؤيا ـ قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا، ولم يحصل للمَلِكِ ثَلَجُ الصَّدْرِ إلا بتعبير يوسف، ليُعْلَم أنَّ اللَّهَ ـ سبحانه ـ إذا أراد أمراً سَهلَّ أسبابَه.

ويقال: إن الله تعالى أَفْرَد يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين: بحُسْن الخِلْقة وبزيادة العلم؛ فكان جمالُه سببَ بلائه، وصار علمُه سببَ نجاته، لتُعْلَمَ مزيَّةُ العلمِ على غيره، لهذا قيل: العلم يُعْطِي وإن كان يُبْطِي.

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجِب الدنيا فالعلمُ بالمولى أَوْلَى أن يوجِبَ العقبى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[2].

---

(١) أضغاث أحلام: الرؤيا التي لا يصح تأويلها لاختلاطها. (اللسان ٢/ ١٦٣).

(٢) الآية (٤٦) لم ترد.

لم يقدِّم الدعاءَ إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى، لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الأولى. فإمَّا أنه قد قَبِلَ في المرة الثانية، وإمَّا أنه لم يقبل فَيَئِسَ منه فأهمله.

وصاحبُ الرؤيا الثانية كانت المَلِكَ وكان غائباً، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في المشاهدة دون المغايبة.

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرَّس في الفَتَيان قبولَ التوحيد فإنَّ الشباب أَلينُ قلباً، أمَّا في هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصلبَ قلباً وأفظَّ جانباً؛ فلذلك لم يَدْعُه إلى التوحيد لِمَا تفرَّسَ فيه من الغِلظة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[1].

أراد عليه السلام ألا يلاحظه الملكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَه عيبُه من قلبه؛ فلا يؤثِّر فيه قوله، فلذلك تَوقَّفَ حتى يَظْهَرَ أمرُه للمَلِكِ وتنكشفَ براءةُ ساحته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

الحقائق لا تنكتِم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ.. ولو بعد حين.

نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بَريئاً، وأُنِّبَ على ذلك مدةً، وكان أمرُه في ذلك خَفِيًّا. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنة، وأنطق عِذّالَه، وأظهر حالَه، عما فرق به سرباله[2]؛ فَقُلْنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

لمَّا كانت امرأةُ العزيز غيرَ تامَّةٍ في محبة يوسف تركَتْ ذنبَها عليه وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب. ثمَّ لمَّا تناهَتْ في محبته أقرَّت بالذنبِ على نفسها فقالت: ﴿ٱلْـَٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ...﴾ فالتناهي في الحبِّ يوجب هتكَ الستر، وقلة المبالاة بظهور الأمر[3] والسِّر، وقيل:

لِـيُـقُـلْ مَـنْ شـاءَ مـا   شـاء فـإنـي لا أُبـالـي

---

(١) الآيتان (٤٨ ـ ٤٩) لم تردا.

(٢) السربال: ما يُلبس من قميص أو درع (ج) سرابيل.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص٣١٧ ـ ٣٢٩ عند حديث القشيري عن المحبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

إنما أراد اللَّهُ أن يُظْهِرَ براءةَ ساحةِ يوسف، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح، ولم يُرِدْ يوسف أن يصيبَهم بسببه ـ من قِبلِ اللّهِ ـ عذابٌ شَفَقَةً منه عليهم، وهذه صفةُ الأولياءِ: أن يكونوا خَصْمَ أنفسِهم، ولهذا قيل: الصوفي دمه هَدَرٌ ومِلْكُه مُباحٌ[1] ـ ولذلك قال:

﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لمَّا تمدَّح بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كأنه نودي في سِرّه: ولا حين همَمْتَ؟ فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾.

ويقال: قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيانُ الشكر على ما عصمه الله، وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ بيانُ العُذْرِ لما قصَّر في أمر الله، فاستوجب شكرُه زيادةَ الإحسان، واستحقَّ بعذره العفوَ.

والعفو بادٍ من قوله:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

لما اتضحت للملِك طهارةُ فِعْلِه ونزاهةُ حالِه استحضره لاستصفائه لنفسه، فلمَّا كَلَّمَه وسَمِعَ بيانَه رَفَعَ مَحلَّه ومكانه، وضمنه بِرَّه وإحسانَه، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إنما سأل ذلك ليضعَ الحقَّ مَوْضِعَه، وليصلَ نصيبُ الفقراءِ إليهم، فَطَلَبَ حقَّ الله تعالىٰ في ذلك، ولم يطلب نصيباً لنفسه.

ويقال لم يقل إني حَسَنٌ جميلٌ بل قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي كاتِبٌ حاسِبٌ، لِيُعْلَمَ أنَّ الفضلَ في المعاني لا في الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لمَّا لم تكن له دواعي الشهوات من نَفْسِه مَكّنَه اللّهُ من مُلْكِه ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ [الشورى: ٢٣] ـ فقال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبيّن أنه إنما يوفّي عبادَه من ألطافه بفضله لا

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٨١ فهذا تعريف سهل بن عبد الله للصوفي.

بفعلهم، وبرحمته لا بِخُذمتِهم؛ فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ ثم يرقى هممهم عما أولاهم من النِّعَم فقال:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لا بُدّ من التقوى ومخالفة الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

عَرَفَ يوسفُ ـ عليه السلام ـ إخوتَه وأنكروه، لأنهم اعتقدوا أنّه في رِقّ العبودية لمّا باعوه، بينما يوسف ـ في ذلك الوقت ـ كان قاعداً بمكانِ المَلِكِ. فَمَنْ طلب الملِكَ في صفة العبيد متى يعرفه؟

وكذلك مَنْ يعتقد في صفات المعبودِ ما هو مِنْ صفات الخَلْق... متى يكون عارفاً؟ هيهات هيهات لما يحسبون!

ويقال لمَّا أَخْفَوْه صار خفاؤه حجَاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك العاصي.. بخطاياه وزلاتِه تقع غَبَرَةٌ على وجه معرفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

المحِبُّ غيورٌ؛ فلمَّا كان يعقوبُ عليه السلام قد تَسَلَّى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب[1].

ويقال تَلَطَّفَ يوسف في استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب، وأما الترغيب ففي مالِه الذي أوصله إليهم وهو يقول: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ وفي إقباله عليهم وفي إكرامه لهم وهو يقول: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

وأمّا الترهيب فبمنع المال وهو يقول:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

أي فإن لم تؤامِنوني عليه فلا كيل لكم عندي، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

لما عَلِمَ يوسفُ من حالهم أنهم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ عَلِمَ أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً في إيفاء الكيل، فلن يَصْعُبَ عليهم الإتيان به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٥٤ ـ ٢٥٩ حديث القشيري عن الغيرة.

جَعْلُ بضاعتهم في رحالهم ـ في باب الكَرَم ـ أتمُّ مِنْ أنْ لَوْ وَهَبَها لهم جَهْراً؛ لأنه يكون حينئذٍ فيه تقليد منه بالمواجَهَةِ، وفي تمليكها لهم بإشارةٍ تجَرُّدٌ مِنْ تكلُّفِ تقليد منه بالمحاضرة.

ويقال عَلِمَ أنهم لا يَسْتحِلُّون مالَ الغَيْر قَدَسَّ بضاعتَهم في رحالِهم، لكن إذا رأَوْها قالوا: هذا وقع في رحالنا منهم بِغَلَطٍ، فالواجبُ علينا ردُّها عليهم. وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أبَوْا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

لم يمنع يوسفُ منهم الكيْلَ، وكيف مَنَعَ وقد قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾؟

ولكنهم تجوزوا في ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نَفْسُ يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين معهم.

ويقال أرادوا بقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ في المستقبل إذا لم تَجْمِلْه إليه.

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا في القول ليعقوبَ ـ عليه السلام ـ حيث قالوا: ﴿أَخَانَا﴾ إظهاراً لشفقتهم عليه، ثم أكّدوا ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.

مَنْ عَرَفَ الخيانة لا يلاحظ الأمانة، ولذا لم تَسْكنْ نَفْسُ يعقوبَ بضمانهم لِمَا سَبَقَ إليه من شأنهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾: يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيءٌ مِنْ قِبَلِهم.

ولم يقل يعقوب فالله خيرُ مَنْ يَرُدُّه إليَّ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه سريعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

بيَن يوسفُ ـ عليه السلام ـ أنه حين عاملهم لم يَحْتَجْ إلى عِوَضٍ يأخذه منهم، فلمَّا باعهم وجَمَعَ لهم الكيلَ ما أخذ منهم ثمناً، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وكلُّ مَنْ خطا للدِّين خطوةً كافأه اللَّهُ تعالى وجازاه، فَجَمَع له بين رَوْحِ الطاعةِ ولذَّةِ العيش من حيث الخدمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

إنَّ الحَذَرَ لا يُغْني من القَدَر. وقد عَمِل يعقوب ـ عليه السلام ـ معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط، وأخذ الميثاق ولكن لم يُغْنِ عنه اجتهادُه، وحَصَلَ ما حكم به الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بَصَرُه على يوسف، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر.

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنِه، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن لم يحصل مقصودُ يعقوب عليه السلام في المآل حصل مراده في الحال، وفي ذلك القَدْرِ لأرباب القلوب استقلال.

ويقال على الأصاغر حفظُ إشاراتِ الأكابر، والقولُ فيما يأمرون به هل فيه فائدةٌ أم لا ـ تَرْكٌ للأدب.

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ويتمنَّى به حصولَ مرادِه..

ثم لا يحصل مرادُه عُلِمَ أنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ في الشيوخ أنَّ جميع ما يريدون يتَّفِقُ كونُه على ما أرادوا؛ لأنَّ الذي لا يكونُ إلا ما يريده واجباً وما أراده فهو كائن.. هو اللَّهُ الواحدُ القهارُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

حديثُ المحبةِ وأحكامها أقسام: اشْتَاقَ يعقوبُ إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبقِيَ سنين كثيرة، واشتاقَ يوسف إلى بنيامين فَرُزِقَ رؤيته في أَوْجَزِ مدةٍ.

وهَكَذَا الأمر؛ فمنهم موقوفٌ به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال لئِن سَخِنَت[١] عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عيْنُ يوسفَ بلقائه. كذا الأمر: لا تَغرُبُ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

احتمل بنيامينُ ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف.

ويقال: ما نُسِبَ إليه من سوء الفعال هان عليه في جَنْبِ ما وجد من الوصال.

ويقال لئن نَسَبَ أخاه للسرقة تعرَّف إليه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ ـ سِرّاً، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة في ظاهره، محمولاً بوجدان الكرامة في سِرِّهِ، وفي معناه أنشدوا:

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلُمْني اللُّومُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾[٢].

يعني حُسْنُ سيرتنا في سير المعاملة يدلكم على حسن سريرتنا في الحالة.

ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَا وجدتموه في رحالنا بعد أن غِبْنَا عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾.

تَجَاسَرَ إخوةُ يوسف بجريانِ جزاءِ السَّرقةِ عليهم ثقةً بأنفسهم أنهم لم يُباشِروا الزَّلَّةِ، وكان بنيامينُ شريكَهم في براءة السَّاحةِ، فلما استُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسانَ الملامةِ، وبقي بنيامين فلم يكن له جوابٌ كأنَّه أقرَّ بالسرقة، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ، ولو قال: لم أَفْعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذي احتال معهم ذلك لأَجْلِه حتى يُبْقِيه معه، فَسَكَتَ لسان بنيامين، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُه.

ويقال لم يستصعب الملامة ـ وإنْ كان بريئاً ـ مما قُرِنَ به، ولا يَضُرُّ سوءُ المقالةِ بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب.

ويقال سيئ بما أَظْهَرَتْ عليه المقالة، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاءُ الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[٣].

---

(١) سخنت العين سخناً: لم تقرّ، فهي سخينة.

(٢) الآيتان (٧١ ـ ٧٢) لم تردا. (٣) الآيتان (٧٥، ٧٦) لم تردا.

كان بنيامينُ بريئاً مما رُمِيَ به من السرقة، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة، واحدٌ بواحد ليَعْلَم العالمون أنَّ الجزاءَ واجبٌ.

ويقال كان القُرْحُ بالقَدح[1] أوجعَ ما سَمِعَه يوسف منهم حيث قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً في قلبه من الجفاءِ الأول.

ويقال إذا حَنِقَ عليك المِلكُ فلا تأمَنْ غِبَّه ـ وإنْ طالت المدة ـ فإن يوسف عليه السلام حَنِق عليهم فلقوا في المستأنف منه ما ساءَهم مِنْ حَبْسِ أخيه، وما صاحبَهم من الخَجل من أبيهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لم تنفعهم كثرةُ التَّنَصُّلِ[2]، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاءَ التوسُّل، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عَرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدَهم في البَدَل.. كذلك فكلُّ مُطَالَبٌ بفعل نفسه: ﴿**لا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى**﴾ [الأنعام: ٦٤]؛ فلا الأبُ يُؤخَذُ بَدَلَ الولد، ولا القريبُ يُرضَى به عوضاً عن أحد؛ لذلك قال يوسف عليه السلام:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ توهدوا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال، فعَرَضُوا أنفسهم كي يؤخَذ واحدٌ منهم بَدَلَ أخيهم، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادَهم في ذلك، وأنَّ مقصودَه من ذلك ما استكَنَّ في قلبه مِنْ حُبٌ لأخيه، وكلَّا.. أَنْ يكونَ عن المحبوبِ بَدَلٌ أو لقوم مقامُ أحدٍ.. وفي معناه أنشدوا:

إذا أَوْصَلْتَنا الخُلْدَ كيما تُذِيقنا أَبَيْنا وقُلْنا: أنتَ أَوْلَى إلى القلب

وقيل:

أُحِبُّ لَيْلَى وبُغْضَتْ إليَّ نساءٌ ما لَهُنَّ ذُنُوبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾.

لما عَلِموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضُهم ببعضٍ

---

(١) القُرْح: الجُرح (ج) قروح. القَدْح: الطعن والذم.
(٢) تنصل فلان من ذنبه: تبرأ.

فعملت فيهم الخجْلة، وعلموا أن يعقوب في هذه الكرَّةِ يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفَعْلة، فلم يرجع، أكبرهم إلى أبيهم، وتناهى إلى يعقوبَ خَبَرُهم، فاتهمهم وما صدّقهم، واستخونهم وما استوثقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾.

كان لهم في هذه الكَرَّةِ حجة على ما قالوه، ولكن لم يسكن قلبُ يعقوب عليه السلام إليها، فإنَّ تعيُّنَ الجُرْمِ في المرة الأولى أوْجَبَ التُّهمةَ في الكرَّةِ الأخرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾.

ما ازدادوا إقامةَ حُجَّةٍ إلا ازداد يعقوبُ ـ عليه السلام ـ في قولهم شُبْهةً.

ويقال: في مُساءلة الأطلال أَخْذٌ لقلوب الأحباب، وسَلْوَةٌ لأسرارهم.. وهذا البابُ مما للشرح فيه مجال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾.

لجأ إلى قُرْبِ خلاصه من الضُرِّ بالصبر.

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمْسِ حتى قال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ليُعْلَمَ أنَّ عَزْمَ الأحبابِ على الصبر منقوضٌ غيرُ محفوظ(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

تولَّى عن الجميع ـ وإن كانوا أولادَه ـ ليُعْلَمَ أَنَّ المحبةَ لا تُبْقي ولا تَذَرْ.

ويقال أراد إخوةُ يوسفَ أن يكونَ إقبالُ يعقوب عليهم بالكليَّةَ فأَعْرَضَ، وتولَّى عنهم، وفَاتَهُم ما كان لهم، ولهذا قيل: مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فاته الكلُّ.

---

(١) قال القشيري في رسالته موضحاً هذا المعنى: واعلم أن الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً، وفي هذا المعنى أنشدوا:

تبيَّن يوم البين أن اعتزامه ... على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وفي هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعد الصبر في نفسه، فقال: (فصبر جميل) أي فشأني صبر جميل، ثم لم يمس حتى قال: (يا أسفاً على يوسف). (الرسالة القشيرية ص١٨٨ ـ ١٨٩).

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُساعِداً لنفسِه على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع، وانفرد بإظهار، أسفه، وفي معناه أنشدوا:

فريدٌ عن الخِلَّانِ في كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ويقال كان بكاءُ داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرَ يعقوب؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأَجْلِ يوسف ولم يكن في قدْرةِ يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله، وأمَّا داود فقد كان يبكي لله، وفي قدرة الله ـ سبحانه ـ ما يحفظ بَصَرَ الباكي لأَجْلِه.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول ذلك، وقال رحمه الله: إن يعقوبَ بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرَهُ، وداود بكى لأَجْل الله فبقي بَصَرُه.

وسمعته ـ رحمه الله ـ يقول: لم يقل الله: «عَمِيَ يعقوب» ولكن قال: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمَىً، وإنما كان حجاباً عن رؤيةِ غير يوسف.

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف، لأنه لا شيءَ أشدُّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب في حال فراقه، وفي معناه أنشدوا:

لما تَيَقَّنْتُ أني لَسْتُ أُبصِرِكم أغمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف، فلما بقي عن رؤيته قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالأثر، فلمَّا بقي عن النظر قال: يا أسفا على يوسف.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

هددوه بأن يصير حرضاً ـ أي مريضاً مشفياً على الهلاك ـ وقد كان، وخوفُّوه مما لم يبالِ أن يصيبه حيث قالوا ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

ويقال أطيب الأشياء في الهلاكِ ما كان في حكم الهوى ـ فكيف يُخَوَّف بالهلاكِ من كان أحبُّ الأشياءِ إليه الهلاكَ؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللَّهِ، ومَنْ شكا إلى الله وَصَلَ، ومَنْ شكا من الله انفصل.

ويقال لمَّا شكا إلى الله وَجَدَ الخَلَفَ من الله.

ويقال كان يعقوبُ ـ عليه السلام ـ مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه، ومستريحاً محمولاً بِسِرِّه وروحه؛ لأنه عَلِمَ من الله ـ سبحانه ـ صِدْقَ حالِه فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي معناه أنشدوا:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً   تمنَّيْتُ أن أشكو إليكَ فَتَسْمَعَا

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه في طلب يوسف، وكان الإخوة يخرجون بطلب المسيرة وفي اعتقادهم هلاكُ يوسف.. وكلُّ إنسانٍ وهمُّه.

ويقال قوله ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم؛ بالبَصَرِ لعلَّهم تقع عليه أعينهم، وبالسَّمْعِ لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه، وبالشمِّ لعلهم يجدون رِيحَه؛ وقد توهَّم يعقوبُ أنهم مثله في إرادةِ الوقوفِ على شأنه. ثم أحالهم على فضل الله حيث قال: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف، فَظَهَر من قِلَّةِ الصبرِ عليه ما ظهر، وآثَرَ غَيْبَةَ الباقين من الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده.. فشتَّان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف! واحدٌ لم يَرَهْ فابْيَضَّتْ عيناه من الحزن بفرقته، وآخرون أمرَهُم ـ باختياره ـ بِغَيْبَتِهم عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وَجَّهَهُم أبوهم.

ويقال استلطفوه بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم.

ويقال لمَّا طالعوا فقرهم نطقوا بقدرهم فقالوا: وجئنا ببضاعة مزجاة ـ أي رديئة ـ ولما شاهدوا قدر يوسف سألوا على قدره فقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾.

ويقال قالوا كلنا كيلاً يليق بفضلك لا بفقرنا، وبكرمك لا بعدمنا، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ﴾: نَزَلوا أَوْضَعَ مَنْزِلٍ؛ كأنهم قالوا: إنْ لم نستوجِبْ معاملةَ البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاءِ، على وجه المكافأة والجزاء.

فإنْ قيل كيف قالوا وتصدَّقْ علينا وكانوا أنبياء ـ والأنبياء لا تحل لهم الصدقة؟

فيقال لم يكونوا بعد أنبياء، أو لعلّه في شرعهم كانت الصدقةُ غيرَ مُحَرَّمةٍ على الأنبياء.

ويقال إنما أرادوا أنَّ مِنْ ورائنا مَنْ تَحِلُّ له الصدقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعني إنَّ مَنْ عَامَل يوسفَ وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغي له أن يتجاسَرَ في الخطاب كتجاسركم.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم: أنهيتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم.. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك في باب العتابِ أعظم من كلِّ عقوبة.

ولمَّا أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عندهم فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب: «يا أيها العزيز» فلمّا عرفوه قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ لأنه لمَّا ارتفعت الأجنبيةُ سقط التكلُّفُ في المخاطبة، وفي معناه أنشدوا:

إذا صَفَتْ المودَّةُ بين قومٍ ودام ودادُهم قَبُحَ الثناءُ

ويقال إنَّ التفاصُلَ والتفارُقَ بين يوسف وإخوته سَبَقا التواصلَ بينه وبين يعقوب عليهما السلام؛ فالإخوةُ خَبَره عرفوه قبلَ أنْ عَرَفَه أبوه ليعلَم أن الحديث بلا شكٍ.

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته، بل إنهم - وإن عرفوه - فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة، وإنما كان غرضُهم حديثَ الميرة والطعام فقط، فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾: يعني إني لأخٌ لِمثْلِ هذا لمثلكم؛ ولذا قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾، ولم يقل وأنتم إخوتي، كأنَّه أشار إلى طرفٍ من العتاب، يعني ليس ما عاملتموني به فِعْلَ الإخوة.

ويقال هَوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَةِ[2] الخجلة حيث قال ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ بقوله:

(١) هنا القشيري يطبق فكرة القبض والبسط (انظر الرسالة القشيرية ص٥٨ - ٦٠.

(٢) البداهة: ما يفجأ من الأمر.

﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾، وكأنه شغَلَهم بقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] إنه سبحانه شَغَلَ موسى عليه السلام باستماع: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] بمطالعة العصا في عين ما كوشِف به من قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر في مقاساة الجهد والعناء فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول لما قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ أَحَالَ في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر... فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ يعني ليس بِصَبْرِك يا يوسفُ ولا بتقواك، وإنما هو بإيثارِ اللَّهِ إياك علينا؛ فبه تقدمت علينا بحمدك وتقواك. فقال يوسف ـ على جهة الانقياد للحقِّ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ فأسقط عنهم اللوم، لأنه لمَّا لم يَرَ تقواه من نفسه حيث نبَّهوه عليه نَطَقَ عن التوحيد، وأخبر عن شهود التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

اعترفوا بالفضل ليوسف ـ عليه السلام ـ حيث قالوا: لقد آثرك الله علينا، وأكَّدوا إقرارَهم بالقَسَم بقوله ﴿تَٱللَّهِ﴾ وذلك بعد ما جحدوا فَضْلَه بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد، ومن شهد فما جحد.

ويقال لمَّا اعترفوا بفضله وأقرُّوا بما اتصفوا به من جُرْمِهم بقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وجدوا التجاوزَ عنهم حين قال يوسف:

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أسرع يوسفُ في التجاوز عنهم، وَوَعَد يعقوبُ لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ لأنه كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم، وأما يوسف فلم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة، وفي معناه أنشدوا:

تركُ العتابِ إذا استحق أخ ... منك العتابَ ذريعةُ الهَجْرِ

ويقال أصابهم ـ في الحال ـ مِنَ الخجلة مقا مقام كلِّ عقوبة، ولهذا قيل:

كفى للمقصِّر الحياءُ يوم اللقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

البلاءُ إذا هَجَمَ هَجَمَ مَرّةً، وإذا زال بالتدريج؛ حلَّ البلَاءُ بيعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ولما زال البلاءُ.. فأولاً وَجَدَ ريحَ يوسفَ عليه السلام، ثم قميص يوسف، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف، ثم رؤية يوسف.

ويقال لمَّا كان سببُ البلاءِ والعمى قميصَ يوسف أراد اللَّهُ أن يكونَ به سَبَبُ الخلاص من البلاء.

ويقال علمَ أن يعقوب عليه السلام ـ لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور ـ لا يطيقه عند أخذ القميص فقال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾.

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب.

ويقال كان العمى في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجدَ الشفاءَ من العمى.

ويقال لمَّا كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين التي في الوجه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيب النَّوى إلا فتًى ظلَّ مغرما

وقوله ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: لما عَلِمَ حزنَ جميعَ الأهلِ عليه أراد أن يشترك في الفرح جميعُ من أصابهم الحزن.

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضَرَه، إبقاءً على حالِه لا إخلالاً لِقَدْرِه وما وَجَبَ عليه من إجلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

ما دام البلاءُ مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثُه ـ على يعقوب ـ مُشْكِلاً، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجهِ حاله.

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في الجُبِّ ولكن اشتبه عنيه خَبَرُه وحالُه، فلما زال البلاءُ وَجدَ ريحَه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً ـ من مصر إلى كنعان.

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفرادِه بالأسف عند فقدان يوسف. وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف؛ فلا يعرف ريحَ الأحبابِ إلا الأحبابُ، وأمَّا على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِل.. إذ أنَّى يكون للإنسان ريح!؟.

ويقال لفظ الريح ها هنا توسع، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ، ويقال إني لأَجِدُ ريح الفتنة.. وغير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قولُه، فزادوا في الملامة فقالوا: ـ

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قرنوا كلامهم بالشتم، ولم يحتشموا أباهم، ولم يُراعوا حقَّه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيمَ يوسف عليه السلام، وخبر يوسف كثير حتى جاء الإذن للرياح، وهذه سُنَّةُ الأحباب: مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال وفي معناه أنشدوا:

وإنِّي لأستهدي الرياح نسيمكم إذا هي أقبَلتْ نحوكم بهُبُوب
واسألها حَمْلَ السلامِ إليكمُ فإنْ هي يوماً بلَغَتْ فأَجِيبُوا

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لو أُلْقِيَ قميصُ يوسف على وجه مَنْ في الأرض مِنَ العميان لم يرتد بصرهم، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص؛ فإنَّ بَصَرَ يعقوبَ ذهب لفراق يوسف، ولـمَّا جاءوا بقميصه أَنْطَقَ لسانَه، وأَوْضحَ برهانَه، فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عن حياة يوسف، وفي معناه أنشدوا:

وَجْهُك المأمولُ حُجَّتُنا يومَ يأتي النَّاسُ بالحجج

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾.

كلُّ إنسانٍ وهمُّه؛ وَقَعَ يعقوبُ ويوسفُ عليها السلام في السرور والاستبشار، وأَخَذَ إخوةُ يوسف في الاعتذارِ وطَلَبَ الاستغفار.

ويقال إخوة يوسف ـ وإنْ سَلَفَتْ منهم الجفوة كلَّموا أباهم بلسان الانبساط لتقديم شفقةِ الأبوةِ على ما سَبَقَ منهم من الخطيئة.

ويقال يومٌ بيومٍ؛ اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بمقيص يوسف، وكان الأخوة في الخَجلة مما عملوا بيوسف.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وَعدَهُم الاستغفارَ لأنه لم يَفْرَغْ من استبشاره إلى الاستغفار.

ويقال لم يُجِبْهُم على الوهلة ليدلَّهم على ما قَدَّمُوا من سوء الفَعْلَةِ؛ لأن يوسفَ

كان غائباً وقتئذٍ، فوْعدهم الاستغفارَ في المستأنف ـ إذا رضِيِ عنهم يوسف حيث كان الحقُّ أكثرُه له، ولو كان كله ليعقوب لوهبهم على الفور.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء فانفرد الأَبَوان به لِبُعْدِهما عن الجفاء، كذلك غداً، إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان، ولكنهم يتباينون في بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ﴾.

أوقف كُلاً بمحلِّه؛ فَرفَعَ أبويه على السرير، وتَرَك الإخوةَ نازلين بأماكنهم.

قوله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾: كان ذلك سجودَ تحيةٍ، فكذلك كانت عادتهم. ودَخَلَ الأَبَوان في السجود ـ في حقّ الظاهر ـ لأنَّ قوله ﴿وَخَرُّوا۟﴾ إخبارٌ عن الجميع، ولأنه كان عن رؤياه قد قال: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال ها هنا: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

شهد إحسانه فَشَكَره.. كذلك مَنْ شهد النعمة شَكَرَ، ومَنْ شهد المُنْعِمَ حمده.

وذَكَرَ حديثَ السجن ـ دون البئر ـ لطول مدة السجن وقلة مدة البئر.

وقيل لأن فيه تذكيراً بِجُرْمِ الإخوة وكانوا يخجلون. وقيل لأن ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾. وقيل لأن كان في البئر مرفوقاً به والمبتدىء يُرفَقُ به وفي السجن فَقَدَ ذلك الرِّفق لقوة حاله؛ فالضعيف مرفوقٌ به والقويُّ مُشَدَّدٌ عليه في الحال، وفي معناه أنشدوا:

وأسررتني حتى إذا ما سَبَبْتَني ... بقولٍ يحل العُصْم سهل الأباطح[1]
تجافيتَ عنّي حين لا لي حيلة ... وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفي قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سُرَّ برؤية أبويه سُرَّ بإخوته ـ وإنْ كانوا أهل الجفاء، لأَنَّ الأُخُوَّةَ سَبَقتْ الجفوة.

(١) الأباطح: (ج) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى والتراب.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر، فقال كان الذي جرى منهم من نزعات الشيطان، ثم لم يرض بهذا حتى قال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ يعني إن وَجدَ الشيطان سبيلاً إليهم، فقد وجد أيضاً إليَّ حيث قال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾.

ثم نطق عن عين التوحيد فقال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلوني.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

في حرف تبعيض؛ لأن المُلك ـ بالكمال ـ لله وحده.

ويقال المُلْكُ الذي أشار إليه قسمان: مُلْكه في الظاهر من حيث الولاية، ومُلْكٌ على نفسه حتى لم يعمل ما همَّ به الزَّلَّة.

ويقال ليس كلُّ مُلْكِ المخلوقين الاستيلاءَ على الخَلق، إنما المُلْكُ ـ على الحقيقة ـ صفاءُ الخُلُق.

قوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: التأويل للخواص، وتفسير التنزيل للعوام.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ـ هذا ثناء، وقوله: ﴿تَوَفَّنِى﴾ ـ هذا دعاء.

فَقَدَّمَ الثناء على الدعاء، كذلك صفة أهل الولاء.

ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا إقرارٌ بِقَطْع الأسرار عن الأغيار.

ويقال معناه: الذي يتولّى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنتَ؛ فليس لي غيرك في الدارين.

قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾: قيل عَلِمَ أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فَسأَلَ الوفاة.

وقيل من أمارات الاشتياق تمنّي الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام أُلقِيَ في الجُبِّ فلم يقل توفني مسلماً، وأقيم فيمن يزيد فلم يقل توفني مسلماً، وحُبِسَ في السجن سنين فلم يقل توفني مسلماً، ثم لما تمَّ له المُلْكُ، واستقام الأمر، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّداً، وأَلْفَى أبويه معه على العرش قال:

﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾[1] فعُلِمَ أنه كان يشتاق للقائه (سبحانه).

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله يقول. قال يوسف ليعقوب: عَلِمْتَ أنّا نلتقي فيما بعد الموت.. فلِمَ بكيْتَ كلَّ هذا البكاء؟

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٣١.

فقال يعقوب، يا بُنَيّ إنَّ هناك طرُقاً، خِفْتُ أن أسلكَ طريقاً وأنت تسلك طريقاً، فقال يوسف عند ذلك: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

ويقال إن يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال: توفني مسلماً، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال: يا بني دَعْني أشتفي بلقائك من الذي مُنِيتُ به في طول فراقك، فلا تُنَغِّصْني ـ بهذه السرعة ـ قولَكَ: توفَّني مسلماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

تبيّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميّ لا يكون إلا بتعريف سماويّ.

ويقال كونُ الرسولِ ـ ﷺ ـ أُميًا في أول أحواله علامةُ شَرَفِه وعلوّ قدْرِه في آخر أحواله، لأنَّ صِدْقَهُ في أن هذا من قِبَل اللَّهِ إنما عُرِفَ بكونه أميا، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وصادق حُكْمِه حكمته فيهم.

ويقال معناه: أَقَمْتُكَ شاهداً لإرادة إيمانهم، وشِدَّةِ الحِرْصِ على تحقُّقهِم بالدِّين، وإيقانهم. ثم إنّي أعلم أنهم لا يؤمن أكثرُهم، وأخبرتك بذلك، وفُرِضَ عليكَ تصديقي بذلك، وفرضتُ عليك إرادتي كونَ ما عَلِمْتُ أنه لا يكون من إيمانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

هذه سُنَّةُ الله ـ سبحانه ـ مع أنبيائه حيثُ أَمَرَهُم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة عِوَضاً ولا أجراً، وكذلك أمره للعلماءِ ـ الذين هم وَرثَةُ الأنبياء عليهم السلام ـ بألا يأخذوا مِنَ الخَلقِ عِوَضاً على دعائهم إلى الله. فَمنْ أخذ منهم حَظا من الناس لم يُبارَكْ للمستمِع فيما يسمع منه؛ فلا له أيضاً بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

الآياتُ ظاهرة، والبراهين باهرة، وكلُّ جُزْءٍ من المخلوقات شاهِدٌ على أنّه واحد، ولكن كما أَنَّ مَنْ أغمَضَ عينه لم يستمتع بضوء نهاره فكذلك مَنْ قَصَّرَ في نَظَرِه واعتباره لم يحظَ بعرفانه واستبصاره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

الشِّرْكُ الجَليُّ أن يتَّخِذَ من دونه ـ سبحانه ـ معبوداً، والشِّرْكُ الخفِيُّ أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه ـ سبحانه ـ مقصوداً.

ويقال شِرْكُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً، أو يطالعوا سواه موجوداً.

ويقال مِنَ الشِّركِ الخفيِّ الإحالةُ على الأشكال في تجنيس الأحوال، والإخلاد إلى الاختيار والاحتيال عند تزاحم الأشغال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أَفَأَمِنَ الذي اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبْتلى بالاستئصال، أَفَأَمِنَ مَنْ اغترَّ بطول السلامة ألا يقوم البلاءُ عليه يومَ القيامة.

ويقال الغاشيةُ حجابٌ من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا ينقشع بالتخشع.

ويقال الغاشيةُ من العذاب أن تزولَ من القلب سرعةُ الانقلاب إلى الله تعالى، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي معناه أنشدوا:

قلتُ للنفسِ إنْ أردتِ رجوعاً ... فارجعي قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطريقُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

«البصيرة»: اليقين الذي لا مِرْيَةَ فيه، والبيان الذي لا شكَّ فيه. البصيرةُ يكون صاحبُها مُلاطَفاً بالتوفيق جَهْراً، ومكاشَفاً بالتحقيق سِرًّا.

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ العرفانِ؛ فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل.

قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي ذلك سبيلي، وسبيلُ مَنْ اقتدى بهديي فهو أيضاً على بصيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

تعجبوا أن يبعثَ اللّهُ إلى الخلق بشراً رسولاً، فبيَّن أنه أجرى سُنَّتَه ـ فيمن تقدَّمَ من الأمم ـ ألا يكونَ الرسولُ إليهم بَشَراً، فإما أن جحدوا جوازَ بعثةِ الرسولِ أصلاً، أو أنهم استنكروا أن يبعث بشرًا رسولاً.

ثم أَمَرهُم بالاستدلال والتفكر والاعتبار والنَّظَر فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

حتى إذا استيأس الرسلُ مِنْ إيمانِ قومهم، وتَيَقَّنُوا أنهم كذبوهم ـ والظن ها هنا بمعنى اليقين ـ فعند ذلك جاءهم نصرُنا؛ للرسل بالنجاةِ ولأقوامهم بالهلاك، ولا مَرَدَّ لبأسنا.

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، فكما أنه يُنَزِّلُ المطَر بعد اليأسِ فكذلك يفتح الأحوالَ بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

عِبْرةٌ منها للملوك في بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أَحسن إليهم، وأعتقهم حين مَلَكَهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى؛ فإن يوسفَ لمَّا ترك هواه رقَّاه الله إلى ما رقَّاه.

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لمَّا تبعت هواها لقيت الضرَّ والفقر.

وعبرةٌ للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالاً.

وعبرةٌ في العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

وعبرةٌ في ثمرة الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام.

السورة التي يذكر فيها «الرعد»

بسم الله الرحمن الرحيم

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها يُورِثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً، ولقوم حزناً ثم هَرَباً، فَمَنْ سَمِع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمته فأذَنَه لها طَرَب، ومَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾.

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إنَّ هذه آيات الكتاب الذي أخبرتُ أَنّي أُنَزِّلُ عليك.

فالألف تشير إلى اسم «الله»، واللام تشير إلى اسم «اللطيف»، والميم تشير إلى «المجيد»، والراء تشير إلى اسم «الرحيم» قال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتاب الذي أَخبرتُ أني أنزله على محمد ـ ﷺ. ثم عَطَفَ عليه بالواو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ هو حق وصدق، لأنه أنزله على نَبِيِّه ـ ﷺ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به، فَهُمْ الأكثرون عدداً، والأقلون قَدْراً وخَطَراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾.

دَلَّ على صفاته وذاته بما أخبر به من آياته، ومن جملتها رفعُ السمواتِ وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّها، ولا أوتادٌ تُمْسِكُها. وأخبر في غير هذه المواضع أنه زَيَّنَ السماءَ بكواكبها، وخصَّ الأرض بجوانبها ومناكبها.

و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾: أي احتوى على مُلْكِه احتواءَ قُدْرَةٍ وتدبير. والعرشُ هو المُلْكُ حيث يقال: اندكَّ عرشُ فلان إذا زال مُلْكُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ. . .﴾.

كلٌّ يجري في فَلَكٍ. ويدلُّ كل جزء من ذلك على أنه فِعلُ في مُلْكِه غير مشترك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بَسَطَ الأرضَ ودحاها، والجبالَ أرساها، وفَجَّرَ عيونها، وأجرى أنهارها، وجَنَّسَ بِحارها، ونَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها، وأنبت أشجارها، وصَنَّفَ أزهارَها وثمارَها، وكوَّر عليها ليلَها ونهارَها.. ذلك تقديرُ العزيز العليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَمِنْ سبخ[1] ومن حَجَرٍ ومن رملٍ.. أنواع مختلفة، وأزواج متفقة. وزروع ونبات وأشجار أشتاتَ، وأصل الكل واحد، فأجزاؤها متماثلة، وأبعاضها متشاكلة، ولكن جعل بعضها غدقاً[2]، وبعضها قشراً، وبعضها غُصْناً، وبعضها جذعاً، وبعضها أزهاراً، وبعضها أوراقاً.. ثم الكلُّ واحد، وإن كان لكلٍّ واحدٍ طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحدٍ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارُ ما يحتاج إليه، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وإن تعجبْ ـ يا محمد ـ لقولهم فهذا موضعُ يَتَعَجَّبُ منه الخَلْق، فالعَجَبُ لا يجوز في صفة الحقِّ، إذ إن التعجبَ الاستبعادُ والحقُّ لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخَلْق، وحَسَنٌ ما قالوا: «إنما تعجب من حجب» لأنَّ مَنْ يَنَلْ عيونَ البصيرةِ لا يتعجَّبُ مِنْ شيء.

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له.

وإطلاق هذا ـ وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة ـ لا يجوز، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا. والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا: أعجبُ العجبِ قول ما لا يجوز في وصفه العجب.. وإنْ تعجَّب.

---

(١) السَّبَخُ: المكان يسبخ فيُنْبِت الملح وتسوخ فيه الأقدام (لسان العرب ٢٤ مادة: سبخ).
(٢) الغدق: من العشب: بلله وريُّه. (اللسان ١٠/ ٢٨٢ مادة: غدق).

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: استبعادُهم النشأةَ الثانيةَ ـ مع إقرارهم بالخَلْقِ الأولِ وهما في معنًى واحد ـ موضعُ التعجب، إذ هو صريح في المناقضة، وكان القومُ أصحابَ تمييز وتحصيل، فقياسٌ مثلِ هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله ـ سبحانه ـ لَبَّسَ عليهم كما قال: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ـ وإلا ما كان ينبغي أَنْ يخفي عليهم جواز هذا مع وضوحه[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

الكناية في: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ راجعةٌ إلى العبد، أي أن الله وَكَلَ بكلٍّ واحدٍ منهم معقباتٍ وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلَّف وذاكَ من أمر الله، أي من البلاء الذي بقدرة الله. يحفظونهم بأمر الله من أمر الله، وذلك أن الله ـ سبحانه ـ وَكَلَ لكلٍّ واحدٍ من الخَلْق ملائكةً يدفعون عنهم البلاءَ إذا ناموا وغفلوا، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا... وفي جميع أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

إذا غيَّروا ما بهم إلى الطاعات غيَّر الله ما بهم منه من الإحسانِ والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيَّروا ما بهم من الشكر لله تغيَّر عليهم ما مَنَّ به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع، وأظهروا العجز غيَّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل.

ويقال إذا غيَّروا ما بألسنتهم من الذِّكرِ غيَّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيانَ والغفلة، فإذا كان العبد في بسطةٍ وتقريب، وكشفٍ بالقلب وترقب.. فاللَّهُ لا يُغَيِّر ما بأنفسهم بتركِ أدبٍ، أو إخلال بحقٍ، أو إلمام بذنبٍ.

ويقال لا يَكُفُّ ما أتَاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يتركَ ويُغَيِّر ما هو به من الشكر والحمد. فإذا قابل النعمة بالكفران، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يُطيح به من العصيان.. أبدل اللَّهُ تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان، وسَلَبَه ما كان يعطيه من الإحسان.

ويقال إذا توالت المحنُ وأراد العبدُ زوالَها فلا يصل إليه النَّفْضُ[٢] منها إلَّا بأَنْ يغير ما هو به؛ فيأخذ في السؤال بعد السكوت، وفي إظهار الجَزَع بعد السكون، فإذا أخذ في التضرع غيَّر ما به من الصبر.

---

(١) الآيات: من (٥ ـ ١٠) لم ترد.

(٢) النفض: نفض الرجل من مرضه: بَرِىء منه.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: يقال إذا أراد اللّهُ بقومٍ بلاءً وفتنة فما تعلَّقَتْ به المشيئة لا محالة يجري.

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (...)[1] أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، ويسعون - في الحقيقة - في دَمِهِم كما قال قائلهم:

إلى حَتْفِي مَشَى قدمي إذا قَدَمِي أراق دمي

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

كما يريهم البرقَ - في الظاهر - فيكونون بين خوفٍ وطمع؛ خوفٍ من إحباس المطر وطمع في مجيئه. أو خوفٍ للمسافر من ضرر مجيء المطَر، وطمعٍ للمقيم في نفعه.. كذلك يُريهم البرقَ في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق في الصفاء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة.

﴿خَوۡفٗا﴾: من أن ينقطع ولا يبقى، ﴿وَطَمَعٗا﴾: في أن يدومَ فيه نقلُ صاحبِه من المحاضرة إلى المكاشفة، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود.

ويقال: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾: من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار العرفان. فإذا طلعت شموسُ التوحيدِ فلا خفاءَ بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس، كما قيل:

هي الشمسُ إلا أنَّ للشمس غيبةً وهذا الذي نَعْنيه ليس يغيب

ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجنَّ عليهم ليالي الفرقة، فَقَلَّمَا تخلو فرحةُ الوصال من أن تعقبها موجة الفراق، كما قيل:

أي يومٍ سررتني بوصالٍ لم تَدَعْني ثلاثةً بصدود؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

إذا انتاب السحابةَ في السماء ظلامٌ في وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض، فَمَا لَمْ تَبْكِ السماءُ لا يضحكُ الروضُ، كما قيل:

ومأتمٌ فيه السماءُ تبكي والأرضُ من تحتها عَرُوسُ

كذلك تنشأ في القلب سحابة الطلب، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر، ثم يلوح

(١) بياض في الأصل.

وجهُ الحقيقة، فتضحكُ الروح لفنونِ راحاتِ الأُنس، وصنوفِ أزهارِ القُرْب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

أي الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

قد يكون في القلب حنين وأنين، وزفير وشهيق. والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين ـ خصوصاً ـ اطلاعٌ يبكون دَمَاً لأَجْلهم، لا سيّما إذا وقعت لواحدٍ منهم فترةٌ، والفترةُ في هذه الطريقة الصواعقُ التي يصيب بها من يشاء، وكما قيل:

ما كان ما أَوْلَيْتَ مِن وَصْلنا إلا سراجاً لاح ثم انطفا

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

دواعي الحق تصير لائحةً في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم، استجاب لبيان العلم. وفي مقابلتها دواعي الشيطان التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت الغَيّ، ومعها دواعي النّفس وهي قائدةٌ للعبد بزمام الحظوظ، فمن رَكَنَ إليها ولاحَظَها وقع في هوانِ الحِجاب.

ودواعي الحقّ تكون بلا واسطة مَلَكٍ، ولا بدلالة عقل، ولا بإشارة علم، فمن أسمعه الحقُّ ذلك استجاب لا محالَة لله بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

هواجس النَّفس ودواعيها تدعو ـ في الطريقة ـ إلى الشِّرْكِ، وذلك بشهود شيءٍ منكَ، وحسبان أمرٍ لَكَ، وتعريجٍ في أوطان الفرْق، والعَمَى عن حقائق الجَمْع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

المؤمن يسجد لله طوعاً، وإذا نزل به ضر ألجاه إلى أَنْ يتواضع ويسجد، وذلك معنى سجوده كرهاً ـ وهذا قول أهل التفسير. والكافر يسجد طائعاً مختاراً، ولكن لمَّا كان سجودُه لطلبِ كَشْفِ الضُّرّ قال تعالى: ﴿**إنه يسجد كرهاً**﴾ على مقتضى هذا كلُّ مَنْ يَسْجُدُ لابتغاءِ عِوَضٍ أو لكشفِ محنة.

ويقال السجودُ على قسمين: ساجدٌ بِنَفْسِه وساجدٌ بقلبه؛ فسجودُ النَّفْسِ معهود، وسجودُ القلب من حيث الوجود.. وفَرْقٌ بين من يكون بنفسه، وواجد بقلبه.

ويقال الكلُّ يسجدون لله؛ إمَّا من حيث الأفعال بالاختيار، أو من حيث الأحوال

بنعت الافتقار والاستبشار: سجودٌ من حيث الدلالة على الوحدانية؛ فكلُّ جزءٍ من عين أو أثر فَعَلَى الوحدانيةِ شاهدٌ، وعلى هذا المعنى للَّهِ ساجدٌ. وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

سَلْهُمْ ـ يا محمد ـ مَنْ موجِدُ السموات والأرض ومُقَدِّرُها، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبِّرها؟ فإنْ أَسْكَتَهُمْ عن الجواب ما استكَنَّ في قلوبهم مِنَ الجهلِ فقُلْ الله منشيها ومجريها.

ثم قال: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: يعني الأصنام، وهي جمادات لا تملك لنفسها نَفعاً ولا ضَرًّا، ويلتحق في المعنى بها كلُّ مَنْ هو موسومٌ برقم الحدوثِ، فَمَنْ علَّقَ قلبَه بالحدثان ساوَى ـ مِنْ وجهٍ ـ مَنْ عَبَدَ الأصنام، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة، والبصيرُ مَنْ كَحَّلَ الحقُّ بصيرة سِرِّه بنور التوحيد.. لا يستويان!

ثم هل تستوي ظلماتُ الشِّرك وأنوارُ التوحيد؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياء شهود التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

أي لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدٌّ مُضَاهٍ، وفي جميع الأحكام له موازٍ، ولم يُجْدِ حينئذٍ التميزُ بين فِعْلَيْهِما.

وكذلك لو كان له نِدٌّ.. فإنَّ إثباتَهما شيئين اثنين يوجِب اشتراكَهما في استحقاق كل وصف، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له، وهذا يؤدي إلى ألا يُعْرَفَ المَحَلُّ.. وذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ﴾ تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها، والمخاطِبُ لا يدخل في الخطاب.

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾: الذي لا خَلَفَ عنه ولا بَدَل، الواحد الذي في فضله منزه عن فضل كل أحد، فهو الكافي لكلِّ أحد، ويستعين به كل أحد.

و﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: الذي لا يجري بخلاف حُكْمِه ـ في مُلْكِه ـ نَفَسٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

هذه الآية تشتمل على أمثالٍ ضربها اللَّهُ لتشبيه القرآنِ المُنَزَّلِ بالماءِ المُنَزَّلِ من السماء، وشبَّه القلوب بالأودية، وشبَّه وساوسَ الشيطان وهواجسَ النَّفس بالزَّبَدِ[1] الذي يعلو الماء، وشبَّه الخُلُق بالجواهر الصافية من الخَبَثِ كالذهب والفضة والنحاس وغيرها. وشبَّه الباطلَ بِخَبَثِ هذه الجواهر. وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتمل الماء في القلة والكثرة ـ كذلك القلوبُ تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة. وكما أَن السيلَ إذا حَصَلَ في الوادي يُطَهِّرُ الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حِفْظُه في القلوب نَفَى الوساوسَ والهوى في الوادي عنها، وكما أَنَّ الماءَ قد يصحبه ما يكدره، ويخلص بعضة مما يشوبه ـ فكذلك الإيمان وفَهْمُ القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نَزَغاتِ الشيطان ومن الخواطر الرَّدِيَّة، فالقلوب بين صافٍ وكَدِرٍ.

وكما أنَّ الجواهَر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيبت خَلَصَتْ من الخَبَثِ كذلك الحق يتميز من الباطل، ويبقى الحقُّ ويضمحل الباطل.

ويقال إن الأنوار إذا تلألأت في القلوب نَفَت آثار الكلفة، ونور اليقين ينفي ظلمة الشك، والعلم ينفي تهمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة. وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ، وأنوارُ طلوعِ الشمس من حيث العرفان تنفي سَدَفَةَ الليل من حيث حسبان أثر الأغيار.

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فَمِنْ إِناءٍ يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره، كذلك القلوب تختلف، وفي الخبر: «إن لله تعالى أوانيَ وهي القلوب»[2]؛ فزاهد قاصدٌ ومحب واجِدٌ، وعابدٌ خائفٌ ومُوحِّدٌ عارفٌ، ومتعبِّدٌ متعفِّفٌ ومتهجِّدٌ متصوف، وأنشدوا:

أَلـوانُـهـا شـتَّـى الـفـنـونِ وإنـمـا ... تُـسْـقـى بـمـاءٍ واحـدٍ مـن مَـنْـهَـلِ

---

(١) الزَّبد: ما يعلو الماء وغيره من الرغوة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٠٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٧٣.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الوعد بقبول استجابتهم، وذلك مِنْ أَجَلِّ الأشياءِ عندهم؛ فلا شيء أعزُّ على المحبِّ مِنْ قبولِ محبوبه منه شيئاً.

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنّ لهم جميع ما في الأرض وأنفقوه عَمْداً لا يُقْبَلُ منهم، ولهم سوءُ الحساب، وهو المناقشة في الحساب، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

استفهام في معنى النفي، أي لا يستوي البصير والضرير، ولا المقبول بالمردود بالحجبة، ولا المُؤَمَّل بالتقريب بالمُعَرَّض للتعذيب، ولا الذي أقصيناه عن شهودنا بالذي هديناه بوجودنا. إنما يتَّعِظُ مَنْ عقله له تشريف، دونَ مَنْ عقله له سببُ إقصاءٍ وتعنيف.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان، والوفاء بشرط الإحسان، والتوقيُّ من ارتكاب العصيان ـ بذلك أُبْرِمَ العقدُ يوم الميثاق والضمان.

وميثاقُ قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

الذين يَصِلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل.

ويقال الذين يصلون أنفاسَهم بعضاً ببعض؛ فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغير الله، ولا بغير الله، ولا في شهود غير الله.

ويقال يَصِلُون سَيْرَهم بِسُرَاهم في إقامة العبودية، والتبرّي من الحول والقوة.

وقوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: الخشية لجامٌ يُوقِفُ المؤمنَ عن الرَّكْضِ في ميادين الهوى، وزِمامٌ يَجُرُّ إلى استدامة حكم التُّقَى.

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأَجْلِها يصبر الصابر، فالعُبّاد يصبرون

لخوف العقوبة، والزهاد يصبرون طمعاً في المثوبة، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول، واستدامةُ التوقي منه، فيدخل فيه ترك الشهوات، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات، فيصبر عن العِلَّةِ والزَّلةِ، وعن كل شيءٍ يشغل عن الله.

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تعزُّزِ الحق، فإنَّه ـ سبحانه ـ يتفضَّلُ على الكافة من المجتهدين، ويتعزز ـ خصوصاً ـ على المريدين، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم، فإذا صَدَقُوا في صبرهم جَادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

الأغنياء ينفقون أموالَهم. والعُبَّاد ينفقون نفوسَهم ويتحملون صنوف الاجتهاد، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد. والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يبوحَ علم من الإقبال عليهم. وأمَّا المحبون فينفقون أرواحَهم.. وهي كما قيل:

ألستَ لي خَلَفاً؟ كفى شَرَفاً ... فما وراءَكَ لي قَصْدٌ ومطلوبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

يعاشرون الناس بِحُسْنِ الخُلُق؛ فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف، وإنْ عَامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإنْ أذنب إليهم قومٌ اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَن يُحبون صحبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم، وقد ورد في الخبر: «المرءُ مع مَنْ أَحَب»[1] فَمَنْ كان محبوبُه أمثالَه وأقاربَه حُشِرَ معهم، ومَنْ كان اليومَ بقلبه مع الله، فهو غداً مع الله، وفي الخبر: «أنا جليسُ مَنْ ذكرني»[2]. وهذا في العاجل، وأمَّا في الآجل، ففي الخبر: «الفقراء الصابرون جُلَسَاءُ الله يومَ القيامةِ».

---

(١) أخرجه البخاري (أدب ٩٦)، ومسلم (بر ١٦٥)، والترمذي (زهد ٥٠)، (دعوات ٩٨) والدارمي (رقاق ٧١)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٩٢، ٣/ ١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، ٤، ١٠٧، ١٦٠، ٢٣٩، ٢٤٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٥.

(٢) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

مَنْ كفر بعد إيمانه نَقَضَ عهدَ الإسلام في الظاهر، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه طريق الإرادة، فقد نقض عَهْدَه في السِّرَّاء... فهذا مُرْتَدٌّ جهراً، وهذا مرتَدٌّ سِرًّا، والمرتد جهراً عقوبته قطعُ رأسِه، والمرتد سِرًّا عقوبته قَطْعُ سِرِّه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، هو نقض قوله: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار، وتَرْكُ الاكتفاء بالله الجبّار.

ويقال نَقْضُ العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهودِ الأقدار، وملاحظة التقدير.

ويقال نقض العهد بتَرْكِ نَفْسِه، ثم يعود إلى ما قال بتركه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

يبسط الرزق للأغنياء ويُطَالِبُهم بالشكر؛ ويُضَيِّقُ على الفقراء ويطالبهم بالصبر. وَعَدَ الزيادةَ للشاكرين، ووعد المَعِيَّة للصابرين. للأغنياء الأموال بمزيدها، وللفقراء التجرد في الدارين عن طريفها وتليدها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

فَرِحَ الأغنياءُ بزكاء أموالهم، وفَرِحَ الفقراءُ بصفاء أحوالهم.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ قليلٌ بالإضافة إلى ما وعدهم الله؛ فأموالُ الأغنياء ـ وإنْ كَثُرَت ـ قليلةٌ بالإضافة إلى ما وَعَدَهم من وجود أفضاله، وأحوال الفقراء ـ وإنْ صَفَتْ ـ قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾: وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا ـ ﷺ ـ من الشواهد والبرهان حتى (...)[1] الزيادة.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٦]: وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله، وفي الذكر وَجَدُوا سَلْوَتَهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم. وقومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكر الله فَذَكَرَهُمْ الله ـ سبحانه ـ بلطفه، وأَثْبَت الطمأنينةَ في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال إذا ذكروا أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهم استروحت قلوبُهم، واستبشرت أرواحُهم، واستأنست أسرارُهم، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ لِمَا نالت بِذِكْرِهِ من الحياة، وإذا كان العبدُ لا يطمئن قلبُه بذكر الله، فذلك لِخَلَلٍ في قلبه، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

طابت أوقاتُهم وطابت نفوسُهم.

ويقال طوبى لمن قال له الحقُّ: طوبى.

طوبى لهم في الحال، وحُسْنُ المآب في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل، ولئن أصابك منهم بلاءٌ فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء، فاصْبِرْ كما صَبَرُوا تُؤْجَرْ كما أُجِرُوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

لئن كفروا بنا فآمِنْ أنت، وإذا آمنتَ فلا تبالِ بِمَنْ جَحَد، فإنَّك أنت المقصودُ من البَرِيَّة، والمخصوصُ بالرسالة والمحبة.

لو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرضٌ في أفعالنا.

ولو كان الغرض في الخِلْقَة فأنت سيد البَشَر، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال، فهذا مخلوق يقول في مخلوق:

وكنتُ أَخَّرْتُ أوطاري لوقت ... فكان الوقت وقتك والسلام[1]

وكنت أطالِبُ الدنيا بِحُبٍّ ... فكنتَ الحُبَّ.. وانقطع الكلام

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

---

(١) الأوطار: (ج) الوطر: الحاجة والبغية.

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن، ولكن المنشىء الله، والخير والشر جملةً من الله، والأمر كله لله. فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن ـ والقرآن كلام الله العزيز ـ فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق.. فإن ذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا، ويقال أفلم ييأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدي؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

يعني شؤمُ كُفرِهم لا يزال واصلاً إليهم، ومقتصُّ فعلهم لاحِقٌ بهم أبداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول ـ ﷺ ـ عما كان يلاقيه منهم. وكما أن هؤلاء في التكذيب جَرَوْا على نهجهم فنحن أَدَمْنَا سُنَّتَنا في التعذيب معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾.

الجواب فيه مضمر؛ أي أفمن هو مُجْرِي ومنشىء الخَلْقِ والمُطَّلِعُ عليهم، لا يَخْفَى عليه منهم شيءٌ كَمَنْ ليس كذلك؟ لا يستويان غداً أبداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾.

قُلْ لهم أروني أي تأثير منهم، وأي نفع لكم فيهم، وأي ضرر لكم منهم؟ أتقولون ما يعلم الله بخلافه؟ وهذا معنى قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أي قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان، وزين للذين كفروا مكرهم، وصاروا مصدودين عن الحق، مسدودة عليهم الطُّرُقُ، فإنَّ مَنْ أَضلَّه حُكْمُه ـ سبحانه ـ لا يهديه أحدٌ قطعاً[١].

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

المَثَلُ أي الصفة، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار، وأُكُلُها دائم وظلها دائم، أي أن اللذاتِ فيها متصلةٌ. وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة، فالمؤجَّلَةُ ما ذكره الله ـ سبحانه ـ في نص القرآن، والمعجلة جنة الوقت.. والدرجات ـ من حيث البسط ـ فيها متصلة، ونفحاتُ الأُنْسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

يريد بهم مؤمني أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾.

أي الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمَّا نزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

قل يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾. والعبوديةُ المبادرة إلى ما أُمِرْتُ به، والمحاذرة مما زجُرْتُ عنه، ثم التبرِّي عن الحَوْل والمُنَّة، والاعتراف بالطوْل والمِنَّة.

وأصل العبودية القيام بالوظائف، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

أي حُكْماً ببيان العرب؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أرسل الرسلَ في كلِّ وقتٍ كُلاً بلسان قومه ليهتدوا إليه.

ويقال مِنْ صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذِّمام، وهذه الأشياء مندوبٌ إليها في الشريعة.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: أي ولئن وافقتهم، ولم تعتصم بالله، ووَقَعَتْ على قلبك حشمةٌ من غير الله ـ فَمَا لَكَ من واقٍ من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى قومهم، فلم يكونوا إلا من جنسك، وكما لكم

أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية، ولم يكن ذلك قادحاً في صحة رسالتهم، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم.

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر في حاله؛ ولا يضره ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

أي لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ، وله وقت قُسِمَ له، وأنه لا اطلاعَ لأحدٍ على علمه، ولا اعتراضَ لأحدٍ على حُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

المشيئة لا تتعلق بالحدوث، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث.

فصفات ذات الحق ـ سبحانه ـ من كلامه وعلمه، وقوْلِه وحُكْمِه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله؛ المحوُ يرجع إلى العَدَم، والإثباتُ إلى الإحداثِ، فهو يمحو من قلوب الزُّهاد حُبَّ الدنيا ويُثْبِتُ بَدَلَه الزهدَ فيها، كما في خبر حارثَةَ: «عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حَجَرُها وذهَبُها».

ويمحو عن قلوب العارفين الحظوظَ، ويُثْبِتُ بدلها حقوقَه تعالى، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهودَ غير الحق ويثبت بَدَلَه شهود الحق، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود الأحدية.

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم، ويثبتهم بشاهد الحق.

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحقّ فيكون محواً عن الخْلق مثبتاً بالحق للحق.

ويقال يمحو العبد فلا يجري عليه حكم التدبير، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطانَ التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء.

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق، ويثبت بَدَلَه غلباتِ الغفلةِ وهواجِمَ النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة، ويثبت بدلها الرجوعَ إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة.

ويقال يمحو أوضارَ[1] الزَّلة عن نفوس العاصين، وآثار العصيان عن ديوان

---

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

المذنبين (ويثبت) يدل ذلك لَوْعَةَ النَّدم، وانكسار الحَسْرَةِ، والخمودَ عن متابعة الشهوة.

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئةَ، ويثبت بدلها الحسنة، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ويقال يمحو الله نضارةَ الشباب ويثبت ضعفَ المشيب.

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار صحبتهم، ويثبت بدلاً منه الزهد في صحبتهم والاشتغال بعِشْرَتِهم.

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صَفَتْ من الغيب، وليالٍ كانت مُضاءةً بالزلفة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياماً في أشدُّ ظلاماً من الليالي الحنادس[1]، وزمانا يجعل سَعَةَ الدنيا عليهم محابِس.

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

ويقال يمحوهم إذا تجلَّى لهم، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم.

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار، ويثبتهم إذا تجلَّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار، ويشهدون بحكم الافتخار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به عِلْمُه وحُكْمُه مما لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه.

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

نفي عنه الاستعجال أمراً، و (. . . . . .)[2] في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعود جهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

في التفاسير: بموت العَلماء، وفي كلام أهل المعرفة بموت الأولياء، الذين إذا أصاب الناسَ بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلَاءَ عنهم.

---

(١) الحنادس: (ج) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال هو ذهابُ أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشِدٌ في طريق الله لم يجد مَنْ يهديه إلى الله.

ويقال: في كل زمان لسانٌ ينطق عن الحقِّ سبحانه، فإذا وَقَعَتْ فترةٌ سكنَ ذلك اللسانُ ـ وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية، وأنشد بعضهم:

طوى العصران ما نشراه مني ... وأبلى جدتي نشرٌ وطيُّ

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ... ولا يبقى مع النقصان شيءُ

ويقال ينقصها مِنْ أطرافها أي بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار، وانتشار الإسلام، قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

ويقال ينقصها من أطرافها بخرابِ البلدان، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فموعودُ الحقِّ خرابُ العَالَم وفناءُ أهلِه، ووعدُه حقٌّ لأن كلامَه صِدْقٌ، واللَّهُ يحكم لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ولا ناقِضَ لما أبرمه، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه، ولا قابلَ لِمَنْ رَدَّه، ولا رادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه، ولا مُذِلَّ لمن أَعَزَّه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]: لأن ما هو آتٍ فقريب.

ويقال ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] في الدنيا؛ لأنَّ الأولياءَ إذا ألموا بشيءٍ، أو هَمُّوا لمزجورٍ عُوتِبُوا في الوقت، وطولِبوا بِحُسْنِ الرُّجعي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

مكرُهم إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفرَ، ومكرُ الله بهم تَوَهُّمُهُم أنهم مُحْسِنون في أعمالهم، وحسبانهم أنهم سَنَأْمَنُ أحوالُهم، وظَنُّهم أنه لا يحيق بهم مكرُهم، وتخليتُه إياهم ـ مع مَكرِهم ـ مِنْ أَعْظَم مَكْرِه بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وَبالَ تكذيبِهم عائدٌ إليهم، فإنَّ اللَّهَ شهيدٌ لَكَ بِصَدْقِك. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو الله سبحانه وتعالى عنده عِلْمُ جميع المؤمنين. فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك.

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله معناه بالله؛ فقلوب العارفين بالله إشراقُها، وقلوب الوالهين بالله احتراقُها، لهؤلاء فا (. . .)[1] محبته، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته.

وأصحاب الوصول قالوا: بالله. . فوَصلَ من الطالبين مَنْ وصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

أقسم بهذه الحروف: إنَّه لَكِتَابٌ أُنزِل إليك لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومِنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْع ـ بإذن ربهم، وبإرادته ومشيئته، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾.

عرَّف الخَلْقَ أنَّ اللَّهَ هو الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض.

فَمَنْ عَرَف فله المآب الحميد، ومَنْ جَحَدَ فله العذاب الشديد؛ وذلك العذاب هو جَهْلُه بأنه ـ سبحانه ـ مَنْ هو.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾.

ثم ذكر ذميمَ أخلاقِهم، فقال: هُمُ الذين يُؤْثِرُونَ اليسيرَ مِنْ حُطَام الدنيا على الخطير من نِعَم الآخرة، وذلك من شدة جُحْدِهم، ويبغون للدِّين عِوَجاً بكثرة جَمْعِهم، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجلُّ محنة ومصيبة.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

إنما كان كذلك ليكون آكَدَ في إلزام الحجة: وأنّى ينفع ذلك إذا لم يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ المحجَّةِ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السابقة، وأصحابُ الغواية وقعوا في ذُلِّ العداوة: فلا اعتراضَ عليه فيما يصنع، ولا يُسأَلُ عما يفعل أو لم يفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

أَخْرِجْ قومَك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين، ومنْ إشكالِ الجهل إلى رَوْحِ العِلْم. وذَكِّرْهُم بأيام الله؛ ما سلف لهم من وقت الميثاق، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم.

ويقال ذكِّرْهُم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح:

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها
أيـــــام لـــــم (.....)[1]

ويقال ذكِّرْهم بأيام الله وهي التي كان العبدُ فيها في كتم العدم، والحق يتولّى عباده قبل أن يكون لِلعَبادِ فِعْلٌ؛ فلا جُهْدَ للسابقين، ولا عناءَ ولا تَرْكَ للمقتصدين، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم.

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة، والحكم على الإرادة.. ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيام.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

﴿صَبَّارٖ﴾: راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيذ العيش يَسُرُّه.

﴿شَكُورٖ﴾: محجوبٌ بشهود النِّعم عن استغراقه في ظهور حقه.. هذا واقفٌ مع صبره وهذا واقف مع شكره، وكلٌّ مُلْزَمٌ بحده وقَدْرِه: والله غالب على أمره، مقدَّسٌ في نَفْسِه مُتعزِّزٌ بجلال قُدْسِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

تَذَكُّرُ ما سَلَفَ من النِّعَم يوجِبُ تجديد ما سَبَقَ من المحبة، وفي الخبر: «جُبِلَتْ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها»[1]؛ فالحقُّ أَمَرَ موسى عليه السلام. بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه، ولطائف إكرامه.. وفي بعض الكتب المنزلة على الأنبياء ـ عليهم السلام: «عبدي، أنا لَكَ مُحِبُّ فبحقي عليكَ كنْ لي محباً».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامي وإِكرامي، وإن كفرتم بإحساني لأعذبنكم اليوم بامتحاني، وغداً بفراقي وهجراني.

لئن عرفتم وصالي لأزيدنكم من وجود نوالي إلى شهود جمالي وجلالي.

ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة.

ويقال لئن شكرتم شهود المَكَافِي لأزيدنكم بشهود أوصافي.

ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامي لأزيدنكم بشهود إكْرَامِي ثم إلى شهود إِقْدَامي.

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائي لأزيدنكم مُنْتَظرَ آلائي.

ويقال لئن شكرتم مخصوصَ نِعَمي لأزيدنكم مأمول كَرَمِي.

ويقال لئن شكرتم ما خَوَّلناكُم من عطائي لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائي.

ويقال لئن شكرتم ما لَوَّحتُ في سرائركم زِدْناكُم ما أَلْبسْنَا من العصمة لظواهركم.

ويقال لئن كفرتم نِعْمَتِي بأَنْ توهمتم استحقاقَها لَجَرَّعْنَاكم ما تَسْتَمِرُّون مذاقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

إن اجتمعتم أنتم ومن عَاضَدَكَم، وكل من غاب عنكم وحضركم، والذين

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٥٤)، وابن كثير في (البداية والنهاية ١١/ ٥٨، ١٢/ ١٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٤١٠٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٧، ١١/ ٩٤)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ١٢١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٦٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٦٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٨٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٩٥)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٥٢٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٦٠٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٧٠١).

يقتفون أثركم ـ على أن تكفروا بالله جميعاً، وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً ـ ما أوجهتم لِعزِّنا شَيْنا، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنا زَيْنا. والحقُّ بنعوته ووصف جبروته عَلِيٌّ وعن العالَمِ بأَسْرِه غنيٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

استفهام في معنى التقرير. أخبره أنه لما جاءتهم الرسلُ قابلوهم بالكنود. وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم، وحَذَوْا سبيلَ أمثالهم في الكفر، وبنوا على الشك والريبة قواعدَهم، وأسسوا على الشِّرْكِ والغَيِّ مذاهبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي. سبحانه لا يتحرك نَفَسٌ إلا بتصريفه.

وكيف يبصر جلالَ قَدْرِهِ إلا من كَحَّله بنور بِرِّه؟

ثم قال. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق، وألّا يهربَ من خدمةٍ أو يجنحَ إلى راحة.. إنما العَجَبُ من سيدٍ عزيزٍ كريم يدعو عَبْدَه ليغفرَ له وقد أخطأ، ويعاملُه بالإحسانِ وقد جفا.

والذي لا يَكُفُّ عن العناد، ولا يؤثر رضاءَ سيده على راحة نفسه لا يُحْمَلُ هذا إلا على قِسمةٍ بالشقاء سابقة.. وإن أحكام الله بردِّه صادقة. ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهِم:.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم، ولم يعرفوا سرائرهم، ومالوا إلى تقليد أسلافهم، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قالت لهم الرسلُ ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه ـ سبحانه ـ مَنَّ علينا بتعريفه، واسْتخلَصَنا بما أَفْرَدَنا به من تشريفه. والذي اقترحتم علينا من ظهور الآيات

فليس لنا إلى الإتْيَانِ به سبيلٌ إلّا أن يُظْهِرَه الله علينا إذا شاء بما شاء ـ وهو عليه قدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وقد رقَّانا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان، فكفانا من مهان الشان. ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وقد حقَّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان، وكفاية ما أظلَّنا من الامتنان. ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولم نخرج إلى التقاضي على الله فيما وعدنا الله.

قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾: والصبر على البلاءَ يهون إذا كان على رؤية المُبْلِي، وفي معناه أنشدوا:

يستقدمون بلاياهم كأنهمُ ... لا ييأسون من الدنيا إذا قبلوا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

لما عجز الأعداءُ عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء معهم بأنواع الإنذار، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان، والتشريد في البلدان. وبسط الله على قلوبهم بوعد نصره ولقائه ما أظلَّهم من الأمر، ومكَّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوَّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال:

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾: أي خاف مقامه في محل الحساب غداً فأناب إلى نفسه على وجه التخصيص.

ويقال خاف مقامي أي هاب إطلاعي عليه، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل، والثاني تحقيق المراقبة في العاجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

الاستفتاح طلب الفتح، والفتح القضاء، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وغيره فلما نزل بهم البلاء، وتحقق لهم الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم، ولم تُقْبَلْ منهم صدقتُهم وفداؤهم، وندموا حين لا ندامة، وجزعوا بعدما عَدِموا السلامة.

ويقال: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾: بغير الرسل، ولما وجد الرسل إصرارَ قومهم سألوا

النصرة عليهم من الله كقول نوح ـ عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يوسف: ٨٨] فأجابهم الله بإهلاكهم.

ويقال إذا اشتد البلاءُ وصَدَقَ الدعاءُ قَرُبَ النَّجاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

لفظ «وراء» يقع على ما بين يديه وعلى ما خَلْف، والوراء ما توارى عليك أي استتر؛ يريد الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان، وعلى ما خَلْفَه؛ أي لأجل ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرةً واحدةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

يرى العذابَ ـ من شدته ـ في كل عضو، وفي كل وقت، وفي كل مكان. وليس ذلك الموت؛ لأنَّ أهلَ النار لا يموتون، ولكنه في الشدة كالموت. ثم ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: وهو الخلود في النار، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيامٍ قلائل ساعدته المشيئةُ فيها، وانخدع فلم يشرع بما يليها.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

أي وفيما يُتْلَى عليكَ ـ يا محمد ـ مَثَلٌ لأعمال الكفار في تلاشيها، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شيءٌ منها كَرَمَادٍ في يوم عاصف، فإنه لا يَبْقَى منه شيء ـ كذلك أعمالُهم. ومَنْ كان كذلك فقد خاب في الدارَين، وحلَّ عليه الويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحُكْمِ الحق، أي له ذلك بحقِّ ملكه، وخلقهما بقوله الحق؛ فجعل كلَّ جزءٍ منهما على وحدانيته دليلاً، ولِمَنْ أراد الوصول إلى ربِّه سبيلاً.

ثم قال: إنْ يَشَأْ يذهبكم بالإفناء، ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ في الإنشاء، وليس ذلك عليه بعزيز... وأنَّى ذلك وهو على كل شيء قدير؟![١].

---

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ . . .﴾.

لم يكونوا عن الحقِّ ـ سبحانه ـ متسترين حتى يظهروا له، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم، فصاروا كأنهم ظهروا لله. فقال الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء، فأجابهم المتكبرون: إنَّا جميعاً في العذاب مشتركون، ولو أمكننا أنْ ترفعَ عنكم من العذاب، وقدرنا على أن نهديَكُم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتم، وأجبناكم إلى ما سألتم، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين، ولا نحن لكم بمغيثين، ولا لما تدعونا إليه بمستجيبين. . .

فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، ولات حين ملام! إنما ينفع لومُ النَّفْس فيما تتعاطاه من الإساءة في زمان المُهْلَةِ وأوقات التكليف؛ فإنَّ أبوابَ التوبةِ مفتوحة، ولكن لمن لم ينزع روحَه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

ذلك الذي مضى ذِكْرُ صفةُ الكفار والأعداء. وأمَّا المؤمنون والأولياء، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والإيمان هو التصديق، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تحقيق التصديق. ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قلَّ أو كَثُرَ من وجوه الخيرات حتى القَذَر تميطه[2] عن الطريق.

و ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ـ وكذلك قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، فالوصفُ العام والتحيةُ لهم من الله السلامُ.

ويقال إن أحوالهم متفاوتة في الرتبة؛ فقومُ سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه، فشبهه بشجرة طيبة، وأصل تلك الشجرة ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية. تؤتى أكلها كل وقت، وينتفع بها أهلُها كل حين.

---

(١) الآية (٢٢) لم ترد.

(٢) أماطه: نحاه وأبعده.

وأصل تلك الشجرة المعرفة، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين. وفروعها الأعمال الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المعاصي.

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن وما جرى مجراه.

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية، وأزهارها الأخلاق الجميلة، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة.

وكما أن الثمار تختلف في الطَّعم والطبع والرائحة والصورة.. كذلك ثمرات الطاعات ومعاني الأشياء التي يجدها العبدُ في قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين، والبسط الذي يجده العبدُ في وقته وهو صفة العارفين، وراحةٍ في الضمير وهو صفة المريدين، وأُنسٍ يناله في سِرِّه وهو صفة المحبين. وقلقٍ واهتياج يجدهما ولا يعرف سببهما، ولا يجد سبيلاً إلا سكونه وهو صفة المشتاقين... إلى ما لا يفي بشرحه نطقٌ، ولا يستوفيه تكلُّفُ قَوْلٍ. وذكرٍ من لوائح ولوامع، وطوارق وشوارق، كما قيل:

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظْهِرُ كتمانا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمراتِ الأشجار في السنة مرة، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة. وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] كذا لطائف هذه الشجرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة، ولا محجوبة، وهي في كل وقت ونَفَسٍ تبدو لهم غيرَ محجوبة.

وثمرات الشجرة أشرف الثمار، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار، وإشارات أهل هذه القصة وألفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنُّوْر.

ويقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلهية، وللرسول - ﷺ - بالنبوة. وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص.

والشجرة الطيبة المعرفة، وأصلها ثابت في أرضٍ غير سبخةٍ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تنبت. ثم لا بدَّ للشجرة من الماء، وماء هذه الشجرة دوام العناية، وإنما تُورِقُ بالكفاية، وتَتَوَرَّدُ بالهداية.

ويقال ماءُ هذه الشجرة ماءُ الندمِ والحياءِ والتلهفِ والحسرةِ والأمانة والخشوع وإسبال الدموع.

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم؛ فمنها التوكل

والتفويض والتسليم، والمحبة والشوق والرضا، والأحوال الصافية الوافية، والأخلاق العالية الزكية.

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر، وخبثُها ما صحبها من نجاسة الشِّرك، فَخُبْث الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشِّرْكِ ومنبعه.

والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ[1] من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة، وترك العِوَج.

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة.

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان.

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول فهو بالثبوت أَوْلَى من قول العبد؛ لأن قولَ العبد أَثَرٌ، والآثار لا يجوز عليها الثبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتُ العبد لقول الله؛ وهو حكمه بالإيمان وأخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان. وقول الله لا يزول؛ ففي الدنيا يثبتُه حتى لا بِدْعَةَ تعتريه، وفي الآخرة يثبتُه برسله من الملائكة، وفي القيام يثبتُه عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبتُه لأنه لا يزول حمد العبد لله، ومعرفته به. وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه ـ سبحانه ـ دعاءَه ثَبَّتَه حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم.

ويقال إذا دَعَتْه الوساوسُ إلى متابعةِ الشيطان، وصيَّرتْه الهواجسُ إلى موافقة النَّفْس فالحق يثبته على موافقة رضاه.

ويقال إذا دَعَتْه دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها، فيترك الجميع، ولا يَتَحسَّسُ إلا دواعيَ الحقِّ ـ سبحانه كما قيل:

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كي تردَّنا أبيْنا وقلنا: مطلبُ الحقِّ أَوَّلا

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

---

(١) الجث: القطع أو انتزاع الشجر من أصله.

وضعوا الكفران محل الشكر، فاستعملوا النعمة للكفر، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر. واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة، فأعضاءُ العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد، فإذا استعمل العاصي بَدَنَه في الزَّلة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بَدَّلَ النعمة كفراً، وكذلك إذا أودع الغفلَة قلبَه مكانَ المعرفة، والعلاقَة فيه مكان الانقطاع إليه، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَلَ الثقة به، ولَطَّخَ لسانَه بذكر المخلوقين ومَدْحِهم بَدَلَ ذكرِ الله واشتغل بغير الله دون العناء في ذكره. . . كلُّ هذا تبديلُ نِعَم الله كفراً. وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله، مكفياً من قِبَلِ الله. . وَجَدَ في فراغه مع الله راحةً عن الخَلْق، ومن إقباله عليه ـ سبحانه ـ كفاية، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة الخلْق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار؛ على معنى إيقاعه قلبَه ونَفْسَه وجوارحَه في المذلة من الخَلْق، والمضرة في الحال، وشأنه كما قيل:

ولم أرَ قَبْلي مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنمِ

قوله جلّ ذكره: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

وهي الجحيم المُعجَّل. . وعذابُها بها الفُرْقَة لا الحُرْقَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

. رضوا بأن يكون معمولُهم معبودَهم، ومنحوتُهم مقصودَهم، فضلُّوا عن نَهْجِ الاستقامة، ونأوا عن مقر الكرامة وسيلقون غِبَّ ما صنعوا يوم القيامة كما قيل:

قد تركناكَ والذي تريد. فعسى أن تَمَلَّهُم فتعودا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيامُ السرور قِصارٌ، ومُتَعُ الغفلة سريعة الانقضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

جعل الله راحةَ العبدِ ـ اليومَ ـ بكمالها في الصلاة؛ فإنَّها محلُّ المناجاة، قال الرسول ﷺ: «أَرِحْنا يا بلال بالصلاة»[1] والصلاة استفتاح باب الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٧١)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٣٤٠) وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٥٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٦٥)، (تحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٣٧).

وفي الصلاة يبث العبد أسرارَه مع الحق؛ فإذا كان لقاءُ الإخوان ـ كما قالوا ـ مَسْلاَةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله، ونشر قصتك بين يديه؟ كما قيل:

قُـلْ لـي بـألـسـنـة الـتَـنَـفُّـسِ　　　كـيـف أنـت وكـيـف حـالـك؟

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره، وإنفاق البَدَنِ على طاعته، والوقتَ على شكره، والقلبَ على عرفانه، والروح على حبه، والسِّرَّ على مشاهدته.. ولا يكلِّف الله نَفْساً إلا ما آتاها، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب، وتقف على البساط بالشاهد الذي آتاك.. يقول العبد المسكين: لو كان لي نَفْسٌ أطوع من هذه لأَتَيْتُ بها، ولو كان لي قلبٌ أشدُّ وفاءً من هذا لَجُدْتُ به، وكذلك بروحي وسِرِّي، وقيل:

يـفـديـك بـالـروح صَـبٌّ لـو أنَّ لـه　　　أعـز مـن روحـه شـيـئـاً فـداك بـه

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾: وفي هذا المعنى أنشدوا:

قـلـتُ لـلـنَّـفْـس إنْ أردتِ رجـوعـاً　　　فـارجـعـي قـبـل أن يُـسـدَّ الـطـريـق

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

في الظاهر رفعَ السماءَ فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلقَ فيها بحاراً، وأجرى أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنوار وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء مدراراً. وأخرج من الثمرات أصنافاً، ونوَّع لها أوصافاً، وأفرد لكلٍّ منها طعماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً.

وأمَّا في الباطن فسماءُ القلوب زَيَّنَها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان. ومَرج في القلوب بحري الخوف والرجاء، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف، كما جاز في الخبر: «لو وزنا لاعتدلا»[1] ـ هذا لعوام المؤمنين، فأمَّا للخواص فالقبض والبسط، ولخاص الخاص فالهيبة والأُنْس والبقاء والفناء.

وسَخَّر لهم الفُلْكَ في هذه البحار ليعبروها بالسلامة، وهي فلك التوفيق والعصمة، وسفينة الأنوار والحفظ. وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأُنس من المحبين، وليالي الحرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين.

---

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا» أخرجه السيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ما سَمَتْ إليهِ هِمَمُكُم، وتعلّق به سؤالُكم، وخَطَر تحقيقُ ذلك ببالِكم، أنلناكم فوق ما تُؤَمِّلُون، وأعطيناكم أكثر مما تَرْجُون، قال تعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقرأ بعض القراء: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فيُنَوِّنُ قوله: كلٍ، ويجعل ما سألتموه (ما) للنفي أي كل شيء مما لم تسألوه.

كذلك جاز أن يكون المعنى، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ـ وهذا لأرباب الطاعات، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ـ وهذا لأصحاب الزلات. عَلِمَ قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكّر ما عمله من الزلّات، فأعطاه غفرانه، وكفاه حشمةَ السؤال، والتفضل؛ فقال: غفرتُ لكم قبل أن تستغفروني.

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهَّلَه الحق ـ سبحانه ـ من العرفان؟ وكيف يكون ذلك الحديث؟... قَبْلَ أنْ كان له إمكانٌ، أو معرفة وإحسان، أو طاعة أو عصيان، أو عبادة وعرفان، أو كان له أعضاء وأركان، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً.. لا بَلْ:

أتاني هواها قبل أنْ أعْرِفَ الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِه..؟ وشكرُكُم نَزْرٌ يسير، وإنعامُه وافر غزير.

وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام؟

إنَّ نِعَمَه عُلومُكم عن تفصيلها متقاصرةٌ، وفُهُومُكم عن تحصيلها متأخِّرةٌ.

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له.. فكيف يأتي الحصر والإحصاء على ما لا يتناهى؟

وكما أن النَّفْعَ من نِعِمَه فالدفعُ أيضاً من نعمه.

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيقٍ آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

كما سأل أن يجعل مكةَ بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبَه محلاً آمناً؛ أي لا يكون فيه شيءٌ إلا بالله. ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾: والصنم ما يعبد من دونه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فصنمُ كلِّ أحدٍ ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ ووَلَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة.

ويقال إنه لمَّا بنى البيتَ استعان بالله أن يجرِّدَه من ملاحظة نفسه وفعله.

ويقال إنه ـ ﷺ ـ كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق نفسه، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]. ولما نظر من حيث فقر نفسه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

ويقال شاهد غيره فقال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾: أي موافق لي ومن أهل مِلَّتِي، ومن عصاني خالفني وعصاك.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: طلبٌ للرحمة بالإشارة، أي فارحمهم.

وقال: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾... ولم يَقُلْ: مَنْ عصاك، وإنْ كان من عصاه فقد عصى الله، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة.

ويقال إن قولَ نبينا ﷺ في هذا الباب أتمُّ في معنى العفو حيث قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ عَرَّضَ وقال: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب فقال: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله: ﴿إني أسكنت﴾ وإنما رأى الرِّفقَ بهم في الجوارِ لا في المَبَارِّ فقال: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ثم قال: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي أسكنتُهم لإقامة حقِّكَ لِطَلَبِ حظوظهم.

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته.

ثم قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي ليشتغلوا بعبادتك، وأقم قومي ـ ما بقوا ـ بكفايتك، ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: فإنَّ مَنْ قام بحقِّ الله أقام اللَّهُ

بحقّه قَوْمَه، واستجاب اللّهُ دعاءَه فيهم، وصارت القلوبُ من كل بَر وبحرٍ كالمجبولة على محبة تلك النسبة، وأولئك المتصلين، وسكان ذلك البيت.

ويقال قوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]: أي أسكنتُهم بهذا الوادي حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبُهم، ولا تشتغل بشَيْءٍ أفكارهم وأسرارُهم، فهم مطروحون ببَابِكَ، مصونون بحضرتك، مرتبطون بحُكْمِك؛ إنْ رَاعيتَهم كَفَيْتَهُم وكانوا أَعَزَّ خَلْقِ الله، وإنْ أقصيتَهم ونفيتهم كانوا أضعفَ وأذلَّ خَلْقِ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

استأثرتَ بعلم الغيب فلا يَعْزُبُ عن علمك معلومٌ، وحالي لا تخفى عليك، فهي كما عرفتَ، أنت تعلم سِرِّي وعَلَنِي.. ومَنْ عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار، واستروح قلبُه عن تَرَجُّمِ الأفكار، والتَّقَسُّم في كون الحوادث من الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

أسعده بمنحه الولد على الكبر، ويلتحق ذلك بوجهٍ من المعجزات؛ فحمد عليه. ولمَّا كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته ـ سبحانه ـ عليه، وأكرامه بأنواره، وهذا يكون بمعنى المَلق[1]، ويكون استدعاءَ نعمةٍ بنعمة، فكأنه قال: كما أكرمتني بِهِبَة الوَلَدِ على الكِبَر؛ فأَكْرِمْني بهذه الأشياء التي سألتُها.

ويقال الإشارة في هذا أنه قال: كما مَنَنْتَ عليَّ فوهبتني على الكِبَر هذه الأولاد فأَجْنِبْنَا أن نعبد الأصنام لتكونَ النعمةُ كاملةً. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].. إشارة إلى هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

في قوله: ﴿**ربِّ اجعلني مقيم الصلاة**..﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فمعناه اجعل صلاتي، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾: أي اجعل منهم قوماً يُصَلُّون، لأنه أخبره في موضع آخر بقوله: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) المَلَق: الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي (اللسان ١٠/٣٤٧ مادة: ملق).

ثم قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن.

ويقال إن إجابة الدعاءِ ابتداءُ فضلٍ منه. ولا ينبغي للعبد أن يَتَّكِلَ على دُعاءِ أحد وإن كانْ عَلِيِّ الشأن، بل يجب أن يعلقَ العبد قلبه بالله؛ فلا دعاءَ أتمُّ منْ دعاءِ إبراهيم عليه السلام، ولا عنايةَ أتمُّ من عنايته بشأن أبيه، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له.

ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطعَ رجاءَه في ألا يستجيبَ الله دعاءَه، فإن إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له، ثم إنه لم يترك الدعاء، وسأل حينما لم يُجَبْ فيه. فلا غضاضةَ على العبد ولا تناله مَذَلَّةٌ إنْ لم يُجِبْهُ مولاه في شيء؛ فإنَّ الدعاءَ عبادةٌ لا بدَّ للعبد من فِعْلها، والإجابةُ من الحقِّ فضلٌ، وله أن يفعل وله ألا يفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

هذا وعيدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين؛ فالمظلوم إذا تحقَّق بأنه ـ سبحانه ـ عالِمٌ بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته، وحق عليه تحمله.

والظلم على وجوه؛ ظلمٌ على النَّفس بوضع الزَّلَّةِ مكان الطاعة، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين.

ويقال من جملة الظالمين الشيطانُ، فالعبدُ المؤمِنُ مظلومٌ من جهته، والحقُّ ـ سبحانه ـ ينتصف له منه غداً، وذلك إنْ لم يَتَّبِعْهُ اليومَ، ودَفَعَه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي . . .﴾.

وهذا للعوام من المؤمنين، علَّق قلوبهم بالانتقام منهم في المستأنف، وأمَّا الخواص فإذ علموا أنه ـ سبحانه ـ عالِمٌ بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك، وأمَّا خواص الخواص فإذْ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظُلْمِهم حتى يستغفرَ لهم، كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وفي معناه أنشدوا:

وما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

وأمَّا أصحاب التوحيد فإذ عَلِمُوا أنه المنشئ، وألا مخترعَ سواه فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة، ولا مَعَ أحدٍ مُعَاتَبَة، ولا منه مطالبة، لأنهم يَعُدُّون إثباتَ الغيرِ في الظن والحسبان شِرْكاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

أفسدوا في أول أمورهم، وقصَّروا في الواجب عليهم، ولم يكن للخَلَلِ في أحوالهم جبران، ولا لعذرهم قبول لتصحَّ الحجة عليهم، فافتضح المجرم منهم، وخاب الكافر، وحُقَّ الحكمُ عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

أحللنا بهم العقوبة، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم، وجريتم على منهاجهم، وفعلتم مثلَ فِعْلِهم، وبإمهالنا لكم اغتررتم.. فانْتَظِرُوا منَّا ما عاملناكم به جزاءً لكم على ما أسلفتم.

ويقال إن معاشرةَ أهلِ الهوى والفسق ومجاورتَهم مُشَارَكةٌ لهم في فِعْلِهم، فيستقبلُ فاعلُ ذلك استقبالَهم، ومَنْ سَلَكَهُم ينخرط في التردِّي نحو وَهْدَةِ هلاكهِ مِثْلَهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

أي لا تحسبنَّه يخلف رسله وعده؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقِّه في مُلْكِه، وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يصل إليه أحد، وإن كان ولياً. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا يفوته أحد وإن كان (. . . .)[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

لا يختلف عَيْنُها وإنما تختلف صورتها، وكذلك إذا انكدرت النجوم، وانشقت السماء يقال ما بدّل عينها وإنما بدَّل الأزمانَ والمكانَ على الناس باختلاف أحوالهم في السرور والمحن؛ كَمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول: تغيَّر الزمانُ والوقتُ... وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء.

ويقال إن آدم لما قتل أحدُ ابنيه الآخرَ قال:

تغيرت البلادُ ومَنْ عليها فوجهُ الأرضِ مُغبَرٌّ قبيحُ

وفي هذه القصة من كان صاحب بسطٍ فَرُدَّ إلى حال القبض، ومن كان صاحب أُنسٍ فصار صاحب حجاب ـ يصحُّ أن يقال بدل له الأرض، قال بعضهم:

ما الناس بالناس الذي عهدي بهم ولا البلاد بتلك التي كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة، وكانت الأرض به راجفة، وكان النهار له ليلاً، وكان الليل له ويلا، وكما قيل:

---

(١) الآية (٤٦) لم ترد. (٢) بياض في الأصل.

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ ولا ماءُ الحياة ببارد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

الأصفاد الأغلال. الأصفاد تجمعهم، والسلاسل تقيدهم، والقطران سرابيلهم، والحميم شُرْبُهم، والنارُ محيطةٌ بهم.. وذلك جزاء مَنْ خالَف إلهه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الحجج ظاهرة، والأمارات لائحة، والدواعي واضحة، والمهلة متسعة، والرسول عليه السلام مُبَلِّغ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد. ولكنَّ القسمةَ سابقةٌ، والتوفيقَ عن القيام ممنوعٌ، والربُّ ـ سبحانه ـ فعَّالٌ لما يريد، فَمَنْ اعتبر نجا، ومن غفل تردَّى. ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله أعلم.

السورة التي يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة، ليُعْلَمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة؛ فلم يَقْبَلْ من قَبِلَ لاستحقاق علة، ولا رَدَّ مَنْ رَدَّ لاستيجاب علة. فإنْ قيل العِلَّةُ في إسقاط الألف من بسم الله كثرةُ الاستعمال في كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء من بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة. فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود، فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفي ليس لها علة؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةَ على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب، فأعرضوا عن كل شيءٍ وسمعوا لها. ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب، فقال لهم لما حضرت ألبابُهم، واستعدت لسماع ما يقول آذانُهم: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

ووصف القرآن بأنه مبين؛ لأنه يُبَيِنُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يقوي رجاءَهم، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم، ويبيِّن للمصطفى ـ ﷺ ـ تحقيقَ ما مَنَعَ غَيْرَه بعد سؤاله.. ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام: «لن تراني» بعد سؤاله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا، وأي كأس رشفوا.

ويقال إذا صارت المعارفُ ضروريةً أحرقَتْ نفوسَ أقوامِ العقوبةُ، وقطَّعَتْ قلوبَهم الحَسْرَةُ.

ويقال لو عرفوا حالَهم وحالَ المؤمنين لَعَلِمُوا أن العقوبةَ بإهلاكهم حاصلةٌ لقوله تعالى بعدئذ:

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قيمةُ كل امرىءٍ على حسب هِمَّتِه؛ فإذا كانت الهمةُ مقصورةً على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يُحَاسَبُ، وعلى العقل لا يُطَالَبُ: فالتَّكليفُ يتبعه التشريف! وغداً سوف يعلمون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

الآجال معلومة، والأحوال مقسومة؛ والمشيئة في الكائنات ماضية، ولا تخفى على الحق خافية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

الجنون معنى يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه، فلمَّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أَوْلَى بما وصوفه به، فهم كان في المَثَل: رَمَتْنِي بِدَائِها وانْسَلَّت.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أيَّد به معجزاتِه، فيتوجب اللَّوْمُ عليهم لسوءِ أدَبِهم. وأخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكةَ لأبصارِ بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية. وفي المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقتُ أَوَانَ هَلَاكِهم؛ لِعِلْمِه أنَّ في أصلابهم مَنْ يُؤْمِنُ بالله سبحانه في المستأنف.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

أنزل التوراة وقد وَكَلَ حفظها إلى بني إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله، فحرَّفوا وبَدَّلوا، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظة، وإنما يحفظه بقرائه؛ فقلوبُ القُرَّاءِ خزائنُ كتابهِ، وهو لا يضيع كتابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سُنَّته معهم في التعذيب. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسَدَّ ـ بالحرمان ـ عليهم سلوكَ الطريقة، وبيَّن أنه لو أراهم الآياتِ عياناً ما

ازدادوا إلا عتواً وطغياناً، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا، وبأمر التكوين مقضيـ . فمتى ينفع فيه النصح؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ؟ كلا.. إن البصيرةَ له مسدودةٌ، و (. . .)[1] الخذلان بِقَدَمِه مشدودة، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة، والحقيقة على الخديعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

بروجاً أي نجوماً هي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

إذا رام الشياطينُ أن يسترقوا السمعَ كانت النجومُ لها رجوماً.

كذلك للقلوب نجومٌ وهي المعارف وهي في الوقت ذاته رجوم على الشياطين؛ فلو دنا إبليسُ وجنودُه من قلب ولِّي من الأولياء أحرقَتْه بل محقَتْه نجومُ عقلِه وأقمارُ علمِه وشموسُ توحيدِه.

وكما أنَّ نجومَ السماءِ زينةٌ للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماءِ لهي زينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

النفوس أرض عبادة العابدين، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة، والخوف، والرجاء لها رواسٍ. وكذلك الرغبة والرهبة.

ويقال من الرواسي التي أثبتها في الأرض الأولياءُ فَبِهِمْ يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ ومن الرواسي العلماءُ الذين بهم قِوَامُ الشريعة؛ فعلماءُ الأصول هم قِوامُ أصلِ الدِّين، والفقهاء بهم نظامُ الشرع، قال بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم ... هم المصابيحُ والأمنُ والمُزْنُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار[2] أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار،

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أنوار: (ج) نور: الزهر أو الأبيض منه، الواحدة: نورة.

منها نور اليقين ونور العرفان، ونور الحضور ونور الشهود، ونور التوحيد.. إلى غير ذلك من الأنوار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

سببُ عيشِ كلٍّ مختلفٌ؛ فعَيْشُ المريدين من إقباله، وعيش العارفين التجمل بأفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

خزائنه في الحقيقة مقدوراته، وهو ـ سبحانه ـ قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث.

ويقال خزائنه في الأرض قلوبُ العارفين بالله، وفي الخزانة جواهر في كل صنف؛ فحقائقُ العقل جواهر وضعها في قلوب قوم، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة، وأسرار العارفين مواضع سِرّه، والنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزانةُ ذِكْره.

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خُطَاه عن التردد على منازل الناس في طَلَبِ الإرفاق منهم، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها، قاطعاً أَمَلَه عن الخَلْق، مُفْرِداً قلبَه لله متجرِّداً عن التعلّق بغير الله.

قوله ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: عَرَفَ القِسْمَة منْ استراح عن كدِّ الطلب؛ فإنَّ المعلومَ لا يتغير، والمقسوم لا يزيد ولا ينقص، وإذا لم يَجِبْ عليه شيءٌ لأحد فبقدرته على إجابة العبد إلى طلبته لا يتوجب عليه شيء.

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحمُّلِ المِنَّةِ من الأغنياء مما يعطونهم، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً، فليس للفقير صَرْفُ القلب عن الله سبحانه إلى مخلوقٍ واعتقادُ مِنَّةٍ لأحد، إذ المُلْكُ كله لله، والأمر بيد الله، ولا قادر على الإبداع إلا الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾..

كما أن الرياحَ في الآفاق مُقَدِّمَاتُ المطر كذلك الآمال في القلوب، وما يقرب العبد مما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر، ونسيم النجاة في الطلب يحصل، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

أسقاه إذا جعل له السُّقيا؛ كذلك يجعل الحق ـ سبحانه ـ لأوليائه ألطافاً معلومة في أوقات محدودة! كما قال في وصف أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلٍّ ورداً معلوماً، ثم قضايا ذلك تختلف: فمِنْ شراب يُسْكِر، ومن شراب يُخضِر، ومن شراب يزيل الإحساس، كما قيل:

فصحوك من لفظي هو الصحو كله وسُكْرُكَ من لحظي يبيح لك الشُّرْبا

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية، فلا للأغيار فيها أثر، ولا عن الخلائق لهم خبر.

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عَطَّرَتْها بنفحات الأنس، فيَسْقَوْنَ في نسيمها على الدوام، وفي معناه أنشدوا:

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرَّةٌ ولا ثوبَ إلا بُرْدَةَ وردائيا(١)

وما زال بُرْدِي لينا من ردائها إلى الحوْلِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مناقِبَه ومثالبُه محاسنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

نحيي قلوبهم بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.

ويقال نحييهم بأن نفْنِيَهمْ بالمشاهدة، ونميتَهم بأَنْ نأخذَهم عن شواهدهم.

ويقال يحيي المريدين بذكره، ويميت الغافلين بهجره.

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات.

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

العارفون مستقدمون بِهِمَمِهم، والعابدون مستقدمون بقَدَمهم، والتائبون بندمهم وأقوام مستأخِرون بقدمهم وهم العُصاة، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات.

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقِّ ـ من غير تَعريجٍ إلى تفكر، والمستأخِرون الذين يرجعون إلى الرُخَصِ والتأويلات.

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق، والمستأخرون الذين تثبطهم مشقة الخذلان.

---

(١) الليلة القرة: الباردة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

يبعث كلاً على الوصل الذي خرجوا من الدنيا عليه: فمن منفرد القلب بربه، ومن مُتَطَوِّحٍ في أودية التفرقة، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

ذَكَّرهم بِخِسَّتِهم لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم.

ويقال القيمة في القُربةِ لا بالتُّربة؛ والنسب تربة ولكن النعتَ قربة.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجيء منها شيء، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه، كذلك العدو لمَّا انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده، وأمَّا آدم ـ عليه السلام فلمَّا اغْتَرَّ جَبَرَهُ ماءُ العناية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

أظهرهم بهذا القول، وفي عين ما أظهرهم سَتَرهم.

ويقال ليست العِبْرَة بقوالبهم. إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم.

ويقال الملائكة لاحظوه بعين الخِلْقة فاستصْغروا قَدْرَه وحاله، ولهذا عَجِبوا من أَمْرِ الله ـ سبحانه ـ لهم بالسجود له، فكشف لهم شظية مما اختَصَّه به فسجدوا له.

قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾: وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عن أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبَقِيَ في ظُلمة الحَيْرةِ.

ويقال بَخِلَ بسجدةٍ واحدةٍ، وقال: أَسْتَنْكِفُ أَنْ أسجد لغير الله. ثم من شقاوته لا يبالي بكثرة معاصيهِ، فإنه لا يَعْصِي أحدٌ إلّا وهو سببُ وسواسه، وداعيه إلى الزَّلَّةِ.. وذلك هو عين الشِّقوة وقضية الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

سأله ومعلومٌ له حالُه، ولو ساعدته المعرفةُ لقال: قُلْ لي مالك؟ وما مَنَعَكَ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول أنت.. حيث أَشْقَيْتني، وبقهرِكَ أَغْوَيْتني، ولو رَحِمْتَني، لَهَدَيْتَنِي وفي كنف عصمتك آويتني... ولكنَّ الحرمانَ أدركه حتى قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

ولمّا أبعده الحقُّ ـ سبحانه ـ عن معرفته، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة والبعث، فأجابه. وظَنَّ اللَّعينُ أنه حصل في الخير مقصوده، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً، فكأنه كان في الحقيقة مكراً ـ وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال بما يُشْبِهُ اللطفَ والبِرَّ.

وبعض أهل الرجاء يقول: إن الحق ـ سبحانه ـ حينما يهين عدوَّه لا يَرُدُّ دعاءَه في الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار؛ فالمؤمن ـ إذ أَمْرُهُ الاستغفارُ والسؤالُ بوصفِ الافتقارِ ـ أَوْلَى ألا يقنطَ مِنْ رحمتِه، لأنَّ إنظارَ اللعين زيادةُ شقاءٍ له تحقيق عطاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الباء في: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ باء القَسَم، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقْسِم به لولا فَرْطُ جَهْلِه. ثم هو في المعنى صحيح، لأنَّ الإغواء مما يتفرَّدُ بالحق بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحد، ولكن اللَّعِينَ لا يعرف الله الحقيقة، إذ لو عَرَفَه لم يدعُ إلى الضلال، لأنه لو قدر على إضلالِ غيرِه لاستبقى على الهدايةِ نَفْسَه. وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حَدْساً وهو لم يَعْرِفْ الله ـ على الحقيقة ـ قَطُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمالِ عن الغَيْن وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال. وقد عَلِمَ اللعينُ أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمَّا تَحَقَّقَ من عناية الحقِّ بشأنهم.

﴿قال هذا صراط عليَّ مستقيم﴾ تهديدٌ، كما تقول: افعل ما شِئْتَ.. وهذا طريقي.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

السلطان الحجة، وهي لله على خَلْقه، وليس للعدوِّ حجة على مخلوق، إذ لا تَتَعدَّى مقدرتُه محلَّه، فلا تَسلُّطَ ـ في الحقيقة ـ لمخلوق بالتأثير فيه.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾: إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاصِّ، وهم الذين محاهم عن شواهدهم، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة وجرَّدهم عن حَوْلهم وقُوَّتِهم، وكان النائبَ عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم، وحفظ عليهم آدابَ الشرع، وألبَسُهم صِدارَ الاختيار في أوان أداء التكليف، وأخذهم عنهم باستهلاكهم في شهوده، واستغراقهم في وجوده.. فأيُّ سبيلٍ للشيطان إليهم؟ وأي يدٍ للعدو عليهم؟

ومَنْ أشهدِ الحقُّ حقائقَ التوحيد، ورأى العالَمَ مُصَرَّفاً في قبضة التقدير، ولم يكن نهباً للأغيار.. فمتى يكون لِلَّعين عليه تسلط، وفي معناه قالوا:

جحودي فيك تقديسُ وعقلي فيك تهويسُ
فمن آدم إلَّاكَ ومَنْ في البيت إبليسُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

اجتمعوا اليومَ في أصل الضلالة، ثم الكفر مِلَلٌ مختلفةٌ، ثم يجتمعون غداً في العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون، لكلِّ دَرَكَةٍ من دركات جهنم قوم مُخَصُّون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

المتقي مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقَى بتَكلُّفِه، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلَّا بعد أن وقَّاه الحقُّ ـ سبحانه ـ بفضله. هم اليومَ في جنات ولها دَرَجات بعضها أرفعُ من بعض، كما أنهم غداً في جنَّات ولها درجات بعضها فوق بعض.

اليوم لقوم درجةُ حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة، ولقوم درجة البسط والراحة، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة، ولآخرين درجة الأنْسِ والقربة، قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم ولزم كلُّ قومٍ مذهبَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾.

معناه يقال لهم: ﴿**أدخلوها**﴾، وأَجْمَلَ ذلكَ ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم. ويرى قومٌ أن المَلكَ يقول لهم: أدخلوها.

ويقال إذا وافَوْا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدةَ، وقاسوا الأمورَ الشديدةَ، فَمِنْ حقِّهم أن يدخلوا الجنة، خاصةً وقد علموا أَنَّ الجنةَ مُباحةٌ لهم، ولعلهم لا يفقهون حتى يقال لهم.

ويقال يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول المَلَكِ حتى يقول الحقُّ: أدخلوها، كما قالوا:

ولا أَلْبَسُ النُّعمى وغيرُك مُلْبِسٌ ولا أَقْبَلُ الدنيا وغيرك واهبُ

قوله: ﴿بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾: بمعنى السلامة، وهي الأمان، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها.

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال؛ فالرؤية لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية ـ مديدةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أمَرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، وأمَرَ جبريلَ عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى - ﷺ - فطَهَّرَه. وتولَّى هو - سبحانه - بنفسه تطهيرَ قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧] وذلك رفقاً بهم، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجَّبُ منه القوي، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبُهم، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم.

ويقال قال: ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب في قبضته يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[1]: يريد بذلك قدرته، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً. وقيل بين إصبعين أي نعمتين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

قابل بعضُهم بعضاً بالوجه، وحفظ كلُّ واحدٍ عن صاحبه سِرَّه وقلبَه، فالنفوس متقابلة ولكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

أي لا يلحقهم تعبٌ؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم. وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكان، ولا تحار أبصارهم، ولا يلحقهم دَهَشٌ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي لا يلحقهم ذلُّ الإخراج بل هم بدوام الوصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لمَّا ذَكَرَ حديثَ المتقين وما لهم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين، فَتَدارَكَ اللَّهُ قلوبهم، وقال لنبيِّه - ﷺ - أخبر عبادي العاصين أني غفور رحيم، وأني إنْ كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين.

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله: ﴿أَنِّي أَنَا﴾ بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة؛ لأنه يكون عندئد مُختَطَفاً عن شاهده، مُسْتَهلكاً في أنيته.

---

(١) للحديث رواية أخرى: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن». أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٨، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٩٩)، والطبري في (التفسير ٣/ ١٢٦) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٥٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

العذابُ الأليم هنا هو الفراق، ولا عذابَ فوق الفراق في الصعوبة والألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

أَلا عرِّفهم كيف كانت فتوة الخليل في الضيافة، وقيامه بحقّ الضيفان، وكان الخليلُ عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان، فلمَّا سلموا من جانبهم وردَّ عليهم وانْقَضُوا عن تناولِ طعامِه:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وَجلون أي خائفون، فإنَّ الإمساكَ عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة. ولمَّا عَلِمَ أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين. ولكن سكن رَوْعُه عندما قالوا له:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

فليس لك موضِعٌ للوَجَلِ لكن موضِعٌ للفَرَجِ؛ فإنا جئناك مُبَشّرين، وإن كُنَّا لغيرِكَ مُعَذِّبين.

نحن ﴿**نبشرك بغلام عليم**﴾: أي يعيش حتى يعلم، لأن الطفل ليس من أهل العلم، وكانت بشارتُهم بالوَلَدِ وببقاءِ الولد هي العجب فقال:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

قال أبشرتموني وقد مسّني الكِبَرُ؟ وإنَّ الكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء. بماذا تبشروني وقد طَعَنْتُ في السنّ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة؟ قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً.

قال: كيف أخطأ ظنكم فيّ فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث، وعرف أنه لن يُصيبَه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾.

قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟

قالوا: أُرسِلْنا لعذاب قوم لوط، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم في الفساد، وكانت تدل على أضيافه، فاستوجبت العقوبة.

فلمَّا وافى المرسلون من آل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر، وتفرَّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم، قالوا: بل جئناكَ بما كان قومُك يَشُكُّونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم، وآتيناك بالحق، أي بالحكم الحق[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

فأَسْرِ بأهلك بعدما يمضي شيءٌ من الليل، وامش خلفهم، وقدِّمهم عليك، واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يَرَوْا ما ينزل بقومهم من العذاب، وإنا ننقذك وأهلَكَ إلا امرأتك، فإنا نعذبها لمشاركتها مع قومك في العصيان. ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ فلكم السلامة ولقومكم العقوبة.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي علَّمناه وعرَّفناه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾؛ أي أنهم مُهلَكون ومُستأصَلون بالعقوبة.

ثم لما نزل الملائكةُ بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافي، فلا تتعرضوا لهم فتفضحوني، واتقوا اللَّهَ، وذروا مخالفة أمره ولا تخجِلوني. فقال قومه: ألم نَنْهَكَ عن أن تحمي أحداً، وأمرناك ألا تمنعَ مِنَّا أحداً؟ فقال: هؤلاء بناتي يعني نساء أمتي. وقال قومٌ: أراد بناتِه من صلبه، عَرَضَهن عليهم لئلا يُلِمُّوا بتلك الغلطة الفحشاء، فلم تنجع فيهم نصيحة، ولم يُقْلِعوا عن خبيثِ قَصْدِهم.

فأخبره الملائكة ألا يخافَ عليهم، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه، وتفضيلاً له على سائر البرية، فقال وحياتك ـ يا محمد ـ إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يتردَّدون، وإنهم عن شِرْكهم لا يُقْلِعون.

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته ـ إنهم في خُمَارِ سُكْرِهم، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً، ولا يخافون سوءاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

باتوا في حبور وسرور، وأصبحوا في محنة وثبور[٣]، وخرَّت عليهم سقوفُهم،

(١) الآيات من (٦١ ـ ٦٤) لم ترد. (٢) الآيات من (٦٧ ـ ٧١) لم ترد.
(٣) الثبور: الهلاك.

وجعلنا مُدَنَهم ومنازِلهم عاليَها سافِلَها، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يُبْقِ عيناً ولا أَثراً، إنَّ في ذلك لَعِبْرةً لمن اعتبر، ودلالةً ظاهرة لمن استبصر، ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ لِمَنْ شاءَ أن يَعْتَبِرْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

جاء في التفسير «المتفرسين»، والفراسةُ خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهورِ برهانٍ عليه، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة. مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر. والحق ـ سبحانه ـ يُطْلِعُ أولياءه على ما خفي على غيرهم. وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات؛ بل يجوز أن تُسَدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام؛ فَنبيُّنا ـ ﷺ ـ كان يقول لعائشة ـ رضي الله عنها ـ في زمان الإفك: «إنْ كُنتِ فعلتِ فتوبى إلى الله». وكإبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ لم يعرفا الرسل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أصحاب الأيكة[١] هم قوم شعيب، وكان شعيب ـ عليه السلام ـ مبعوثاً لهم فكَذَّبوه، فانتقمنا منهم.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني مدين والأيكة... ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي بطريق واضح مَنْ قصده (...)[٢].

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر[٣] ـ وهم ثمود ـ كذبوا المرسلين إليهم، وأنهم أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كناقةِ صالح وغيرها، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُغْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُون من الموت والعذاب.

ثم أخبر أنهم أَخَذَتْهم الصيحةُ على بغتةٍ، ولم تُغنِ عنهم حيلتُهم لمَّا حَلَّ حَيْنُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

---

(١) الأيكة: الشجر الكثير الملتف. وأصحاب الأيكة: قوم شُعيب عليه السلام كانت مساكنهم كثيفة الأشجار.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الحِجْر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. (معجم البلدان ٢/ ٢٢١).

دلَّت الآيةُ على أنَّ أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله لأنها بين السموات والأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌۖ﴾.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي وأنا مُحقٌّ فيه ويقال ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالأمرِ العظيم الكائن إنْ الساعة لآتيةٌ يعني القيامةَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

يقال الصفح الجميل الذي تذكر الزَّلَّةُ فيه.

ويقال الصفح الجميل سحبُ ذيل الكَرَمِ على ما كان مِنْ غير عَقْدِ الزَّلَّةِ، بلا ذِكْرِ لما سَلَفَ من الذنب، كما قيل:

تعالوا نصطلح ويكون مِنَّا
(.......................)[1]

ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عدِّ الذنوب من المجرم، والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصي، قال قائلهم:

(وتُذْنِبون فنسي ونعتذر)

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

أكثرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة، وسميت مثاني لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولأنها شيء في كل صلاة يتكرر، من «التثنية» وهي التكرير، أو لأن بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق.. ومعنى هذا مذكور في كتب التفاسير.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زَهْرَةِ الدنيا وزينتِها.

ويقال غار على عينيه ـ ﷺ ـ أن يستعملَها في النظر إلى المخلوقات.

ويقال أدَّبَه اللَّهُ ـ سبحانه ـ بهذا التأديبِ حتى لا يُعِيرَ طَرْفَه من حيث الاستئناس به.

ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لمَّا لم يكن اليومَ سبيلٌ لأحد إلى رؤيته، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ما خَوَّلْناهم، كما قال بعضهم:

لـمَّا تيقَّنْتُ أني لسْتُ أبصركم ... أغمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال شَتَّانَ بينه وبين موسى ـ عليه السلام! قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونبينا ـ ﷺ ـ مَنَعَه من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله؟!

ويقال لما أُمِرَ بِغَضِّ بَصَرِه عما يتمتَّع به الكفارُ في الدنيا تَأَدَّبَ ـ عليه السلام ـ فلم ينظرْ ليلةَ المعراج إلى شيءٍ مما رأى في الآخرة، فأثنى عليه الحقُّ بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وكان يقول لكل شيءٍ رآه: «التحيات لله»[(١)] أي المُلْكُ لله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أدّبه حتى لا يتغير بصفة أحد، وهذه حال التمكين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي أَلِنْ لهم جانبَكَ. وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة[(٢)] في الشافعة إلى مواليها يمضي معها.. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِ ـ صلوات الله عليه ـ وكان في الخبر إنه كان يخدم بتيه وكان في (مهنة) أهله. وتولّى خدمة الوفد، وكان يقول؛ «سيدُ القومِ خادمُهم»[(٣)].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

لمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه ـ سبحانه وتعالى ـ سَلّمَ له أن يقول: إني وأنا. وفي الخبر: أن جابراً[(٤)] دَقَّ عليه الباب، فقال: مَنْ؟ قال: أنا.. فقال النبي عليه السلام: «أنا أنا».. كأنه كرهها.

---

(١) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح ٩١٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٧٢).
(٢) الوليدة: الجارية المولودة بين العرب. (اللسان ٣/ ٤٦٩ مادة: ولد).
(٣) أخرجه السيوطي في (الحاوي للفتاوى ٢/ ١٠١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٩٢٥) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٥١٦ ـ ١٧٥١٨ ـ ١٧٥١٩ ـ ٢٤٨٣٤ ـ ٢٤٨٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٩٥) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥٦١ ـ ٥٦٢).
(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ ق هـ ـ ٧٨ هـ = ٦٠٧ ـ ٦٩٧م صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة، له ولأبيه صحبة غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً. وله «مسند».
الأعلام ٢/ ١٠٤، والإصابة ١/ ٢١٣، وذيل المذيل ٢٢، وتهذيب الأسماء ١/ ١٤٢.

ويقال: قُلْ لا حدَّ لاستهلاكك فينا، سلَّمنا أن تقول: إني أنا، لما كنتَ بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾.

أي قل إني أنا لكم مُنْذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذي عذَّبنا به المقتسمين؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه في قصه صالح عليه السلام. وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله؛ فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه.

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم، وصدوا الناس. وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به: لا تُؤْمِنْ بمحمدٍ فإنه ساحر، ويقول الآخر: إنه كاهن ويقول ثالث: إنه مجنون، فهم بأقسامهم: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾(١).

ففرقوا القول فيه، فقال بعضهم إنه شعر، وقال بعضهم إنه سحر، وقال بعضهم إنه كهانة... إلى غير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم.

ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم. ويسأل الصديقين عن تصحيح المعاني بفعالهم، ويسأل المدَّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم.

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقومٍ أُنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلِّمهم ونُسْمِعُهُم خطابَه لاشتياقِهم إليه، ولا عَجَبَ في ذلك فالمخلوق يقول في مخلوق:

في الخَفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها   إذا ما انتهت أُحْدُوثَةٌ لَوْ تُعِيدُهَا(٢)

فلا أسعدَ مِنْ بَشَرٍ يعرف أَنَّ مولاه غداً سيكلمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

كُنْ بنا وقُلْ بنا، وإذَا كنتَ بِنا ولَنَا فلا تجعلْ حِساباً لغيرنا، وصرِّحْ بما خاطبناك به، وأَفْصِحْ عَمَّا نحن خصصناكَ به، وأَعْلِنْ محبتنا لك:

فسبِّحْ باسم مَنْ تَهوى ودَعْنا من الكُنى   فلا خيرَ في اللَّذاتِ مِنْ بعدها سَتْرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) عضين: (ج) عضة: القطعة. وعضة نقصانها الواو أو الهاء، وهي من الأسماء الناقصة، وأصلها عضوة. (اللسان ١٥/ ٦٨ مادة: عضا).

(٢) الخفرات: (ج) الخفرة: الشديدة الحياء (اللسان ٤/ ٢٥٣ مادة: خفر).

الذين دَفَعْنَا عنكَ عاديةَ[١] شرِّهم، ودَرَأْنا عنكَ سوءَ مكرهم، ونصرناك بموجب عنايتنا بشأنك . . فلا عليكَ فيما يقولون أو يفعلون، فما العقبى إلا لَك بالنصر والظفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وقال: ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ولم يقل يضيق قلبك؛ لأنه كان في محل الشهود، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا تكون مع اللقاء وحشة.

ويقال هَوَّنَ عليه ضيق الصدر بقوله: ﴿**ولقد نعلم**﴾ ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمِّكَ فارتفع[٢] بلسانك في رياض تسبيحنا، والثناءِ علينا، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا، واستحقاق عِزِّنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة، إلى أنْ تَجلس على بِساط القربة، وتطالَبَ بآداب الوصلة.

ويقال التزِمْ شرائطَ العبودية إلى أنْ تَرْقَى بل تُكْفَى بصفات الحرية.

ويقال في ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٣]: إن أشرف خصالك قيامك بحقِّ العبودية.

---

(١) يقال: دفعت عنك عادية فلان؛ أي: ظلمه وشره (ج) عوادٍ.

(٢) الصواب أن تكون: فارتع. قال القشيري برسالته عند حديثه عن الذكر: وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الجنة فارتعوا فيها، فقيل له: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر» الحديث رواه أنس بن مالك وأخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٥ في الدعوات باب رقم (٨٧) وقال: إنه حديث حسن. (الرسالة القشيرية ص٢٢٢).

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن العبودية: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين. (الرسالة القشيرية ص١٩٧).

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ألف الوصل في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لم يكن لها في التحقيق أصل، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسَّاكن، وإذ وقع ذلك أنفاً عنها أُسْقِطَتْ في الإدراج، ولكن كان لها بقاءٌ في الخط وإنْ لم يكن لها ظهور في اللفظ، فلمَّا صارت إلى ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أسقطت من الخط كذلك.. وكذلك من ازداد صحبةً استأخر رتبةً.

ويقال أي استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت في الخط؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا؟ وأيُّ موجبٍ لحذف الألف من السموات؟

طاحت العِلَلُ في الفروق، وليس إلا اتفاق الوضع.. كذلك الإشارة في أرباب الردّ والقول، قال تعالى ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ [هود: ١٠٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

صيغة أتى للماضي، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة، والمعنى «سيأتي» أمر القيامة، والكائناتُ كلُّها والحادثات بأَسْرِها من جملة أمره؛ أي حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره، وقَضَائه وتدبيره؛ فما يحصل من خير وشرٍّ، ونفع وضرٍّ، وحلو ومُرٍّ. فذلك من جملة أمره تعالى.

﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات، وهم خامدون تحت جريان تصريف الأقدار؛ فليس لهم إيثار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً، وإذا أَمَّلوا شيئاً، أو أُخْبِروا بحصول شيءٍ فلا استعجال لهم، بل شأنهم التأنّي والثباتُ والسكونُ. وإذا بَدَا من التقدير حُكمٌ فلا استعجالَ لهم لما يَرِدُ عليهم، بل يتقبلون مفاجأةَ التقدير بوجهٍ ضاحك، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردّ والقبول، والمنع والفتوح بوصف الرضاء، ويحمدون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلك.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: تعالى عما يشركون بربهم، والكفار لم ييسر لهم حتى أنّه لا سكَنَ لقلوبهم من حديثه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

ينزل الملائكة على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالوحي والرسالة، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثُون. وإنزالُ الملائكةِ على قلوبهم غيرُ مردودٍ لكنهم لا يُؤْمَرُون أن يتكلموا بذلك، ولا يكملون رسالةً إلى الخَلْق.

ويُراد بالروح الوحي والقرآن، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة؛ إمَّا حياة القلب أو حياة الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

خَلَقَها بالحق، ويَحكمُ فيها بالحق، فهو مُحِقٌّ في خَلْقِها لأنَّ له ذلك، ويدخل في ذلك أمرُه بتكليف الخَلْق، وما يَعْقُبُ ذلك التكليفَ من الحَشْرِ والنَّشْرِ، والثواب والعقاب.

﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه مليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.

تَعرَّفَ إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب، والتأليف اللطيف؛ من نطفةٍ متماثلة الأجزاء، متشاكلة في وقت الإنشاء، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء، والخروج من الخفاء. ثم رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل، ويَسَّرَ له النطقَ والفعل، والتدبير في الأمور، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾.

ذكَّرهم بما تفَّضل عليهم، وأخبرهم بما للحيوانات من النِّعم، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع في جميع الأحوال، كالحِمِل وكالسفر عليها وقطع المسافات، والتوصُّل على ظهورها إلى مآربهم، وما لِنَسْلِها ولدرِّها من المنافع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

الغنيُّ له جمال بماله، والفقير له استقلال بحاله.. وشتَّان ما هما! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون، والفقراء يستقبلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون. أولئك تحمل أثقالَهم جِمالُهم، وهؤلاء يحمل الحقُّ عن قلوبِهم أثقالَهم.

﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾: قومٌ أحوالهم مقاساة الشدائد؛ يَصِلُون سيرهم بسُراهم، وقومٌ في حمل مولاهم؛ بعيدون عن كَدِّ التدبير، مستريحون بشهود التقدير، راضون باختيار الحقّ في العسير واليسير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالنفوس في حَمْلها كالدواب، والقلوب معتقة عن التعنّي[1] في الأسباب.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون في الآخرة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ فكذلك أرباب الحقائق يجدون ـ اليومَ ـ ما لم يخطر قطُّ على بال، ولا قرأوا في كتاب، ولا تلقنوه من أستاذ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه لا يعلم تفصيله سواه.. وكيف يعلم من أخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنه لا يعلم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قومٌ هداهم السبيل، وعَرَّفَهم الدليل، فصرفَ عن قلوبهم خواطر الشكّ، وعَصَمَهم عن الجُحْدِ والشِّرْك، وأَطْلَعَ في قلوبهم شمسَ العرفان، وأفردهم بنور البيان. وآخرون أضلّهم وأغواهم، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم، وفي سابقِ حكْمِه من غير سببٍ أَذَلَّهم وقمعهم، ولو شاء لعرَّفهم وهداهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات، وأجرى العادة بأن يديمَ به الحياة، وينبت به الأشجار، ويخرج الثمار، ويجري الأنهار.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ثم قال بعده بآيات: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة؛ فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خَلَلٌ وجب له العلم لا محالة، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر.

ويقال إنما قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير عارفاً، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل، فللعالِم حتى يكون عارفاً بربِّه آياتٌ ودلائل، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة؛ فبدليل واحد يعلم وَجْهَ النظر، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الليل والنهار ظرفا الفعل، والناس في الأفعال مختلفون: فموفَّقٌ ومخذول؛ فالموفَّق يجري وقته في طاعة ربه، والمخذول يجري وقته في متابعة هواه.

---

(١) تعنّى: تعب تعباً شديداً. وتعنّى الأمر: تكلفه على مشقة.

العابد، يكون في فَرْضٍ يقيمه أو نَفْلٍ يديمه، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَطَفُون عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل:

لستُ أدري أطال لَيْلِي أم لا   كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالة لَيْلِي   ورعيت النجومَ كنت مُخِلَّا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

هذا في الظاهر، وفي الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أقوامٌ خَلَقَ لهم في الأرض الرياضَ والغياض[1]، والدور والقصور، والمساكن والمواطن، وفنون النِّعم وصنوف القِسَم.. وآخرون لا يقع لهم طير على وكر، ولا لهم في الأرض شِبْر؛ لا ديار تملكهم، ولا علاقة تُمْسِكُهُم ـ أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

سخر البحر في الظاهر، وسهَّل ركوبه في الفُلْك، ويَسَّر الانتفاع بما يستخرج منه من الحُلِيِّ كاللؤلؤ والدُّرِّ، وما يقْتَاتُ به من السمك وحيوان البحر.

ومن وجوه المعاني خلق صنوفاً من البحر، فقومٌ غَرْقَى في بحار الشغل وآخرون في بحار الحزن، وآخرون في بحار اللهو. فالسلامةُ من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الرواسي في الظاهر الجبال، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلْق، بهم يرحمهم، وبهم يغيثهم.. ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

---

(١) الغياض: جمع غيضة وهي الشجر الملتف. (اللسان ٧/ ٢٠٢ مادة: غيض).

(٢) للحديث رواية أخرى: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته». أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٦٣٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٢)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩)، (أحاديث القصاص ٢٤).

[الأنفال: ٣٣]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، [الفتح: ٤٥]، وأنشد بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الكواكبُ نجومَ السماء ومنها رجومٌ للشياطين، والأولياء نجومٌ في الأرضِ. وكذلك العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجومٌ للكُفَّار والملحدين.

ويقال فرْقٌ بين نجوم يهْتَدَى بها في فِجَاج الدنيا، ونجومِ يُهْتَدَى بهم إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه ـ سبحانه ـ وبين خَلْقِه. وصفاتُ القِدَم لله مُستَحَقَّة، وما هو من خصائصِ الحدثان وسِماتِ الخَلق يتقدَّس الحقُّ ـ سبحانه ـ عن جميع ذلك. ولا تُشَبّه ذاتُ القديم بذواتِ المخلوقين، ولا صفاتُه بصفاتِهم، ولا حُكمُه بحُكمِهم، وأصلُ كلِّ ضلالةِ التشبيهُ، ومِنْ قُبحِ ذلك وفسادِه أَنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه ويستنكِفُ من انتحاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الموجوداتُ لا تحصوها لِتقاصُرِ علومِكم عنها، وما هو من نِعمَ الدفع فلا نهاية له. وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره، ويرضى بمعرفتكم (. . . . . .)[1] لكم عن شكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص.. فلا يخفى عليه حسبان، وما تعلنون من الوفاق والشقاق، والإحسان والعصيان. والآيةُ توجِبُ تخويف أَربابِ الزَّلات، وتشريفَ أصحابِ الطاعات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أخبر أن الأصنامَ لا يَصِحُّ منها الخَلقُ لكونها مخلوقةً، ودلَّت الآيةُ على أنَّ من وُجِدَتْ له سِمَةُ الخَلق لا يصِحُّ منه الخَلق، والخَلقُ هو الإيجاد؛ ففي الآية دليلٌ على خَلقِ الأعمال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التكوين لا يصِحُّ منه الإيجاد. وفي التحقيق كُلُّ مَنْ عَلقَ قلبَه بشيءٍ، وتَوَهَّم منه خيراً أو شراً فقد أشرك بالله بظنِّه، وإنما التوحيدُ تجريدُ القلبِ عن حسبان شظيّةٍ من النفي والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

لا قَسِيمَ لِذَاتِه جوازاً أو وجوباً، ولا شبيهَ له ولا شريك.. ومَنْ لم يتحققْ بهذه الجملة قطعاً، وبشهادة البراهين له تفصيلاً فهو في دَرَكَاتِ الشِّرك واقعٌ، وعن حقائق التوحيد بمعزل، قال تعالى في صفة الكفار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي في أَسْرِ الشِّرْكِ وغطاء الكفر، ثم ليس فيه اتصاف لطلب العرفان؛ لأنَّ العلةَ ـ لِمَنْ أراد المعرفة ـ مُتاحة، وأدلة الخُلق لائحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾.

فيفضحهم ويبيِّنُ نفاقَهم، ويُعْلِنُ للمؤمنين كفرهم وشِقاقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين، ويكفيهم فضلاً بشارة الحق لهم بمحبته لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

لَحِقَهم شؤمُ تكذيبهم، فأَصرُّوا على إعراضهم عن النظر، وقَسَتْ قلوبُهم ولم تجنح إلى الإقرار بالحق، فَلَبَّسُوا على من يسائلهم، وقالوا: هذا الذي جاء به محمد من أكاذيب العجم(١). فضلُّوا وأَضلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

لما سَعَوْا في الدنيا لغير الله لم تَصْفُ أعمالُهم، وفي الآخرة حَمَلُوا معهم أوزارهم.. أولئك الذين خَسِروا في الدنيا والآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

اتصفوا بالمكر فحاق بهم مَكْرُهم، ووقعوا فيما حفروه لغيرهم، واغتروا بطول الإمهال، فأخذهم العذابُ من مأْمَنِهم، واشتغلوا بِلهوهِم فَنَغَّصَ عليهم أطيب عَيْشهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) العجم: من ليسوا عرباً، الواحد: عجمي نطق بالعربية أو لم ينطق.

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فمنعاه العقوبة، وذلك على عادة العرب في التوسع في الخطاب.

وهو سبحانه يكشف الليلَ ببَذْره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمَكْره، وفي معناه قالوا:

وأَمِنْتُه فأَتَاحَ لي من مأمَني مكْراً، كذا مَنْ يَأمَنُ الأيامَا

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

في الدنيا عاجلُ بلائهم، وبين أيديهم آجِلُه. وحَسْرةُ المُفلس تتضاعف إذا ما حُوسِبَ، وشاهَدَ حاصِلَه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾: يُسْمِعُ الكافرين قولَ المؤمنين، ويبيِّن للكافة صِدْقَهم. ويقع الندمُ على جاهلهم. وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمُّل، وعن قريب ينكشف الغطاء، وأنشد بعضهم:

خليليَّ لو دارت على رأسِيَ الرَّحى من الذُّلِّ لم أَجْزَعْ ولم أَتَكلَّم
وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا ولكنني أفصحتُ يومَ التكلُّم

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: بارتكاب المعاصي وهم الكفار.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾: انقادوا واستسلموا لحكم الله.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾: جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: هكذا قالت لهم الملائكة، ثم يقولون لهم: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ...﴾: وكذلك الذين تقسو نفوسُهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزَلَتْ بهم الوفاةُ يأخذون في الجزع وفي التضرع، ثم لا تطيبُ نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أَخَلُّوا من معاملاتهم، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير، والنقير والقطمير، ثم يبقون أبداً في وبال ما أحقبوه، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أُخراهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم، وسألوهم عن أحوال محمد ـ ﷺ، وعما أَنزل اللَّهُ عليه، قالوا: دينه حقٌّ، واللَّهُ أَنزل عليه الحقَّ. . والذين أحسنوا في الدنيا يجِدُون الخير في الآخرة.

ويقال في هذه الدنيا حسنة، وهي ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكونَ تلك الحسنةُ زيادةَ التوفيقِ لهم في الأعمال، وزيادةَ التوفيقِ لهم في الأحوال.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أَنْ يُوَفِّقَهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبَلِّغهم منازلَ الأكابر والسادةِ.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدَّى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين، وما يجري على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم، قال النبي ﷺ: «لأن يهتدي بهداك رجل خير لك من حمر النعم»(١).

ثم قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، لأن ما فيها يبقى، وليس فيها خطر الزوال. ولأن في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

كما أن الإرادات والهِمَمَ تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة، وفي الخبر: «مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ الله بها» فَمِنْ مريدٍ يكتفي من الجنة بورودها، ومن مريدٍ لا يكتفي من الجنة دون شهود ربِّ الجنة.

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم، وما وجدوا في ذلك من صحبة اللَّعينِ في سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك، ومن شاء لَمْ تدومَ رؤيتُه، ويتأبَّدَ سماعُ خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد، وهو ما لم يخطر ببال أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يقبض أرواحَهم طيبةً. أو يقال: ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال.

والأسباب التي تطيب بها قلوبُهم وأرواحُهم مختلفة، فمنهم مَنْ طاب وقتُه لأنه قد غُفِرتْ ذنوبُه، وسُتِرتْ عيوبه، ومنهم مَنْ طاب قلبُه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبُه، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٥٨ ـ ٢٧٣، ٥/٢٣ ـ ١٧١)، ومسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب٤ رقم ٣٤).

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه، ويصل إلى حُسْنِ مآبه.

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أَمِنَ من زوال حالِه، وحظي بسلامة مآله، ومنهم من يطيب قلبُه لأنه وصل إلى أفضاله، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله ـ قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم.

ويقال: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ طيبةً نفوسهم أي طاهرةً من التدنُّس بالمخالفات، وطاهرةً قلوبُهم عن العلاقات، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ إحْظَوْا بالجنة، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكَ، ومنهم مَنْ يُكَاشِفه بذلك المَلِكُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

القومِ ينتظرون مجيءَ المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونَه. ولكن لمَّا كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسلَ غيرُ صادقين، ولمَّا سلكوا مسلكَ أضرابهم من المتقدمين ـ عوملوا بمثل ما لَقِي أسلافُهم، وما كان ذلك من الله ظلماً، لأنه يتصرف في مُلْكه من غير حُكْمِ حاكمٍ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

خَبثَتْ قصودُهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم، وانكشف عدمُ صِدْقِهم في أحوالهم.

وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ...﴾ يشبه قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]. ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

لم يُخْلِ زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرَّقهم في سابقِ حُكْمِه؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهم وأعماهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

ألزمهم الوقوفَ على حدِّ العبودية في إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال: إنك وإنْ كنتَ بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلالَ لا يجري عليه غيرُ ما قَسمْتُ له.

ويقال من ألبستُه صدارَ الضلال لا تنزعه وسيلةٌ ولا شفاعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

القَسَمُ يؤكِّد الخبرَ، ولكنَّ يمينَ الكاذب توجِب ضَعْفَ قوله؛ لأنه كلما زاد في جحد الله ازداد القلبُ نفرةً من قوله:

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

إذا بيَّن الله صِدْقَ ما ورد به الشرع في الآخرة بكشفِ الغيب زاد افتضاحُ أهل التكذيب فيكون في ذلك زيادةٌ لهم في التعذيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

فيكون بالسمع عِلْمُ تَعَلُّقِ قَوْلِه بما يفعله، وحَمَله قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسَّرُ عليه فعلُ شيءٍ أراده، فالآية على القولين جميعاً.

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدةٍ يقع الفعل فيها.

وتدل الآيةُ على أَنَّ قولَه ليس بمخلوق؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له: كن، وذلك القول يجب أن يكون مقولاً له بقولٍ آخر... وهذا يؤدي إلى أن يتسلسلَ ما يحصل إلى ما لا نهاية له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

مَنْ هَاجَرَ عن أوطان السوء ـ في الله ـ أبدل له اللَّهُ في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونَةٌ على الزيادة في صفاء وقته. ومَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة. ومَنْ فَارقَ مجالسة المخلوقين، وانقطع بقلبه إليه ـ سبحانه ـ باستدامة ذكره ـ فكما في الخبر: «أنا جليس من ذكرني». وبدايةُ هؤلاء القوم نهايةُ أهل الجنة؛ ففي الخبر «الفقراء الصابرون جلساءُ الله يوم القيامة». ويقال القلبُ مظلومٌ من جهة النَّفس لما تدعوه إليه من شهواتها، فإذا هجرها أورث اللَّهُ القلبَ أوطانَ النَّفس حتى تنقادَ لما يطالِبُ به القلبُ من الطاعة؛ فبعد ما تكون أوطان الزَّلَّةِ بدواعي الشهوة تصير أوطانَ الطاعة لسهولة أدائها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء، والتوكل التوقي بالله بحُسْن الرجاء.

ويقال صبروا في الحال، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال.

ويقال الصبر تحسِّي كاساتِ المقدور، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحذور.

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسْقَى، والتوكل الثقة بما يرجو.

ويقال إنما يقوَوْن على الصبر بما حققوا من التوكل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسلا، فأخبر أنَّ الرسلَ كلّهم كانوا من البشر، وأنَّ فيمن سبق مَنْ أَقَرَّ بذلك. ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هم العلماء؛ والعلماء مختلفون: فالعلماءُ بالأحكام إليهم الرجوعُ في الاستفتاء من قِبَل العوام فَمَنْ أُشْكِل عليه شيءٌ من أحكام الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله، ومن اشتبه عليه شيءٌ من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله، فالفقيه يوقِّع عن الله، والعارف ينطق ـ في آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها ـ عن الله، فهو كما قيل: أليس حقاً نطقت بين الورى فاشتهرت، كاشفها يعلم ما منَّ عليها فجرت، فهي عناء به عينيه قد طهرت.

قوله جلّ ذكره: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي إن البيانَ إليك، فأنت الواسطة بيننا وبينهم، وأنت الأمين على وحينا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

العبدُ في جميع أحواله عُرْضَةٌ لِسِهام التقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كلِّ نَفَسٍ من الإصابة بها، وألَّا يأمنَ مَكْرَ الله في أي وقت، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأةِ نفوسُهم وقلوبُهم على ما عَوَّدَهم الحقُّ من عوائد المِنَّة، ولكن كما قيل:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوّلِه إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

كل مخلوقٍ من عين أو أثر، مِنْ حَجَر أو مَدَرٍ أو غَبَرٍ فلله ـ من حيث البرهان ـ ساجد، ومن حيث البيان على الوحدانية شاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتَنَعَتْ عن إقامة الشهادة لقوم قالةٌ، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

يخافون الله أن يُنزلَ عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لا يعصونه ولا يحيدون عن طاعته.

ويقال خيرُ شيء للعبد في الدنيا والآخرة الخوفُ؛ إذ يمنعه من الزَّلة ويحمله على الطاعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الحاجة إلى إثبات صانعٍ واحد داعية، وما زاد على الواحد (فالا....)[1] فيه متساوية.

ويقال إثبات الواحد ضرورة، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

له الدين خالصاً وله الدين دائماً، وله الدينُ ثابتاً، فالطاعة له واجبة. فلا تتقوا غيره، وأطيعوا شَرْعَه بخلاف هواكم، واعبدوه وَحْدَه، واستجيبوا له في المَسَرَّةِ والمَضَرَّةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ﴾.

النعمة ما يُقَرِّبُ العبدَ من الحق، فأمَّا ما لا يوجِب النسيانَ والطغيان، والغفلةَ والعصيانَ فأَوْلَى أن يكون محبة.

ويقال ما للعبد فيه نفع، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال. وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] على كل حال.

وفائدةُ الآيةِ قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيار في حالتي اليُسْر والعُسْر، والثقة بأن الخير والشر، والنفع والضر كلاهما من الله تعالى.

---

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ .

إذ ليس لكم سواه؛ فإذا أَظَلَّتْ العبدَ هواجمُ الاضطرار التجأَ إلى الله في استدفاع ما مَسَّه من البلاء ثم إذا مَنَّ الحقُّ عليه، وجاد عليه بكشف بلائه صار كَأَنْ لم يمسه سوءٌ أو أصابه همٌّ كما قيل:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولـم يَـكُ صـعـلـوكـاً إذا مـا تـمـوَّلا

وقال:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ .

الخطاب عام، وقوله: ﴿مِّنكُم﴾ : لأنَّ القومَ منهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

في هذا تهديد أي أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامةٌ، ويعتذرون حين لا يُقْبَلُ لهم عُذْرٌ.. ومَنْ زَرَعَ شراً فلن يَحْصُدَ إلا جزاءَ عَمَلِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ .

أي يجعلون لما لا يعلمون ـ وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم ـ نصيباً من أرزاقهم؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا.

﴿تَٱللَّهِ﴾ أقسم إنهم سيلْقَوْن عقوبةَ فِعْلِهِم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ .

من فَرْطِ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد، ثم زاد اللَّهُ في خذلانهم حتى قالوا: الملائكة بنات الله. وكانوا يكرهون البنات، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم. ويلتحق بهؤلاء في استحقاق الذمّ كلُّ مَنْ آثر حَظَّ نَفْسِه على حقِّ مولاه، فإذا فعل مَالَهُ فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذمومَ الوصف، ملوماً على ما اختاره من الفعل.

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهةِ أَنْ تُولَد لهم الإناثُ فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

استولت عليهم رؤية الخَلْق، وملكتهم الحيرة، فلحَقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البَعْلِ فيهن.. وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة، والغيبة عن شهود الحقيقة.

ثم قال: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي يحبس المولودَ إذا كان أنثى على مَذَلَّة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ ليموت؟ وتلك الجفوةُ في أحوالهم جَعَلَتْ ـ من قساوة قلوبهم في أحوالهم ـ العقُوبةَ أشدَّ مما كانت بتعجيلها لهم. وجَعَلَهُم فرطُ غيظهم، وفَقْدُ رضائهم، وشدة حنقهم على من لا ذنبَ له من أولادهم ـ من أهل النار في دَرَكَاتِ جهنم، وتكدَّر عليهم الوقتُ، واستولت الوحشةُ.. ونعوذ بالله من المَثَلِ السوء!

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

مَثَلُ السوءِ للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء.

ولله صفات الجلال ونعوت العِزِّ، ومَنْ عَرَفَه بنعت الإلهية تَمَّتْ سعادتُه في الدارين، وتعجلت راحته، وتنَزَّه سِرُّه على الدوام في رياضِ عرفانه، وطَرِبَتْ روحُه أبداً في هيجان وَجْدِه.

أمَّا الذين وُسِمُوا بالشِّرْكِ ففي عقوبة مُعَجَّلة وهموم مُحَصَّلة. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ...﴾ أي لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لَحَلَّ الاستئصالُ بهم، ولكنَّ الحُكْمَ سَبَقَ بإمهالهم، وسَيَلْقَوْن غِبَّ أعمالِهم في مآلِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

انخدعوا لمَّا لانَ لهم العيشُ، فظنوا أنهم ينجون، وبما يُؤَمِّلونه يحيطون؛ فَحسُنَتْ في أعينهم مقابحُ صفاتهم، ويومَ يُكْشَفُ الغطاءُ عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة، فلا تسْمَعُ منهم دعوة، ولا تتعلق بأحدهم رحمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبي ـ ﷺ؛ وذلك أنه أخبر أن مَنْ تَقدَّمَه من الأمم كانوا في سلوك الضلالة، والانخراط في سِلْكِ الجهالة كما كان من قومه، ولكن اللَّهَ ـ سبحانه ـ لم يعجز عنهم. وكما سَوَّلَ الشيطانُ لأُمَّتِه، وكان ولياً لهم، فهو وليُّ هؤلاء. وأمَّا المؤمنون فالله وليُّهم، والكافرون لا مَوْلى لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أنت الواسطة بيننا وبين أوليائنا، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى؛ تُبَلِّغُ عنَّا وتؤدِّي مِنَّا، فأنت رحمةٌ أرسلناك لأوليائنا. . فَمَنْ تَبِعَكَ اهتدى، ومَنْ عصاك ففي هلاكه سعى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أحياء بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار، وانفردت بحقائق الاتصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

سَخَّرَها لكم، وهيأها للانتفاع بلحمها وشحمها، وجِلْدِها وشَعْرِها ودَرِّها، وأصلها ونَسْلِها. ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن ـ مع صفائه وطعمه ونَفْعِه ـ من بين الروث[1] والدم، وذلك تقدير العزيز العليم. والذي يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الزَّلَّةِ من وجوهها المختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

مَنَّ على العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس. . وغير ذلك.

والرزق الحسن ما كان حلالاً. ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، ويقال هو الذي لا مِنَّة لمخلوقٍ فيه ولا تَبِعَةَ عليه.

ويقال هو ما لا يعصي الله مكتسبُه في حال اكتسابه.

ويقال هو ما لا يَنْسَى الله فيه مُكْتَسِبُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أوحى إلى النحل: أراد به وحي إلهام. . ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً، طَابَ مأكلُه وجعل ما يخرج منه شفاءً للناس.

---

(١) الروث: رجيع ذي الحافر، والجمع أرواث. (اللسان ٢/١٥٦ ـ ١٥٧ مادة: روث).

ثم إن الله ـ سبحانه ـ عَرَّفَ الخَلْقَ أَنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق؛ إذ أن النحلَ ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة، ومع ذلك جعل منه العَسَلَ الذي هو شفاء للناس.

والإنسان مع كمال صورته، وتمام عقله وفطنته، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى.. فأيُّ فضيلةٍ للنحل؟ وأيُّ ذنبٍ للإنسان؟ ليس ذلك إلا اختياره ـ سبحانه.

ويقال إن الله ـ سبحانه ـ أجرى سُنَّتَه أَنْ يُخْفِيَ كلَّ شيء عزيز في شيء حقير؛ فجعل الإبْرَيْسَمَ[١] في الدود وهو أضعف الحيوانات، وجعل العسل في النحل وهو أضعف الطيور، وجعل الدُّرَّ في الصدف[٢] وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج[٣] في الحجر... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يعصي وفيهم من يخطىء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

خَلَق الإنسانَ في أحسن تركيب، وأملح ترتيب، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، والنور والضياء، والفهم والذكاء. ورَزَقَه من العقل والتفكر، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التي خُصَّ بها من الرأي والتدبير، ثم في آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً، ويرى في كل يوم أَلَماً جديداً.

ويقال ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً.

ويقال أرذل العمر أن يرغب في عنفوان شبابه في الإرادة، ويسلك طريق الله مدةً، ثم تقع له فترةٌ، فيفسخ عقد إرادته، ويرجع إلى طلب الدنيا. وعند القوم هذه رِدَّةٌ في هذا الطريق.

ويقال أرذلُ العمر رغبةُ الشيخ في طلبٍ.

ويقال أرذلُ العمر حُبُّ المرءِ للرياسة.

ويقال أرذلُ العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خصومَه.

---

(١) الإبْرَيْسَمُ: أحسن الحرير (معربة فارسية).

(٢) الصدف: صدف الدرة: غشاؤها (اللسان ٩/ ١٨٨ مادة: صدف).

(٣) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف، أزرق اللون، بلون السماء أو أميل إلى الخضرة يُحَلّى به (مع).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

أرزاق المخلوقات مختلفة؛ فَمِنْ مضيَّقٍ عليه رزقُه، ومَنْ مُوَسَّعٍ عليه رزقه، ومِنْ أرزاق هي أرزاق النفوس، وأرزاقٍ للقلوب وأرزاق للأرواح، وأرزاقٌ للأسرار؛ فأرزاقُ النفوسِ لقوم بتوفيق الطاعات، ولآخرين بخذلان المعاصي. وأرزاق القلوب لقوم حضورُ القلب باستدامة الفكر، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة. وأرزاقُ الأرواح لقوم صفاء المحبة، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم، فيكون بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم. وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحقِّ، فأمَّا من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾.

شَغَلَ الخَلْقَ لأنَّ الجنس أَوْلَى بالجنس. ولمَّا أراد الحقُّ ـ سبحانه ـ بقاء الجنس هَيَّأَ سبب التناسب والتناسل لاستيفاء مثل الأصل. ثم مَنَّ على البعض بخلْق البنين، وابتلى قوماً بالبنات ـ كلٌّ بتقديره على ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

والرزق الطيب لعبدٍ ما تستطيبه نَفْسُه، ولآخر ما يستطيبه سِرُّه.

فمنهم من يستطيب مأكولاً ومشروباً، ومنهم من يستطيب خلوةً وصفوةً... إلى غير ذلك من الأرزاق.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو حسبان حصول شيءٍ من الأغيار، وتعلُّق القلبِ بهم استكفاءً منهم أو استدفاعاً لمحذور أو استجلاباً لمحبوب.

﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ والنعمة التي كفروا بها هي الثقةُ بالله، وانتظارُ الفَرَجِ منه، وحسنُ التوكلِ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾.

ومَنْ يَتَعَلَّقُ بشخصٍ أو بسببٍ مُضاهٍ لعُبَّاد الأصنام من حيث إنه يضيِّعُ وقتَه فيما لا يُعِينُه، فالرزقُ، من الله ـ في التحقيق ـ مُقَدَّرٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

كيف تُضرَبُ الأمثالُ لمن لا يساويه أحدٌ في الذات والصفات وأحكام الأفعال؟

ومَنْ نَظَرَ إلى الحقِّ من حيث الخَلْق وقع في ظلمات التشبيه، وبقي عن معرفة المعبود.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

شَبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا مِلْكَ له في الشرع، والمؤمنَ المخلصَ بمَنْ رَزَقَه الخيراتِ ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثوابَ وحُسْنَ المآبِ على ما أنفقه.

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفسِه، ملاحِظاً لأبناء جِنْسِه، متمادياً في حسبان مغاليطه كمَنْ كان مُدرِكاً بربِّه مصْطَلماً عن شاهده، غائباً عن غيره، والمُجرِي عليه ربُّه ولا حَوْل له إلا به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا المَثلُ أيضاً للمؤمن والكفار؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذي لا يجيء منه شيءٌ، ولا يحصل منه نفع، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حَوْله وقُوَّتِه، ولا يغترف إلا بطوْله ـ سبحانه ـ ومِنَّتِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

استأثر الحقُّ ـ سبحانه ـ بعلم الغيبيات، وسَتَرهَا على الخلْق؛ فيخرِجُ قوماً في الضلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية.. فالعواقبُ مستورة، والخواتيم مبهمة، والخَلْقُ في غفلة عما يُرَادُ بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

خلَقَهُم مِنْ غير أنْ شاورهم، وأثبتهم ـ على الوصف الذي أراده ـ دون أن خَيَّرهم، ولم يعلموا بماذا سبق حُكْمُهم.. أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العدَم أخرجهم من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاحَ أنْفُسِهِمْ عَلِمُوا، ولا صفةَ ربِّهم عَرفوا. ثُمَّ بحُكْم الإلهام هداهم حتى قَبِلَ الصبيُّ ثدي أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: لتسمعوا خطابه، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتُبصِروا أفعالَه، ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لِتَعْرِفُوا حقَّه، ثم لتَشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الطائر إذا حَلّق في الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط، وقد قامت الدلالة على أن الحقَّ ـ سبحانه ـ متفرِّدٌ بالإيجاد، ولا يَخْرُجُ حادثٌ عن قدرته، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

للنفوس وطن، وللقلوب وطن. والناس على قسمين مستوطنٌ ومسافر: فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم؛ فالمريد أو الطالب مسافِرٌ بقلبه لأنه يَتَلَوَّنُ، ويرتقي من درجة إلى درجة، والعارف مقيمٌ ومستوطِنٌ لأنه واصل متمكن. والطريق منازلُ ومراحلُ، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب، والمريد سالِكٌ والعارف واصِلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً.. كذلك جعل في ظل عنايته لأوليائه مثوًى وقراراً.

وكما سَتَرَ ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم ـ كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به في السراء والضراء، ولباسَ العصمة يحميكم من مخالفته، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته، وكساكم بحُلَلِ الوصل مما يؤهلكم لقربته وصحبته.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ...﴾، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتُهم مختومة بالخير، ويكفيهم أمورَ الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويُسَدِّدُهم حتى يؤثروا ما يوجِبُ من الله الرضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

إذا بَلَّغْتَ الرسالة فما جعلنا إليك حكم الهداية والضلالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

يَسْتَوْفِقُونَ إلى الطاعةِ، فإذا فعلوا أُعْجِبُوا بها[1].

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المقام: سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: =

ويقال يستغيثون، فإذا أجابهم قَصَّروا في شُكْرِه.

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنةٌ استجاروا بربهم، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة.

ويقال يعرفون في حال توبتهم قُبْحَ ما كانوا فيه حال زلتهم، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلُ عن أحوال أُمَمِهم، فمن نَطَقَ بحجةٍ أُكْرِمَ، ومَنْ لم يُدْلِ بحجةٍ لا تُراعى له حُرْمةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي يُشَدَّد عليهم الأمرُ ولا يُسَهَّل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تمنوا أن يَنْقِمُوا من إخوانهم الذين عاشروهم، وحملوهم على الزَّلَّة، فيتبرأون من شركائهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وتضيق صدورهم من بعض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

واستسلموا لأمر الله وحُكْمه، ويومئذ لا تضرُّع منهم يُرَى، ولا مِحْنةَ ـ يصرخون من ويلها ـ عنهم تُكْشَف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

تأتي ـ يومَ القيامة ـ كلُّ أمة مع رسولها، فلا أُمةَ كهذه الأمةِ فضلاً، ولا رسولَ كرسولنا ﷺ رتبةً وقَدْراً.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن تبياناً لكل شيء، فيه للمؤمنين شفاء، وهو لهم ضياء، وعلى الكافرين بلاء، وهو لهم سبب محنة وشقاء.

= لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلّا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها، وإنما أراد الواسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تعريجاً في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب. (الرسالة القشيرية ص٥٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

العدل ما هو صواب وحسن، وهو نقيض الجور والظلم.

أمر اللّهُ الإنسانَ بالعدل فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين الخَلْق؛ فالعدلُ الذي بينه وبين نفسه مَنْعُها عما فيه هلاكُها، قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وكمالُ عدلِه مع نفسه كيُّ عُروقِ طمعِه.

والعدلُ الذي بينه وبين ربّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسه، وتقديمُ رضا مولاه على ما سواه، والتجرد عن جميع المزاجر، وملازمة جميع الأوامر.

أو العدل الذي بينه وبين الخَلْق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف بكل وجه وألا تَشِيَ إلى أحد بالقول أو بالفعل، ولا بِالهَمِّ أو العزم.

وإذا كان نصيبُ العوام بَذْلَ الإنصافَ وكَفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواص تَرْكُ الانتصاف، وإسداءُ الإنْعَام، وتَرْكُ الانتقام، والصبرُ، على تَحَمُّلِ، ما يُصيبُكَ من البلوى.

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم ـ والعلمُ مأمورٌ به ـ أي العلم بحدوثِ نَفْسه، وإثباتِ مُحْدِثِه بصفات جلاله، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها. وأما الإحسانُ في الفعل فالحَسَنُ منه ما أمر الله به، وأَذِنَ لنا فيه، وحَكَمَ بمدح فاعله.

ويقال الإحسان أن تقوم بكل حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان لطيرٍ في مِلكِك، فلا تقصر في شأنه.

ويقال أن تَقْضِيَ ما عليك من الحقوق وألا تقتضِيَ لك حقاً من أحد.

ويقال الإحسان أن تتركَ كل ما لَكَ عند أحد، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً.

وجاء في الخبر: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهذه حال المشاهدة التي أشار إليها القوم.

قوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إعطاء ذي القرابة، وهو صلةُ الرَّحِمِ، مع مُقاساةِ ما منهم من الجَوْرِ والجفاءِ والحَسَدِ.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: وذلك كلُّ قبيح مزجورٍ عنه في الشريعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمينِ الوفاءُ بعهد الله في قبول الإسلام والإيمان، فتجبُ عليهم استدامةُ الإيمان. ثم لكلِّ قوم منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه، فهم مُطَالَبُون بالوفاء به؛ فالزاهدُ عَهْدُه ألا يَرجعَ إلى الدنيا، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد

نَقَضَ عهده ولم يفِ به. والعابد عاهده في تَرْكِ الهوى. والمريدُ عَاهَدَه في ترك العادة، وآثره بكل وجه. والعارف عهده التجرد له، وإنكار ما سواه. والمحب عهده تركُ نَفْسِهِ معه بكل وجه والموحِّد عهده الامتحاء[١] عنه، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد مَنهِيٌّ عن تقصير عهده، مأمورٌ بالوفاء به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

مَنْ نَقَضَ عهده أفسد بآخِرِ أمره أوَّلَه، وهَدَمَ بِفِعْلِهِ ما أَسَّسَه، وقَلَعَ بيده ما غَرَسَه، وكان كمن نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً[٢] أي من بعد ما أبرمت فَتْلَه.

وإنَّ السالكَ إذا وقعت له فترة، والمريدَ إذا حصلت له في الطريق وقفةٌ، والعارف إذا حصلت له حجبَةٌ، والمحبَّ إذا استقبلته فرقةٌ ـ فهذه مِحَنٌ عظيمةٌ ومصائِبُ فجيعةٌ، فكما قيل:

فَلأَبْكِيَنَّ على الهلالِ تأسُّفاً خوفَ الكسوفِ عليه قبل تمامه

فما هو إلا أَنْ تُكْشَفُ شَمْسُهُم، وينطفِيءَ ـ في الليلة الظلماءِ ـ سِراجُهم، ويتشتَّتَ من السماء نجومِهم، ويصيبَ أزهارَ أُنْسِهِم وربيعَ وَصْلِهِم إعصارٌ فيه بلاءٌ شديدٌ، وعذابٌ أليم. فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه إذا أراد بقوم بلاءً فكما يقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإنَّ آثارَ سُخْطِ الملوكِ مُوجِعةٌ، وقصةَ إعراضِ السلطانِ مُوحِشَةٌ وكما قيل:

والصبر يَحْسُنُ في المواطن كلها إلا عليكَ ـ فإنَّه مذمومٌ[٣]

هنالك تنسكب العَبَراتُ، وتُشَق الجيوب، وتُلْطَم الخدود، وتُعطَّلُ العِشار، وتخرَّبُ المنازلُ، وتسودُّ الأبواب، وينوح النائح:

وأتى الرسول فأخـ ـبر أنهم رحلوا قريبا
رجعوا إلى أوطانهم فجرى لهم دمعي صبيبا

---

(١) قال القشيري برسالته: من أقاويل الشيوخ بالمحبة: محو المحب لصفاته، وإثبات المحبوب. (الرسالة القشيرية ص٣٢١).

(٢) الأنكاث: واحدها نِكْث: وهو الغزل من الصوف أو الشعر، تُبرم وتُنسج، فإذا خَلَقَت النسيجة قُطِّعت قطعاً صغاراً، ونكثت خيوطها المبرومة، وخُلطت بالصوف الجديد، ونَشِبت به، ثم ضُربت بالمطارق وغزلت ثانية واستعملت، والذي ينكثها يقال له: نكّاث ومن هذا نكث العهد وهو نقضه بعد إحكامه، كما تُنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه. (لسان العرب ٢/ ١٩٧ مادة: نكث).

(٣) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص١٨٤:

الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل

وتـركـن نـاراً فـي الـضـلـوع ... وزرعـن فـي رأسـي مـشـيـبـا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

بلاءُ كلِّ واحدٍ على ما يليق بحاله؛ فمن كان بلاؤه بحديث النَّفْسِ أو ببقائه عن هواه، وبحرمانه لكرائمه في عُقْباه فاسمُ البلاءِ في صفته مَجَازٌ، وإنما هذا بلاء العوام. ولكنَّ بلاءَ الكِرامِ غيرُ هذا فهو كما قيل:

مَنْ لم يَبِتْ ـ والحبُّ مِلْءُ فؤادِه ... لم يَدْرِ كيف تَفَتُّتُ الأكبادِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم في أموالهم، أو من جهة تقصيرهم في أعمالهم ولِمَا صنيَّعوه من أحوالهم.. فهذه ـ لعمري ـ وجوهٌ وأسبابٌ، ولكنَّ سِرَّ القصةِ كما قيل:

أنَا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ ولكن ... ما احتيالي بسوء رأي الموالي؟

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: لو شاء الله سَعَادَتَهم لَرَحِمَهُم، وعن المعاصي عَصَمَهُم، وبدوامِ الذكر ـ بَدَلَ الغفلة ـ ألهمهم.. ولكن سَبَقَتْ القسمةُ في ذلك، وما أحسن ما قالوا:

شـكـا إلـيـك مـا وَجَـدْ ... مَـنْ خـانـه فـيـك الـجَـلَـدْ

حـيـرانُ.. لـو شِـئْـتَ اهـتـدى ... ظـمـآنُ.. لـو شِـئْـتَ وَرَدْ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أَبْعَدَكُم عَدَمُ صِدْقِكم في إيمانِكم عن تحقُّقِكم ببرهانكم، لأنكم وقفتم على حَدِّ التردد دون القطع والتعيين، فأفضى بكم تردُّدُكم إلى أوطانِ شِرْكِكُم، إذ الشكُّ في الله والشِّركُ به قرينان في الحُكْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لا تختاروا على القيام بحقِّ اللَّهِ والوفاءِ بعهده عِوَضاً يسيراً مما تنتفعون به من حُطام دنياكم من حلالكم وحرامكم، فإنَّ ما أعدَّ اللَّهُ لكم في جناته ـ بشرط وفائكم لإيمانكم ـ يوفي ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الذي عندكم عَرَضٌ حادث فانٍ، والذي عند الله من ثوابكم في مآلِكُم نِعَمٌ مجموعةٌ، لا مقطعوعةٌ ولا ممنوعة.

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو مالكم أفعالٌ معلولة وأحوالٌ مدخولة، وما عند الله فثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ.

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبةٌ، وأصناف متناوبة، أعيانُها غيرُ باقية وإن كانت أحكامُها غير باطلة والذي يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبته لكم وثباته عليكم فصفاتٌ أزلية ونعوتٌ سرمدية.

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعَرَّضٌ للزوال، وقابلٌ للانقضاء، وما وَصَفْنَا به أَنْفُسَا من الإقبال لا يتناهي وأفضال لا تفنى، كما قيل:

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائي وإني للقائهم لأشَدُّ شوقا

قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟...﴾: جزاءُ الصبر الفوزُ بالطَّلْبَةِ، والظَّفَرُ بالبُغية. ومآلهم في الطلبات يختلف: فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقةٍ في الله. فعِوَضُه وثوابُه عظيمٌ من قِبَل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ومَنْ صبر عن اتباع شهوةٍ لِأَجْل الله، وعن ارتكاب هفوةٍ مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

ومَنْ صبر تحت جريان حُكْمِ الله، متحققاً بأنه بِمَرْآةٍ من الله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] [البقرة: ١٥٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الصالح ما يصلح للقبول، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾: في الحال، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: في المآل؛ فصفَاءُ الحالِ يستوجِبُ وفاءَ المآلِ، والعملُ الصالحُ لا يكون من غير إيمان، ولذا قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

ويقال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدِّقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح. ويقال

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٨٣ ـ ١٨٩ حديث القشيري عن الصبر.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدّقٌ بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه. قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: الفاء للتعقيب، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ...﴾ الواو للعطف ففي الأولى مُعَجَّل، وفي الثانية مؤجَّل، ثم ما تلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق، وإنما يعرف ذلك بالذوق؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا إنه النجوى، وقوم قالوا إنه نسيم القرب... والكل صحيحٌ ولكلٍّ واحدٍ أهل.

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

نحن في أكمل السرور ولكنْ ... ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ
عَيْبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّي ... أنكم غُيَّبٌ ونحن حُضُورُ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجةٌ ولا سؤالٌ ولا أَرَبٌ ولا مُطالبةٌ؛ وفرقٌ بين من له إرادة فتُرْفَع وبين من لا إرادةَ له فلا يريد شيئاً[١]، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون مُعْتَقُون بشرط الحرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

شيطانُ كُلِّ واحدٍ ما يشغله عن ربه، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نَفْسُه حتى شَغَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادة أو ملاحظةِ حال ـ فذلك شيطانُه. والواجبُ عليه أن يستعيذَ بالله من شرِّ نَفْسِه، وشرِّ كل ذي شر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أنَّى يكون للشيطانِ سلطانٌ على العبد والحقُّ ـ سبحانه ـ متفرِّدٌ بالإبداع، متوحِّدٌ بالاختراع؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

إنما سلطانُه على الذين هم في غطاء غفلتهم، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم. فأمَّا أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثاتِ بالله ظهورُها، ومن اللَّهِ ابتداؤها، وإلى الله مآلها وانتهاؤها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الإرادة بهذا الصدد: والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة، كما أن العالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً. (الرسالة القشيرية ص٢٠١).

ما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شكٍ، وجحداً على جحدٍ، وجرَوْا على منهاجهم في التكذيب، فلم يُصدِّقوه ﷺ، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومرْية:

وكذا الملولُ إذا أَرادَ قطيعة مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ردٌّ على فرط جهلهم بربهم، وبُعْدِ رتبتهم عن التحصيل، فلمَّا كانوا متفرقين في شهود المَلِكِ رُدُّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ المَلَكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

لم يستوحش الرسولُ ـ ﷺ ـ من تكذيبهم، وخفاءِ حاله وقَدْرِه عليهم.. وأيُّ ضررٍ يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجالَستُه إذا خَفِيَتَ على الأَخسِّ مِنَ الرعيةِ حالتُه؟

ثم إنه أقام الحجةَ في الردِّ عليهم حيث قال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: فَمِنْ فَرْطِ جهلهم توهموا أنَّ القرآنَ ـ الذي عجز كافةُ الخَلْق عن معارضته في فصاحته وبلاغته ـ مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمي النطق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنَّ من سَبَقَتْ بالشقاوة قسمتُه لم تتعلق من الحق ـ سبحانه ـ به رحمتُه، ومَنْ لم يَهْدِه اللَّهُ في عاجله إلى معرفتِه لا يهديه اللَّهُ في آجِلِه إلى جنته.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

هذا من لطائف المعاريض؛ إذ لمَّا وصفوه ـ عليه السلام ـ بالافتراء أنار الحقُّ ـ سبحانه ـ في الجواب، فقال: لستَ أنت المفتري إنما المفتري مَنْ كذَّبَ معبودَه وجَهِلَ توحيدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عبده بقلبه، وإخلاصَه في عَقْدِه، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّفَ عنه حُكْمَه، ودَفَعَ عنه عناءَه فلا يَلْفِظُ بكلمة الكفر إلا مُكْرَهاً ـ وهو مُوَحِّدٌ، وهو مستحقّ العُذْرَ فيما بينه وبين الله تعالى... وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم،

وتجردوا لسلوكِ طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسبابٌ، واتفقت لهم أعذارٌ؛ كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ أو إلى شيءٍ من العلوم رجوعٌ. . . لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم، ولا ينفي بذلك عنهم سِمَةَ القَصْدِ إلى الله تعالى.

أمَّا ﴿مَن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾: فرجع باختياره، ووضع قَدَماً ـ كان قد رَفَعَه في طريق الله ـ بِحُكْم هواه فقد نَقَضَ عهْدَ إرادته، وفَسَخَ عقده، وهو مستوجب (. . .)[1] إلى (. . . .)[1] تتداركه الرحمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

السالك إذا آثر الحظوظ على الحقوق بَقِيَ عن الله، ولم يبارِكْ له فيما آثره على حقِّ الله، ولقد قالوا:

قد تركناكَ والذي تريد فعسى أنْ تَمَلهم فتعود

قوله جلّ ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

إذا تمادى في غفلته، ولم يتدارك حالَه بملازمةِ حَسْرَتِه، ازداد قسوةً على قسوة، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة، وكما قال جل ذكره:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

هم في الآخرة محجوبون، وبِذُلِّ البعد موسومون.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر، ولم يجنح إلى جانب الرُّخَصِ، وأخذ في الأمور بالأشَقِّ أكرم اللّهُ حَقَّه، وقرَّب مكانَه، ولَقَّاه في كل حالةٍ بالزيادة، وربحت صفقتُه حين خسِرَ أشكالُه، وتَقَدَّم على الجملة وإنْ قَلَّ احتيالُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

غداً كلٌّ مشغولٌ بنفسه، ليس له فراغ إلى غيره. وعزيزٌ عبدٌ لا يشتغل بنفسه، قال ﷺ: «من كان بحالٍ لقي الله بها». إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغاً،

---

(١) بياض في الأصل.

ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمامٌ بنفسه. والمؤمن لا نَفْسَ له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] اشتراها الحقُّ منهم، وأودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمرَ الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فراغ القلبِ من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبدٌ بهذه النعمة بأن فتح على نَفْسِه بابَ الهوى، وانجرف في فساد الشهوة، شَوَّشَ الله عليه قلبه، وسَلَبَه ما كان يَجِدُه من صفاء وقته؛ لأنَّ طوارقَ النفسِ تُوجِبُ غروبَ شوارقِ القلب، وفي الخبر: «إذا أقبل الليلُ من ها هنا أدبر النهارُ من ها هنا»[1]. وكذلك القلبُ إذا انقطع عنه معهودُ ما كان الحقُّ أتاحه له أصابه عطَشٌ شديد ولهبٌ عظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

كما جاءهم الرسولُ جهراً فإنه تتأدّى إليهم منْ قِبَل خواطرهم إشاراتٌ تترى، فمَنْ لم يستجِبْ لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق أخذه العذابُ من حيث لا يشعر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلالُ الطيبُ ما يتناوله العبدُ على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة، وحقيقةُ الشكر على النعمةِ الغيبةُ عن شهودِ النعمة بالاستغراق في شهود المنعِم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يُبَاحُ تناولُ المحرماتِ عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع، ولا يُرَخَّصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة، وبِقَدْرِ ما يَسُدُّ الرَّمق، كذلك عند استهلاكِ العبدِ

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ٤٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ٢١٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٨٥)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ٢٥٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٣٨٧٦)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٨/ ٣١٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٠٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٩٥)، والطبري في (التفسير ٢/ ١٠٣) (بغوي ١/ ١٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٥٢)، والحميدي في (المسند ٢٠).

بغلبات الحقيقة لا بدّ من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدى الفرض الواجب عليه، ثم لا يُمكَّن من التعريج في أوْطان التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع[١]، كما قيل:

فإنْ تَكُ منه غيبة بعد غيبةٍ ... فإنَّ إليه بالوجود إيابي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الصدق في كل شيء أوْلَى من الكذب، وكثيرٌ من أقوالهم في الاعتراض عَيِّناتٌ[٢] من الكذب.

والصِّدِّيق لا يكذب صريحاً، ولا يتداول أقوال كاذبٍ مهين. وصاحبُ الكذبِ تظهر عليه المذَلَّةُ لما هو فيه من الزَّلَّةِ، وله في الآخرة عذابٌ أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

بيَّن أنه أوضح لِمَنْ تَقَدَّمَ الحلالَ والحرامَ، فمنهم مَنْ أتى بما أُمِرَ به ومنهم مَنْ خالف.. وكلٌ عُومِل بما استوجبه؛ فمن أطاع قلبُه قرَّبَه، ومَنْ عَصَى رَدَّه وحَجَبَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قَدَّمُوا، وأَسِفوا على كثيرٍ مما أسلفوا وفيه أسرفوا، ومَحَا صِدْقُ عَبْرَتِهم آثارَ عَثْرَتِهم ـ نظَرَ اللَّهُ إليهم بالرحمة، فتابَ عليهم إذا أصلحوا، ونجَّاهم إذا تضرَّعوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قيل آمن بالله وحدَه فقام مقام الأمة، وفي التفسير: كان معلِّماً ـ للخير ـ لأمةٍ.

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودة ما يكون في أمةٍ متفرقاً.

ويقال لمَّا قال إبراهيمُ لكلِّ ما رآه: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧] ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هي بل كان مُسْتَهْلَكاً في شهودِ الحقِّ، ورأى الكوْنَ كُلَّه بالله، وما ذكر حين ذكر غيرَ الله.. كذلك كان جزاء الحق فقال: أنت الذي تقوم مقام الكلِّ، ففي القيامِ بحق الله منك على الدوام غُنْيَةٌ عن الجميع.

---

(١) هذه هي حالة الفرق الثاني (انظر الرسالة القشيرية ص٦٦).

(٢) العيّنات: (ج) العيّنة: جزء من المادة يؤخذ منها نموذجاً لسائرها.

و «الحنيف»: المستقيم في الدِّين، أو المائل إلى الحق بالكلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الشاكرُ في الحقيقة ـ مَنْ يرى عَجْزَه عن شكره، ويرى شُكْرَهُ من الله عزَّ وجل، لِتَحَقُّقِه أنه هو الذي خَلَقَه، وهو الذي وَفَّقَه لشكره، وهو الذي رزقه الشكرَ، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له ـ سبحانه.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي تحقَّق بأنه عَبْدُه، وأنه رقَّاه إلى محلِّ الأكابر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الحسنةُ التي آتاه اللَّهُ هي دوامُ ما آتاه حتى لم تنقطِعْ عنه.

ويقال هي الخلة. ويقال هي النبوة والرسالة.

ويقال آتيناه في الدنيا حسنةً حتى كان لنا بالكلية، ولم تكن فيه لغير بقية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي الكون بالحق، والامتحاء عن شاهد نفسه؛ فكان نبينا ـ ﷺ ـ في اتباعه إبراهيم مؤتَمِراً بأمر الله. وكانت ملةُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ الخُلُقَ والسخاءَ والإيثارَ والوفاءَ، فاتبعه الرسول ﷺ وزاد عليه، فقد زاد على الكافة شأنه، وبانت مَزِيَّتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قومٌ حرَّموا العملَ فيه وقومٌ حللوه معصيةً منهم، وقيل جعل الجمعةَ لهم فقالوا: لا نريد إلا يومَ السبت.. فهذا اختلافهم فيه.

والإشارة من ذلك أنهم حادوا عن موجب الأمر، ومالوا إلى جانب هواهم. ثم إنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

الدعاءُ إلى سبيل الله بحثِّ الناسِ على طاعةِ الله، وزجرهم عن مخالفة أمر الله.

والدعاءُ بالحكمة ألا يخالفَ بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق.

والموعظة الحسنة مِمَّا يكون صادراً عن علمٍ وصوابٍ، ولا يكون فيها تعنيف.

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بالحجة الأقوى، والطريقة الأوضح. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]: فشرطُ الأمرِ بالمعروف استعمالُ ما تأمر به، والانتهاء عما تنهي عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

إذا جرى عليكم ظُلْمٌ من غيرَكم وأردتم الانتقامَ.. فلا تتجاوزُوا حَدَّ الإذنِ بما هو في حكم الشرع.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾: فتركتم الانتصافَ لِأَجْلِ مولاكم فهو خيرٌ لكم إنْ فَعَلْتُمْ ذلك. والأسبابُ التي قد يترك لأجلها المرءُ الانتصافَ مختلفة؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يتكفَّل اللَّهُ بخصومه، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجري عليه، ومنهم من يترك ذلك لِكَرَمِ نَفْسِه، وتَحرُّرِه عن الأخطار ولاستحبابه العفوَ عند الظَّفَرِ، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقاً، ولا يعتقد أَنَّ لأحدٍ هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسِه؛ فمِلْكُه مُبَاحٌ ودَمُهُ هَدَر. ومنهم من ينظر إلى خصمه ـ أي المتسلط عليه ـ على أنَّ فِعْلَه جزاءٌ على ما عمله هو من مخالفة أمر الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. فاشتغاله باستغفاره عن جُرْمِه يمنعه عن انتصافه من خصمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

«واصبر» تكليف، «وما صبرك إلا بالله»: تعريف. «واصبر» تحققٌ بالعبودية، «وما صبرك إلا بالله» إخبارٌ عن الربوبية.

«ولا تحزن عليهم..» أي طالِعِ التقدير، فما لا نجعلُ له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجِبَ أثراً فيك، فمَنْ أَسْقَطْنا قَدْرَه فاستَصْغِر أَمْرَه. وإذا عرفتَ انفرادَنا بالإيجادِ فلا يضيقِ قلبُك بشدة عداوتهم، فإنَّا ضَمَنَّا كِفايتَك، وألا نُشْمِتَهم بك، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

إن الله معهم بالنصرة، ويحيطهم بالإحسان والبسطة.

«الذين اتقوا» رؤيةَ النصْرةِ مِنْ غيره، والذين هم أصحاب التبري من الحَوْلِ والقوة.

والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهذه حال المشاهدة.

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل

قوله تعالى وتَقَدَّس: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

كلمةٌ ما سَمِعَها عابدٌ إلّا شكر عصمتَه، وما سمعها سالِكٌ إلا وَجَدَ رحمتَه، وما تَحَقَّقَها عارفٌ إلّا تَعَطَّرَ قلبُه بنسيم قُربته، وما شهدها موحِّدٌ إلا تَقَطَّرَ دمُه لخوفِ فُرقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

افتتح السورةَ بِذِكْرِ الثناءِ على نَفْسه فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ﴾ [الإسراء: ١]: الحقُّ سبَّحَ نَفْسَه بعزيزِ خطابِه، وأخبر عن استحقاقه لجلال قَدْرِه، وعن توحُّده بعلوِّ نُعُوتِه.

ولمَّا أراد أنْ يَعْرِفَ العبادُ ما خَصَّ به رسولَه ـ ﷺ ـ ليلةَ المعراجِ من عُلوٍّ ما رقَّاه إليه، وعِظَم ما لقَّاه به أزالَ الأُعجوبةَ بقوله: ﴿أَسۡرَىٰ﴾، ونفى عن نبيِّه خَطَرَ الإعجاب بقوله: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ ألوهيته، واستحقاقَه لكمالِ العِزِّ فلا يُتَعَجَّبُ منه أن يفعل ما يفعل، ومَنْ عرف عبوديةَ نَفْسِه، وأنَّه لا يَمْلِكُ شيئاً من أمره فلا يُعْجَبُ بحاله. فالآية أوضحت شيئين اثنين: نَفَى التعجُّبِ من إظهارِ فِعْلِ اللَّهِ عزَّ وجل، ونفَى الإعجاب في وصف رسول الله عليه السلام.

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام ـ حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة ـ فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأخبر عن نبينا ﷺ بأنه ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ وليس مَنْ جاءَ بنفسِه كمنْ أَسْرَى به ربُّه، فهذا مُتَحَمِّلٌ وهذا محمول، هذا بنعت الفَرْقِ وهذا بوصف الجمع، هذا مُريدٌ وهذا مُرَادٌ.

ويقال جعلِ المعراجَ بالليل عند غَفْلَةِ الرُّقَباءِ وغَيْبَةِ الأجانب، ومن غير ميعاد، ومن غير تقديم أُهْبَةٍ واستعداد، كما قيل:

ويقال جعل المعراجَ بالليل ليُظْهرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ، وتكذيبَ مَنْ تعجَّب وكَذَّبَ أو أنكر وجحد.

ويقال لما كان تعبُّدهُ ﷺ وتهجُّدُه بالليل جَعَلَ الحقُّ سبحانه المعراجَ بالليلِ.

ويقال:

لــيــلــةُ الــوَصْــلِ أَصْــفَــى　　　مــن شــهــور ودهــور ســواهــا

ويقال أرسله الحقُّ ـ سبحانه ـ ليتعلَّم أهلُ الأرضِ منه العبادة، ثم رَقَّاه إلى السماءِ ليتعلَّمَ الملائكةُ منه آدابَ العبادة، قال تعالى في وصفه ـ ﷺ ـ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، فما التَفَتَ يميناً ولا شمالاً، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرام؛ تجرَّد عن كلِّ طلبٍ وأَرَبٍ.

قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشْفٌ بالذات.

ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله ـ سبحانه ـ شيءٌ في جلالِه وجماله، وعِزِّه وكبريائه، ومجده وسنائه.

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه ـ أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثلَه في نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا ﷺ، ولكنَّ نَبِيَّنا ـ صلوات الله عليه ـ كان أوفى ـ سماعاً، فإنَّ الشمسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقربَ ممن طلعت له من حقائقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

أي يا ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح ـ على النداء.. إنه كان عبداً شكوراً.

والشكور الكثير الشكر؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان يضرب في كل (...)(١) كما في القصة ـ سبعين مرة، وكان يشكر. كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه: أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأُمِرَ حين دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللّهِ له لِشُكْرِه، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِه.

ويقال الشكور الذي يشكر بماله، ينفقه في سبيل الله ولا يدَّخِره، ويشكر بنفْسِه فيستعملها في طاعة الله، ولا يُبْقِي شيئاً من الخدمة يدخره، ويشكر بقلبِه ربَّه فلا تأتي عليه ساعةٌ إلا وهو يذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

القضاءُ ها هنا بمعنى الإعلام، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُسْتَأنَفِ منهم وما يستقبلهم، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخْبِروا به، وليكونَ أبلغَ في لزوم الحُجَّةِ عليهم، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم، وليعلموا أن ما سَبَقَ به القضاءُ فلا محالةَ يحصل وإنْ ظُنَّ التباعدُ عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

يدلُّ على أنه مُقَدِّرُ أعماله العباد، ومدبِّرُ أفعالِهم؛ فإنَّ انتصارَهم على أعدائهم من جملة أكسابهم، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذي تولَّاه بقوله: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾.

إنْ أحسنتُم فثوابكم كسبتم، وإنْ أسأتم فعداءَكم جَلَبْتُم ـ والحقُّ أعزُّ مِنْ أَنْ يعودَ إليه من أفعال عبادِه زَيْنٌ أو يلحقه شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ﴾.

كِلمةُ ﴿عَسَىٰ﴾ فيها ترجية وإطماع، فهو ـ سبحانه ـ وقفهم على حد الرجاء والأمل، والخوف والوجل.

وقوله ﴿عَسَىٰ﴾: ليس فيه تصريح بغفرانهم، ورحمتهم، وإنما فيه للرجاء موجِبٌ قويٌّ؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

أي إنْ عُدْتُم إلى الزَّلَّة عُدْنا إلى العقوبة، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة.

ويقال إن عُدْتُم إلى نَقْضِ العَهْد عُدنا إلى تشديد العذاب.

ويقال: إن عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة.

ويقال إن عُدتُم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء.

ويقال إن عُدْتُمْ إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرمنا.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، لأنهم (. . . .)[1] وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين.

و ﴿حَصِيرًا﴾ أي محبساً ومصيراً. فالمؤمنُ ـ وإنْ كان صاحبَ ذنوب وإنْ كانت كبيرة ـ فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالةَ يصل يوماً إلى غفرانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

القرآنُ يدل على الحقّ والصواب. و﴿أَقْوَمُ﴾: هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب، ولكنَّ الخللَ من جهة المُسْتَدِلِّ لا الدليل، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكنَّ المستدِلَّ مُعْرِضٌ، وبآداب النظر مُخِلٌّ، فيكون العيبُ في تقصيره لا في قصور الدليل.

القرآنُ نورٌ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُماتِ جَهْلِه، وخرج من غمار شَكِّه. ومَنْ رَمَدَتْ عيونُ نظرِه التبس رُشْدُه.

ويقال الحَوَلُ ضَرَرُه أشدُّ من العَمَى؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِر فيَتْبَعُ قائدَه، ولكن الأحول يتوهَّمُ الشيء شيئين، فهو بتخيُّلِه وحسبانه يماري مَنْ كان سليماً. كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجَدَل، ولم يضع النظر موضعه بَقِيَ في ظُلُماتِ جَهْلِه، وصال بباطل دعواه على خَصْمِه، كما قيل:

بأطرافِ المسائلِ كيف يأتي ـ ولا أَدْرِي لَعَمْرُكَ ـ مُبْطِلُوها؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[2].

من الأدب في الدعاء أَلّا يسألَ العبدُ إلّا عند الحاجة، ثم ينظر فإنْ كان شيءٌ لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له؛ فإنَّ في الخبر: «مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3]. ثم من آداب الداعي إذا سأل من اللهِ حاجَته ورأى تأخيراً في الإجابة إلا يَتَّهَم الحقَّ ـ سبحانه ـ ويجب أن يعلم أن الخير في ألا يجيبَه، والاستعجالُ ـ فيما يختاره العبد ـ غيرُ محمود، وأَوْلى الأشياءِ السكونُ والرضا بحُكْمِه سبحانه، إن لم يساعدْه الصبرُ وسَأَلَ فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته، وأَنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه.

---

(١) بياض في الأصل. (٢) الآية (١٠) لم ترد.

(٣) أخرجه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٠٧، ٤/ ١٥٨٨، ٦/ ٢٣٤١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣/ ٨٢٩١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته، ودلالةً على وجوب وحدانيته؛ في تعاقبهما وتناوبهما، وفي زيادتهما ونقصانهما.

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته؛ فالعبادةُ شرطُها الدوامُ والاتصال، والوظائف حقُّها التوفيق والاختصاص.

ولو وقع في بعض العبادات تقصيرٌ أو حَصَلَ في أداءِ بعضِها تأخيرٌ تَدارَكه بالقضاءِ حتى يَتَلافَى التقصير.

ويقال من وجوه الآيات في الليلِ والنهارِ إفرادُ النهار بالضياء من غير سبب، وتخصيصُ الليل بالظلام بغير أمرٍ مكتسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقة، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة، بل هو في كل ليلة في منزل آخر، إما بزيادة أو بنقصان.

وأمَّا الشمس فحالها الدوام.. والناس كذلك أوصافهم؛ فأربابُ التمكينِ الدوامُ شرطُهم، وأصحابُ التلوينِ التنقلُ حَقُّهم، قال قائلهم:

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألبابُ دون نزوله

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

ألزم كلَّ أحدٍ ما لَبِسَ بجيدِه. فالذين هم أهلُ السعادة أسرج لهم مركبَ التوفيقَ، فيسير بهم إلى ساحات النجاة، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مَطِيَّةَ الخذلان فأَقْعَدَتْهم عن النهوضِ نحو منهج الخلاص، فوقعوا في وَهْدَةِ الهلاك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

مَنْ ساعَدَتْه العنايةُ الأزليةُ حِفظَ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه، ومَنْ أبلاه بحُكْمِه رَدَّه وأمْهَلَه، ثم تركه وعَمَلَه، فإذا استوفى أَجَلَه عرف ما ضيَّعَه وأهمله، ويومئذ يُحَكِّمه في حالِ نفسه، وهو لا محالةَ يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله... فكم من حسرةٍ يتجرَّعُها، وكم من خيبةٍ يتلقَّاها!

ويقال مَنْ حَاسَبَه بكتابه فكتابةُ مُلازِمُه في حسابه فيقول: رَبِّ: لا تحاسبني بكتابي.. ولكن حاسِبْني بما قلتَ: إنَّكَ غافرُ الذَّنْبِ وقابلُ التوبِ.. لا تعاملني بمقتضى كتابي: ففيه بواري وهلاكي.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه؛ إنْ كانت طاعةً فضياؤها لأصحابها، وإنْ كانت زَلَّةً فبلاؤها لأربابها. والحقُّ غنيٌّ مُقَدَّسٌ، أَحَدِيٌّ مُنَزَّهٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

كُلٌّ مُطَالَبٌ بجريرته. وكلُّ نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزرَ نَفْسٍ أخرى.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: دلَّ ذلك على أن الواجباتِ إنما تَتَوَجَّهُ من حيث السمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

إذا كَثُرَ أهلُ الفسادِ غَلَبُوا، وقَلَّ أهل الصلاح وفقدوا: فعند ذلك يغمر اللَّهُ الخَلْقَ ببلائه، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا في بابهم، ولا فيهم من يبتهل إلى الله فَيُسْمَعُ دعاؤه، فَيَخْتَرِمُ أولياءَه، ويُبْقِي أربابَ الفساد، وعند ذلك يشتدُّ البلاءُ وتَعْظُمُ المِحَنُ إلى أن ينظرَ اللَّه تعالى إلى الخَلْق نَظَرَ الرحمةِ والمِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

في الآية تسليةٌ للمظلومين إذا استبطأوا هلاكَ الظالمين، و (...)[1] قِصَرِ أيديهم عنهم. فإذا فَكَّروا فيما مضى من الأمم أمثالِهم وكيف بَنَوْا مَشِيداً، وأَمَّلُوا بعيداً.. فبادوا جميعاً، يعلمون أنَّ الآخرين ـ عن قريب ـ سينخرطون في سلكهم، ويُمْتَحَنُون بمثل شأنهم. وإذا أَظَلَّتْهُم سُحُبُ الوحشةِ فاءوا إلى ظلِّ شهود التقدير، فتزول عنهم الوحشة، وتطيب لهم الحياةُ، وتحصل الهيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

مَنْ رَضِيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِيَ عن نفيس الآخرة، ثم لا يحظى إلا بِقَدْر ما اشْتَمَّهُ، ثم يكون آنَسَ ما به قلباً وأشدَّ ما يكون به سكوناً... ثم يُخْتَطَفُ عن نعمته، ولا يخصه بشيءٍ مما جمع من كرائمه، ويمنعه من قربه في الآخرة.. ولقد قيل:

يا غافلاً عن سماع الصوتْ   إنْ لم تبادِرْ فهو الفوتْ
مَنْ لم تَزُلْ نعمته عاجلاً   أزاله عن نعمته الموتْ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

علامة مَنْ أراد الآخرةَ ـ على الحقيقة ـ أن يسعى لها سَعْيَها؛ فإرادةُ الآخرة إذا تجرَّدَتْ عن العمل لها كانت مجرَّد إرادة، ولا يكون السعيُ مشكوراً. قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي من المآلِ كما أنه مؤمِنٌ في الحال. ويقال وهو مؤمن أنَّ نجاته بفضله لا بسببه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولاً، ومع القبول بكون التضعيف والتكثير؛ فكما أن الصدقة يُرْبِيها كذلك طاعةُ العبدِ يُكَثِّرُها ويُنَمِّيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

يجازي كلاً بِقَدْرِهِ؛ فَلِقَوْمٍ نجاة ولقومٍ درجات، ولقوم سلامة ولقومٍ كرامة، ولقومٍ مثوبتُه، ولقومٍ قربتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

التفضيلُ على أقسام، فالعُبَّاد فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن في زكاء أعمالهم، والعارفون فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن في صفاء أحوالهم، وزكاء الأعمال بالإخلاص، وصفاء الأحوال بالاستخلاص؛ فقومٌ تفاضلوا بصدق القَدَم، وقوم تفاضلوا بعلوِّ الهِمَم. والتفضيل في الآخرة أكبر: فالعُبَّادُ تفاضلهم بالدرجات، قال ﷺ: «إنكم لَتَرَوْنَ أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدريَّ في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم»(١).

وأهلُ الحضرةِ تفاضُلُهم بلطائفهم من الأُنْس بنسيم القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة، ولا رمز يدركه ولا إشارة. منهم من يشهده ويراه مرةً في الأسبوع، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيبِ كلِّ أحد، وليس كلُّ مَنْ يراه بالعين التي بها يراه صاحبه، وأنشد بعضهم:

لو يسمعون ـ كما سمعتُ حديثها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

الذي أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله، ومخذولاً من قِبَلِ مَنْ عَبَدَه من دون الله.

---

(١) أخرجه مسلم (جنة ١٠، ١١)، والدارمي (رقاق ١٠٧)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٣٩، ٣، ٢٦، ٥٠، ٦١، ٥، ٣٤٠.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ .

أمَرَ بإفراده ـ سبحانه ـ بالعبادة، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها، وأن يكون مغلوباً باستيلاء سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يَحْفَظُه عن شهودِ عبادته.

وأَمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما، والوقوفِ عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحُسْنِ عشرتهما ورعاية حُرْمَتهما، وألا يبديَ شواهدَ الكسلِ عند أوامرهما، وأن يَبْذُل المُكْنَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما.. هذا في حال حياتهما، فأمَّا بعد وفاتهما فبِصِدْقِ الدعاء لهما، وأداءِ الصَدَقَةِ عنهما، وحِفْظِ وصيتهما على الوجهِ الذي فَعَلاه، والإحسان إلى مَنْ كان مِنْ أهلِ ودِّهما ومعارفهما.

ويقال إنَّ الحقَّ أَمَرَ العبادَ بمراعاة حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد.. فَمَنْ عجز عن القيام بحقِّ جنسه أنَّى له أن يقومَ بحقِّ ربه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ .

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ بحسن المداراة ولين المنطق، والبدار إلى الخدمة، وسرعة الإجابة، وترك البَرَمَ بمطالبهما، والصبر على أمرهما، وألا تَدَّخِرَ عنهما ميسوراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ .

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ قلبِ عبدٍ أَمَدَّه بحسن الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد، ويَسَّر عليه العسيرَ من الأمور، وحفظه عن الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ .

إيتاءُ الحقِّ يكون من المال ومن النَّفْس ومن القول ومن الفعل، ومَنْ نَزَل على اقتضاء حقِّه، وبذل الكُلَّ لأجل ما طالبه به من حقوق. فهو القائم بما ألزمه الحقُّ سبحانه بأمره.

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدَّره الأمرُ والإذنُ. وما يكون لحظِّ النَّفْسِ ـ وإن كان سمسمة(١) ـ فهو تبذيرٌ، وما كان له ـ وإن كان الوفاءَ بالنَّفْس ـ فهو تقصيرٌ.

---

(١) السمسمة: واحدة السمسم: نبات له حبّ صغير دُهنه زيت الشيرج.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ .

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم، وجَرَوْا في طريقهم على دواعي الشياطين ووساوسهم، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانَ الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ .

إن لم يُسَاعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصْرِفْهم عنكَ بوعدٍ جميلٍ إن لم تُسْعِفهم بنقدٍ جزيل. . وإنَّ وَعْدَ الكرام أَهْنأُ من نقد اللئام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ .

لا تُمْسِكْ عن الإعطاء فَتُكْدِي[1]، ولا تُسْرِفْ في البذلِ بكثرة ما تُسْدِي، واسْلُكْ بين الأمرين طريقاً وَسَطاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ .

إذا بَسَطَ لا تَبْقَى فاقة، وإذا قبض استنفد كلَّ طاقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ .

مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرازقَ هو الله خفَّ عن قلبه همُّ العيال ـ وإنْ كَثُروا، ومن خفي عليه أنه قَسَّمَ ـ قبل الخَلْقِ ـ أرزاقَهم تطوح في متاهات مغاليطه، فيقع فيها بالقلب والبَدَنِ ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ .

ترَجحَ الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييعَ حُرْمَةِ الحقِّ، وهتكَ حُرْمَةِ الخلْق، ثم لِمَا فيه من الإخلال بالنَّسَبِ، وإفسادِ ذات البين من مقتضى الأَنَفَةِ والغضب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ .

لا يجوز قَتْلُ نَفْسِ الغير بغير الحق، ولا للمرء أن يقتل نَفْسَه أيضاً بغير الحق. وكما أنَّ قتلَ النَّفْس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّمٌ فكذلك القَصْدُ إلى هلاكِ المرءِ مُحَرَّمٌ.

---

(١) كدى الرجل يكدي وأكدى: قلل عطاءهُ، وقيل: بخل (اللسان ٥/ ٢١٦ مادة: كدا).

ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، وعلى معنى الإشارة: إلى النصرة مِنْ قِبَلِ الله: ومنصورُ الحقّ لا تنكسر سِنَانُه، ولا تطيشُ سِهَامُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

لمَّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أمَرَ ـ سبحانه ـ الأجنبيَّ الذي ليس بينه وبين اليتيم سَبَبٌ أَنْ يتولّى أمرَه، ويقومَ بشأنِ.، وأوصاه في بابه؛ فالصبيُّ قاعد بصفة الفراغ والهوينى[1]، والوليُّ ساعٍ بمقاساة العَنَا..

فأَمْرُ الحقِّ ـ سبحانه ـ للوليِّ أَحْظَى للصبيِّ مِنْ شفقةِ آلِه عليه في حال حياتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

كما تدين تدان، وكما تعامِلُ تُجازَى، وكما تكيل يُكَالُ لكَ، وكما تكونون يكون عليكم، ومَنْ وَفَى وفَوْا له، ومَنْ خان خانوا معه، وأنشدوا:

أَسَأْنا فساءوا.. عَدْلٌ بلا حيفِ ولو عَدَلْنا لَخُلّصْنا من المِحَنِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

إذا غَلَبَتْ عليكَ مُجَوِّزَاتُ الظنونِ، ولم يُطْلِعْكَ الحقُّ على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان، وإذا أُشْكِلَ عليك شيءٌ من أحكام الوقت فارجِعْ إلى الله؛ فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَدِّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله، وقِفْ حيثما وقفت.

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أَنَّ العلماءَ يعرفون الشيءَ أولاً ثم يعلمون بعلمهم، وأصحابُ الحقِّ يجرِي عليهم بحكم التصريف شيءٌ لا عِلْمَ لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يُكشَف لهم وجهُه، وربما يجري على ألسنتهم شيءٌ لا يدرون وَجْهَه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه، ودليلُ ما نطقوا به من شواهد العلم[2].

(١) الهوينى: الخفض والدّعة.

(٢) فرق القشيري بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق. قال في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: ولم يكن عصر في الحكم الإسلامي إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة، فمن له علوم التوحيد وإمامة القوم، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك=

قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ﴾ هذه أمانة الحق ـ سبحانه ـ عند العبد، وقد تقدم في بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة.

ومَنْ استعمل هذه الجوارح في الطاعات، وصانها عن استعمالها في المخالفات فقد سَلَّم الأمانة على وصف السلامة، واستحق المدحَ والكرامة. ومَنْ دَنَّسَها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة، واستوجب الملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

الخُيَلاءُ والتجبُّر، والمدح والتكُبُّر ـ كل ذلك نتائجُ الغيبة عن الذكر، والحجبة عن شهود الحقّ؛ «فإنَّ اللَّهَ إذا تجلَّى لشيءٍ خشع له»[1] بذلك وَرَدَ الخبر. فأمَّا في حال حضورِ القلبِ واستيلاءِ الذكر وسلطان الشهود. فالقلبُ مُطْرِقٌ، وحُكْمُ الهيبة غالِبٌ. ونعتُ المدحِ وصفةُ الزَّهْوِ وأسبابُ التفرقة ـ كل ذلك ساقط.

والناسُ ـ في الخلاص من صفة التكبر ـ أصنافٌ: فأصحابُ الاعتبار إِذْ عرفوا أنهم مخلوقونَ من نطفةٍ أمشاج[2]، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم. تعلو هِمَمُهم عن التضييق والتدنيق[3]، ويَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أَخْطارٍ للأشياء، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر، وينزع عنهم لباس التجبُّر.

وأمَّا أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انخناس[4] النَّفْس، وفي معناه قالوا:

إذا ما بدا لي تَعاظَمْتُه فأصدر في حال من لم يرد

= الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية لهم وخصوصية وإلا كان الأمر بالعكس، هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما، فجاء شيبان الراعي، فقال أحمد: أريد يا أبا عبد الله أن أنبّه هذا على نقصان علمه، ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال الشافعي: لا تفعل، فلم يقع، فقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة، ولا يدري أية صلاة نسيها، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله تعالى، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد، فغشي على أحمد، فلما أفاق. قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وشيبان الراعي كان أمياً، فإذا كان الأمي منهم هكذا فما الظن بأئمتهم. (الرسالة القشيرية ص٣٧٨، ٣٧٩).

(١) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢)، وأحمد بن حنبل ٤، ٢٦٧، ٢٦٩.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط: ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة (لسان العرب ٢/ ٣٦٧ مادة: مشج).

(٣) التدنيق: المُداقّة والاستقصاء كنايات عن البخل والشح. (اللسان ١٠/ ١٠٦ مادة: دنق).

(٤) الانخناس: التأخر والتخلف.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحاتِ الشهود، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُرْب تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجبة، واستولى سلطان الحقيقة، فيحصل التنفِّي من هذه الأوصاف المذمومة.

وقال تعالى لنبيِّه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾: بالوحي والإعلام، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

جَوَّزوا أن يكونَ لله ـ سبحانه ـ ولدٌ، وفكَّروا في ذلك، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم، فما زادوا في تَمَرُّدِهم إلا عُتُوًّا، وفي طغيانهم إلا غُلُوًّا، وعن قبول الحقِّ إلا نُبُوّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[١].

بيَّن أنه لو كان الصانعُ أكثرَ من واحدٍ لَجَرَى بينهم تَضَادٌ وتمانُعٌ، وصحَّ عند ذلك في صفتهم العجزُ، وذلك من سِمات المحدثات.

ثم قال سبحانه ـ تنزيهاً له عن الشَّريك والظهير، والمعين والنظير.

قوله جلّ ذكره: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الأحياءُ من أهل السموات والأرض يُسَبِّحون له تسبيحَ قالة، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة. وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية، ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا ـ لجهلهم وتَعَسُّر إدراكهم ـ وأنكروا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

أي أدخلناك في إيواءِ حفظنَا، وضربنا عليك سرادقاتِ[٢] عصمتنا، ومنعنا الأيدي الخاطئةَ عنك بلطفنا.

---

(١) الآية (٤١) لم ترد.

(٢) السرادقات: (ج) السرادق: الخيمة الواسعة أو ما يُمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

صَرَّح بأنه خالقُ ضلالتهم، وهو المثبت في قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أحبوا أن تذكر آلهتهم، قد ختم الله على قلوبهم فلا حديثَ يُعْجِبُهم إلَّا مِمَّنْ لهم شَكْلٌ ومِثْلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

لَبَّسُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ أحوالَهم، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم، فَفَضَحَهم اللَّهُ تعالى، وكَشَفَ أسرارَهم، وبَيَّنَ مقابِحَهم، وهَتَكَ أستارَهم، فما تنطوي عليه السريرة لا بُدَّ أن يَظْهَر لأهل البصيرة بما يبدو على الأَسِرَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

عابوه بما ليس بنقيصةٍ في نفسه حيث قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي ذا سِحْرٍ. وأيُّ نقيصة كانت له إذا كان ﷺ ـ من جملة البَشَر؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولِ نصرته، ولم يكن تخصيصه ببنْيَة، ولا بصورة، ولا بِحِرْفةٍ، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بَانَ شرفُه لجملة ما تعلَّقه به لُطْفُه القديم ـ سبحانه ـ ورحمتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

أَقَرُّوا بأنَّ الله خَلَقَهم، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهم، ولكن.. كما جاز أن يوجِدَهم أولاً وهم في كتم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر، ولكنهم كانوا في متناول القدرة ومتعلق الإرادة، فَمِنْ حَقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدَهم إلى الوجود مرة أخرى.. وهكذا إذا رَمَدَت عينُ قلبٍ لم يستبصر صاحبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يتعصَّى عليه مقدورٌ لأنه موصوف بقدرة أزلية، وقُدْرَتُه عامَّةُ التعلق: فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرفاهية. فالخلْقُ الأول والإعادة عليه سِيَّان؛ لا مِنْ هذا عائدٌ إليه ولا من ذاك، لأن قِدَمَه يمنع تأثير الحدوث فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون. فالحمد بمعنى الشكر، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم ـ وهم في قبورهم ـ في نعمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله. ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحَسَنِ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه. ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه. ويقال الأحسن من القول إقرار المُحِبِّ بعبودية محبوبه.

ويقال أحسنُ قولٍ من المذنبين الإقرارُ بالجُرْم، وأحسنُ قولٍ من العارفين الإقرارُ بالعجز عن المعرفة، قال ﷺ: «سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك»[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه ليتعلَّق كُلُّ قلبه بربه. وجَعَلَ العواقبَ على أربابها مشتبهةً، فقال ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾. ثم قدَّمَ حديثَ الرحمةِ على حديثِ العذاب، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ وفي ذلك تَرَجٍّ للأمل أَنْ يَقْوى.

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم، ولكن العبدَ يعلم ظاهرَ حاله، وعِلْمُ الرب يكون بحاله وبمآله، ولهذا فالواجبُ على العبد أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، وهذا معنى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ بعد قوله: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

فَضَّلَ بعضَ الأنبياءِ على بعضٍ في النبوة والدرجة، وفي الرسالة واللطائف والخصائص. وجعل نبيَّنا ـ ﷺ ـ أفضلهم؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس، وهم شموسٌ وهو شمسُ الشموس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

استعينوا فيما يستقبلكم بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادةُ شيءٍ من دون الله، ولا يضركم تَرْكُ ذلك، ولقد قيل في الخبر: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥) والنسائي (قيام الليل ٥١) والترمذي (دعوات ٧٥ ـ ١١٢)، وابن ماجه (دعاء، ٣)، (إقامة ١١٧)، والموطأ (مسّ القرآن ٣١)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي (زهد، ١١)، وابن ماجه (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق ٣)، (كلام ١٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾.

يعني الذين يعبدونهم ويدعونهم ـ كالمسيح وعُزَير والملائكة ـ لا يملكون نَفْعَاً لأنفسهم ولا ضَرّاً، وهم يطلبون الوسيلةَ إلى الله أيْ يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاءَ إحسانَ الله، وطمعاً في رحمته، ويخافون العذاب من الله... فكيف يرفعون عنكم البلاءَ وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم؟

ويقال في المَثَلِ: تعلُّقُ الخَلْقِ بالخَلْق تعلُّقُ مسجونٍ بمسجون.

ويقال: إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازدادا فاقةً.

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطاً معاً في البئر، وفي معناه أنشدوا:

إذا التقى في حَدَبٍ واحدٍ سبعون أعمى بمقادير
وسَيَّروا بعضَهم قائداً فكُلُّهم يسقط في البير

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾.

العذاب على أقسام: فالألم الذي يَرِدُ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى مَا يَرِدُ على القلوب والسرائر؛ فعذابُ القلوبُ لأصحابِ الحقائقِ أَحَدُّ في الشِّدَّةِ مِما يُصيب أصحابَ الفقر والقلة.

ثم إن الحقَّ سبحانه أجرى سُنَّتَه بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها. ومَنْ سام الناس ظُلْماً وخَسْفاً فَبِقَدْرِ ظُلْمِه يَعذِّبُه اللّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ في الوقت بتنغيص العَيْشِ[1]، واستيلاءِ الغضب مِنْ كلِّ أحدٍ عليه، وتَتَرَجَّمُ ظِنونُه وتتقسَّمُ أفكاره في أحواله وأشغاله، ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لَعَلِمَ ما طعم الحياة.. ولكنْ حُرِموا النِّعَم، وما علموا ما مُنُوا به من النِّقَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾.

أجرى الله سُنَّتَه أنه إذا أظهر آية اقْتَرَحَتْها أُمَّةٌ من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أَنْ يُعَجِّلَ لها العقوبة، وكان المعلومُ والمحكومُ به ألا يجتاحَ العذابُ القومَ الذين كانوا في وقت الرسول ـ عليه السلام ـ لأَجْلِ مَنْ في أصلابهم مِنَ الذين عَلِمَ أنهم يؤمِنُون؛ فلذلك أَخَّرَ عنهم العذاب الذي تعجّلوه.

(١) تنغّص العيش: تكدّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾.

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله؛ فإنْ لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب. ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شيءٌ بتأخير العقوبة عنهم فَأَخَّر العذابَ. وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِه وعِلْمِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾.

الإيمانُ بما خَصَصْنَاكَ به امتحانٌ لهم وتكليفٌ، ليتميزَ الصادقُ من المنافقِ، والمؤمنُ من الجاحد؛ فالذين تَدَاركَتْهُم الحمايةُ وقفوا وثبتوا، وصَدَّقوا بما قيل لهم وحققوا. وأما الذين خَامَر الشكُّ قلوبَهم، ولم تباشِرْ خلاصةُ التوحيد أسرارَهم، فما ازدادوا بما امتُحِنُوا به إلا تحيُّراً وضلالاً وَتَبَلُّداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾.

امتنع الشقيُّ وقال: لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به، وكان ذلك جهلاً منه، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثِراً، ولمحيط نفسه تاركاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

لو علقت به ذرَّةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب على نفسه بالإضلال والإغواء، لكنَّه أقامه الحقُّ بذلك المقام، وأنطقه بما هو لقلوبِ أهلِ التحقيق مُتَّضِح.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

هذا غاية التهديد، وفيه إشارة وبيان بألا مراء ولا تفويتٍ، ولو أَخرَّ عقوبةَ قومٍ فإن ذلك إمهالٌ لا إهمال، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾: أي افعل ما أمكنكَ، فلا تأثيرَ لفعلك في أحد، فإنَّ المنشىءَ والمُبْدِعَ هو الله.. وهذا غاية التهديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾.

السلطان الحجة، فالآية تدل على العموم، ولا حجة للعذر على أحد، بل الحجة لله وحده.

ويقال السلطان هو التَّسَلُّط، وليس لإبليس على أحدٍ تسلط؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية، فالحادثاتُ كلها تحدث بقدرة الله؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم.

ويقال أراد بقوله: ﴿عِبَادِى﴾ الخواصَ من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلَ الله؛ فإن وساوسَ الشيطان لا تضرُّهم لالتجائهم إلى الله، ودوام استجارتهم بالله، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم.

ويقال إنَّ فرار الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان.

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون في أَسْرِ غيره، وأمَّا مَنْ استعبده هواه، واستمكنت منه الأطماع، واستَرقته كل خسيسة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه.. وفي الخبر «تَعِسَ عبد الدرهم تعس عبد الدينار»[(١)].

ويقال في ﴿عِبَادِى﴾ هم المُتَفَيِّئُون في ظلال عنايته، المُتَبَرُّون عن حَوْلِهِم وقُوَّتِهم، المتفرِّدُون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلُّق به.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

تعرَّف إلى عباده بخَلْقِه وإنعامه، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غَبَرٍ إلا وهو شاهِدٌ على وحدانيته، دالٌ على ربوبيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

جُبِلَ الإنسانُ على أنه إذا أصابته نقمةٌ، أو مَسَّته محنة فَزِعَ إلى الله لاستدفاعها، وقد يُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله، فإذا أزال اللَّهُ تلك النِّقمة وكَشَفَ تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا، كأنهم لم يكونوا في ضُرٍّ مَسَّهم، وفي معناه أنشدوا:

فكم قد جهلتم ثم عُذْنا بِحِلْمِنا … أحباءَنا كم تجهلون! وَتَحْلُمُ!

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤١٣٥، ٤١٣٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ١٥٩، ١٠/ ٢٤٥) والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٨، ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٥٦، ٨/ ١٥٢، ١٠/ ٧٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٦، ٧/ ٢٩٣)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٢٣٣، ١٨/ ١٤١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١٥)، وابن حجر في (تغليق التعليق ٩٥٢)، وفي (فتح الباري ١١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٦١)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٥٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٤٦، ٣/ ٢٣٠، ٤/ ٣٧٦)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٨/ ٥٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

الخوفُ ترقُّبُ العقوبات مع مجاري الأنفاس ـ كذلك قال الشيوخ[١]. وأعرفُهم بالله أخوفُهم من الله. وصنوفُ العذابِ كثيرة؛ فكم من مسرورٍ أَوَّلَ ليْلهِ أصبح في شِدَّة! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النِّعم! وفي معناه قالوا: إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

المراد من قوله: ﴿بَنِي آدَمَ﴾ هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. والتكريم التكثير من الإكرام، فإذا حَرَمَ الكافرَ الإكرامَ.. فمتى يكون له التكريم؟

ويقال إنما قال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابلَ فِعْلٍ، أو مُعَلَّلاً بِعِلةٍ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم.

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة.

ومن التكريم أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خاطَبه، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله.

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته، فلو تكرر منه جُرْمُه ثم توبته يضاعف له قبولَه التوبة وعفوَه.

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ في التوبة أَخَذَ بيده، وإذا قال: لا أعود ـ يقبل قولَه وإِنْ عَلِمَ أنه ينقض توبته.

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهرَهم بتوفيق المجاهدة، وحَسَّنَ باطنَهم بتحقيق المشاهدة.

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كذا في

---

(١) هذا القول للجنيد (انظر الرسالة القشيرية ص١٢٧) وهو فيها: سُئل الجنيد عن الخوف فقال: توقّع العقوبة مع مجاري الأنفاس.

الأثر: «أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني».

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

وكما خَصَّ بني آدم بالتكريم خصَّ أمة محمد ـ ﷺ ـ منهم بتكريم مخصوص، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] و ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن التكريم قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه.

ومن التكريم لقوم توفيقُ صِدْق القَدَم، ولقوم تحقيقُ علوِّ الهِمَم. قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: سَّخر البحر لهم حتى ركبوا في السفن، وسَّخر البرَّ لهم حتى قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

ويقال محمولُ الكرامِ لا يقع، فإنْ وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده.

ويقال الإشارة في حملهم في البرّ ما أوصل إليهم جهراً، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سِرًّا.

ويقال لمّا حَمَلَ بنو آدم الأمانة حملناهم في البر، فحَمْلٌ هو جزاءُ حَمْلٍ، حَمْلٌ هو فِعْلُ مَنْ لم يكن وحَمْلٌ هو فَضْلُ من لم يَزَل.

قوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: الرزق الطيب ما كان على ذكر البرازق؛ فَمَنْ لم يكن غائباً بقلبه[1] ولا غافلاً عن ربِّه استطاب كُلَّ رزقٍ، وأنشدوا:

يا عاشقي إني سَعِدْتُ شراباً لو كان حتى علقماً أو صابا

قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾: أي الذين فضلناهم على خلقٍ كثير، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ مَنْ خَلَقْنا، وذلك التفضيل في الخِلْقة. ثم فَاضَلَ بين بني آدم في شيء آخر هو الخُلق الحسن، فَجَمَعهم في الخُلقة ـ التي يفضلون بها سائر المخلوقات ـ ومَايَزَ بينهم في الخُلق.

ويقال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾: هذا اللفظ للعموم، والمراد منه الخصوص، وهم

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيبة: هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحسن بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب. (الرسالة القشيرية ص٦٩).

المؤمنون، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين، ففَضَّل أولياءَه على كثير ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية.

ويقال فضَّلهم بألَّا ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

إمامُ كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِي به، ولكن.. مِنْ إمامٍ يهتدي به مُقْتَدِيه، ومن إمام يتردَّى به مقتديه.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾: لكمالِ صحوهم وقيادة عقلهم، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفِهم وتَرَدُّدِهم لا يقرأون كتابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

في الآخرة أعمى عن معاينته ببصيرته.

في الآخرة عذابُه الفُرقةُ وتضاف إليها الحُرْقَة ـ لهذا فهو ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

ضربنا عليك سرادقاتِ العصمة، وآويناكَ في كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك، فالزَّلَّةُ منك محال، والافتراءُ في نعتك لا يجوز.. ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَتَضاعفَتْ عليكَ تشديداتُ البلاء، لكمالِ قَدْرِك وعُلُوِّ شأنك؛ فإنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فَذَنْبُه ـ لو حصل ـ أشدُّ تأثيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

لو وكلناكَ ونَفْسَكَ، ورفعنا عنك ظِلَّ العصمة لألَمَمْتَ بشيءٍ مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكننا أفردناكَ بالحفظ، فلا تتقاصر عنكَ آثارُه، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه.

قوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ...﴾ الآية هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم، ومِحَنُ الأَحِبَّةِ وإنْ قَلَّتْ جَلَّتْ، وفي معناه أنشدوا:

أنت عيني وليس من حقِّ عيني غضُّ أجفانها على الأقذاء[١]

---

(١) الأقذاء: (ج) القذى: ما يقع في العين وما ترمي به (اللسان ١٥/١٧٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مَنْ ظنَّ أنه يستمتع بحياته بعد مضيّ الأَعِزَّة والأكابر غَلِطَ في حسابه، وإن الحسودَ لا يسود:

وفي تعبِ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ ضوءَها ... ويجهد أن يأتي لها بضريب

والأرض كلها مِلْكٌ لنا، ونُقَلّب أولياءَنا في ترددهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار، تردداً على بساطنا، وتقلباً في ديارنا؛ فالبقاع لهم سواء، وأنشدوا:

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتي ... مكانُكَ من قلبي عليك مصونُ

قوله جلّ ذكره: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

الحقُّ أمضى سُنَّته مع الأولياء بالإنعام، ومع أعدائه بالإدغام(١)، فلا لهذه أو هذه تحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق. والصلاةُ الوقوفُ في محل المناجاة.

والصلاةُ اعتكافُ القلبِ في مشاهد التقدير.

ويقال هي الوقوف على بساط النجوى. وفَرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى البساط في اليوم والليلة مراتٍ.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: تشهده ملائكة الليل والنهار ـ على لسان العلم. وأمَّا على لسان القوم فإن قرآن الصبح ـ الذي هو وقت إتيانه ـ يُبْعِدُ منَ النومِ وكَسَلِ النفس فله هذه المزية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

الليل لأحدِ أقوام: لطالبي النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَح منهم إلى التوبة، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يَجِدُّون في الطاعات، ويسارعون في الخيرات، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة.

ويقال الليل لأحد رجلين: للمطيع والعاصي: هذا في احتيال أعماله، وهذا في اعتذاره عن قبيح أفعاله.

---

(١) الدغم: أن يميل وجه الفرس إلى السواد.

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود، ويقال الشهود.

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر. ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به - ﷺ - بما لا يشاركه فيه أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

أي أدخلني إدخالَ صدقٍ وأَخرجني إخراجَ صدقٍ. والصدقُ أن يكون دخولُه في الأشياء بالله لله لا لغيره، وخروجه عن الأشياء بالله ﷺ لا لغيره.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾: فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

أراد بالحقِّ ها هنا الإسلام والدين، وأراد بالباطل الكفر والشِّرْك، والحقُّ المطلق هو الموجود الحق، والحق المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق، والباطل نقيض الحق. واللَّهُ حقٌّ: على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق.

ويقال الحقُّ ما كان لله، والباطل ما كان لغير الله.

ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله، والباطلُ ما دعا إلى غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء، وشفاءٌ من داء الشِّرْكِ للمؤمنين، وشفاءٌ من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكُتْبُكَ حَوْلِي لا تفارق مضجعي وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾: الخطاب خطابٌ واحد، والكتابُ كتابٌ واحد، ولكنه لقوم رحمةٌ وشفاء، ولقوم سخطٌ وشقاء. قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء، وقوم أغشي على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

إذا نزعنا عنه موجباتِ الخوفِ، وأرخينا له حَبْلَ الإمهال، وهَيَّأْ له أسبابَ الرفاهية اعترته مغاليطُ النسيانِ، واستولت عليه دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

ويقال إعراضُه في هذا الموضوع نسيانُه، ورؤية الفضل منه لا من الحقّ، وتوهمه أنَّ ما به من النِّعم فباستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدةٍ قاساها.. وهذا في التحقيق شِرْكٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

كُلٌّ يترشح بِمُودَعِ باطنه، فالأَسِرَّةُ تدل على السريرة، وما تُكِنُّه الضمائرُ يلوح على السرائر، فَمَنْ صفاَ مِنَ الكدورة جوهرهُ لا يفوح منه إلا نَشْرُ مناقبه، ومنْ طبِعَتْ على الكدورةِ طينتُه فلا يشمُّ مَنْ يحوم حولَه إلا ريحَ مثالبه.

ويقال حركات الظواهر تدُلُّ وتُخْبِرُ عن بواطنِ السرائر.

ويقال حَبٌ (...)(١) لا يُنبِتُ غضَّ العود.

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشِّقْوةِ طينتُه، وطُبِعَتْ على النَكَرَةِ جِبِلَّتُه(٢) لا تسمح بالتوحيد قريحتُه، ولا تنطِقُ بالتوحيد عبارتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أرادوا أن يجادلوه ويُغَلِّطُوه فأَمَرَه أن ينطق بلفظٍ يُفْصِحُ عن أقسام الروح؛ لأَنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ ﴿ٱلرُّوحِ﴾ يدخل تحت قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذنُ محلَّ السمع.. إلى آخره، والبصير والسامع إنما هو الجملة ـ وهو الإنسان ـ فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْس، والحكم أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة)(٣).

وفي الجملة الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده.

والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين. وقيل إنه أدركها التكليف، وإن لها صفاء التسبيح، وصفاء المواصلات، والتعريف من الحق.

---

(١) بياض في الأصل.
(٢) الجبلّة: الخلقة (ج) جبلات.
(٣) ما بين قوسين صُحح استناداً للرسالة القشيرية ص٨٧.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

سُنَّةُ الحقّ ـ سبحانه ـ مع أحبائه وخواص عباده أن يُدِيمُ لهم افتقارهم إليه، ليكونوا في جميع الأحوال مُنقادين لجريانِ حُكْمِه، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِه، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَه ـ صلوات الله عليه ـ بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: فمن كان استقلاله بالله يقدِّم مرادَ سيده ـ في العزل والولاية ـ على مراد نفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

والمقصودُ من هذا إدامةُ تَفَرُّدِ سِرِّهِ ﷺ به ـ سبحانه ـ دونَ غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

سائر الأنبياء معجزاتُهم باقيةٌ حُكْماً، ونبيُّنا ـ ﷺ ـ معجزته باقيةٌ عيناً، وهي القرآن الذي نتلوه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

لا شيءَ أَحظَى عند الأحباب من كتاب الأحباب، فهو شفاء من داء الضنى، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البَلَا، وفي معناه أنشدوا:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

اقترحوا الآيات بعدإزاحة العِلَّة وزوالِ الحاجة، فَرَكَضُوا في مضمارِ سوءِ الأدب، وحُرِموا الوُصْلة والقُربة. ولو أُجِيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْداً ونَكَرَةً، وقد قيل:

إنَّ الكريمَ إذا حباكَ بودِّه سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: قل يا محمد: سبحان ربي! مِنْ أين لي الإتيان بما سألتم من جهتي؟ فهل وَصْفِي إلا العبودية؟ وهل أنا إلا بَشَر؟ قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

تعجَّبوا مما ليس بمحلِّ شُبهة، ولكن حَمَلَهم على ذلك فَرْطُ جَهْلِهم، ثم أَصَرُّوا على تكذيبِهم وجحدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ، والشكلُ بالشكلِ آنسُ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لَجَعَلْنا الرسولَ إليهم مَلَكاً، فلمَّا كانوا بَشَراً فلا ينبغي أن يُسْتَبْعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ هو الحاكم وهو الشاهد، ولا يُقاسُ حُكمَه على حُكمِ الخَلْق، ولا يجوز في صفةِ المخلوقِ أَنْ يكونَ الحاكمُ هو الشاهد، فكما لا تشبه ذاتُه ذاتَ الخَلْقِ لا تشبه صفتُه صفةَ الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

مَنْ أراده بالسعادةِ في آزاله استخلصه في آباده بأفضاله، ومَنْ عَلِمَه في الأزل بالشقاء وَسَمَه وفي أيده بِسِمةِ الأعداء. فلا لِحُكْمِه تحويل، ولا لِقَوْلِهِ تبديل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

لمَّا أَصَرُّوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم، ولو ساعدهم التوفيقُ لَوُجِدَ منهم التحقيق، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحُرِموا التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

مَهَّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس، فلم يغادر في الكتاب شيئاً من أحكام الدِّين لم يؤيده بالدليل والبيان، فَعَلِمَ الكُلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾.

إذ البُخْلُ غريزةُ الإنسان، والشحُّ سجيته [(. . . . .)[1] المعروف لا يعرف الخلقة][2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾.

هي أمارات كرامته وعلامات محبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

أنت ـ يا فرعون ـ سلكتَ طريق الاستدلال فَعلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا مِنْ قِبَلِ الله، ولكنَّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلةِ في ظلمات الجهل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

أراد فرعونُ إهلاكَ بني إسرائيل واستئصالَهم، وأراد الحقُّ ـ سبحانه ـ نصرتهم وبقاءهم، فكان ما أراد الحقُّ لا ما كاد اللعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

أورثهم منازلَ أعدائهم، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته، وعرَّفَهم أنهم إنْ سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تَقَدَّمَهم ذاقوا من العقوبة مثلَ عقوبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾.

القرآن حقٌّ، ونزوله بحق، ومُنَزِّلهُ حق، والمُنَزَّلُ عليه حق، فالقرآن بحقٍّ أنزل ومِنْ حقٍّ نزل وعلى حقٍّ نزل. وقد فَرَّق القرآنَ لِيُهَوِّنَ عليه ـ صلوات الله عليه ـ حِفْظَه، وليكثر تردد الرسول من ربِّه عليه، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) ما بين حاصرتين غامض.

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .

إنْ آمنتم حَصَلَ النفعُ لكم، وإنْ جَحَدْتُم ففي إيمان مَنْ آمن مِنْ أوليائنا عنكم خَلَفٌ، وإنَّ الضَّرَرَ عائدٌ عليكم.

وإنَّ مَنْ أَضأْنَا عليهم شموس إقبالنا لتُشْرِقُ أنوار معارفهم؛ فإذا تُليت عليهم آياتُنا سَجَدُوا بَدَلَ جُحْدِهم، واستجابوا بدل تمردهم، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ .

تأثيره في قلوب قوم يختلف؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصُّر، وتأثير السماع في أنوار الموحِّدين بالتحير؛ تبصُّر العلماء بصحة الاستدلال، وتحيُّر الموحدين في شهود الجمال والجلال.

وبكاء كل واحدٍ على حسب حاله: فالتائب يبكي لخوف عقوبته لما أَسْلَفَهُ من زَلَّته وحَوْبته، والمطيعُ يبكي لتقصيره في طاعته، ولكيلا يفوته ما يأمله من مِنَّتِه.

وقوم يبكون لاستبهام عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين. وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفي معناه أنشدوا:

خُلِقْنا رجالاً للتجلدِ والأَسَى   وتلك الغواني للبُكا والمآتِم

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ .

مِنْ عظيم نعمته ـ سبحانه ـ على أوليائه تَنَزُّهُهم بأسرارهم في رِياض ذِكْرِه بتعداد أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة، ومن مَأنَسٍ إلى مأنس.

ويقال الأغنياءُ ترددهم في بساتينهم، والأولياءُ تنزههم في مشاهد تسبيحهم، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ .

لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكُلِّها، وارفع صوتك في بعضها دون بعض.

ويقال ولا تجهر بها جهراً يَسْمَعهُ الأعداءُ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾: يكون للأحباب مسموعاً، وعن الأجانب ممنوعاً.

ويقال ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: بالنهار، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: بالليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

احْمَدْه بذكر تقدسه عن الولد، وأنه لا شريك له؛ ولا ولي له من الذل؛ إما على أنه لم يَذَلَّ فيحتاج إلى ولي، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته. ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرَّفك بذلك.

ويقال له الأولياءُ ولكن لا يعتريهم بِذُلِّهم، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ بأَنْ تَعْلَمَ أَنَّك تصل إليه به لا بتكبيرك.

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماع اسم الله، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله، وما طَرِبَتْ الأرواح إلا بشهود جلال الله.

سماع ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ راحةُ القلوبِ وضياؤُها، وشفاءُ الأرواح ودواؤها.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ قُوتُ العارفين؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم، وبها استقلالهم وبقاؤهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

إذا حُمِلَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ هنا على معنى الشكر فإنزالُ الكتابِ من أَجَلِّ نِعَمِهِ، وكتابُ الحبيب لدى الحبيب أجلُّ مَوْقِعٍ وأشرفُ محلٍّ، وهو من كمال إنعامه عليه، وإنْ سمَّاه ـ عليه السلام ـ عَبْدَه فهو من جلائلِ نَعمه عليه لأنَّ من سمَّاه عَبْدَهَ جَعَلَه من جملة خواصِّه.

وإذا حُمِلَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه ـ سبحانه، بأنَّه الملِكُ الذي له الأمرُ والنهيُ والحكمُ بما يريد، وأنه أعدَّ الأحكامَ التي في هذا الكتاب للعبيد، وسمَّاه ﷺ عبدَه لمَّا كان فانياً عن حظوظه، خالصاً لله بقيامه بحقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾.

﴿قَيِّمٗا﴾: أي صانه عن التعارض والتناقض، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز.

«واليأس الشديد»: مُعَجَّلُه الفراق، ومؤجَّلُه الاحتراق.

ويقال هو البقاء عن الله تعالى، والابتلاء بغضب الله.

ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾.

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول، وهو ما يُؤَدَّى على الوجهِ الذي أُمِرَ به. ويقال العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص، وصاحبُه صادقٌ فيه.

ويقال هو الذي لا يستعجل عليه صاحبه حَظّاً في الدنيا مِنْ أَخذِ عِوَضٍ، أو قَبُولِ جاهٍ، أو انعقادِ رياسة. . . وما في هذا المعنى.

وحصلت البشارةُ بأَنَّ لهم أجراً حسناً، والأجرُ الحَسَنُ ما لا يجري مع صاحبه استقصاءٌ في العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّر صاحبَه تقصيرَه، ويستر عنه عيوبَ عمله.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

البشارة منه أَنَّ تلك النِّعم على الدوام غير منقطعة، وأعظم من البشارة بها قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قالتهُم القبيحةُ نتيجةُ جَهْلِهم بوحدانيةِ الله، ولقد توارثوا ذلك الجهلَ عن أسلافهم؛ والحيَّةُ لا تَلِدُ حَيَّةَ!

كبُرَتْ كلمتُهم في الإثم لمَّا خَضَّت في المعنى. ومَنْ نطق بما لم يحصل له به إذنٌ لِحَقَه هذا الوصف. ومَنْ تكلَّمَ في هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

مِنْ فَرْطِ شفقته ـ ﷺ ـ داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان، فهوَّن الله ـ سبحانه ـ عليه الحالَ، بما يشبه العتابَ في الظاهر؛ كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس في امتناعهم ـ في عَدِّنا ـ أثر، ولا في الدِّين من ذلك ضرر. . فلا عليكَ من ذلك.

ويقال أشهده جريانَ التقدير، وعَرَّفه أنه ـ وإنْ كان كُفْرُهم منهِيّاً عنه في الشرع ـ فهو في الحقيقة مُرَادُ الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾.

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار. وإنَّ قيمةَ الأوطانِ لقُطَّانها، وزينة المساكن في سُكّانها.

ويقال العُبَّاد بهم زينة الدنيا، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال الأولياءُ زينةُ الأرض وهم أَمانُ مَنْ في الأرض.

ويقال إذا تلألأت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أحسنهم عملاً أصدقهم نِيَّةً، وأخلصهم طوية(١).

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبة له، وأعلى من هذا بل وأَوْلى من هذا فأحسنهم عملاً أشدُّهم استصغاراً لفعله، وأكثرهم استحقاراً لطاعته؛ لشدة رؤيته لتقصير فيما يعمله، ولانتقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره.

ويقال أحسنُ أعمال المرءِ نَظَرُه إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار، لقول الشاعر:

وأكبرهُ من فِعْلِه وأعظمُه تصغيرُه فِعْلَه الذي فَعَله

معناه: أكبرُ مِنْ فعلِه ـ الذي هو عطاؤه وبَذْلُه ـ تقليلُه واستصغارُه لِمَا يُعْطِيه ويجود به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها في الحال سُلِبَ قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنِيهِ في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

أزال الأعجوبةَ عن أوصافهم بما أضافه إلى ربّه بقوله: ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾؛ فَقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ.

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال: ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾، وللنفوس مَحَالٌّ، وللقلوب مَقَارٌّ، وللهمم مَجَال، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه.

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم؛ فحالُك أعجبُ في ذهابك إلينا في شطر من الليل حتى قاب قوسين(٢) أو أدنى، وهم قد بقوا في الكهف سنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

آواهم إلى الكهف بظاهرهم، وفي الباطن فهو مُقِيلُهم في ظِلِّ إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم.

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾:

---

(١) الطَّوِيَّة: الضمير ينطوي عليه الإنسان. يقال: فلان حسن الطوية، أي: النية والضمير (ج) طوايا.

(٢) القاب: المقدار، أو ما بين نصف وتر القوس وطرفه. يُقال: هو على قاب قوسين: كناية عن القُرب.

أي أنهم أَخَذُوا في التبرّي مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتِهِم، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ فَاقَتِهم، فاستجاب لهم دعوتَهم، ودفع عنهم ضرورتَهم، وبَوَّأهم في كنف الإيواء مقيلاً حسناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائقِ ما كاشفناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

أي رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾.

لمَّا كانوا مأخوذين عنهم تولَّى الحق ـ سبحانه ـ أَنْ قَصَّ عنهم، وفَرَّقَ بين من كان عن نفسه وأوصافه قاصاً؛ لبقائه في شاهده وكونه غيرَ منتفٍ بجملته.. وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره؛ لفنائه عنه وامتحائه منه وقيام غيره عنه.

ويقال لا تُسَمعُ قصةُ الأحباب أعلى وأَجَلّ مما تُسَمعُ من الأحباب، قال عزَّ من قائل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، وأنشدوا:

وحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتني ... حنيناً فَزِدْني من حديثك يا سعدُ

قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا ـ على الوهلة ـ بربِّهم، آمنوا من غير مهلة، لمَّا أتتهم دواعي الوصلة[(١)].

ويقال فتية لأنهم قاموا لله، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

لَاطفهم بإحضارهم، ثم كاشفهم في أسرارهم، بما زاد من أنوارهم، فلقَّاهم أولاً التبيين، ثم رقَّاهم عن ذلك باليقين.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: بزيادة اليقين حتى متع نهار[(٢)] معارفهم، واستضاءت شموسُ تقديرهم، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ في خواطرهم، و (...)[(٣)] في التجريد أسرارهم، وتَمَّتْ سكينةُ قلوبهم.

---

(١) انظر حديث القشيري برسالته ص٢٢٦ عن الفتوة.

(٢) فَتَح نهاره: كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل، حتى ينعدم الليل.

(٣) بياض في الأصل.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: بأن أفنيناهم عن الأغيار، وأغنيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر.

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكَنَّا فيها من شواهدِ الغيب، فلم تسنح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قاموا لله بالله، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عمَّا سوى الله.

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصلَ إلى الله.

ويقال قعدت عنهم الشهوات فَصَحَّ قيامُهم بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾.

مَنْ أحال الشيءَ على الحوادثِ فقد أشرك بالله، ومَنْ قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً مِنْ دون الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

لمَّا لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبُهم، فمن اكتفى بِنَفْي القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول في نحلته.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ فمن ذَكَرَ في الدِّين قولاً لم يؤيَّد ببرهان عقلي أو نقلي فهو مفترٍ، ومَنْ أظهر مِنْ نَفْسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ. والذي يصدق في قوله ـ في هذه الطريقة ـ فهو الذي يسمع من الحق بسرِّه، ثم ينطق بلفظه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

العزلةُ عن غير الله توجِبُ الوصلة بالله. بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد العُزْلَةِ عن غير الله.

ويقال لما اعتزلوا ما عُبِدَ من دون الله آواهم الحقُّ إلى كنف رعايته، ومهد لهم مثوىً في كهفِ عنايته.

ويقال مَنْ تبرَّأ مِنَ اختياره في احتياله، وصَدَقَ رجوعه إلى الله في أحواله، ولم يستَعِنْ ـ بغير الله ـ من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله، وكفاه جميعَ أشغاله، وهَيأ له مَحَلاً يتفيؤ فيه في بَرْدِ ظِلالِه، بكمالِ إقباله.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الصدق بالرسالة ص٢١٠ ـ ٢١٤.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ[(١)] عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

كانوا في مُتَّسَعٍ من الكهف، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم.

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم.

إن نورَ الشمسِ ضياءٌ يستضيءُ به الخَلْقُ، ونور معارفهم أنوار يُعْرَف بها الحق، فهذا نور يظهر في الصورة، وهذا نور يلوح في السريرة. وبنور الشمس يدرك الخلْق وبنورهم كانوا يعرفون الحق.

وفي قوله ـ عَزَّ اسمه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف العادة، فيكون من جملة كرامات الأولياء؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمسِ إذا انتهى إليهم ازورَّ عنهم، ومضى دونَهم بخلاف ما يقول أصحاب الهبة، ليكونَ فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلَكُ في النور الذي عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

فاللَّه يهْدِي قوماً بالأدلةِ والبراهين، وقوماً بكشف اليقين؛ فمعارفُ الأولين قضية الاستدلال، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال، فهؤلاء مع برهان، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: أي مَنْ وَسَمه بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفانَ ولا علمَ ولا إيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

هم مسلوبون عنهم، مُخْتَطَفُون منهم، مُستَهلَكون فيما كوشِفوا به من وجود الحق؛ فظاهرهم ـ في رأي الخَلْق ـ أنهم بأنفسهم، وفي التحقيق: القائمُ عنهم غيرُهم. وهم محوٌ فيما كوشفوا به من الحقائق.

ثم قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم؛ فلا كشفقةِ الأمهات بل أتم، ولا كرحمة الآباء بل أعزُ... وبالله التوفيق.

ويقال إن أهلَ التوحيدِ صفتهم ما قال الحقُّ ـ سبحانه ـ في صفة أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ فَهُمْ بشواهد الفَرْقِ في ظاهرهم، لكنهم بعين الجمع بما كُوشِفوا به في سرائرهم، يُجْرِي عليهم أحوالِهم وهم غير متكلّفين، بل هم يثبتون ـ وهم خمودٌ عما هم به ـ أن تصرفاتِهم القائمُ بها عنهم سواهم، وكذلك في نطقهم.

---

(١) الزَّوَرُ: الميل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

كما ذَكَرَهُم ذَكَرَ كلبَهم، ومَنْ صَدَقَ في محبة أحدٍ أحبَّ مَنْ انتسب إليه وما يُنْسَبُ إليه.

ويقال كلبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان ـ بل الحق يقول بقوله العزيز ـ: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ﴾ فهل ترى أَنَّ مُسْلِماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يردُّه يوم القيامة خائباً؟ إنه لا يفعل ذلك.

ويقال في التفاسير إنهم قالوا للراعي الذي تبعهم والكلب معه: اصرف هذا الكلب عنَّا.. فقال الراعي: لا يمكنني، فإني أنا ديته.

ويقال أنطق الله سبحانه ـ الكلبَ فقال لهم: لِمَ تضربونني؟

فقالوا: لِتَنْصَرِفَ عنَّا.

فقال: لا يمكنني أن أنصرف.. لأنه ربَّاني.

ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد[1] الأولياء فإلى القيامة يقال ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾... فهل إذا رَفَعَها مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً؟ هذا لا يكون.

ويقال لما صَحِبَهم الكلبُ لم تضره نجاسةُ صِفتِهِ، ولا خساسةُ قيمته.

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، أو ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فقد قال في صفة هذه الأمة: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وشتَّان ما هما!

ويقال كُلٌّ يُعامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته؛ فالأولياء قال في صفتهم: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، والكلب قال في صفته: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

ويقال كما كرَّر ذكرَهم، كرر ذِكْرَ كلبِهم.

وجاء في القصة أن الكلبَ لما لم ينصرفْ عنهم قالوا: سبيلنا إذا لم ينصرف عنَّا أَنْ نَحمِلَه حتى لا يُسْتَدَلَّ علينا بأثر قَدَمِه فحملوه، فكانوا في الابتداء (بل إياه) وصاروا في الانتهاء مطاياه.. كذا مَنْ اقتفى أَثَرَ الأحباب.

---

(١) الوصيد: فناء الدار والبيت.

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم، وبِنُطْقِهِ رَبَطَ على قلوبهم بأَنْ ازدادوا يقيناً بسماع نطقه، فقال: لِمَ تضربونني؟ فقالوا: لتنصرف، فقال: أنتم تخافون بلاءً يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائي في الحال.

ثم إنَّ بلَاءَكم الذي تخافون أنْ يصيبكم من الأعداء، وبلائي منكم وأنتم الأولياء.

ويقال لما لزم الكلبُ محلَّه ولم يجاوزْ حَدَّه فوضع يديه على الوصيد بقي مع الأولياء... كذا أدب الخدمة يوجب بقاءَ الوُصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

الخطاب له ـ ﷺ. والمرادُ منه غيره.

ويقال لو اطلعتَ عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً، ولو شاهدتَهم من حيث شهود تولّي الحق لهم لبقيت على حالك.

ويقال لو اطلعتَ عليهم وشاهدْتَهم لَوَلَّيْت منهم فراراً مِنْ أَنْ تُرَدَّ عن عالي منزلتك إلى منزلتهم؛ والغنيُّ إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فَرَّ منه، ولم تَطِبْ به نَفسُه. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ بأن يُسْلَبَ عظيمُ ما هو حالك، وتُقَامَ في مثل حالهم النازلة عن حالك.

ويقال: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقلوا مدة لُبْثهم وقد لَبِثُوا (طويلاً)، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم، ولم يكن لهم عِلْمٌ بتفصيل أحوالهم، قال قائلهم:

لستُ أدري أطال لَيْلِي أم لا؟ ... كيف يدري بذاك من يتقلَّى؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِي ... ورغيتُ النجومَ كنتُ مُخِلَّا

ويقال أيامُ الوصالِ عندهم قليلة ـ وإنْ كانت طويلة، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس، وأنشدوا:

صَبَاحُكَ سُكْرٌ والمِساءُ خُمار[1] ... نَعِمْتَ وأيامُ السرورِ قِصارُ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

لأنه هو الذي خَصَّكُم بما به أقامكم.

---

(١) الخُمار: ما يعقب شرب الخمر من صُداع وأذى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلبٌ لأكلٍ ولا شربٍ ولا شيء من صفة النَّفْس، فلمَّا رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أوَّلَ ما أحسوا بحالهم، وفي هذا دلالة على شدة ابتداء الخَلْق بالأكل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التَّخلقِ وجميل الترفُّقِ، أي ليتلطف مع من يشتري منه شيئاً.

ويقال أوصوا مَنْ يشتري لهم الطعامَ أنْ يأتيهم بألطف شيءٍ وأطيبِه، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول.

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك والذي بلغ المعرفة لا يوافقه إلا كل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إمَّا بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل، ولا يرضون إلا بردِّهم إلى ما منه تخلصوا، فمَنْ احترق كدسهُ فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نَفْسُه.

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار.

ويقال مَنْ أظْهَر لأعدائه سِرَّه فقد جَلبَ باختياره ضُرَّه، وفَقَدَ ما سَرَّه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

جعل أحوالَهم عِبْرةً لِمَنْ جاءَ بَعْدَهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم، فعاينهم الناس، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة.

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة، كانوا مأخوذين عن التمييز، متقلبين في القبضة على ما أراده الحق، مستودعين فيما كوشفوا، مستهلكين عنهم في وجود الحق ـ سبحانه.

قوله جلِ ذكره: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أخبر أنَّ علومَ الناسِ متقاصرةٌ عن عددهم؛ فالأحوالُ التي لا يطلع عليها إلا الله في أسرارهم وقلوبهم. . . متى يكون للخَلْق عليها إشرافٌ؟

أشكل عليهم عددهم، وعددهم يُعْلَم بالضرورة، وهم لا يُدْرَكُون بالمشاهدة.

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقُّ ـ سبحانه ـ ذِكْرَهم وذكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار، ولمَّا ذَكَرَهم عَدَّ الكلب في جملتهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده، ومَنْ كان قريباً في الحالِ منهم؛ فهم في كتم الغَيْرة وإيواء الستر لا يَطَّلِعُ الأجانبُ عليهم؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ؛ لأنَّ الحق ـ سبحانه ـ يستر أولياءه عن الأجانب، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب. كذلك قال شيوخ هذه الطائفة: «الصوفية أهل بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرهم».

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم، ولا يهتدي إلى أحكامهم من لا يعرفهم. . فلا يصحُّ استفتاءُ مَنْ غاب علمهم عنه في حالهم. ومَنْ لم يكن قلبُه محلاً لمحبة الأحباب لا يكون لسانُه مقراً لذكرهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

إذا كانت الحوادثُ صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ الله لم يَعُدّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله.

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله.

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِه بِسِرِّه، والشرعُ يستدعي منه نهوضَ قلبه في طاعته، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

إنْ طَرأَتْ عليك طوارقُ النسيان ـ لا يتعهدك ـ فجرِّدْ بذكرك قَصْدَكَ عن أوطان غفلتك.

ويقال ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: في الحقيقة نَفْسُك تمنعك من استغراقك في شهود ذكرك.

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربِّك: فإن العبدَ إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة في ذكره.

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّك منه.

ويقال واذكر ربَّك إذا نسيت غيرَ ربِّك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

كانوا مأخوذين عنهم في إحساسهم بأنفسهم لم يقفوا على تطاول مدتهم، وفي المثل: أيام السرور قصار والدهور في السرور شهور، والشهور في المحن دهور، وفي معناه:

أَعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قبلاً لا أعد اللياليا

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

مَنْ لم يعد أيامَه لاشتغاله بالله أحصى اللّهُ أنفاسَه التي الله، قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

تَسَلَّ ـ حينما تتنوع عليك الأحوال ـ بما نُطْلِعُكَ عليه من الأخبار؛ وإنَّ كُتُبَ الأحبابِ فيها شفاءٌ لأنها خطابُ الأحباب للأحباب.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

أي لا تغيير لِحُكْمِه؛ فَمَنْ أقصاه فلا قبولَ له، ومَنْ أدناه فلا وصولَ له، ومَنْ قَبِلَه فلا رَدَّ له، ومَنْ قَرَّ به فلا صَدَّ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ولم يقل: «قلبك» لأن قلبه كان مع الحقّ، فأمره بصحبته جَهْرَاً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سِرّاً بِسرٍّ.

ويقال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: معناها مريدين وجهه أي في معنى الحال، وذلك يشير إلى دوامِ دُعائِهم ربهم بالغداة والعشيّ وكون الإرادة على الدوام.

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: فآويناهم في دنياهم بعظائمنا، وفي عقباهم بكرائمنا.

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: فكشف قناعَهم، وأظهر صفَتهم، وشَهَرَهم بعدما كان قد سَتَرَهم، وأنشدوا:

وكشفنا لكَ القناعَ وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا

ويقال لما زالت التُّهمُ سَلِمَتْ لهم هذه الإرادة، وتحرروا عن إرادةِ كلِّ مخلوقٍ وعن محبةِ كل مخلوق.

ويقال لمَّا تقاصَرَ لسانُهم عن سؤالِ هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول ﷺ، وحُرْمَةِ باب الحقِّ ـ سبحانه ـ أَمَرَه بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وبقوله:

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي لا ترفع بصَرَكَ عنهم، ولا تُقْلِعْ عنهم نظرك.

ويقال لما نظروا بقلوبِهم إلى الله أَمَرَ رسولَه ـ عليه السلام ـ بألا يرفعَ بَصَرَه عنهم، وهذا جزاء في العاجل.

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا، وخَلَفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظَرَكَ فإنا لا نمنع غداً نظرهم عنَّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

هم الذين سألوا منه ـ ﷺ ـ أن يُخْلِيَ لهم مجلسَه من الفقراء، وأن يطردَهم يوم حضورهم من مجلسه ـ صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

ومعنى قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾: أي شغلناهم بما لا يعنيهم.

ويقال: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنْعِم.

ويقال هم الذين طوَّح قلوبَهم في التفرقة، فهم في الخواطر الرَّدِيَّة مُثْبَتُون، وعن شهود مولاهم محجوبون.

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابْتُلُوا بنسيان الحقيقة لا يتأسَّفُون على ما مُنُوا به ولا على ما فَاتَهُم.

ويقال الغفلةُ تزجيةُ الوقتِ في غيرِ قضاءِ فَرْضٍ أو أداء نَفْلٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

قُلْ يا محمد: ما يأتيكم من ربِّكم فهو حقٌّ، وقوله صِدْقٌ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. هذا غاية التهديد، أي إنْ آمنتم ففوائدُ إيمانكم عليكم مقصورة، وإنْ أَبَيْتُم فَعذَابُ الجحود موقوفٌ عليكم، والحقُّ ـ سبحانه ـ عزيز لا يعود إليه بإيمان الكافة ـ إذا وَحَّدُوا ـ زَيْنٌ، ولا مِنْ كُفْرِ الجميع ـ إنْ جحدوا ـ شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحقّ، ولو علموا ذلك لَعَلّه كان يرحمهم. والحقُّ ـ سبحانه ـ أكرم من أن يعذِّبَ أحداً يُتَّهَمُ لأجْلِه.

ويقال لو علموا مَنْ الذي يقول: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ لعلَه كان لهم تَسَلِّ ساعةً، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا، وإلا فهذا شِبْهُ مرتبةٍ لهم، والعبارة عن هذا تدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

أهلُ الجنة طابتْ لهم حدائقُها، وأهلُ النار أَحاط بهم سُرادِقُها.

والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدةٌ... جَلَّتْ الأحديةُ، وتَقَدَّسَتْ الصمدية!

ومَنْ وَقَعتْ عليه غَبَرَةٌ في طريقنا لم تَقعْ عليه قَتَرَةُ فراقنا، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجَدَ حظوةً لدينا، ومَنْ نَقَلَ قَدَمَه نحونا غفرنا له ما قَدَّمَه، ومَنْ رَفَعَ إلينا يَدَاً أَجْزَلْنا له رَغداً، ومَنْ التجأ إلى سُدَّةِ[1] كَرَمِنا آويناه في ظِلِّ نِعَمِنا، ومن شكا فينا غليلاً مَهَّدْنا له ـ في دار فضلنا ـ مقيلاً.

﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: العملُ أحسنُه ما كان مضبوطاً بشرائط الإخلاص.

ويقال: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ بأن غاب عن رؤية إحسانه.

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَصْدَه عن كلِّ حظٍّ ونصيب.

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فَضلِه، إذا أخلصتَ في تَوسلِكَ إليه بفضله، وتوصُلِكَ إلى ما مَوَّلَكَ من طَوْلِهِ بِتبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك استوجبتَ حُسْنَ إقباله، وجزيل نواله.

قوله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أولئك هم أصحابُ الجنان، في رَغَدِ العيش وسعادة الجَدِ[2] وكمال الرِفْد[3]، يلبسون حُلَلَ الوُصلة، ويُتَوَّجُون بتاج القُربة، ويُحْمَلون على المباسط، ويَتَّكِئون على الأرائك[4]، ويشمون رياحينَ الأُنس،

---

(١) السُّدَّة: باب الدار.
(٢) الجَدُّ: الحظ والحظوة.
(٣) الرِّفد: العطاء والصلة (ج) أرفاد.
(٤) الأرائك: (ج) الأريكة: مقعد منجَّد.

ويقيمون في مجال الزُّلفة، ويُسْقَوْنَ شرابَ المحبة، ويأخذون بِيَدِ الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة، ويسقيهم شراباً طهوراً يُطَهِّر قلوبَهم عن محبة كلِّ مخلوقٍ.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: نِعْم الثوابُ ثوابُهم، ونعم الربُّ ربُّهم، ونعم الدارُ دارُهم، ونعم الجارُ جارُهم، ونعم الحالُ حالُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾.

أخبر أنه خَلَقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذَكَرَه، فَشَكَرَ أحدُهما لخالقِه وكَفَرَ الآخرُ برازقه، فأصبح الكافرُ وجنَّتُه أصابتها جائحةٌ، وندم على ما ضَيَّعَه من الشكر، وتوجَّه عليه اللومُ.

وفي الإشارة يخلق عَبْدين يُطَيِّبُ لهما الوقت، ويُمَهِّدُ لهما بساط اللطف، ويمكِّن لهما من البَسْط.. فيستقيم أحدُهما في الترقي إلى النهاية من مقامات البداية بحُسْن المنازلة وصدق المعاملة، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسنِ الاستقامة، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية، ثم يُخْتَطَفُ عنها بما يُكاشَفُ به من حقائق التوحيد، ويصبح مُنْتَفًى عن جملته باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق.

والثاني لا يُقَدِّرُ قَدْرَ ما أَهَّلَ له من حُسْن البداية فيرجعُ إلى مألوفاتِه، فينتكِسُ أمرُه، بانحطاطه إلى ذميم عاداته، فيرتدُّ عن سلوكِ الطريقة ويتردَّى في ظُلْمَةِ الغفلة؛ فيصيرُ وقتُه ليلاً مظلماً، ويتطوحُ في أودية التفرقة، ويُوسَمُ الطرد، ويُسْقى شرابَ الإهانة، وينخرطُ في سلك الهَجْر.. وذلك جزاءُ مَنْ لم يَرْهُم الحقُّ لو صلته أهْلاً، ولم يجعل لولائهم في التحقيق والقبول أصْلاً:

تبدَّلَتْ وتبدلنا يا حسرةً لِمَنْ ابتغى عوضاً لسلمى فلم يَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حظَّه على حقِّ الله، قَرَعَ بابَ ندامته، ثم لا ينفعه.

ولو قرع باب كَرمِه في الدنيا ـ حين وقَعتْ له الفترةُ ـ لأشكاه[١] عند ضرورته، وأنجاه من ورطته.. ولكنه رُبط بالخذلان، ولُبِّسَ عليه الأمرُ بحُكْمِ الاستدراج.

قوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾: مَنْ اشْتَهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السلطانِ عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية، كذلك مَنْ وَسمَه الحقُّ بكيِّ الهَجْر لم يَرْثِ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ، ولم يَحْمِه صديقٌ ولا وليٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

هو الحقُّ المتفرِّدُ بنعتِ ملكوته، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدثان أحداً، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر، ولا وزن فيما هنالك لحدثان ولا خطر، كلَّا.. بل هو الله الخلَّاق الواحد القهار.

هنالك الوِلاية لله أي القدرة ـ والواو هنا بالكسر.

وهنالك الوَلاية لله أي النصرة ـ والواو هنا بالفتح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ على الدنيا وبهجتها غرّته بأمانيها، وخدعته بالأطماع فيها. ثم إنها تُخْفي الصَّابَ في شرابها، والحنظل[٢] في عَسَلها، والسرابَ في مآربها؛ تَعِدُ ولا تفي بعِدَاتِها، وتُوفِي آفاتُها على خيراتها.. نِعمُها مشوبةٌ بِنقَمِها، وبؤسُها مصحوبٌ بمأنوسها، وبلاؤها في ضمن عطائها. المغرورُ مَنْ اغترَّ بها، والمغبونُ مَنْ انخدع فيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.

مَنْ اعتضد بعتاده، واغترَّ بأولاده، ونَسِيَ مولاه في أوان غَفَلَاتِهِ.. خَسِرَ في حاله، ونَدِمَ على ما فاته في مآله.

ويقال زينةُ أهل الغفلة في الدنيا بالمال والبنين، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين.. فهؤلاء رُتَبُهم لظواهرهم.. وهؤلاء زينتهم لعبوديته، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته.

ويقال ما كان للنَّفْس فيه حُظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا، ويدخل في ذلك الجاهُ وقبول المدح، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها.

---

(١) أشكى فلاناً: قبل شكواه.

(٢) الحنظل: نبات عشبي بري حوليّ معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُزرع في الحدائق الطبية.

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول: إن شئت في عاجله وإن شئت في آجله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق.

ويقال ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: ما كان خالصاً لله تعالى غيرَ مُشوب بطمعٍ، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ.

ويقال ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: ما يلوح في السرائر من تحلية العبد بالنعوت، ويفوح نَشْرُه في سماءِ الملكوت.

ويقال هي التي سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة.

ويقال هي ضياءُ شموسِ التوحيد المستكِنّ في السرائر مما لا يتعرَّضُ لكسوف الحجبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

كما تُسيَّرُ جبالُ الأرض يوم القيامة فإنها تُقْتَلَع بموت الأبدال[1] الذين يديم بهم الحقُّ ـ اليومَ ـ إمساكَ الأرضِ، فهؤلاء السادَة ـ في الحقيقة ـ أوتادُ العالَم.

قوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأسَ المنية، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه، وإنَّ شَرَفَهم في الدرجات في تَوَقِّيهم عن مساكنة الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

يقيم كُلَّ واحدٍ يومَ العَرْضِ في شاهد مخصوص، ويُلْبِسُ كُلاً ما يُؤَهِّله له؛ فَمِنْ لباسِ تقوى، ومن قميصِ هوى، ومن صِدَارِ وَجْدٍ، ومن صُدْرَةِ محبة، ومن رداءِ شوقٍ، ومن حُلَّة وُصْلَة.

ويقال يجرِّدهم عن كلِ صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة. وينادِي المنادي على أجسادهم: هذا الذي أَتَى وَوَجَدَ، وهذا الذي أَبَى وَجَحَدَ. وهذا الذي خالَفَ فأَصَرَّ، وهذا الذي أنعمنا عليه فَشَكَرَ، وهذا الذي أَحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ. وهذا الذي أسقيناه شرابَنا، ورزقناه محابِّنا، وشوَّقناه إلى لقائنا، ولَقَّيْناه خصائص رِعَائِنا.

وهذا الذي وَسَمْناه بحجبتنا، وحرمناه وُجُوهَ قربتنا. وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه، توفيق وفاقنا، وهذا، وهذا...

واخجلتي من وقوفي وَسْطَ دارِهِمُ! وقال لي مُغْضَباً: مَنْ أنت يا رجلُ؟

(١) الأبدال: (عند الصوفية) إحدى طبقاتها، يزعمون أنه إذا مات بدل من الأبدال حل محله آخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر، ولا مُعينٍ ولا مُظاهِر.

قوم يُقال لهم: سلامٌ عليكم... كيف أنتم؟ وكيف وَجَدْتُم مقيلَكم؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم!

وقوم يُقال لهم: ما صنعتُم، وما ضَيَّعْتُم؟ ما قدَّمتُم، وما أخرتم؟ ما أعلنتم، وما أسررتُم؟

قُلْ لي بألسنةِ التنفُّسِ[1] كيف أنت وكيف حالك؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفْصِحون عن مكنون قلوبهم، ويشرحون ما هم به من أحوالٍ مع محبوبهم. وآخرون تملكهم الحيرة وتُسْكِتُهم الدهشة، فلا لهم بيان، ولا ينطق عنهم لسان. وآخرون كما قيل:

قالت سكينةُ مَنْ هذا فقلتُ لها: أنا الذي أنتِ من أعدائه زَعمُوا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ، لا ما في الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم نَسَخَه ما في اللوح المحفوظ.

ويقال إنْ عامَلَ عبداً بما في الكتاب الذي أثبته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما في كتاب المَلِكِ ـ سبحانه، وفرقٌ بين من يُعَامَل بما في كتاب الحقِّ من الرحمة. والشفقة وبين مَنْ يحاسبه بما كَتَبَ عليه المَلَكُ من الزَّلة.

ويقال إذا حسابهم في القيامة يتصور لهم كأنهم في الحال، ما فارقوا الزَّلَة، وإن كانت مباشرةُ الزَّلةِ قد مَضَت عليها سنون كثيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

يملك الحزنُ قلبَه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئةً فهو في موضع الخجل لتقصيره. وإنْ رأى حسنةً فهو في موضع الخجل أيضاً لِقِلَّةِ توقيره؛ فَخَجْلَةُ أَهلِ الصدقِ عند شهود حسناتهم تُوفي وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زَلَّاتهم.

ويقال أصحابُ الطاعةِ إذا وجدوا ما قدَّموا من العبادات فمآلهم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة، وأمَّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدَّموا

---

(١) التنفس: تنفس نفساً طويلاً من تعب أو كرب.

مجاوزةَ الحدِّ ونقضَ العهدِ، وما في هذا الباب من الزَّلة وسوء القصد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

أَظْهَرَ للملائكة شَظِيَّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسيرٍ من الله ـ سبحانه، وسَكَّرَ بَصَرَ اللعين فما شهد منه غير الْعَيْنِ ففسق عن أمر ربه، ولا صدق في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لمَا فَسَقَ عن الأمر، ولكن أدركته الشقَّاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

في الآية إشارة إلى أَنَّ مَنْ يُفرِده بالولاية فلا يقتفي غَيْرَه ولا يخافُ غيرَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

أكذب المنجمين[١] والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾: وبَيَّنَ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصلَ له في التحقيق.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: أي لم أجعل للذين يُضِلُّون الناسَ عن دينهم بِشُبَهِهِمْ في القول بالطبائع حجةً، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً.

ويقال إذا تقاصرت علومُ الخَلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومُهم بحقائق الصمدية، واستحقاقِه لنعوته إلا بمقدار ما يخصُّهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً؟

ويقال أخبر أَنَّ علومَهم تتقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كُلِّ ما في الكون، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك؛ ولا حاجةَ بهم إلى الوقوف على ما قَصَرَتْ علومُهم عنه، إذ لا يتعلَّق بذلك شيء من الأمور الدينية. فالإشارة في هذا أن يَصْرِفُوا عنايتَهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإنه لا بُدَّ لهم ـ بحكم الديانة ـ من التحقق بها؛ إذ الواجبُ على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام.

---

(١) جمع المنجّم: الناظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها في طلوعها وغروبها ويستطلع من ذلك أحوال الكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

عِلمَ الحقُّ ـ سبحانه ـ أنَّ الأصنامَ لا تغني ولا تنفع ولا تضر، ولكن يعرِّفهم في العاقبة بما يُصَيِّر معارفَهم ضرورية حَسْماً لأوهام القوم؛ حيث توهموا أنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

فإذا تحققوا بذلك صدقوا في الندم، وكان استيلاء الحسرة عليهم، وذلك من أشد العقوبات لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

إذا صارت الأوهامُ منقطعةً، والمعارفُ ضروريةً، والنارُ مُعَاينَةً استيقنوا أنهم واقعون في النار، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ، ولا تنفع لهم حيلةٌ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل. لقد استمكنت الخيبةُ، وغَلَبَ اليأسُ، وحَصَلَ القنوط، وهذا هو العذاب الأكبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

أوضح للكافة الحججَ، ولكن لَبَّسَ على قوم النهج فوقعوا في العِوَج.

﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الجَدَلُ في الله محمود مع أعدائه، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرْفٌ إلى مخالفةٍ تُوهِمُ أن أحداً يعارض التقدير، وتجويزُ ذلك انسلاخٌ عن الدِّين. ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه، وإغلاقُ بابِ الجدل دونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتركِ المبادرة إلى المأمور، ولا توفيقَ يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل، فَهُمْ ـ وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ما ليسوا يفعلونه ـ ليسوا عاجزين عن ذلك؛ ولكنهم بحيث لو أن العبدَ منهم أراد ما أُمِرَ به لَتَأَبَّى منه ذلك، وتعذَّر عليه؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾.

أرسل الرسلَ ـ عليهم السلام ـ تترى، وأيَّدَهم بالحجج والبراهين، وأمرهم بالإنذار والتخويف، والتشريف في عين التكليف، وتضمين ذلك بالتحقيق، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم، وشَقِيَ آخرون بخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّر ووُعِظَ بما لوَّح له من الآيات، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أُصْلِحَ أو شُغْلٍ كُفِيَ أو دعاءٍ أُجِيب له، أو سوءِ أدبٍ حصل منه، فأُدِّبَ بما يكون تنبيهاً له، أو حصلت منه طاعة وكوفىء في العاجل إمَّا بمعنى وَجَدَه في قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أُنْسٍ، وإما بكفاية شُغْلٍ أو إصلاحِ أمرٍ. ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُومل به، أو أعرض عن تَذَكُّرِه، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يداه من خيره وشرِّه، فوجدَ في الوقت موجبه.. ومَنْ كانت هذه صِفَتُه جعل على قلبه ستراً وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركاتُ ما وُهِبَه.

ويقال مَنْ أظلم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَرَبِه فَيَتَّهِمُ رَبَّه، ويشكو مِما يلاقيه، ويَنْسى حُرْمة الذي بسببه أصابه ما أصابه؟ وكما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لِفُرصته حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾.

﴿الْغَفُورُ﴾: لأنه ذو الرحمة، ورحمته الأزلية أوجَبَتْ المغفرةَ لهم.

ويقال ﴿الْغَفُورُ﴾: للعاصين من عباده، و ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بجميعهم فيُصلح أحوالَ كافتهم.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا﴾: لعجَّل لهم العذابَ؛ أي عَامَلَهم بما استوجبوه من عصيانهم، فعجَّلَ لهم العقوبة، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

لمَّا لم يشكروا النِّعم ولم يصبروا في المحن عَجَّلنا لهم العقوبة.

ويقال لمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير، وحُرِمُوا رَوْح الرضا وَكَلْناهم إلى ظُلُماتِ تدبيرهم، فطاحوا في أودية غفلاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقّ اسم الفتوة، ولذا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ وهو اسم كرامة لا اسم علامة.

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغَ في الآية، وأَبْعَدَ من اختيار البَشَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

كان موسى في هذا السّفرِ مُتَحَمِّلاً، فقد كان سَفَر تأديبٍ واحتمالِ مشقةٍ، لأنه ذهب لاستكثار العلم. وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تَحمُّلٍ للمشقة، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ، فقال: ﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ، لأن ذهابَه في هذا السفر كان إلى الله، فكان محمولاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصرافِ إلى مكانهما، ثم قال يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾: الله ـ سبحانه ـ أدخلَ عليه النسيانَ ليكونَ الصَّيْدُ من تكلفِه، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾: يعني دخول السمك الماء وكان مشوياً؛ فصار ذلك معجزة له، فلما انتهيا إلى الموضع الذي دخل السمك فيه الماء لَقِيَا الخضر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

إذا سَمَّى الله إنساناً بأنه عَبْدُه جَعَلَه من جملة الخواص؛ فإذا قال: «عبدي» جعله من خاص الخواص.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: أي صار مرحوماً من قِبَلِنا بتلك الرحمة التي خصصناه بها من عندنا، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً، ويكون بها راحماً على عبادنا.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: قيل العلم من لدن الله ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتَّطَلُّب.

ويقال ما يُعَرِّف به الحقُّ ـ سبحانه ـ الخواصَ من عباده.

ويقال ما يعرِّف به الحق أولياءَه فيما فيه صلاح عباده.

وقيل هو ما لا يعود منه نَفْعٌ إلى صاحبه، بل يكون نفعُه لعباده مِمَّا فيه حقُّ الله ـ سبحانه.

ويقال هو ما لا يَجِد صاحبُه سبيلاً إلى جحده، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً؛ فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان، ثم صَرَّح بمقصوده من الصحبة بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَه من أستاذ ولا من شخص، فما لم يكن بتعليم أحد إياه.. متى كان يعلمه غيره؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف!

ثم نداركَ قلبَه بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟، فأجابه موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ...﴾ وعد من نفس موسى بشيئين: الصبر، وبأن لا يعصيَه فيما يأمر به، فأمَّا الصبر فَقَرَنَه بالاستنشاء بمشيئة الله فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فصبر حتى وُجِدَ صابراً، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل، والثاني قوله: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾: أطلقه ولم يُقرِنه بالاستنشاء، فما استنشأ لِأَجْله لم يخالفه فيه، وما أطلقه وقع فيه الخُلْفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فإنه ليس للمريد أن يقول: «لا» لشيخه، ولا التلميذ لأستاذه، ولا العاميّ للعالمِ المفتي فيما يفتي ويحكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

لما ركبوا الفُلْكَ خرقها وكان ذلك إبقاءً على صاحبها لئلا يرغبَ في السفينةِ المخروقةِ المَلِكُ الطامعُ في السفن.

وقوله: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي لتؤديَ عاقبةُ هذا الأمر إلى غَرَقِ أهلها؛ لأنه علم أنه لم يكن قَصَدَ إغراقَ أهلِ السفينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

أي أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم، وإنا نُجْزيه من حيث الحُكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

طالبَه بما هو شرط العلم حيث قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾؛ لأن الناسيَ لا يدخل تحت التكليف، وأيّدَ ذلك بما قَرَنَ به قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فالمُتَمَكِّنُ من حقه التكليف، ومَنْ لا يصحُ منه الفعلُ والتَرْكُ لا يتوجه ( )[1] والناس من جملتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

كان بِخُلُقِ العلم واجباً على موسى ـ عليه السلام ـ قَصْرُه حيث يرى في الظاهر ظُلْماً، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ، ففي ذلك الوقت كان قلب العادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

كرَّر قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ...﴾ لأنه واقف بشرط العلم، وأمّا في محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

بلغ عصيانه ثلاثاً؛ والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ القِلَّة وأوَّلُ حَدِّ الكثرة، فلم يَجِدْ المُسَامَحَة بعد ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

كان واجباً في ملتهم على أهل القرية إطعامهما، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم؛ ولو كان أغضى على ذلك منهم لكان أحسن.

فلمّا أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمْتَ بمحظور، ولكنه قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أَخْذُكَ خيراً لنا من تركك ذلك، ولئن وَجَبَ حقُّهم فَلِمَ أخللتَ بحقنا؟

ويقال إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب فَرْدٌ إلى تَحَمُّلِ المشقة، وإلّا فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر، ولكنه

(١) بياض في الأصل.

كان في ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً. فلما قال موسى هذا قال له الخضر:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي بعد هذا فلا صحبة بيننا.

ويقال قال الخضر إنَّك نبيٌّ.. وإنما أؤاخذك بما قُلْتَ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط؛ وقلتَ: إنْ سألتُك عن شيء بعدها فلا تصاحبني؛ وإنما أعاملك بقولك.

ويقال لمّا لم يصبر موسى معه في تَرْكِ السؤال لم يصبر الخضرُ أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق.

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير ـ في أمر السفينة التي كانت للمساكين، وقَتْلِ النَّفْس بغير حق ـ لم يفارقه الخضر، فلمَّا صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌّ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة، فقال الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

ويقال كما أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إيثاراً للخلوة بالله عن المخلوقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُرِدْ أَنْ يبقى في قلبِ موسى شِبْهُ اعتراضٍ؛ فأَزَالَ عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال، وكشف له أنَّ السِّرَّ في قصده من خَرْقِ السفينة سلامتُها وبقاؤها لأهلها حيث لن يطمعَ فيها المَلِكُ الغاصبُ، فبقاءُ السفينةِ لأهلها ـ وهي معيبةٌ ـ كان خيراً لهم من سلامتها وهي مغصوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

بيَّن له أَنَّ قَتْلَ الغلام لمَّا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الحُكْمُ أنَّ في بقائه فتنةً لوالديه، وفي إبدال الخَلَفِ عنه سعادةً لهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(١).

---

(١) الآيات من (٨٣ حتى ٨٩) لم ترد.

أَما تسوية الجدار فلاستبقاءِ كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

أقوامٌ هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم، وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم. كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد: منهم الغالب عليهم طلوع شموسهم، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقّهم، وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

أي ما كانوا يهتدون إلا إلى لسانِ أنفسِهم، وما كانوا يفقهون فقهَ غيرِهم فلجؤوا إلى عَبَرَاتهم[١] في شرح قصتهم، ورفعوا إليه ـ في باب ياجوج وماجوج ـ مظلمتَهم، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه، فأجابهم إلى سؤلهم، وحقَّق لهم بُغْيَتَهم، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية، لمَّا رأى أَنَّ من الواجبِ عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

استعانَ بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ فلمَّا فعلوا ما أمرهم به، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل. ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ له في الخروج، وتندفعَ عن الناس عادية (. . .)[٢] إلى الوقت المضروب لهم في التقدير.

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله. وبيَّنَ ـ سبحانه ـ أَنَّ خروجَهم من وراء سَدِّهم مِنْ أشراط الساعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[٣].

نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال،

---

(١) العبرات: (ج) العبرة: الدمعة قبل أن تفيض.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الآيات من (٩٧ حتى ١٠٠) لم ترد.

ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف.

قوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ ـ سبحانه ـ الإسماع؛ فلم يستطيعوا لهم القبول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

أي توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم، واعتقدوا في أصنامهم استحقاقَ التعظيم، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ضلَّ سعيُهم لأنهم عَمِلُوا لغيرِ اللَّهِ. وما كان لغيرِ الله فلا ينفع.

ويقال الذين ضلَّ سعيُهم هم الذين قَرَنُوا أعمالَهم بالرياء، ووصفوا أحوالَهم بالإعجاب، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالمَنِّ.

ويقال هم الذين يُلاحِظُون أعمالهم وما مِنْهُم بعينِ الاستكثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

لم يكونوا أصحاب التحقيق، فعَمِلوا من غير عِلْم، ولم يكونوا على وثيقة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد، فتفرَّقَتْ بهم الأوهام والظنون، ولم يكونوا على بصيرة، ولم تستقر قلوبُهم على عقيدة مقطوع بها؛ فليس لهم في الآخرة وزنٌ ولا خَطَرٌ، اليومَ هم كالأنعام، وغداً واقعون ساقطونَ (. . .)[2] الأقدام.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

هم اليومَ في عقوبة الجحد، وغداً في عقوبه الردِّ. اليوم هم في ذُلِّ الفراق، وغداً في أليمِ الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

لهم جنات مُعَجَّلة سراً، ولهم جنان مؤجلة جهراً.

---

(١) الوثيقة: ما يُحكم به الأمر (ج) وثائق.

(٢) بياض في الأصل.

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل.

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾.

عرَّفنا ـ سبحانه ـ أن ما يخوِّله لهم غداً يكون على الدوام، فهم لا ينفكون عن أفضالهم، ولا يخرجون عن أحوالهم؛ فهم أبداً في الجنة، ولا إخراج لهم منها. وأبداً لهم الرؤية، ولا حجاب لهم عنها[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾.

أي لا تُعَدُّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها؛ فإنَّ متعلقاتِ الصفةِ القديمةِ لا نهاية لها؛ كمعلوماتِ الحق ـ سبحانه ـ ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته.

والذي هو مخلوقٌ لا يَسْتَوْفِي ما هو غير مُتَنَاهٍ ـ وإنْ كَثُرَ ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾.

أَخْبِرْ أنَّكَ لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ، والفَرْقُ بينكَ وبينهم تخصيصُ الله ـ سبحانه ـ إياكَ بالرسالة، وتَرْكِه إياهم في الجهالة.

ويقال: قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء)[(٢)]، وإن كنا ـ أنا وأنتم ـ في الصورة أكفاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

حَمْلُ الرجاءِ في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَنٌ، ولكنَّ تَرْكَ هذا على ظاهره أَوْلَى؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاءَ الله.

والعارف بالله ـ سبحانه ـ يرجو لقاءَ الله والنظرَ إليه.

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُه على لواعجِ اشتياقه، وأَنْ يُخْلِصَ في عمله.

﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: أي لا يُلاحِظُ عَمَلَه، ولا يستكثر طاعته، ويتبرأ من حَوْلِه وقُوَّتِه.

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن رؤية الله بالأبصار: فإن قيل: فهل تجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا على جهة الكرامة؟ فالجواب عنه: أن الأقوى فيه أنه لا يجوز لحصول الإجماع عليه. ولقد سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال في ذلك قولان، وذلك في كتاب (الرؤية الكبير). (الرسالة القشيرية ص٣٦٠).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

سورة مريم عليها السلام

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله، اسم عزيز مَنْ عَبَدَه وَاصَلَ جِهادَه، ومَنْ طَلَبَه وَدَّعَ وِسادَه، ومَنْ عَرَفَه أنكر أحبابَه. ومَنْ يَسَّر له أوقفه على محبته.

مَنْ ذكره نَسِيَ اسمَه، ومن شَهِدَه فَقَدَ عقلَه ولُبَّه.

اسم عزيز جُبِلَتْ القلوبُ على محبته، وكل قلب ليس يوقفه على محبته، فليس بحيلةٍ يصل.

اسمٌ ما اتصفت أشباحُ الأبرارِ إلا بعبادته، وما اعتكفت أرواحُ الأحرار إلا بمشاهدته.

اسم عزيز مَنْ عَرَفَه اعترف أنه وراء ما وصفه.

قوله جل ذكره: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

تعريفٌ للأحباب بأسرار معاني الخطاب، حروف خَصَّ الحقُّ المخَاطبَ بها بفهم معانيها، وإذا كان للأخيار سماعُها وذِكْرُها، فللرسولِ ـ عليه السلام ـ فَهْمُها وسِرُّها.

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْم.

ويقال في الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه، وتخويفٌ بخَفي مَكْرِه في بلائه.

ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نَفْسِه قبل كتابة الملائكة الزَّلَّةَ على عباده.

والهاءُ تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عِرفانه، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه، وما له من الحق بحكم إحسانه.

والياء إشارة إلى يُسْر نِعَمِه بعد عُسْرِ مِحَنِه. وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده.

والعين تشير إلى عِلْمِه بأحوالِ عَبْدِهِ في سِرِّه وجَهْرِهِ، وقُلِّه وكُثْرِه، وحالِه ومآلِه، وقدْرِ طاقته وحق فاقته.

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده.

قوله جل ذكره: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾.

تخصيصه إياه بإجابته في سؤال وَلَدِه، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له ولجميع أهله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

وإنما ذلك لئلا يَطَّلِعَ أحدٌ على سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه، والاعتقاد بالسُّوء في نفسه، ثم أخفى سِرَّهُ عن الخلْق لئلا يقعَ لأحدٍ إشرافٌ على حاله، ولئلا يَشْمَتَ بمقالته أعداؤه.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

أي لَقِيتُ بضعفي عن خدمتك ما لا أحِبُّه؛ فطعنتُ في السنِّ، ولا قوةَ بعد المشيب؛ فهَبْ لي ولداً ينوب عني في عبادتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

أي إني أسألك واثقاً بإجابتك؛ لعلمي بأني لا أشقَى بدعائِك فإنَّك تحِبُّ أن تُسأل.

ويقال إنك عوَّدتني إجابة الدعاء، ولم تردَّني في سالف أيامي إذا دعوْتُك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

إني خِفْتُ أَنْ تذهبَ النبوة من أهل بيتي، وتنتقل إلى بني أعمامي فهبْ لي وَلَداً يعبدك، ويكون من نَسلِي ومن أهلي.

وهو لم يردْ الولدَ بشهوةِ الدنيا وأَخْذِ الحظوظِ منها، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله، وفي قوله: ﴿يَرِثُنِى﴾ دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده؛ فقال: ولداً يكونِ وارثاً لي؛ أي يبقى بَعْدِي، ويرث من آل يعقوب النبوةَ وتبليغ الرسالة.

واجعله ربِّ رضياً: رَضِي فعيل بمعنى مفعول أي ترضى عنه فيكون مَرْضِيّاً لك. ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أي راضياً منك، وراضياً بتقديرك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أي استجبنا لدعائِك، ونرزقك ولداً ذكَراً اسمُه يحيى؛ تحيا به عُقرَةُ أُمِّه، ويحيا به نَسَبُكَ، يحيا به ذكْرُك، وما سألَته من أن يكون نائباً عنك؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: انفراده ـ عليه السلام ـ بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة؛ أي لَم يكن له سَمِيٌّ قَبْله؛ فلا أحَدَ كُفؤٌ له في استجماع أوصاف فَضْله.

ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

سأل الوَلدَ فلمَّا أُجِيب قال أَنَّى يكون لي غلام؟ ومعنى ذلك ـ على ما جاء في التفسير ـ أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدةً طويلة؛ فكأنه سأل الولدَ في ابتداء حال سِنِّه، واستجيبت دعوتُه بعد ما تناهى في سِنِّه، فلذلك قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟.

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد.. أمِنْ هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد. فقال تعالى:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة في هذا الوقت الذي فيه حسب مستقرِّ العادة ولادة مثلِ هذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك، فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ معجزةٌ؛ ومن وجهٍ راحةٌ وكرامةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

دلّت الآية على أن المعدومَ ليس بشيءٍ، لأنه نفي أن يكون قبل خَلْقِه له كان شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

أراد علامةً على علوقِ المرأة بالولد؛ ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدلُّ بها على صِدْق ما يقال له. فأخبره تعالى: «أُنبِئُكَ علامةَ وقت إجابتك.. إنَّ لسانَك لا ينطق معهم بالمخاطبة ـ ولو اجتهدت كُلَّ الجهد ـ ثلاثةَ أيام، وعليكَ أن تخاطبني، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التي كانت في وقتك. فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكلِّمهم، وإذا أراد أن يقرأ الكتبَ أو يسبِّحَ اللَّهَ انطلق مع الله لسانُه».

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أي فلمّا خرج عليهم عرَّفهم ـ من طريق الإشارة ـ أنَّ اللسانَ الذي كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

أي قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة منّا، خَصَصْنَاكَ بها.. لا قوةَ يدٍ ولكن قوة قلبٍ، وذلك خيرٌ خَصَّه اللَّهُ تعالى به وهو النبوة.

ودلَّت الآية على أنه كان من الله له كتاب.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي النبوة، بَعَثَه اللَّهُ بها إلى قومه، وأوحي إليه وهو صبيّ.

ويقال الحُكْمُ بالصوابِ والحقِّ بين الناس.

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر.

قوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا...﴾ أي آتيناه رحمةً من عندنا، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها؛ فإن التقوى على قسمين: مجموعٍ ومجلوبٍ يتوصَّلُ إليه العبدُ بتكَلُّفِهِ وتَعَلُّمِه، وموضوعٍ من الله تعالى وموهوبٍ منه يصلُ إليه العبدُ ببَذْله سبحانه وبفضله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

﴿براً بوالديه﴾ كأمر الله ـ سبحانه ـ له بذلك لا لمودَّةِ البَشَرِ وموجِبِ عادة الإنسانية. ولم يكن متمرداً عن الحق، جاحداً لربوبيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي له منَّا أمانٌ يوم القيامة، ويوم ولادته في البداية، ويوم وفاته في النهاية، وهو أن يصونَه عن الزَيْغِ والعِوَجِ في العقيدة بما يُشْهِدُه على الدوام من حقيقة الإلهية.

وكذلك هو في القيامة له منه ـ سبحانه ـ الأمان؛ فهو في الدنيا معصومٌ عن الزَّلَّة، محفوظٌ عن الآفة. وفي الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

اعتزلت عنهم لتحصيلِ يطهرها، فاستترت عن أبصارهم.

فلمَّا أبصرت جبريلَ في صورةِ إنسانٍ لم تتوقعه أَحَسَّتْ في نفسها رُعْباً، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله، ورجوعها إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

قالت مريمُ لجبريل ـ وهي لم تعرفه ـ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ ويُتَّقَى منه؛ أي إنْ كنتَ تَقْصِد السوءَ. ومعنى قولها ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم تقل: «بالله» ـ أي بالذي يرحمني فيحفظني منك.

ويقال يحتمل أن يكون معناه: إن كنتَ تعرف الله وتكون متقياً مخالفة أمره فإنّي أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

تعرَّف جبريلُ إليها بما سكَّن رَوْعَها، وقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

قالت أنى يكونُ لي وَلَدٌ ولم أَلِمّ بِزَلَّةٍ ولا فاحشةٍ؟ فقال جبريلُ ـ عليه السلام ـ: الأمرُ كما قلتُ لَكِ؛ فلا يتعَصى ذلك على الله تعالى؛ إذ هو أَقْدَرُ أَنْ يجعل هذا الوَلَدَ دلالةً على كمال قدرته، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه ـ سبحانه ـ لِمَنْ آمَنَ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

لمَّا ظهر بها الحَمْلُ، وعَلِمَتْ أَنَّ الناسَ يستبعدون ذلك، ولم تَثِقْ بأحدٍ تُفْشِي إليه سِرَّها.. مَضَتْ إلى مكانٍ بعيد عن الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

أَلجأها وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جِذْع النخلة. ولمَّا أخذها الطَلْقُ، وداخَلَها الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسانِ العَجزِ، وقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾.

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها، لأنها عَلِمَتْ أَنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بلسانِ الفُجْر؛ وينسبونها إلى الفحشاء.

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصِيبَهم بِسَبَبِها عقوبةٌ.

ويقال قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ حتى لم أسمع مَنْ قال في الله تعالى بسببي إن عيسى ابن الله وابن مريم، وإن مريمَ زوجتُه... تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً!

ويقال ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾: في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بي، ولم تستقبلني هذه الخشونةُ في الحالةِ التي لَحِقَتْني.

ويقال ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾: في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1].

في التفسير أن المَعْنِيَّ بقوله ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾: جبريلُ عليه السلام، وقيل عيسى عليه السلام. والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة، والبشارة بعيسى عليه السلام، أي يرزقك الله ولداً سرياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

وكان جِذعاً يابساً أخرج اللّهُ تعالى منه في الوقتِ الثمرةَ، وهي الرُّطبُ الجنيُّ، وكان في ذلك آية ودلالة لها؛ فالذي قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى - عليه السلام - من غير أبٍ.

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة، فقد كان زكريا - عليه السلام - يَجِدُ عندها رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف، فلمَّا جاءَتْ علاقةُ الولدِ أُمِرَتْ بهزِّ النخلةِ اليابسةِ - وهي في أضعف حالها؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد، لِيُعْلَمَ أَنَّ العلاقةَ توجِبُ العناءَ والمشقة.

ويقال بل أُمِرَتْ بهزِّ النخلة اليابسة، وكان تمكنُها من ذلك أوضحَ دلالة على صدقها في حالها.

ويقال لمَا لم يكن لها في هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدها تولّى الله تعالى كفايتها؛ ليَعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عِبادِه في وقت حاجتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

كفاها أسبابَ ما احتاجت إليه مِنْ أَكْلِهَا وشُرْبِها، وسَكَّنَ من خوفها، وطيَّبَ قلبَها.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾: فلا تخاطبيهم وعرِّفيهم - بالإشارة - أنَّكِ نَذَرْتِ للرحمن الصمتَ مع الخَلْق، وتَرْكَ المخاطبةِ معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

بسط قومُها فيها لسانَ الملامةِ لما رَأَوْها قد وَلَدَتْ - وظاهرُ الحالِ كان معهم -

---

(١) السَّري: الجدول، أو النهر الصغير.

فقالوا لها على سبيل الملامة: يا مَنْ كنا نَعُدُّكِ في الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالسداد والصلاح.. مِنْ أين لكِ هذه الحالة الشنعاء؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون. ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم، فقالوا: يا شبيهته في الفساد.. ما هذا الولد؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا: يا أخت هارون، ويا مَنْ في حسابنا وظنّنا ما كان أبواكِ فيهما سوء ولا فساد.. كيف أتيتِ بهذه الكبيرة الفظيعة؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

في الظاهر أشارت إلى الولد، وفي الباطن أشارت إلى الله، فأخذهم ما قرب وما بعد وقالوا: كيف نكلِّم مَنْ هو أهل بأن يُنَوَّم في المهد؟!

فـ «كان» ها هنا في اللفظ صلة... وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

لما قالوا ذلك أنطق اللهُ عيسى حتى قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فظهرت براءةُ ساحتِها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثلُه. وجرى على لسانه حتى قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾؛ ليُقَال للنصارى إنْ صَدَقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولُكم إنه ثالث ثلاثة، وإن كذب فالذي يكذب لا يكون ابناً لله، وإنما يكون عبداً لله، وإذا لم يكن عَبْدَ هواه، ولا في أَسْرِ شيءٍ سواه فمَنْ تحرر مِنْ غيره فهو في الحقيقة عَبْدُه.

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه.

﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ بفضله. وفي الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك في حال ولادته؛ ولم تكُنْ منه بَعْدُ عبادةٌ وأخبر أن الله جعله نبياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

أي نافعاً للخلْق يرشدهم إلى أمور دينهم، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَةِ التي فيها هلاكهم، ومَنْ استضاء بنوره نجا.. فهذه بركاتُه التي كانت تصل إلى الخلْق. ومَنْ بركاتِه إغاثةُ الملهوف، وإعانةُ الضعيف، ونصرة المظلوم، ومواساة الفقير، وإرشاد الضال، والنصيحة للخلْق، وكفُّ الأذى عنهم وحَمْلُ الأذى منهم.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي لم يجعلني غيرَ قابلٍ للنصيحة.

ويقال ﴿شَقِيًّا﴾: أي متكبراً متجبراً. ويقال مختوماً بكفْرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».. فشتان ما هما!

والسلام بمعنى السلامة، أي سلامة لي يوم الولادة مما نسبوا إليَّ من قول النصارى في مجاوزة الحدِّ في المدح، ومما وصفني به اليهود من الذمِّ، فَلَسْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً.

وسلام عليَّ يوم أموت؛ ففي ذلك اليوم تكون لي سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتي.

وسلام عليّ يوم أُبْعَثُ؛ أي سلامةٌ لي في الأحوالِ مِمَّا يُبْتَلَى به غيرُ أهل الوصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

أي الذي قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم... أيكون بقول إله؟

وقد شكَّ فيه أكثر الخَلْق فَرَدَّه قومٌ وَقبِله قومٌ، والفَرق بينهما في استحقاقه.

وقوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي يكون بقوله الحق وهو:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة؛ لأنه واحد، والوَلَدُ بعضُ والده.

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التبني لأحدٍ لَعَدَم الجنسية بينهما.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا...﴾ إذا أراد إحداثَ شيءٍ خَلَقَه بقدرته، وخاطَبَه بأمر التكوين، ولا يتعصَّى عليه ـ في التحقيق ـ مقدور.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي أمرني بأن تعلموا ذلك؛ وأمرني بتبليغ رسالتي، واتباع ما شَرَعَ اللَّهُ من العبادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فَمَنْ عُجِنَتْ بماءِ السعادةِ طينتُه أطَاعَ في عاجله وما ضاع في آجله، ومَنْ أقْصَتْه القِسْمة السابقة لم تُدْنِه الخِدْمَةُ اللاحقة، وسَيَلْقَوْنَ غِبَّ هذا الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

تصير معارفهم ضروريةً، وأحوالُهم كلُّها معكوسةً، والحُجَّة تتأكَّد عليهم، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم، والرحمةُ لا تتعلَّق بهم، فلا تُرْحَم شكاتُهم، ولا يُسْمَعُ نِداؤُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

تقوم الساعةُ بغتةً، وتصادفهم القيامةُ وهم غيرُ مستعدين لها فيتحسَّرون على ما فاتهم.

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سَبَقَتْ لقوم الشقاوةُ ـ وهم في محو العَدَم، ولآخرين السعادة ـ وهم بنعت العدم، ولم يكن من أُولئك جُرْم بَعْدُ، ولا مِنْ هؤلاء وِفَاقٌ بعدُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

يريد به إذا قَبَضَ أرواحَ بني آدم بجملتهم، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ، وليس يريد به استحداث مُلْكِه، وهو اليومَ مالِكُ الأرض ومَنْ عليها، ومالكُ الكونِ وما فيه.

ويقال إن زكريا قال ـ لمَّا سأل الولد: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] وقال تعالى في صفة بني إسرائيل: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولما انتهى إلى هذه الأمة قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾.. فشتان بين مَنْ وارِثُه الوَلَدُ وبين مَنْ وارِثُه الأَحَدُ!

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وارثَه.. وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

فإنْ يكُ عتَّابٌ مضى لسبيله ... فما مات من يبقى له مِثْلُ خالدِ

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٨] لماذا؟ لِأَنَّ وارثَهم اللَّهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

الصِدِّيق الكثير الصدق، الذي لا يمازج صِدْقَه شوبٌ.

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله.

ويقال الصِدِّيق لا يناقِضُ سِرُّهُ عَلَنَه.

ويقال هو الذي لا يشهد غيرَ الله مُثْبِتاً ولا نافياً.

ويقال هو المستجيب لِمَا يُطَالَب به جملةً وتفصيلاً.

ويقال هو الواقفُ مع اللَّهِ في عموم الأوقات على حدِّ الصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

دلَّت الآيةُ على استحقاقِ المعبودِ الوصفَ بالسمع والبصرِ على الكمال دون نُقْصانٍ فيه، وكذلك القول في القدرةِ على الضَّرِّ والنفع.

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عَلِمَ أن كلَّ الخَلْق لا تَصْلُحُ قدرةُ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث، فمن عَلَّقَ قلبه بمخلوق، أو تَوَهَّمَ شظية منه من النفي والإثبات فَقَدْ ضَاهَى عَبَدَةَ الأصنام.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

أَمَرَه باتباعه لمَّا ترجح عليه جانبُه في كَوْنِ الحقِّ معه ـ وإنْ كان أكبرَ منه سِنًّا، وبيَّن أن الخلاص في اتباع أهل الحقِّ، وأنَّ الهلاكَ في الابتداع والتطوع في مغاليط الطرق.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾.

بيَّن أَنَّ العلةَ في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فَبانَ أنه لا ينبغي أَنْ تكون طاعةٌ لِمَنْ يَعْصِي اللَّهَ بحالٍ.

ويقال أساسُ الدِّين هِجْرانُ أَربابِ العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾.

لم يغادِرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه، ولم ينفعه جميل وعظه، ولم تنجع فيه كثرةُ نُصْحه؛ فإنَّ مَنْ أَقْصَتْه سوابقُ التقدير لم تُخَلِّصْه لواحقُ التدبير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ﴾.

منَّاه إبراهيمُ بجميل العُقْبَى، فقابلَه بتوعدُّ العقوبة فقال:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾.

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال:

﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه، إذ كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء في شأنه، فلمَّا تحقق أنه مختومٌ له بالشقاوة قال له:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾.

﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾: أي ما تعبدون، ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾: أي أعبده.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

لما أَيِسَ من أَصلِه آنَسَه اللَّهُ بما أكرمه من نَسْلِه، فأنبتهم نباتاً حسناً، ورزقهم النبوةَ، ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام فقال:

﴿ووَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

مُخْلَصاً خالصاً لله، ولم يكن لغيره بوجهٍ؛ فلم تأخذه في الله لومةُ لائم، ولم يستفزه طمع نحو إيثار حظٍ، ولم يُغْضِ في اللّهِ على شيءٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾.

للنجوى مزية على النداء، فجمع له الوصفَيْن: النداءَ في بدايته، والسماعَ والنجوى في نهايته؛ فوقَّفَه الحقُّ وناداه، وفي جميع الحالين تولّاه.

﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفِداء. وصدق الوعد لأنه حفظ العهد. وكان يأمر أهله بالصلاة ـ بأمر الله إياه ـ وبالزكاة، ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حيثما وكيفما كان.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وكان هذا أشرفَ خِصاله وأجلَّ صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

الصِّدِّيق كثير الصدق، لا يشوب صدقه مَذْقٌ(٢)، ويكون قائماً بالحقِّ للحق، ولا يكون فيه نَفَسٌ لغير الله.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: درجة عظيمة في التربية لم يُساوِه فيها أَحَدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

أقامهم بشواهد الجمع، وأخبر أن مِنَّته كامِنَةٌ في تخصيصهم بأحوالهم، وتأهيلهم لِمَا رقَّاهم إليه من المآل، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم. ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقَّةُ قلوبِهم؛ فهم إذا تُتْلَى عليهم الآياتُ سجدوا، وسجودُ ظواهرِهم يدل

---

(١) الطُّور: جبل قرب أيلة يُضاف إلى سيناء أو سينين، وهو الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ربّه.

(٢) المذق: المزج والخلط، والمماذقة في الودّ: ضد المخالصة، ومذق الود: لم يخلصه. (اللسان ١٠/ ٣٤٠ مادة: مذق).

على سجودِ سرائرهم بما حقَّقَ لهم من شواهد الجمع، وأمارة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية، وبنعَت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

الذين حادوا عن طريقهم، وضيعُّوا حقَّ الشرع، وتخطوا واجبَ الأمر، وزاغوا عن طريق الرشد، وأخلوا بآداب الشرع، وانخرطوا في سِلْكِ متابعة الشهوات ـ سيلقون عن قريبِ ما يستوجبونه، ويُعَامَلُون بما يستحقونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾.

فأولئك الذين تداركتهم الرحمةُ الأزليةُ، وسيبقون في النعم السرمدية. يستنجز الحقُّ لهم عِدَاتِهم، ويُوَصِّلُهم إلى درجاتِهم، ويُحَقِّق لهم ما وعدهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا﴾: لأن ما أُتِيتَه فقد أتاك أو ما أَتَاكَ فقد أتيته.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾: فإن أسماعَهم مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ، لا يسمعون إلا من اللّهِ وبالله، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾.

كانوا يعدون مَنْ عنده طعام البكرة والعشية مِنْ جملة المياسيرِ والأغنياءِ لكونهم فقراءَ؛ إنْ وجدوا غَداءَهم ففي الغالب يَعْدِمُون عشاءَهم، وإنْ وجدوا عشاءَهم فَقَلَّما كانوا يجدون غداءَهم. ويقال في: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ فيها﴾ [النحل: ٥٧]: بمقدار الغدو والعشي من الزمان في الجنة أي كالوقت. ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة؛ فللأشباحِ رِزقٌ من مطعوم ومشروب، وللأرواحِ رزقٌ من سماعٍ وشهود، ولكلٍ ـ على قَدْرِ استحقاقه ـ قِسْطٌ معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

فالجنة للأتقياء من هذه الأمة مُعَدّةٌ له، والرحمةُ لُعصاةِ المسلمين مُدَّخرةٌ لهم، الجنةُ لُطْفٌ من الله تعالى، والرحمةُ وَصْفٌ لله تعالى. وقوله: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾: فَعَبْدُه على الخصوصية مَنْ كان اليومَ في قيد أمره. وقوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: قوم يتقون المعاصي والمخالفات، وقوم يتقون الشهواتِ، وآخرون يتقون الغفلاتِ، وآخرون يتقون شهود كُلِّ غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

إن الملائكةَ ـ عليهم السلام ـ أبداً يَنزِلون بإذنِ الحقّ تعالى، فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. واللَّهُ ـ سبحانه ـ لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفظٍ وإنعام، أو إمهالٍ ونكَال...

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربَّها، ويكون مالكَها، ويكون قادراً عليها.

وإذا وجدت فهو فاعلها، فمعنى كون فعل الشيء لفاعله أنه في مقدوره وجوده.

ويقال إذا كان ربَّ الأكابرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء، وقيمةُ العَبْدِ بمالِكِه وقَدْرِه، لا بثمنه في نَفْسِه وَخطَره.

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي قِفْ حيثما أمرك، ودَعْ ما يقع لك، وخَلِّ رأيك وتدبيرك.

قوله: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الاصطبار غاية الصبر.

قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: أي كفواً ونظيراً. ويقال هل تعرف أحداً يسمى «الله» غيرَ اللَّهِ؟ ويقال أنّي بالنظير... وهو بالقِدَم متوحد! والتشبيه يقتضي التسوية بين المتشابهين، ولا مِثْلَ له... لا موجوداً ولا موهوماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.

أنكروا حديثَ البعثِ غاية الإنكار، فأقام الحجة عليهم بالنشأة الأولى؛ فقال: إن الذي قدر على خَلْقِ في الابتداء وهم نُطَفٌ ضعفاء، وقَبْلُ كانوا في أصلابِ الآباءِ وأرحام الأمهاتِ فَفَطَرَهمْ، وعلى ما شاءَ صَوَّرَهم، وفي الوقت الذي أراد ـ عن بطون أمهاتهم أَخْرَجَهُم.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فيه دليل على صحة أهل البصائر أَنّ المعدومَ لم يك شيئاً في حال عَدَمِه.

ويقال أبطل لهم كلَّ دعوى حيث ذَكَّرَهم نَسبَهم وكَوْنَهم مِنَ العَدَمِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

نحشرهم جميعاً فيجتمعون في العَرْصَةِ[١]. ثم يختلف مُنقَلَبُهم؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكاتٍ بعضها أسفل من بعض ـ واسمُ جهنم يجمع أماكنهم. ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هي دَرَجاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض ـ واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم.

ويقال التفاوتُ في الجنةِ بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

مَنْ تَقدَّمَ عليهم في الإضلال والضلال ضوعف عليه غداً العذاب والأغلال.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾.

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها، فمن كان عتوُه اليومَ أشدَّ غلوا كان في النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

كلٌّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضيْرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (. . .)[٢] والزلل؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً. وقوم يردونها ـ كما في الخبر: «إن للنار عند مرورهم عليها إذوابة[٣] كإذوابةِ اللَّبَن، فيدخلونها ولا يحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أو ليس وعدنا جهنم على طريق؟ فيقال لهم. عبرتم وما شعرتم»!.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

يُنَجِّي مَنْ كان مؤمناً، بعضهم قَبْلَ بعض، وبعضهم بَعْدَ بعض، ولكن لا يبقى من المؤمنين مَنْ لا ينجيهم. ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء، وتُطْبقُ عليهم أبوابُ جهنم، وينقطع منهم الرجاء والأمل.

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم؛ فزيادة التقوى توجِب لهم التعجيل في النجاة؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ، ومن منقطع، ومن محترق. . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

---

(١) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراص.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الإذوابة: الزُّبْد يُذاب في البُرمة ليُطبخ سمناً، فلا يزال ذلك اسمه حتى يُحقن في الشقاء. (اللسان ١/ ٣٩٧ مادة: ذوب).

يعني إذا قُرِئَتْ عليهم آياتُ القرآن قابلوها بالردِّ والجحد والعتو والزيغ، ويَدَّعُون أنهم على حقٍ، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحَدْسِ والظَّنِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

أي إن هؤلاء ينخرطون في سِلْكِ مَنْ تَقَدَّمهم، كما سلكوا في الريب منهاجهم، وسَيَلْقَوْن ما يستوجبونه على سوء أعمالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

إن الله تعالى يُمْهِلُ الكفارَ ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم، ويَغْتَرُّوا بسلامةِ أحوالهم، فينسونه في غفلة الإمهال والاغترار بسلامة أحوالهم، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب حسبانهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ...﴾ أي يحل بهم موعودُ العقوبة عاجلاً أو قيام الساعة آجلاً، فعند ذلك يتضح لهم ما تعامَوْا عنه من شدة الانتقام، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾.

أي يُغْنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس، فإذا مَتَعَ نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص.

ويقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: التي تبقى عند الله مقبولة.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ لأن في استحقاقِ القبول زيادةً للهدى؛ فيصير عِلْمُ اليقين عينَ اليقين، وعينُ يقينهم حَقَّ اليقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

أَخْبِرْ بقصة ذلك الكافر الذي قال بيمين ـ من غير حجة ـ لأُعْطَيَنَّ مالاً وولداً، ورأى أن يكون ليمينه تصديق، فهل هو:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

هل يقول ما يقول بتعريفٍ منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك.

ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً، أو أَمَّلَ منه

أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له، ويَصْدُقُ ظَنُّه لأنه على عهد مع الله تعالى، والله تعالى لا يخلف عهده.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

كلا... ليس الأمر على ما يقول، وليس لقولهم تحقيق، بل سنمد لهم من العذاب مداً أي سنطيل في العذاب مدتهم.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ...﴾ لن نُمَتِّعَه بأولاده وَحَشمِه وخَدَمِهِ وقَوْمه، ويعود إلينا منفرداً عنهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

حكموا بظنهم الفاسدِ أنَّ أصنامَهم تمنعهم، وأَنَّ ما عبدوه من دون الله تعالى توجِبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلةً... وهيهات! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق، بل إذا حُشِرُوا وحُشِرَتْ أصنامُهم تَبرَّأَتْ أصنامُهم منهم، وما أَمَّلُوا نفعاً منها عاد ضرراً عليهم.

ويقال طلبوا العِزَّ في أماكن الذل، فأخفقوا في الطلب، ونُفُوا عن المراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

تؤزهم أي تزعجهم، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة، وخاطر الحقِّ يكون بَروحٍ وسكينة، وهذه إحدى الدلائل بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

الأنفاس في الحكْم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها. وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

قيل ركباناً على نجائب طاعاتهم، وهم مختلفون؛ فَمِنْ راكبٍ على صدور طاعاته، ومن راكبٍ على مراكب هِمَمِه، ومن راكبٍ على نجائب أنواره. ومِنْ محمولٍ يحمله الحقُّ في عقباه كما يحمله اليومَ في دنياه. وليس محمولُ الحقِّ كمحمول الخَلْق!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذُّلِّ، فيجمعهم في السَّوْقِ، ولكن يُغَابر بينهم في معانيه... فشتَّان ما هما!!

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وذلك العهدُ حِفظُهم في دنياهم ما أُخِذَ عليهم ـ يومَ الميثاق ـ من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

ما أعظمَ بهتانَهم في مقالتهم! وما أشدَّ جرأتَهم في قبيح حالتهم! لكنَّ الصمديةَ متقدِّسةٌ عن عائدٍ يعود إليها من زَيْنٍ بتوحيدِ مُوَحِّد، أو شَيْنٍ بإلحاد مُلْحِد... فما شاهت إلَّا وجوهُهم بما خاضوا فيه من مقالهم، وما صاروا إليه من ضلالهم. كما لم يَتَجمَّلْ بما قاله الآخرون إلا القائل، وما عاد إلا القائل مقابلٌ من عاجلٍ أو آجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

أنَّى بالولد وهو واحد؟! وأنَّى بالولادة ولا جنسَ له وجوباً ولا جوازاً؟!

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ...﴾: لا يَعْزُب عن عِلْمِه معلومٌ، ولا ينفكُّ عن قدرته ـ مما يصح أن يقال حدوثه ـ موهوم.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾: لا خَدَمَ يصحبهم، ولا حَشَمَ يلحقهم، كلٌّ بِنَفْسِهِ مشتغِلٌ، وعن غيره منفرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه»[(١)].

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً في قلوب عباده، وفي قلوب الملائكة، فأهل الخير والطاعة محبوبون مِنْ كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

الكلام واحد والخطاب واحد، وهو لقوم تيسير، ولآخرين تخويف وتحذير. فطوبى لِمَنْ يُسِّر لما وفِّق به، والويل لمن خُوِّف بل خُذِلَ فيه. والقومُ بين موفقٍ ومَخْذُولٍ.

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣، ٩/ ٦١٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك ـ لما شاء ـ أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وسَيُطَالبونَ ـ يومَ النشْور[1] ـ بالنقير والقطمير.

(١) يوم النشور: يوم القيامة.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَحقَّق بجلال عِزَّته تمحض في خلوصِ عبوديته، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سيماء نعوته.

اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُه، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طِلْبَتُه.

اسم مَنْ عَرَفَهَ زال كَرْبهُ وطابَ قلبُه؛ دِينُه ربُّه وجنَّتُه حُبُّه.

اسم عزيز من وَسَمه بعبوديته حَرَّرَه من رِقِّ شهواته، وأعتقه من أَسْرِ مَطَالِبه؛ فلا له لمحبوبٍ طلبٌ، ولا يستفزُّه لمحذورٍ هربٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

الطاء إشارة إلى قلبه ـ عليه السلام ـ من غير الله، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

وقيل طَأْ بِسرِّكَ بساط القربة فأنتَ لا تهتدي إلى غيرنا.

ويقال طوينا عن سرِّك ذِكْرَ غيرنا، وهديناك إلينا.

ويقال طوبى لمن اهتدى بك. ويقال طاب عيشُ مَنْ اهتدى بك.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾: أي ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك، وإنما هذا استفتاحُ الوُصلة، والتمهيد لبساط القُرْبَةِ.

ويقال إنه لما قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وقف بِفَرْدِ قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجهٍ فقيل له: طأ الأرض بقدميك... لِمَ كل هذا التعب الذي تتحمله؟ فزاد في تعبده، ووقف، حتى تقدمت قدماه وقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١] أي لما أهلني من التوفيق حتى أعبده.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ٦٣، ٦/ ١٦٩، ٨/ ١٢٤)، ومسلم في (الصحيح صفات المنافقين ٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذي في (السنن ٤١٢)، والنسائي في (السنن ٣/ ٢١٩)، وابن ماجه في (السنن ١٤١٩ ـ ١٤٢٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٥١، ٢٥٥، ٦/ ١١٥) والبيهقي في=

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فالقرآنُ تَبْصِرةٌ لذوي العقول، تذكرة لذوي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحةَ النَّفْسِ في آجِلِهم، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنْسِ في عاجِلهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾.

جَعَلَ الأرض قراراً لِعبادِه. ونفوسُ العابدين أرضٌ وقرارٌ لطاعتهم، وقلوبُ العارفين قرارٌ لمعارفهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

استواء عَرْشِه في السماءِ معلوم، وعَرْشه في الأرض قلوبُ أهل التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وعرش القلوب: قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]. أمَّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى، وعرشُ القلوبِ الرحمنُ عليه استولى. عرشُ السماءِ قِبْلَةُ دعاءِ الخَلْق، وعرشُ القلبِ مَحَلُّ نَظَرِ الحق... فشتَّان بين عرشٍ وعرش!

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾.

له الأشياء على العموم مِلْكاً، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً. له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العَدَم؛ فالكلُّ له إثباتاً وخَلْقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

النَّفْسُ لا تقف على ما في القلب، والقلبُ لا يقف على أسرار الرُّوح، والروح لا

= (السنن الكبرى ٢/ ٤٩٧، ٣/ ١٦، ٧/ ٣٩)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٧١، ١١٨) وابن خزيمة في (الصحيح ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢/ ٢٧١)، وابن حجر في (المطالب العالية ٥٢٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢٦، ٢/ ٣٧٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٢٥٠، ٨/ ٢٨٩)، (البغوي ٤/ ١٧٤، ٧/ ٣٨٧)، والساعاتي في (بدائع المنن ٣١٦، ٣١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥٨٤، ٩/ ١٠٥، ١١/ ٣٠٣)، والبغوي في (شرح السنة ٤/ ٤٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٢٢٠) وصاحب (ميزان الاعتدال ٤٧٣١)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ١٦١، ٢/ ٣١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٨٥، ١٨٦، ٧/ ٧٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٧٨ ـ ٨٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٣٣١، ٧/ ١٩٧، ٢٦٥، ١٤/ ١٠١ ـ ٣٠٦) والقاضي عياض في (الشفا ١/ ٤٦٥، ٢/ ٢٥١، ٣٩١، ٩/ ٤٧ ـ ٥٩)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ١٧، ٩٢)، وابن المبارك في (الزهد ٣٦)، (مناهل الصفا ٢٦)، والترمذي في (الشمائل ١٤٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١١، ٦/ ٧٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وابن عبد البر في (التمهيد ٦/ ٢٢٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٣٢).

سبيل له إلى حقائق السرّ. والذي هو أخفى من السِّرّ فهو ما لا يَطَّلِعُ عليه إلا الحق[١].

ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه المَلَكَانِ، ويستأثِرُ بعِلْمه الجبَّارُ، ولا تقف عليه الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

نَفَى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شيءٌ منه صالحاً للإبداع، وأثبت كُلَّ ما في الوجود له باستحقاق القِدَم.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي صفاته، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى.

ويقال ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: تعريفٌ للخَلْق بأنَّ استحقاقَ العلو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرُّد به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾.

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات. وأجرى ـ تعالى ـ سُنَّتَه في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا ﷺ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾.

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى، وقال لأهلِه:

﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فقال أهلُه: كيف تتركنا والوادي مسبع؟

فقال: لأَجْلِكُم أفارقكم؛ فلَعَلِّي آتيكم من هذه النار بقبس.

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ، فلم يتمالك حتى خرج. ففي القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها، فجمع موسى ـ عليه السلام ـ حشائشَ ليأخذ من تلك النار، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُها بأَنْ تُعْطِي إلى أحدٍ شعلة:

وقُلْنَ لنا نحن الأهِلَّةُ إنما   نضيءُ لِمَنْ يَسْري بليلٍ ولا نُقْرِي

يا موسى هذه النارُ تضيءُ ولكن لا تعطي لأحدٍ منها شعلة. يا موسى هذه النارُ تحرق القلوبَ لا النفوس.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن السر: السر ما لك عليه إشراف، وسرّ السير ما لا إطلاع عليه لغير الحق. (الرسالة القشيرية ص٨٨).

ويقال كان موسى عليه السلام في مزاولة قَبسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً، فبينما هو في حالته إذ سمع النداءَ من الحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

علم موسى أنه كلام الحق ـ سبحانه ـ لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيبَ والتنظيمَ والتركيب، فعَلِمَ أنه خطاب الحق.

ويقال إنما عرف موسى ـ عليه السلام ـ أنه كلامُ الله بتعريفٍ خصَّه الحق ـ سبحانه ـ به من حيث الإلهام دون نوع من الاستدلال.

قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ...﴾ فإنَ بِساطَ حضرةِ الملوكِ لا يُوطأُ بنَعْلٍ.

ويقال ألقِ عصاك يا موسى، واخلع نعليك، وأَقِمْ عندنا هذه الليلةَ ولا تَبْرَحْ.

ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد.

ويقال: ﴿اخلع نعليك﴾: تَبَرَّأْ عن نَوْعَيْ أفعالك، وامْحُ عن الشهود جنْسَيْ أحوالِك من قربٍ وبُعْدٍ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ، وارتياح واجتياح، وفناء وبقاء... وكُنْ بوصفنا؛ فإنما أنت بحقنا.

أَثْبَتَه في أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته، المُصْطَلَم عن شواهده.

قوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي إنك بالوادي المقدس عن الأعلال؛ وساحاتُ الصمدية تَجِلُّ عن كل شيْن، وإيمانٍ وزَيْن؛ عن زَيْنٍ بإحسان وشَيْنٍ بعصيان؛ لأنَّ للربوبية سَطَعَاتِ عِزٍّ تقهر كل شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

وعلى علمٍ مني بك اصطفيتكُ، وجَرَّدْتُكَ ونقيتك عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يُكَدِّرُ صَفْوَك.

ويقال بعدما اخترتُك فأنت لي وبي، وأنت محو في فنائك عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾.

تقدَّستُ عن الأعلال في أزلي، وتنزهت (.....)[1] والأشكال باستحقاقي لجلالي وجمالي.

ويقال: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: الأغيار في وجودي فَقْدٌ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ حَقّي محوٌ.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾: أي تَذَلَّلْ لِحُكْمي، وأنفِذْ أمري، واخضعْ لجبروتِ سلطاني.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

إقامتُها من غير ملاحظة مُجْرِيها ومنْشِيها يُورِثُ الإعجاب. وإذا أقام العبدُ صلاتَه على نعت الشهود والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة، والوقوف على محل النجوى، والتحقق بخصائص القرب والزلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

الفائدة في تعريف العِباد بِقُرْبِ الساعةِ أن يستفيقوا من غفلات التفرقة، فإذا حضروا بقلوبهم ـ ففي حال استدامة الذكر ـ فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في العاجل؛ والحاضرة لهم كالآخرة. وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

إذا أكرمه اللَّهُ بحُسْنِ التنبيه، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطوحهم في أودية التفرقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

كرَّرَ عليه السؤالَ في غير آية من عصاه لمَّا كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة.

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هيبةُ المقام عند فَجْأةِ سماعِ الخطاب؛ فَلِيُسَكِّنَ بعضَ ما به من بَوَادِهِ[1] الإجلال... رَدَّهُ إلى سماعِ حديث العصا، وأراه ما فيها من الآيات.

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لعلَّه كان لا يعي ولا يطيق ذلك... فقال له: وما تلك بيمينك يا موسى؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

قال هي عصاي، وأخذ يُعدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

فإنَّك بنعت التوحيد، واقفٌ على بساط التفريد، ومتى يصحُّ ذلك، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لَكَ معتمدٌ تتوكأ عليه، ومستند عليه تستعين، وبه تنتفع؟

---

(١) البواده: ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص٧٨).

ثم قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: أَوّلُ قَدَم في الطريق تَرْكُ كلّ سَبَب، والتّنَقّي عن كل طَلَب؛ فكيف كان يَسْلَمُ له أن يقول: أَفْعَلُ بها، وأمتنع، ولي فيها مآرب أخرى.

ويقال ما ازداد موسى ـ عليه السلام ـ تفصيلاً في انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأَوْلى بأن يؤمن بإلقائها، والتنقي عن الانتفاع بها على موجب التفرُّد لله.

ويقال التوحيد التجريد، وعلامةُ صحته سقوط الإضافات[1] بأسْرِها؛ فلا جَرَمَ لما ذكر موسى ـ عليه السلام ـ ذلك أُمِرَ بإلقائها فجعلها اللَّهُ حَيَّةً تسعى، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقِّب. وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة؛ إذا كوشِفَ صاحبُها بِسِرِّها يهرب منها.

ويقال لَمَّا باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب، فأجاب عما يُسْأَل وعمَّا لم يُسْأَل فقال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، وذَكَرَ وجوها من الانتفاع؛ منها أنه قال تؤنسني في حال وحدتي، وتضيءُ لي الليلَ إذا أظلم، وتحملني إذ عَيِيتُ في الطريق فأركبُها، وأَهُشُّ به على غنمي، وتدفع عني عَدُوّي. وأعظم مأربٍ لي فيها أَنَّكَ قُلْتَ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ؟﴾ وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظَمَ مِنْ أَنْ تقولَ لي: وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ ـ بعد ما عدَّد موسى وجوَه الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها ـ ولَكَ يا موسى فيها أشياءُ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ.

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله... فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه، ولهذا قالوا:

يا جنّة الخُلْدِ، والهدايا إذا ... تُهدَى إليك فما مِنْكِ يُهْدَى

ويقال قال موسى لها رآها حيةً تهتز: لقد عَلِمْتُ كلَّ وصفٍ بهذه العصا، أَمَّا هذه الواحدة فلم أعرفها.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

لا عِبْرةَ بما يوهِمُ ظاهرُ الأشياء؛ فقد يُوهِمُ الظاهرُ بشيءٍ ثم يبدو خِلافُه في المستقبل؛ فعصا موسى صارت حيةً.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التوحيد: التوحيد إسقاط الياءات، فلا تقل: لي وبي ومني وإليّ. (الرسالة القشيرية ص٣٠٢).

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آيةً ومعجزةً لا بلاءً وفتنةً.

قوله: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . .﴾ أشهَدَه ـ بانقلاب العصا من حالٍ إلى حال؛ مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى ـ أنَّه يُثَبِّتُ عِبادَه في حال التلوين[١] مرةً ومرةً؛ فَمِنْ أَخْذٍ ومِنْ رَدٍّ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

كما أراه آيةً من خارج أراه آيةً من نَفْسِه، وهي قلْبُ يَدِه بيضاءَ؛ إذْ جَعَلَها في جيبه من غير البَرَص[٢]. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وإنما قال: أَدْخِلْ يَدَكَ في جيبِك ولم يقل كُمِّك لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللِّباس كُمَّان.

قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾: الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من الشهود والوجود، وما لا يكون بتكلُّفِ العبد وتصرُّفِهِ من فنون الأحوال التي يدركها صاحبُها ذوقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

بعدما أسمعه كلامه من غير واسطة، وشَرَّفَ مقامَه، وأَجْزَلَ إكرامَه أَمَرَه بالذهاب ليدعوَ فرعونَ إلى الله ـ مع عِلْمِه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يَعْرِف ـ فشَقَّ على موسى ذهابُه إلى فرعون، وسماعُ جُحدِه منه، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه، ولكنه آثر أَمْرَ محنته على مرادِ نفسه.

ويقال لَمَّا أَمَرَه بالذهاب إلى فرعونَ سأل اللَّهَ أُهبَةَ النَّقْلِ وما به يتمُّ تبليغ ما حمل من الرسالة، ومن ذلك قوله:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التكليفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أداءِ المأمور به.

ويقال إن موسى لما أَخَذَ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . . .﴾ وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة.

(١) التلوين: صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل ويحصل في مربع، فإذا وصل تمكن. (الرسالة القشيرية ص٧٨).

(٢) البرص: بياض يظهر في الجسد لعلة.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾: حتى أُطِيقَ أنْ أَسمعَ كلامَ غيرك بعدما سَمِعْتُ منك. ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾: حتى ينطلقَ بمخاطبة غيرك، وقوِّني حتى أرُدَّ ما أردُ... بِكَ لا بي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾.

سَأَلَ أنْ يَصْحَبَ أخاه معه، ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٣] كان بمفرده، لأن الذهاب إلى الخَلْق يوجِب الوحشةَ؛ فَطَلَبَ من أخيه الصحبة لِيُخَفِّفَ عليه كلفة المشقة.

ويقال إن المحبةَ توجِبُ التجرُّدَ والانفراد وألا يكونَ للغيرِ مع المحبِّ مساغ؛ ففي ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه، ولمَّا كان الذهابُ إلى الميقاتِ لم يكن للغيرِ سبيلٌ إلى صحبته، إذ كان المقصود من ذهابِه أن يكونَ مخصوصاً بحاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[1].

بين أن طَلَبَه مُشاركةَ أخيه له بحقِّ ربه لا بحظِّ نَفْسِه حيث قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أعطيناكَ ما سألتَ، وتناسيت ابتداءَ حالِكَ حين حفظناك في اليمِّ[2] وَنَجَّيْنَا أُمَّكَ من ذلك الغَمِّ، وربَّيْنَاك في حِجْرِ العَدُوِّ... فأين ـ حينذاك ـ كان سؤالُكَ واختيارُكَ ودعاؤُك؟

وأثبتنا في قلب امرأة فرعون شفقتك، وألقينا عليكَ المحبةَ حتى أحبّكَ عدوُّك، وربَّاكَ حتى قَتَلَ بِسَبَبِكَ ما لا يُحْصَى من الولدان، والذي بَدَأَكَ بهذه المِنَنِ هو الذي آتاك سُؤْلَكَ، وحقَّقَ لك مأمولَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾[3].

كان ذلك وحيَ إلهامٍ؛ ألقَى اللَّهُ في قلبها أن تجعله في تابوت، وتلقيه في اليم يعني نهر النيل، فَفَعَلَتْ، فألقاه النهر على الساحل، فَحُمِلَ إلى فرعون. فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ امرأةِ فرعون عليه باشر حبُّه قلبَها، وكذلك وقعت محبتُه في قلبِ فرعون، ولكنها

(١) الآية (٣٢) لم ترد.
(٢) اليم: البحر ذو الماء الملح، أو النهر الكبير ذو الماء العذب.
(٣) الآية (٣٧) لم ترد.

كانت أضعفَ قلباً، فسبقت بقولها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ...﴾ [القصص: ٩]، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾: ربَّاه في حِجْرِ العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان... ولكنْ مِنْ مأمنِه يُؤْتَى الحَذِرُ! وبلاءُ كلِّ أحدٍ كان بَعْدَه إلا بلَاءَ موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في حِجْرِه كان قد أمر بقتل كثير من الولدان، ثم إنه ربَّاه ليكونَ إهلاكُ مُلْكِهِ على يده... لِيُعْلَمَ أَنَّ أسرارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبارُ.

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه ـ ولم يكن. وكان يقال لأُمِّ موسى ظئر[1] موسى ـ ولم تكن؛ فَمِنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة... هكذا الحديث والقصة.

ولقد جاء في القصة أنّ موسى لمَّا وُضِعَ في حِجْر فرعون لَطَمَ وجهه فقال: إنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أَنْ يُقْتَلَ، فقالت امرأتُه: إنه صبيٌّ لا تمييزَ له، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء، وأرادت أن يصدِّق زوجُها قالتَها، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر، فأراد موسى عليه السلام أن يمدَّ يَدَه إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَها إلى النار فأَخَذَ جَمْرةً بيده، وقرَّبها مِنْ فيه فاحترقَ لِسانُه ـ ويقال إنَّ العقدةَ التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق ـ فعند ذلك قالت امرأةُ فرعون: ها قد تبيَّنَ أن هذا لا تمييزَ له؛ فقد أخذ الجمرةَ إلى فيه. وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطْم فرعون.

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أَخْذِ الجمرة وهو صبيٌّ رضيع، ثم احترق لسانه، فعلم الكلُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعَّال لما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

أي أحببتك. ويقال في لفظ الناس: فلانٌ ألقى محبته على فلان أي أَحَبَّه. ويقال: ﴿ألقيت عليك محبة مني﴾: أي طَرَحْتُ في قلوب الناس محبةً لك، فالحقُّ إذا أحبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أحبَّه. ويقال لملاحةٍ في عينيه؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أَحبَّه.

(١) الظِّئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل، الذكر والأنثى في ذلك سواء. والجمع أظؤر وأظآر وظؤور، وظؤار. (اللسان ٤/ ٥١٤ مادة: ظأر).

ويقال: ﴿ألقيت عليك محبةً مني﴾: أي أثْبَتُّ في قلبك محبتي؛ فإن محبةَ العبدِ لله لا تكون إلا بإثباتِ الحق ـ سبحانه ـ ذلك في قلبه، وفي معناه أنشدوا:

إنَّ المحبةَ أَمْرُها عَجَبٌ تُلْقَى عليكَ وما لها سَبَبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾.

أي بمرأىً مني، ويقال لا أُمَكِّن غيري بأَنْ يستَبْعِدَكَ عني.

ويقال أحفظك من كل غَيْرٍ، ومن كلِّ حديثٍ سوى حديثنا. ويقال ما وَكَلْنَا حِفْظَكَ إلى أحدٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾.

البلاء على حَسَبِ قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أمُّ موسى ضعيفةً فَرَدَّ إليها وَلَدَها بعد أيام، وكان يعقوبُ أقوى في حاله فلم يُعِدْ إليه يوسفَ إلا بعد سنين طويلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

أجرى اللَّهُ عليه ما هو في صورةِ كبيرةٍ من قَتْلِ النَّفْسِ بغير حق، ثم بيَّن اللَّهُ أنه لا يضره ذلك، فليست العِبْرةُ فعل العبد في قلَّته وكثرته إنما العِبرةُ بعناية الحقِّ بشأنِ أحدٍ أو عداوته.

ويقال قد لا يموتَ كثيرٌ من الخلْقِ بفنون من العذابِ، وكم من أناس لا يموتون وقد ضُرِبُوا ألوفاً من السياط[١]! وصاحبُ موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزةٍ[٢]! إيش الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنةً لموسى؟ وفي بعض الكتب أنه ـ سبحانه ـ أقام موسى كذا وكذا مقاماً، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر، وفي كل مرة كان يقول له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾: أريناكَ عينَ الجمع حتى زال عنك ما داخَلَكَ من الغمّ بصفة مقتضى التفرقة، فلمَّا أريناكَ سِرَّ جريانِ التقديرِ نجَّيْنَاكَ من الغم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا. ويقال جَنَّسْنَا عليك البلَاءَ ونَوَّعْنَاه حتى جَرَّدْنَاكَ عن كل اختيارٍ وإرادة، ثم حينئذٍ رَقَّيْنَاكَ إلى ما استوجَبْتَه من العِلم الذي أَهَّلْنَاكَ له.

---

(١) السياط: (ج) السوط: الذي يُجلد به. (اللسان ٧/ ٣٢٦ مادة: سوط).

(٢) الوكز: الطعن. وذكره أيضاً: طعنه بجمع كفه. (اللسان ٥/ ٤٣٠ مادة: وكز).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

وكنتَ عند الناس أنك أجيرٌ لشعيب، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك، وكان يكفي ـ عندهم ـ أن تكون خَتَناً[1] لشعيب.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أي عَدَدْنا أيامَ كونك في مدين شعيب، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرَفَكَ ومحبَّتَكَ منتظرين لك؛ فجئتَ على قَدَرٍ.

ويقال إنَّ الأَجَل إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى:

بينما خاطرُ المنى بالتلاقي ... سابحٌ في فؤاده وفؤادي
جمع اللّهُ بيننا فالتقينا ... هكذا بغتةً بلا ميعادِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾.

استخلصتُكَ لي حتى لا تَصْلُحَ لأحدٍ غيري، ولا يَتَأَتَّى شيءٌ منك غير تبليغ رسالتي، وما هو مرادي منك.

ويقال أفردْتُ سِرَّك لي، وجعلْتُ إقبالَكَ عليَّ دون غيري، وحُلْتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دوني.

ويقال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾: قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ، ثم قال له: **﴿اذهب إلى فرعون﴾**.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

تعلَّلَ موسى عليه السلام لمَّا أرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِلَلِ مثل قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [القصص: ١٣]، ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].. إلى غير ذلك من الوجوه، فلم ينفعه ذلك، وقال الله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فاستقل موسى عليه السلام بذلك، وقال: الآن لا أُبالي بعد ما أنت معي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

إنما أمرهما بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين، وفي حال الدعوة يجب اللِّين؛ فإنه وقت المُهلةِ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر؛ قال الله

---

(١) الختن: زوج البنت أو الأخت (الصهر). وفي الحديث: عليّ ختن رسول الله ﷺ أي زوج ابنته. (لسان العرب ١٣/١٣٨ مادة: ختن).

لنبينا ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]: وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا، وكذلك قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ثم إذا ظهر من الخَصمِ التمرُّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابَلُ بالغلظة والحتف.

ويقال علَّمهما خطابَ الأكابرِ ذوي الحشمة؛ ففرعونُ ـ وإن كان كافراً ـ إلا أنه كان سلطانَ وقتهِ، والمتسلِّطَ على عِبادِ الله.

ويقال إذا كان الأمرُ في مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة... فكيف مع المؤمن في السؤال؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال المَلَكين في القبر للمؤمن.

ويقال إذا كان رِفقُه بِمَنْ جَحَدَه فكيف رِفقُه بِمَنْ وَحَدَه؟

ويقال إذا كان رِفقُه بالكفَّارِ فكيف رفقُه بالأبرار؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال: أنا... فكيف رفقه بمن قال: أنت؟

ويقال إنه أَحْسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام؛ فأراده أن يرفق به اليومَ في الدنيا على جهة المكافأة.

وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨].

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أي كُونَا على رجاء أن يُؤْمِنَ. ولم يحبرهما أنه لا يؤمن لئلا تتداخَلَهُما فَتْرةٌ في تبليغ الرسالة عِلْماً منه بأنه لا يؤمن ولا يقبل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

في الآية دليلٌ على أنَّ الخوفَ[1] الذي تقتضيه جَبْلَةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبُه عليه، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾.

ثم إنَّه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما.

ويقال لم يخافا على نَفَسَيْهِما شفقةً عليهما، ولكن قالا: إننا نخاف أن تحل بنا مكيدةٌ من جهته، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقّ الله لا لأَجْل حظوظ أنفسهما.

ويقال لم يخافا من فرعون، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما، ولكنهما تأدَّبا في الخطاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الخوف برسالته ص١٢٤ ـ ١٣١.

تَلَطَّفَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه، وهو قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بقولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ وإلا فأنّي بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بالنبُوَّةِ؟!

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، فقَويا على الذهاب إليه؛ إذ مِنْ شَرْط التكليف التمكين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

طالَ البلاءُ ببني إسرائيل من جهة فرعون، فتدرَاكَهُم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين، بذلك أجرى سُنَّتَهُ أنه يُرخي عِنَانَ الظالم، ولكن إذا أَخَذَهُ فإِنَّ أَخْذَهُ أليمٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

من شَرْطِ التكليفِ التمكينُ بالبيِّنة والآيةِ للرسولِ حتى يَتَّضِحَ ما يَدُلُّ على صِدْقِه فيما يدعو إليه من النبوة. ثم إن تلك الآية وتلك البيِّنة ما نفعتهم، وإنا تأكدتْ بهما عليهم الحُجَّةُ؛ فإذا عَمِيَ بَصَرُ القلبِ فأنَّى تنفع بصيرةُ الحجة؟ وفي معناه قالوا:

وفي نَظَرِ الصادي إلى الماء حَسْرَةٌ إذا كان ممنوعاً سبيل المواردِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

إنما يَتَّبِع الهُدَى مَنْ كَحَّلَ قلبَه بنور العرفان، فأما من كانت على قلبِه غشاوة الجهل... فمتى يستمع إلى الهُدَى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

ما بعث اللَّهُ نبياً إلَّا وقد أَنْذَرَ قومَه بالعذابِ على تَرْكِ الأمر، وبَشَّرَهُم بالثوابِ على حِفْظِ الأمر. والعذابُ مُعَجَّلٌ ومؤجَّلٌ؛ فمؤجَّلُه لا يُوقَفُ على تفصيله الأعداءُ وكذلك مُؤَجَّل الثوابُ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواع، وعلى حسب مقام المرءِ تَتَوَجَّهُ عليه المُطَالَبَاتُ، والزيادةُ في العقوبةِ تَدُلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرّتْبَةِ؛ كالحرِّ والعَبْدِ في الحَدِّ. وقسوةُ القلبِ نوعُ عقوبة، وما يتداخل الطاعة نوعُ عقوبة، وخسرانُ نصيبٍ في المالِ والأَنْفس نوعُ عقوبة... إلى غير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ على التثنية، ثم قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ فأفرده بالخطاب بعدما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا؟﴾. فيحتمل أن ذلك لمُشَاكَلَة رؤوسِ الآي، ويحتمل أن موسى كان مُقَدَّماً على هارون فَخَصَّه بالنداء.

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فِعْلِه ـ سبحانه فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ليُعْلَم أنَّ الدليلَ على إثباته ـ سبحانه ـ ما دلَّتْ عليه أفعالُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

لا يمكنني أن أُخْبِرَكُم إلا بما أخبرني به ربي فَمَا عَرَّفَني عَرَّفْتُ، وما ستره عليَّ وَقَفْتُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

جَعَلَ الأرضَ مستقراً لأبدانهم، وجعل أبدانَهم مستقراً لعبادته، وقلوبهم مستقراً لمعرفته، وأرواحَهم مستقراً لمحبته، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

هيَّأَ لهم أسبابَ المعيشة، وكما نَظَرَ إليهم وَرَزَقَهُم رزقَ دوابِّهم التي ينتفعون بها، وأَمَرَهُم أنْ يَتقوا بما تَصِلُ إليه أيديهم، وأنْ ينتفِعُوا ـ ما أمكنهم ـ بأَنْعَامِهِم لِيَكْمُلَ لديهم إنعَامُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

إذ خَلَقْنا آدمَ من الترابِ، وإذ أخرَجْناكم من صُلْبه... فقد خَلَقْنَاكم من الترابِ أيضاً. والأجسادُ قوالِبُ والأرواحُ ودائعُ، والقوالب نسبتها التُّربة، والودائع صفتها القُرْبة، فالقوالب يزِّينها بأفضاله، والودائع يحييها بكشف جلاله ولطف جماله. وللقوالب اليوم اعتكافٌ على بِساطِ عبادته، وللودائع اتصافٌ بدوام معرفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

أمره بجهره، وأعماه عن شهود ذلك بِسِره، فما نَجَعَ فيه كلامُهُ، وما انتفعَ بما حذَّره من انتقامه، ويَسَّرَ له من إنعامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

دعاهم موسى إلى الله، وخاطَبَهُم في حديث الآخرة من تبشيرٍ بثواب، وإنذارٍ بعذاب، فلم يُجِيبُوا إلَّا من حيث الدنيا، وما زادهم تذكيراً إلا ازدادوا غفلة وجهالة.

كذلك صفةُ مَنْ وَسَمه الحقُّ بالإبعاد، لم يكن له عرفان، ولا بما يقال إيمان، ولا يتأسَّفُ على ما يفوته، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده.

قوله: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ . . .﴾ تأهَّبوا لِمُناصبةِ الحقيقة؛ وتَشمَّروا للمُخالَفة، فقَصَمْتُهم المشيئةُ؛ وكَبَسَتْهم القدرة، وكما قيل:

استقبلني وسيفُه مسلول وقال لي واحدنا معذول

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

كادَ فرعونَ فَكِيد لَه، وأراد فارتدَّ إليه، ودعا للاستعداد فأُذِلَّ وأُذِيقَ البأسَ. ولم يَدَعْ موسى شيئاً من الوعظ والرِّفْق، ولم يغادِرْ فرعونَ شيئاً من البَلَهِ والحُمْق، ولكن: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

اعلموا أنه لا طاقةَ لأحدٍ مع الله ـ سبحانه ـ إذا عذَّبه، فحملوا مقالتَه على الإفك، ورَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

هما في دعواهما كاذبان يَقْصِدان إلى إخراجكم من بَلَدِكم، والتشويشِ عليكم في مُعْتَقَدِكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾.

أظهروا من أنفسهم التجلُّدَ ظنًّا بأنَّ النصرةَ لهم، وإخلاداً إلى ما كان السَّحَرَةُ يُسَوِّلون لهم، فخيَّروا موسى في الابتداء بناءً على ما توهموا من الإلقاء، فقال لهم موسى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم، وليس ذلك إذْناً لهم في السحر، ولكن أراد الحقُّ إظهارَ تمويههم، فلمَّا خَيَّلوا للناس بإلقاءِ الحِبال أنها حياتٌ ابتلَعَتْ عصا موسى جُمْلَةَ ما صَنَعُوا، وتحقَّقَ السَّحَرة أنَّ ذلك أمرٌ سماويٌّ حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوقار الحِبَال، وصار الثعبانُ عَصاً كما كان، فسجدوا لله مؤمنين، وانقلب فرعونُ وقومُه خائِبين، وتَوَعَّدَهم بالقتل والصَّلْبِ، وفنونٍ من العذابِ الصعب، وبعدما كانوا يقْسِمُون بِعِزَّةِ فرعونَ صاروا يَحْلِفُونَ بالله.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

أي بالله الذي فطرنا إنَّا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءَنا من البينات. ولما طلعت في أسرارهم شموسُ العرفان، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم؛ فنطقوا ببيان التصديق، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء، وتحملوا اللأواء[1]، فكانوا في الغَدَاةِ كُفَّاراً سَحَرَةً، وأَمْسَوْا أَخياراً بَرَرَةً.

قوله: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ...﴾ عَلِمُوا أَنَّ البلاءَ في الدنيا يَنْقَضي ـ وإنْ تمادى، وينتهي وإن تناهى.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

أَهمُّ الأشياء ـ على مَنْ عرَفه ـ مغفرتُه لخطاياه؛ فهذا آدمُ ـ عليه السلام ـ لما استكشف من حاله، وحلَّ به ما حلَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص: ١٦] وقال لنبينا ـ ﷺ ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[2]. ومَنَّ عليه بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3] [الفتح: ٢٠٠].

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

لما عَبَرَ موسى ببني إسرائيل البحر، وقرب منه فرعون، ورأى البحرَ منفلقاً والطريقَ فيه يَبَساً عَيَّرَ قَوْمَه بتلبيسه فقال: «إنه بحشمتي انفلق، فأنا ربُّكم الأعلى!» وحصل ـ كما في القصة ـ من دخوله بعَسْكَرِه البحرَ حتى دخل آخرهم، وهمَّ أن

(١) اللأواء: المشقة والشدة والقحط والعلة. (اللسان ١٥/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٥١٧، ٩/ ٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

(٣) الآيات من ٧٤ حتى ٧٦ لم ترد.

يخرج أوَّلُهم، فأمر اللَّهُ البحرَ حتى التطمت أمواجه فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعون لما ظهر له اليأسُ، ولم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه، وقد أدركته الشقاوةُ التي سَبَقَتْ له من التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾.

يُذكِّرُهم آلاءَه، ويعدُّ عليهم نعماءَه، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لِمَا أسبغ عليهم من فنون النِّعم، ثم يذكرهم ما مَنَّ به على أسلافهم من إنزال المنِّ والسلوى، وضروب المِحَنِ وفنون البلوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾.

الطيبُ ما كان حلالاً. ويقال الطيب من الرزق ما لا يَعْصِي اللَّهَ مُكْتَسِبهُ. ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق. ويقال الطيب من الرزق ما حَصَلَ منه الشكرُ. ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من اللَّهِ؛ فما لأهل الجنةِ مُؤَجَّلٌ في عقباهم جهراً، معجّلٌ لأصفيائه في دنياهم سِرّاً، قال تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ [الذاريات: ١٦].

والأرزاقُ مختلفةٌ؛ فلأقوام حظوظُ النفوس ولآخرين حقوقُ القلوب، ولأقوام شهودُ الأسرار؛ فرزق النفوس التوفيق، ورزق القلوب التصديق، ورزق الأرواح التحقيق.

قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾: بمجاوزة الحلالِ إلى الحرام.

ويقال: **﴿لا تطغوا فيه﴾**: بالزيادة على الكفاف[1] وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق.

ويقال: **﴿لا تطغوا فيه﴾**: بالأكل على الغفلة والنسيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾.

فيحل عليكم غضبي بالخذلانِ لمتابعة الزَّلَّة بعد الزَّلَّة.

ويقال فيحل عليكم غضبي لِفَقْدِكم التأسُّفَ على ما فاتكم.

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

الغفَّار كثيرُ المغفرة؛ فَمِنْك التوبةُ عن زَلَّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرة لذنوبٍ كثيرةٍ،

---

(١) الكفاف: من القوت: الذي على قدر نفقه لا فضل فيها ولا نقص. (اللسان ٩/٣٠٦).

ومنه السِّرِّيةُ التي لا اطلاع لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع. وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ، وهو يغفر لِمنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة، وكما قالوا:

إني - على جَفَواتها - فبِرَبِّها ... وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ
وأُحِبُّها وأُحِبُّ منزلَها الذي ... نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾: فلا تَصِحُّ التوبةُ إلا لمن يكون مؤمناً.

وقوله هنا: ﴿وَءَامَنَ﴾: أي آمن في المآلِ كما هو مؤمِنٌ في الحال.

ويقال آمن بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته، إنما نجاتُه برحمته.

ويقال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾: مِنَ الزَّلَّة ﴿وَءَامَنَ﴾: فلم يَرَ أعماله من نَفْسه، وآمن بأن جميع الحوادثِ من الحقِّ - سبحانه - ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: فلم يُخِلَّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنَّةِ والجماعة.

ويقال ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي؛ أي آمن في الحال «ثم» اهتدى في المآل.

ويقال مَنْ سَمِعَ منه ﴿وَإِنِّي﴾ لا يقول بعد ذلك: «إنِّي».

ويقال من شَغَلَه سماعُ قوله: ﴿وَإِنِّي﴾ اسْتُهْلِكَ في استيلاءِ ما غَلَبَ عليه من ضياء القربة، فإذا جاءت ﴿لَغَفَّارٌ﴾ صار فيه بعين المحو، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعتني بشأنه.

ويقال ﴿إني لغفار﴾ كثير المغفرة لمن تاب مرةً؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لم يَتُبْ منها سِرِّها وجَهْرِها، صغيرِها وكبيرِها، وما يتذكر منها وما لا يتذكر. ولا ينبغي أَنْ يقولَ: علمت «عملاً صالحاً»: بل يلاحظُ عَمَلَه بعينِ الاستصغارِ، وحالته بغير الاستقرار.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: أي اهتدى إلينا بنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أَخرَجَهُمْ مع نَفْسِه لمَّا استصحبهم، ثم تقدَّمَهم بخطواتٍ فتأخروا عنه، فقيل له في ذلك مراعاةً لحقِّ صحبتهم.

ويقال قومٌ يُعاتَبون لتأخرهم وآخرون لتقدمهم.. فشتان ما هما!

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

أي عَجِلْتُ إليكَ شوقاً إليك، فاستخرج منه هذا الخطاب، ولولا أنه استنطقه لما أخبر به وموسى.

قوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي ما خَلَّفْتُهم لتضييعي أيامي، ولكني عَجِلْتُ إليك

لترضى. قال: يا موسى إنَّ رضائي في أن تكون مَعهم وألَّا تَسْبِقَهم، فكونُكَ مع الضعفاءِ الذين استصحبتَهم ـ في معاني حصول رضائي ـ أبلغ مِنْ تَقَدُّمِكَ عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْۢ بَعْدِكَ﴾.

فَتَنَّا قومَك فَضَلُّوا وعبدوا العِجْلَ؛ فأخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنَّ ذلك منه تقدير، وفي هذا تكذيبٌ لِمَنْ جَحَدَ القولَ بالقَدَرِ.

ويقال طَلَبَ موسى ـ عليه السلام ـ رِضَاءَ الحق، وقدَّر الحقُّ ـ سبحانه ـ فتنةَ قَوْمِه فقال: **﴿إنا قد فتنا قومك من بعدك﴾**، ثم الحُكْمُ لله، ولم يكن بُدٌّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله ـ فلا اعتراضَ على الله ـ ومِنَ العلم بِحقِّ اللَّهِ في أنْ يفعلَ ما يشاء، وأنشدوا:

أُريــد وِصَــالَــه ويــريــد هــجــري فــأتــركُ مــا أُريــد لــمــا يُــريــد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وهو نوع من التعزير، وحصل ما حصل، وظهر ما ظهر من (...)[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

ورجع نبيُّنا ـ ﷺ ـ من المعراج بنعت البسط، وجاء بالنجوى لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة، وأكرمهم به من القربة بالزلفة.. فشتان ما هما!

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف، وخاطبهم ببيان العتاب: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

ظنوا بنبيِّهم ظنَّ السَّوْءِ في خلفه الوعد، فَلَحِقَهُمْ شؤمُ ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا في العقد.. وكذلك يكون الأمر إذا لم يفِ المرءُ بعقده، فإنه ينخرط في هذا السِّلْكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

قالوا لم نكن في ابتداءِ حالِنا قاصدين إلى ما حَصَلَ مِنَّا، ولا عالمين بما آلَتْ إليه عاقبةُ حالِنَا، وإن الذي حملنا من حُلِيِّ القبط صاغَ السامريُّ منه العجلَ.. وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يخلو من شؤمِ أثره. فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين

---

(١) بياض في الأصل.

حراماً عليهم، فاستعاروا الحليَّ من القبط، وآل إليهم ما كان في أيديهم من الملْكِ، فكان سبب عبادتهم العِجْل.. كذلك مَنْ انهمك في طلب الدنيا من غير وجهِ حلالٍ يكون على خَطَرٍ من رِقَّةِ دِينهِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

يقال إنهم لمَّا مَرُّوا على قوم يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَيْلُهم إلى عبادته مُسْتَكِنّاً في قلوبهم، فصاغ السامريُّ العجل على تلك الصورة. وفي هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنَّت في القلب فَمَا لم يُنقَش ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أن يَلْقَى صاحبهُ (...)[1].

ويقال إن موسى ـ عليه السلام ـ خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِيَ قومهُ بعبادة العجل، ونبيُّنا ـ عليه السلام ـ خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص مِنْ أمته في التوحيدِ حديثاً في التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها مَخْلَصٌ.

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدَّلوه تبديلاً، بينما ضَمَنَ الحقُّ ـ سبحانه ـ إعزازَ هذا الكتاب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا...﴾ بيَّنَ أَنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة، وفيه رَدٌّ على مَنْ لم يُثْبِتْ له في الأَزَلِ القولَ، ولم يَصِفْه بالقدرة على الخير والشر:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الحقِّ.. كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخَ وأكلَ الناس؟ لهذا قيل: لا حُرْمَةَ لفاسق؛ لأنه إذا تَرَكَ حقَّ الحقِّ فمتى يحفظ حَقَّ الخَلْقِ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

كان ذلك تَعَلُّلاً منهم بالباطل، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ غير اللَّهِ.. ولكنْ كلُّ مُتَعلِّلٍ يَسْتَنِدُ إلى ما يحتج به من الباطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

ضاق قلبُ موسى ـ عليه السلام ـ لمَّا شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل. ولقد كان سمع من الله أنَّ السامريّ أظلّهم حين قال: ﴿**إنَّا قد فتنا قومك**﴾ [طه: ٨٥]، ولكن قديماً قيل: ليس الخبر كالعيان، فلمَّا عايَنَ ذلك ضاق قلبهُ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر، وقيل: مَنْ ضاق قلبُه اتسع لسانُه. ولما ظهر لموسى ـ عليه السلام ـ ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة.. وكذلك الواجب في الصحبة لئلا يرتقي الأمرُ إلى الوحشة، فاستلطفه في الخطاب واستعطفه بقوله:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

أنتَ أَمَرْتَني أَلَّا أُفارِقَهم. وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى: في الوقتِ الذي احتجْتَ أنْ تَمْضِيَ إلى فرعون قلتَ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقلت: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾ [القصص: ٣٤]، وقلت حين مضيتَ إلى سماع كلام الحق: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى...﴾ [الأعراف: ١٤٢] فما اكتفيت بأنْ لم تستصحبني. وخلّفْتَني! وقد عَلِمْتَ أني بريءُ الساحةِ مما فعلوا فأخذتَ بلحيتي وبرأسي... ألم ترضَ بما أنا فيه حتى تزيدني حَزَناً على حَزَنٍ؟!... لو قال ذلك لكان مَوْضِعَه، ولكنْ لِحلْمِه، ولِعِلْمِه ـ بأنَّ ذلك كُلَّه حُكْمُ ربِّهم ـ فقد قابَلَ كلَّ شيءٍ بالرضا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾.

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوعٍ آخر، وإن معاتبته مع قومه، ومطالبته لأخيه، وتَغَيُّرَه في نَفْسِه، واستيلاءَ الغضب عليه ـ لم يغيِّرْ التقدير، ولم يُؤَخِّرْ المحكوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ، فَقَبضْتُ الترابَ من موضع حافرِ دابته، وأُلْقِيَ في رَوْعي أن ذلك سببُ حياةِ العجل فطرحتُها في جوفه... هكذا زَيَّنَتْ لي نفسي فاتَّبَعْتُ هواها.

ثم كان هلاكُه. . لئلا يأمَنَ أحدٌ خفي مَكْرِ التقدير، ولا يركنَ إلى ما في الصورة من رِفْقٍ فَلَعَلَّه ـ في الحقيقة ـ يكون مكراً، ولقد أنشدوا:

فأمِنتُه فأتاحَ لي من مأمَني مَكْراً، كذا مَنْ يأمَنُ الأحبابا

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾.

لم يَخْفَ على موسى ـ عليه السلام ـ تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع، فلقد قال في خطابه مع الحق: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولكنه لم يدع ـ مع ذلك ـ بإحلال العقوبةِ بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه؛ ليُعْلَمَ أن الحُكمَ في الإبداع والإيجاد ـ وإنْ كان لله ـ فالمعاتبةُ والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ في مقتضى التكليف، وإجراءُ الحقِّ ما يُجْريه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْراً له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُه الحقُّ ـ سبحانه بمُحِبِّه ولهذا يُلْقي الأصنامَ غداً في النار مع الكفار، وليس له جُرْمٌ، ولا عليها تكليف، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر. . وإنما هي جماداتٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

أي إلهكم الذي تجب عليكم عبادتُه بحقِّ أمره هو اللَّهُ الذي لا إله إلا هو، وهو بوصف الجلال، والذي لا يخفى عليه شيءٌ من المعلومات هو الله، وليس مِثْلَ الذي هو جماد لا يَعْلَمُ ولا يَقْدِرُ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر. ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجماد ويحرقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾.

نعرِّفك أحوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليكَ شيءٌ من طُرُقِهم؛ فتتأدبَ بآدابهم وتجتمعَ فيك مُتَفَرِّقَاتُ مناقِبِهم. . ولكن اعلمْ أنَّا لم نُبلِغْ أحداً مَبْلَغَكَ، ولم يكن لأحدٍ منَّا مالَكَ؛ آتيناك من عندنا شَرَفاً وفخراً لم يشركك فيهما أحدٌ، وذكَّرْناك ما سَلَفَ لَكَ من العهد معنا، وجَدَّدْنا لك بينهم تخصيصنا إياك، وكريمَ إقبالِنا عليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾.

المُعْرِضُون عنه شركاءُ يحملون غداً وِزراً وثِقْلاً، أولئك بعُدُوا عن محلِّ الخصوصية، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق؛ فعقوبتُهم لا تزيد على آلام نفوسِهم وإحراقِ أشباحهم، وأمَّا أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسَوْه لحظةً لدَار ـ في

الحال ـ على رؤوسهم البلاءُ بحيث تتلاشى في جَهنَّم عقوبةُ كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة)[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قومٌ يومُ القيامة لهم مُؤجَّل، وهو بعد النفخ في الصُّور على ما وَرَدَ في الكتاب وفي الخبر المأثور.

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلةٌ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة، وهوانٌ حاضر وعذاب حاصل، فكما تَرِدُ على ظواهرِ قوم في الآخرة عقوباتٌ، تَرِدُ على سرائر آخرين عقوباتٌ في الحياة الحاضرة، والمعَامَلةُ مع كلِّ أحدٍ تخالف المعاملةَ مع صاحبه.

قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ مَنْ تَفرَّغَ لِعَدِّ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرٌ مستوفٍ في بلائه، وأمره سهلٌ... ومَنْ كان يُرَادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسْأَلُ عن الخبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾.

كما أنَّ في القيامةِ الموعودةِ تُغَيِّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهي كالعِهْن المنفوش[٢] فكذلك في القيامة الموجودة... فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم، ويأخذهم عن أقرانهم... كذا سُنَّتُه سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

تنقطع الأوهام، وتقف الأفهام، وتنخنس العقول، وتندرِس العلومُ، وتتحير المعارفُ، ويتلاشى ما هو نَعتُ الخَلْق، ويستولي سلطانُ الحقيقة.. فعند ذلك لا عينٌ ولا أَثَرٌ، ولا رسم ولا طلل ولا غَبَرٌ، في الحضور خَرَسٌ، وعلى البِساط فَنَاءٌ، وللرسوم امتحاءٌ، وإنما الصحة على الثبات.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. والآية (١٠١) لم ترد.

(٢) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً. (اللسان ١٣/ ٢٩٧ مادة: عهن).

دليلُ الخطابِ أَنَّ مَنْ أَذِنَ له في الشفاعةِ تنفعه الشفاعةُ، وإذا قُبِلَتْ شفاعة أحدٍ بإذن الرحمن فَمِنَ المُحالِ أَلَّا تُقْبَلَ شفاعةُ الرسولِ ـ ﷺ ـ وهو أفضل الكافة، وشفاعةُ الأكابر من صفوته مقبولةٌ في الأصاغر في المُؤجَلِّ وفي المُعَجّل. والحقُّ سبحانه يُشَفِّعُ الشيوخَ في مريديهم اليوم.

ويقال شفاعة الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة، وللعاصين بغفران الزَّلَّة، كذلك شفاعة الشيوخ ـ اليوم ـ للمريدين على قسمين: للذين هم أصحاب السلوك فبزيادة التحقيق والتوفيق، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرّة فبالتجاوز عنهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ قائلهم:

إِذَا مَرِضْتُم أَتَيْنَاكُم نَعودُكُم وتُذْنِبُون فنأتيكم ونعتَذِرُ!

وحكاياتُ السَّلفِ من الشيوخ مع مريديهم في أوقات فترتهم معروفة، وهي مُشَاكِلةٌ لهذه الجملة، وإن شفاعتَهم لا تكون إلا بتعريفٍ من قِبَلِ الله في الباطن، ويكون ذلك أدباً لهم في ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

لا يخفى على الحق شيءٌ مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتيها، ولا يحيطون به عِلماً. والكناية في قوله: «به» يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم، ويحتمل أن يعود إلى الحقِّ ـ سبحانه ـ، وهو طريقة السَّلَف؛ يقولون: يعلم الخلْقَ ولا يحيط به العلم، كما قالوا: إنه يَرَى ولا يُدْرَك.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

ذلَّتْ له الرقاب واستسلم لحُكْمِه الخلْقُ، وخَضَعَت له الجبابرةُ، ومَنْ اقترف الظلمَ بقي في ظُلُماته، وعلى حسب ذلك في الزيادة والنقصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

العمل الصالح ما يصلح للقبول، وفاعِلُه هو المتجرِّدُ عن الآفات الواقفة لحقيقة الأمر.

ويقال العمل الصالح ما لم يستعجل عليه صاحبُه أجراً.

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي في المآل كما هو مؤمن في الحال.

ويقال هو مؤمنٌ مصدِّق لربِّه أنه لا يعطي المؤمنَ لأَجْلِ إيمانه شيئاً، ولكن بفضله، وإيمانُه أمارةٌ لذلك لا موجِبٌ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

أَتْبَعْنا دليلاً بعد دليل، وبعثنا رسولاً بعد رسول، وحَذَّرْناهم بوجوهٍ من التعريفات، وإظهارِ كثيرٍ من الآيات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾.

تعالى اللَّهُ في كبريائه؛ وكبرياؤه: سناؤه وعُلاه ومَجْدُه ورِفْعَتُه وعظَمَتُه، كل ذلك بمعنًى واحد، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم.

و ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾: مبالغةً من المالك، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد، والانفراد بذلك.

و ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾: في وصفه ـ سبحانه ـ بمعنى الموجود، ومنه قوله عليه السلام: «العين حق»[1] أي موجود.

ويكون الحق بمعنى ذي الحقّ، ويكون بمعنى مُحِقّ الحق.. كل ذلك صحيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾.

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافةَ النسيان، فأَمَرَه بالتثبت في التلقين، وأَمَّنَه من طوارِق النسيان، وعرَّفه أن الذي يحفظ عليه ذلك هو الله.

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول، ثم إنْ لم يوجد ما يُوجَبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحقّ اللفظ، بخلاف قول أهل التوقف.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١٧١ ـ ٢١٤)، ومسلم في الصحيح (السلام ٤١، ٤٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ب ٣٦)، والترمذي في (السنن ٢٠٦١)، وأبو داود في السنن (الطب ب١٥)، وابن ماجه في ـ (السنن ٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٨٩، ٣١٩، ٤٢٠، ٤٨٧، ٤/ ٦٧، ٥/ ٣٧٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ٣٥١)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٩٧٧٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٤٣٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٧/ ٤١٧)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٤/ ٧٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٢٠٣ ـ ٢٣٣ ـ ٣٧٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٨/ ٣٤٤)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٢/ ٤١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٢٥٨)، والكمال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ١/ ١٥٤ ـ ١٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٦٥٦، ١٧٦٥٧، ١٧٦٥٨ ـ ١٧٦٦٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٨٣)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٢٠٩، ٨/ ٢٢٨ ـ ٢٣٣)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٩ ـ ٢٥١)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٩١)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٤٨)، والذهبي في (الطب النبوي ١٣٤، ١٣٥) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٥٦٣)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٩٩).

فالآية تشير إلى التثبت في الأمور وضرورة التمكث واللبث قصداً للاحتياط.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: فإذا كان أَعْلَمُ البَشَرِ، وسيِّدُ العرب والعجم، ومَنْ شهد له الحقُّ بخصائص العلم حين قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] يقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ - عُلِمَ أَنَّ ما يخصُّ به الحقُّ أولياءَه من لطائف العلوم لا حَصْرَ له.

ويقال أحاله على نفسه في استزادة العلم. وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ. . .﴾ [الكهف: ٧٨] وبين عبدٍ أَمَرَه عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال: قُلْ يا محمد: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ويقال لما قال عليه السلام: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»(١)، قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ أشرف خِصالِ العبدِ الوقوفُ في محلِّ الافتقار، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في مَعْرِض الدعوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

لم تجد له قوةً بالكمال، وانكماشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمةُ العصيان بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١].

ويقال: ﴿لم نَجِدْ له عزماً﴾: على الإصرار على المخالفة.

ويقال لم نجد له عزماً في القصد على الخلاف، وإنْ كان. . فذلك بمقتضى النسيان، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ على خلاف الأمر، وإنْ كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر.

ويقال شرح قصة آدم - عليه السلام - لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس.

ويقال عاتبه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ ثم أظهر عُذْرَه فقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

---

(١) للحديث رواية أخرى: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم» أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥١٤).

ورواية تقول: «والله إني لأعلمكم بالله وأخشاكم له» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٢٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر، ولم تتقدم من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فَخَلَقه الحقُّ بيده، ورَفَعَ شأنه بعدما علَّمه، وحُمِلَ إلى الجنة، وأمَرَ الملائكةَ في كل سماءٍ أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء، واختباراً لهم. فسجدوا بأجمعهم، وامتنع إبليسُ من بينهم، فَلَقِيَ من الهوان ما سبق له في حكم التقدير. والعَجَبُ ممن يخفى عليه أنَّ مثل هذا يجري من دون إرادة الحقِّ ومشيئته وهو عالِمٌ بأنه كذلك يجري، واعتبروا الحكمةَ في أفعاله وأحكامه، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته، وكثرة مخالفات أولاد آدم، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم... ثم يقولون إن الحقَّ سبحانه أراد خلاف ما عَلِمَ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالِمٌ، وكان عالماً بما سيكون! ثم خلق إبليس ومكَّنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك! ويدَّعُون حُسْنَ ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة... فسبحان مَنْ أعْمَى بصائِرَهم، وعَمَّى حقيقةَ التوحيد عليهم!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

وما كان ينفعهم النُّصْحُ وقد أراد بهم ما حذَّرَهم، وعَلِم أنهم سيلقون ما خوَّفهم به.

قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾: علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء؛ وأمَّا إنَّه أضاف الشقاءَ إلى آدم وحدَه ـ وكلاهما لحقَهَ شقاءُ الدنيا ـ فذلك لمضارعة رؤوس الآي، أو لأن التعبَ على الرجال دون النساء. ومَنْ أصغى إلى قول عدوِّه فإنه يتجرَّعُ النَّدَمَ ثم لا ينفعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

لا تصديقَ أتمُّ من تصديقِ آدم، ولا وعظَ أشدُّ رحمةً من الله، ولا يقينَ أقوى من يقينه.. ولكن ما قاسى آدمُ الشقاءَ قبل ذلك، فلمَّا استقبله الأمرُ وذاق ما خُوِّف به من العناءِ والكدِّ نَدِمَ وأطال البكاء، ولكن بعد إبرام التقدير.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أُوثِرَ بكل وجه؛ فلم يعرف قَدْرَ العافيةِ والسلامةِ، إلى أن جرى ما هو محكومٌ به من سابقِ القسمة.

ويقال تنعَّمَ آدمُ في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوعُ والعطشُ، والبلاء من كل (...)[1].

وكان آدم عليه السلام إذا تجدَّد له نوعٌ من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه

---

(١) بياض في الأصل.

السلام ـ يأتي ويقول: ربُّك يُقرِئكُ السلامَ ويقول: لِمَ تبكي؟ فكان يُذكِّر جبريلَ عليه السلام وهو يقول: أهذا الذي قُلْتَ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.. ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

وسوس إليه الشيطان وكان الحقُّ يعلم ذلك ولم يذكُرْ آدمُ في الحال أن هذا من نزعات مَنْ قال له ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ﴾ [طه: ١١٧].

ويقال: لو عَمَّى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفْها بعينها، ولو لم يكن (. . .)[1] حتى دلَّه على تلك الشجرة إيش الذي كان يمنعه منه إلا أَنَّ الحُكمَ منه بذلك سَبَقَ، والإرادةَ به تعلَّقت؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له: يا شقيُّ، فعلتَ وصنعتَ.. !

فقال إبليس لآدم: إنْ كنتُ شيطانَك فَمَنْ كان شيطاني؟

ويقال سُمِّي الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان، ولذلك يقال: شياطين الإِنْسِ، وشياطين الإِنْسِ شرٌّ من شياطين الجن.

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسَتِه.

والناسُ تكلموا في الشجرة: ما كانت؟ والصحيحُ أَنْ يقالَ إنها كانت شجرة المحنة.

ويقال لو لم تُخْلَقْ في الجنة تلك الشجرةُ لَمَا كان في الجنة نقصانٌ في رتبتها.

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِلَ إليها يَدُه، ولكنه ـ كما في القصة ـ كانت لا تصل إلى أوراقها يده ـ بعد ما أكل منها ـ حينما أراد أَنْ يأخذَ منها لِيَسْتُرَ عورتَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

لمَّا ارتكبا المنهيَّ عنه ظهر ما يُسْتَحْيَي مِنْ ظهوره، ولكنَّ اللَّهَ ـ سبحانه ـ أَلْطَفَ معهما في هذه الحالة بقوله: فَبَدَتْ لهما سوآتهما، ولم يَقُلْ ـ مُطْلَقاً ـ فبدت سَوْءَتُهما؛ أي أنه لم يُطْلِع على سوءتهما غيرَهما.

ويقال لَمَّا تجرَّدَا عن لِباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أولُ الحِرَفِ والصناعات ـ على مقتضى هذا ـ الخياطةُ، وخياطةُ الرِّقاع بعضها على بعض للفقراء ميراثٌ من أبينا آدم ـ عليه السلام.

ويقال كان آدمُ ـ عليه السلام ـ قد أصبح وعليه من حُلَلِ الجنة وفنونِ اللِّباس ما اللَّهُ به أعلمُ، ثم لم يُمسِ حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة، وهكذا كان في الابتداء ما هو موروثٌ في أولاده من هناء بعده بلاء.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: [الأعراف: ٢٢] عند ذلك وقعت عليهما الخَجْلةُ لمَّا وَرَدَ عليهما خطاب الحقّ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا . . . عَن﴾ [الأعراف: ٢٢] ولهذا قيل: كفى للمُقَصِّر الحياء يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . . .﴾: [الأعراف: ٢٣] لم يتكلما بلسان الحجة فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقولا: بظلمنا صرنا من الخاسرين، بل قالا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ليُعْلَم أنَّ المدارَ على حُكْمِ الربِّ لا على جُرْمِ الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

لَمَّا وَقَعَتْ عليه سِمَةُ العصيان ـ وهو أَوَّلُ البشرِ ـ كان في ذكر هذا تنفيسٌ لأولاده؛ أن تجري عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة في حين الفترة.

ويقال كانت تلك الأكلةُ شيئاً واحداً، ولكن قصتها يحفظها ويرددها الصبيانُ إلى يومِ القيامة.

وعصى آدم ربَّه ليُعْلَم أن عِظَمَ الذنوبِ لمخالفةِ الآمِر وعِظَمِ قَدْرِه. . لا لكثرة المخالفة في نفسها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

أخبر أنه بعدما عصى، وبعد كلِّ ما فَعَلَه اجتباه ربُّه؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا عِلَّة اجتباه ثانياً بعد الزَّلَّة، فَتَابَ عليه، وغفر ذنبه، ﴿وَهَدَىٰ﴾: أي هداه إليه حتى اعتذر واستغفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية، وقد توالت المحنُ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان، ومفارقة الجنة، ودخول الدنيا، وعداوة الشيطان، والابتلاء بالشهوات. ثم قال:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ . . .﴾ وتَرَكَ هواه، ولم يعمل بوسوسة العدوّ فله كُلُّ خير، ولا يلحقه ضَيْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقتِ من حيث انغلاق الأمور.

ويقال مَنْ أعرض عن الانخراط في قضايا الوفاق انثالت عليه فنون الخذلان، ومن أعرض عن استدامة ذكره ـ سبحانه ـ بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ.

ومَنْ أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النَّفس بما يوجِب له وحشةَ الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط.

ويقال مَنْ أعرض عن ذِكْرِ الله في الخلوةِ قَيَّضَ اللَّهُ له في الظاهر من القرينِ السوءِ ما توجِبُ رؤيتُه له قَبْضَ القلوبِ واستيلاءَ الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

في الخبر: «مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ اللَّهِ بها» فَمَنْ كان في الدنيا أعمى القلب يُحْشَرُ على حالته، ومَنْ يَعِشْ على جهلٍ يحشر على جهلٍ، ولذا يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ [يس: ٥٢] إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً.

وكما يَتْرُكُون ـ اليومَ ـ التَدبُّرَ في آياتِه يُتْرَكُون غداً في العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

جَرَتْ سُنَّتُه بأَنْ يُجازِيَ كُلاًّ بما يليق بحاله، فما أسلفه لنفسِه سيلقى غِبَّه؛ على الخبر خيراً، وعلى الشرِّ شرّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

أي أفلا ينظرون فيتفكرون؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدجرون؟ أم على وجوههم ـ في ميادين غَفَلاتِهم يركضون، وعن سوءِ معاملاتهم لا يرجعون؟ ألا ساء ما يعملون!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

لولا أَنَّ كلمةَ اللَّهِ سَبَقَتْ بتأخير العقوبة عن هذه الأمة، وأنه لا يستأصلهم لأنَّ

جماعةً من الأولياء في أصلابهم لعَجَلَ عقوبتَهم، ولكن.. كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدةً معلومة، ولكنه لم يهملهم أصلاً.

وإذا كانت الكلمةُ بالسعادة لقومٍ والشقاوة لقومٍ قد سبقت، والعلمُ بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى ـ فالسعيُ والجهدُ، والانكماشُ والجدُّ.. متى تنفع؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

سماعُ الأذى يوجِب المشقة، فأزال عنه ما كان لَحِقَه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون، وأَمَرَهُ: إنْ كان سماعُ ما يقولون يُوحشُكَ فتسبيحُنا ـ الذي تُثْنِي به علينا ـ يُرَوِّحُك.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: أي في صدر النهار؛ ليُبَارِكَ لكَ في نهارِك، ويَنْعَمَ صباحُك.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي عند نقصان النهار؛ ليطيبَ لَيْلُكَ، وينعم رَواحُك.

﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي في ساعات الليل؛ فإن كمال الصفوة في ذكر الله في حال الخلوة.

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي استَدِمْ ذِكْرَ اللهِ في جميع أحوالك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

فضل الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام، والذي له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فَلِلْحَقِّ على جميع أحواله غَيْرَةٌ؛ إذ لا يَرْضَى منه أَنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس لله ـ سبحانه ـ فيه رِضاءٌ، وفي معناه أنشدوا:

فعيني إذا استَحْسَنتْ غيرَكم أَمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لمّا أَدَّبَه في ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَ على وجه الأرض بِفَرْدِ قَدَم تصاوناً عنها حتى قيل له: «طه» أي طَأْ الأرضَ بِقَدَمِك.. ولِمَ كلُّ هذه المجاهدةَ وكل هذا التباعد حتى تقف بفَرْدِ قَدَم؟ طَأْ الأرض بقدميك.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ الفتنة ما يُشْغَل به عن الحقّ، ويستولي حُبُّه على القلب، ويُجَسِّر وجودُه على العصيان، ويحمل الاستمتاع به على البَطَر والأَشَر(١).

---

(١) البَطَر: النشاط. أو قلة احتمال النعمة والطغيان بها وشدة المرح. الأشر: البطر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

القليلُ من الحلال ـ وفيه رضاءُ الرحمن ـ خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام.. ومعه سُخطُه. ويقال قليلٌ يُشهِدُكَ ربَّكَ خيرٌ مِن كثير يُنسِيكَ ربَّك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

الصلاةُ استفتاحُ بابِ الرزق، وعليها أحال في تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه. ويقال الصلاة رزق القلوب، وفيها شفاؤها، وإذا استأخر قُوتُ النَّفْس قَوِيَ قُوتُ القلب.

وأَمَرَ ـ الرسولَ ـ عليه السلام ـ بأن يأمرَ أهلَه بالصلاةِ، وأَنْ يَصْطَبِرَ عليها. وللاصطبار مزية على الصبر؛ وهو أَلَّا يَجِدَ صاحبةُ الأَلَمَ بل يكون محمولاً مُرَوَّحاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾.

أي لا نكلفك برزق أحدٍ؛ فإنَّ الرازقَ اللَّهُ ـ سبحانه ـ دون تأثيرَ الخَلْق، فنحن نرزقك ونرزق الجميع.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

هما شيئان: وجود الأرزاق وشهود الرزاق؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة النفوس، وشهود الرزاق يوجب قوة القلوب.

ويقال استقلال العامة بوجود الأرزاق، واستقلال الخواص بشهود الرزَّاق.

ويقال نَفي عن وقته الفَرْقَ بين أوصاف الرزق حين قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ فإنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله: ﴿نَّحْنُ﴾ سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ.

ويقال خفَّفَ على الفقراءِ مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّرِه عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله: ﴿نَّحْنُ﴾.

قوله: ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي العاقبة بالحسنى لأهل التقوى.

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾.

عَمِيَتْ بصائرهم وادَّعوا أنه لا برهانَ معه، ولم يكن القصورُ في الأدلة بل كان الخَلَلُ في بصائرهم، ولو جمع اللَّهُ لهم كلَّ آيةٍ اقْتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يؤمِنوا لَمَا ازدادوا إلا طغياناً وكفراً وخسراناً... وتلك سُنَّةُ أسلافهم في تكذيب أنبيائهم، ولذا قال:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

إنْ أرسلنا إليهم الرسلَ قابلوهم بفنونٍ من الجحد، ووجوهٍ من العلل؛ مرةً يقولون فما بالُ هذا الرسول بَشَر؟ هلَّا أرسله مَلَكاً؟ ولو أرسلنا مَلَكاً لقالوا هلَّا أرسل إلينا مثلنا بَشَراً؟ ولو أظهر عليهم آيةً لقالوا: هذا سِحْرٌ مُفْتَرَى! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا:

هلَّا بَعَثَ إلينا رسولاً حتى كنا نُؤْمِن؟ فليست تنقطع أعلالُهم، ولا تنفك ـ عما لا يُرْضَى ـ أحوالُهم. وكذلك سبيلُ مَنْ لا يجنح إلى الوصال ولا يرغَب في الوداد، وفي معناه أنشدوا:

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوِصال وقال كان وكانا

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف، إلَّا أنَّ أربابَ التفرقة ينتظرون ما سيبدو مِمَّا يقتضيه حُكْمُ الأفلاك، وما الذي توجبه الطبائعُ والنجومُ. والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رَوْحِ التوحيد، والباقون في ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ.

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز مَنْ توسَّلَ إليه بطاعته تفضَّلَ عليه بجميل نعمته؛ إنْ أطاع فَضَّلَه، وإن أضاع أمْهَلَه، ثم إنْ آبَ وأقرّ.. ذَكَرَه، وإن عصى وعاب سَتَرَه، فإن تَنَصَّل رَحِمَه، وإنْ تكَبَّرَ قَصَمَه.

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلَّا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائرُ إلا بأنوار تحقيقه؛ بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم، وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجِلَ مثوبتهم، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾.

فالمطيعون منهم عَظُمَ لدينا ثوابُهم، والعاصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابُهم.

﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ [الأنبياء: ١] يقال الغفلة على قسمين: غافلٌ عن حسابه باستغراقه في دنياه وهواه، وغافلٌ عن حسابه لاستهلاكه في مولاه؛ فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْل؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبدِ لفنائهم في وجود الحق تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

لم يجدد إليهم رسولاً إذا ازدادوا نفوراً، ولم يُنزِّلْ عليهم خِطاباً إلا ردُّوه جحداً وتكذيباً، وما زدناهم فصلاً إلا عدُّوه هَزْلاً، وما جددنا لهم نعمةً إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة، فكان الذي أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم.. وهذه صفة مَنْ أساء مع الله خُلُقَه، وخَسِرَ عند الله حقَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾.

عَمِيَتْ بصائرُهم وعامت أفهامهم، فهم في غباوة لا يستبصرون، وفي أكنة عمَّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون.

قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى...﴾ لَمَّا عجزوا عن معارضته، وسقطوا عند التحدي،

وظهرت عليهم حُجّتُهُ رَجَمُوا فيه الفِكْرَ، وقَسَّمُوا فيه الظن؛ فمرةً نسبوه إلى السحر، ومرةً وصفوه بقول الشعر، ومرة رَمَوْه بالجنونِ وفنونٍ من العيوب. وقبل ذلك كانوا يقولون عنه: هو محمدٌ الأمين، كما قيل:

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنعَ قصةٍ ... وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْبا

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الأقاويل التي يسمعها الحقُّ ـ سبحانه ـ مختلفة؛ فَمِنْ خطابِ بعضهم مع بعض، ومن بعضهم مع الحق. والذين يخاطِبون الحقَّ: فَمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا، ومِنْ داعٍ يطلب كرائمَ العُقْبَى، ومِنْ مُثْنٍ يثني على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى.

ويقال يسمع أنينَ المُذْنبين سِراً عن الخَلْق حَذَراً أن يفتضحوا، ويسمع مناجاةَ العابدين التسبيح إذا تهجدوا، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهم البُرَحاء[1] فَضَجُّوا من شدة الاشتياق.

ويقال يسمع خطابَ مَنْ يناجيه سِرًّا بسرٍّ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثني عليه بلسان سِرِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه ـ بعدما نزَّلنا إليه الأمر ـ من حيث كانوا، ولم يشاهدوا هِمَمَه على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال، وكما قيل:

رمتني بدائها وانسلت

قوله جلّ ذكره: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَه أن يُعَذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المآل. وإنَّ هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول ﷺ أمثالُهم في الكفران، وقد حَكَم الحقُّ لهم بالحرمان والخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لمَّا قالوا لولا أَنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسِلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بَشراً، وذَكَرَ أنَّ الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إياهم.

---

(١) البُرحاء: الشدة والمشقة.

ثم قال: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: الخطاب للكلّ والمراد منه الأمة، وأهلُ الذكر العلماءُ من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد ـ ﷺ ـ ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحقّ ـ سبحانه ـ أو من يُحْسِنُ الإفهامَ عن الحق.

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات، وإذا اشتكلت الواقعةُ فيخبر عن اجتهاده، وشرطه ألا يكون مقلداً، ويكون من أهل الاجتهاد، فإذا لم يخالف النصَّ وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه، وأمَّا الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتَى به فإن لم تتقدم له من قِبَله المنازلة ففتواه في هذا الطريق كفتوى المقلّد في مسائل الشرع.

فأمَّا العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وَجْدِه ـ إنْ كان ـ وإلا فلا تُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾.

لمَّا عَيَّروا الرسولَ ـ عليه السلام ـ بقولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟.. أخبر أن أَكْلَ الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكابر، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّه القلوبُ والسرائر من وجوه التعريف.

ويقال: النفوس لا خبر لها مما به القلوب، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السرُّ.

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾: أي إنهم على ممرٍ ومعْبرٍ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ يُحَقِّق وعْدَه وإنْ تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون. والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدِّين، وإرغام مَنْ نَابَذَ الحقَّ مِنَ الجاحدين، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة، وإيضاح وجه الدلالة، وبيان خطأ الشبهة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يريد بالكتاب القرآن، وقوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي شرفُكم ومحلُّكم، فَمَنْ استبصرَ بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وأخراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

إنَّ اللَّهَ يُمْهِل الظالمَ حيناً لكنه يأخذه أَخْذَ قهرٍ وانتقام، وقد حَكَمَ اللَّهُ بخرابِ مساكنِ الظالمين، وقد جاء الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب»؛ فإذا ظلم العبدُ نَفْسَه حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ يقطنها التوفيقُ وجعلها موطنَ الخذلان، فإذا ظَلَمَ قلبَه بالغفلة سَلَّط عليه الخواطرَ الردية التي هي وساوس الشيطان ودواعي الفجور. وعلى هذا القياس في القلة والكثرة؛ إنَّ الروح إذا خربت زايلتها الحقائقُ والمحابُّ، واستولت عليها العلائقُ والمساكنات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

لمَّا ذاقوا وبالَ أفعالهم اضطربوا في أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهم، ولم تَغْدُ إلى محالِّها أقدامُهم، وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبَلُ الأمانة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾.

وللخيانة سراية، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية، وإذا غرقت السفينةُ فليس بيد المَلَّاحِ إلا إظهار الأسف، وهيهات أن يُجْدِي ذلك!

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

للإقرار زمانٌ؛ فإذا فات وقتُه فكما في المَثَل: يسبق الفريض الحريضَ. ووَضْعُ القوسِ بعد إرسال السهم لا قيمة له.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

إنّ مِنَ البلاءِ أَنْ يشكوَ المرءُ فلا يُسْمَع، ويبكي فلا يَنْفَع، ويدنو فَيُقْصَى، ويمرض فلا يُعادَ، ويعتذر فلا يُقْبَل.. وغايةُ البلاءِ التَّلَفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

اللَّعِبُ نعتُ من زَالَ عن حَدِّ الصواب، واستجلب بفعله الالتذاذ، وانجرَّ في حَبْلِ السَّفَهِ. وحَقُّ الحقِّ مُتقدِّسٌ عن هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

يخاطبهم على حسب أفهامهم؛ وإلا.. فالذي لا يعتريه سهوٌ لا يستفِزُّه لَهْوٌ، والحقُّ لا يعتريه ولا يضاهيه كُفْوٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

نُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأَوهام فينقشع سحابُ الغيبة، وينجلي ضبابُ الأوهام، وتنير شمسُ اليقين، وتصحو سماءُ الحقائق عن كلِّ غُبار التُّهَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

الحادثات له سبحانه مِلْكاً والكائنات له حُكماً، وتعالى اللَّهُ عن أنْ يَتَجمَّلَ بوفاقٍ أو ينقص بخلاف، وبالقَدَرِ ظهورُ الجميع، وعلى حسب الاختيار تنصرف الكلمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

المطيعُ المختارُ يُسبِّحه بالقول الصدق، والكلُّ من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخِلْقَة، وبرهان البَيِّنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾.

تفرَّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد، وتقدَّس عن الأمثال والأنداد، فالذين يُعْبَدُون مِنْ دونه أمواتٌ غيرُ أحياءٍ. وهم بالضرورة يعرفون.. أفلا يَعْتَبِرُون وألا يَزْدَجِرُون؟

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أخبر أَنَّ كلَّ أمر يُنَاطُ بجماعةٍ لا يجري على النظام؛ إذ ينشأ بينهم النزاعُ والخلافُ. ولمَّا كانت أمورُ العالَم في الترتيب مُنَسَّقَة فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرِ مُدَبِّرٍ حكيم؛ فالسماءُ في علوِّها تدور على النظام أفلاكُها، وليس لها عُمُدٌ لإمساكها، والأرضُ مستقرةٌ بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها. والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور في بروج، ورقعة السماء تتسع من غير فروج.. ذلك لتقديرِ العزيزِ العليمِ علامةٌ، وعلى وحدانيته دلالةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

لِكَوْنِ الخلْق له، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

دلت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد، ووجوبِ إقامة الحجة والدليل.

ودلَّت الآية على توحيد المعبود، ودلَّت الآية على إثبات الكسب للعبيد؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللومُ والعَتْبُ. وكلُّ مَنْ علَّقَ قلبه بمخلوقٍ، أو تَوَهَّمَ من غير الله حصولَ شيءٍ فَقَد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإله مَنْ يصحُّ منه الإيجاد.

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾: الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحق، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوحدانية.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إنما عدموا العلم لإعراضهم عن النظر، ولو وضعوا النظر موضعه لوَجَبَ لهم العلم لا محالة، والأمر يدل على وجوب النظر، وأنَّ العلومَ الدينية كُلَّها كسبية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

التوحيدُ في كل شريعة واحدٌ، والتعبدُ ـ على من أرسل إليه الرسول ـ واجبٌ، ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضةٌ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصول إليه فلا يجوز في ذلك النسخُ والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

في الآية رخصةٌ في ذِكْر أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الردِّ عليهم، وكَشْفِ عوراتهم، والتنبيه على مواضع خطاياهم، وأنَّه إنْ وَسْوَسَ الشيطان إلى أحدٍ بشيء منه كان في ذلك حجةٌ للانفصال عنه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره ـ سبحانه، وأنهم لا يُقَصِّرون في واجبِ عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

عِلْمُه القديمُ ـ سبحانه ـ لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم، وإنما هو شامل لجميع المعلومات، فلا يعزب عن علم الله معلوم.

قوله: ﴿**لا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾ دلَّ على أنهم يشفعون لقومٍ، وأنَّ الله يتقبل شفاعتهم.

قوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: ليس لهم ذنب ثم هم خائفون؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز، فإذا لم يَجُزْ أن يُعذِّب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زلةً.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أخبر أنهم مُعْرِضُون عن الزَّلَّةِ بكلِّ وجهٍ. ثم قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ وقد علم أنهم لا يقولون ذلك، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه، فالحقُّ ـ سبحانه ـ يعلم ما لا يكون كيف كان يكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

داخَلَتْهُم الشبهةُ في إعادة الخلْقِ والقيامةِ والنَّشْرِ، فأقام الله الحجةَ عليهم بأن قال: أليسوا قد عَلِمُوا أنه خلق السموات والأرض؛ سَمَكَ السماء وبَسَط الأرض.. فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

كُلُّ شيءٍ مخلوقٍ حيٌ فَمِنَ الماء خَلْقُه، فإنَّ أصلَ الحيوان الذي حَصَلَ بالتناسل النطفةُ، وهي من جملة الماء.

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء، وحياة القلوب بماء الرحمة، وحياة الأسرار بماء التعظيم. وأقوامٍ حياتُهم بماءِ الحياء.. وعزيزٌ هُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

الأولياء هم الرواسي في الأرض وبهم يُرْزَقُون، وبهم يُدْفع عنهم البلاء، وبهم يُوفَى عليهم العطاءُ. وكما أنه لولا الجبالُ الرواسي[1] لم تكن للأرض أوتادٌ.. فكذلك الشيوخ الذين هم أوتادُ الأرضِ (فلولاهم) لنَزَلَتْ بهم الشدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

كما أن في الأرض سُبُلاً يسلكونها ليَصِلُوا إلى مقاصدهم كذلك جعل السُبُلَ إليه مسلوكة بما بيَّن على ألسنتهم من هداية المريدين، وقيادة السالكين، كما يَسَّر بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

في ظاهر الكون السماء منيرة، والأرض مسكونة.. كذلك للنفوس أراضٍ هي مساكن الطاعات، وفي سماء القلوب نجومُ العقل وأقمارُ العلم وشموسُ التوحيد والعرفان. وكما جُعِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جَعَلَ من المعارفِ رجوماً للشياطين. وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آياتِ القلوب مما فيها من الأنوار غافلون، لا يكاد يعرفها إلا الخواص.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كما أن الحق ـ سبحانه ـ في الظاهر يكوِّر الليل على النهار، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ في نهارِ البسط ليلَ القبض.. والبسط في الزيادة والنقصان. فكما أنَّ الشمس أبداً في برجها لا تزيد ولا تنقص، والقمرَ مرةً في المحاق[2]، ومرةً في

(١) أي الجبال الشوامخ.

(٢) المحاق: آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر، وقيل: ثلاث ليالٍ من آخره، أو أن يستسرّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية.

الإشراق.. فصاحبُ التوحيدِ بنعت التمكين - يرتقي عن حَدِّ تأمُّلِ البرهان إلى رَوْحِ البيان، ثم هو متحققٌ بما هو كالعيان. وصاحبُ العِلْم مرةً يُرَدُّ إلى تجديد نَظَرِه وتَذَكُّرِه، ومرةً يغشاه غَيْرٌ في حال غفلته فهو صاحب تلوين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

إنك في هذه الدنيا عابرُ سبيلٍ، لكننا لم نتركك فرداً في الدنيا، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»(١).

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

الموتُ به آفةُ قوم، وفيه راحة قوم؛ لقوم انتهاءُ مدة الاشتياق، والآخرين افتتاح باب الفراق، لقوم وقوعِ فتنتهم ولآخرين خَلاصٌ من محنتهم، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رقَّاه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين، ولكنهم حُجِبُوا عن معانية وسريرته، وعاينوا منه جسمه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

العَجلَةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودةٌ؛ فالمسارعة البِدارُ إلى الشيء في أول وقته، والعَجَلَةُ استقباله قبل وقته، والعجلةُ نتيجةُ وسوسة الشيطان، والمسارعةُ قضية التوفيق.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم، فاستعجلوا حصولَ ما توعدوهم به. ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم، فالفَزَعُ يَدُلُّ على استعجالهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾.

لأمسكوا اليوم عن الانخراط في عذاب الظنون، والاغترار بمواعيد الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥/ ٤، ٦/ ٨٣)، ومسلم في (الصحيح فضائل الصحابة ب١ رقم ١) وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٦٨)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٤/ ٣٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٣٢٥)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٥٧٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ١٤٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٣/ ٤٤٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥/ ٤٣٥، ١١/ ٤٣٤، ١٢/ ١٣٤)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ٢٩٥).

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

العقوبة إذا أتت فجأةً كانت أنكى وأشد. وسُنَّةُ الله في الانتقام أن يُثِيرَ ريحَ البغتةِ في حال الانغماس في النِّعْمة والمِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

تسليةٌ له، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين؛ أي عن قريبٍ ستجدون وَبالَ ما استوجبوه من العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم، وقد جرَّبوا ذلك في أحوال محنتهم، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء، ومما ليس منه نَفْعٌ ولا ضرٌّ؟ وفي ذلك تنبيه للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل، فالواجبُ دوامُ اعتكافِهم بقلوبهم بقوة كَرمِه وجُوده.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ .

بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات؛ وأصنامُهم التي عبدوها من تلك الجملة، ولم يَرِدْ منهم ـ على تكرار هذه الألفاظ ـ إلّا عجزٌ وانقطاعُ قولٍ.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق، مشفوعاً بالعصمة كان مكراً واستدراجاً، وزيادةً في العقوبة. والحقُّ كما يعاقِبُ بالآلام والأهوال يعاقِب بالإملاء والإمهال.

وقال: ﴿**أفلا يرون أنا نأتي الأرض**﴾ تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ، للصفوة؛ فيتعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان.

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل.. وفي هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر، فإن آخر الأمر كما قيل:

آخِرُ الأمر ما ترَى ... القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل:

طوى العصران[1] ما نَشَرَاه مني ... وأبلى جدتي نَشْرٌ وطيٌّ

(١) العصران: الليل والنهار، وقيل: الغداة والعشي. (لسان العرب ٤/ ٥٧٦ مادة: عصر).

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يبقى - مع النقصان - شيُّ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

أي بأمر الله أُعْلِمكم بموضع المخافة، ويُوحى إليَّ في بابكم أنْ أُخَوِّفَكُم بأليم عقابه، ولكنَّ الذي عَدِمَ سمْعَ التوفيقِ.. أنى ينفعه تكرارُ الأمر بالقبول عليه؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

أي إنهم لا يصبرون على أقلِّ شيءٍ من العقوبة؛ وإن الحقَّ إذا شاء أن يؤلِمَ أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

توزن الأعمالُ بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقبَل، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقْبَل، وتوزن الأنفاسُ بميزان (....)[1] فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقْبَل.

ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم، وينتقم الضعيفُ من القوي.

ويقال ما كان لغير الله يَصْلُح للقبول.

ويقال يكافىء كلاً بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عبادَه في دنياه لا يَرْحَمهُ الله، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه، ومَنْ ظلم غيره كوفىء بما يليق بسوء فعله.

قوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾: أي يُجازي المظلومين وينتقم من الظالمين، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقدار فسيلقى جزاءه، ويجد عِوَضَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنُّور، والحُجَّةِ والبرهان يشاركهم المستجيبون من أُمَمِهم في الاستبصار به..

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا - ﷺ - في الاستبصار بنور اليقين.

و«المُتَّقِي» هو المُجَانِبُ لما يشغله ويحجبه عن الله، فيتقي أسبابَ الحجاب وموجِباتها.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

صار لهم في استحقاق هذه البصائرِ والخشية بالغيب إطراقُ السريرة، وفي أوان الحضور استشعارُ الوَجَلِ من جريان سوء الأدب، والحذَرُ من أن يبدو من الغيبِ من خفايا التقدير ما يوجبُ حجبة العبد.

والإشفاق من الساعة على ضربين: خوف قيام الساعة الموعودة للعامة، وخوفُ قيام الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم؛ فإنَّ ما يستأهل الكافة في الحشر مُعَجَّلٌ لهم في الوقت من تقريبٍ ومن تبعيد، ومن مَحْوٍ ومن إثبات.

قوله جل ذكره: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

وَصَفَ القرآن بأنه ﴿مبارك﴾، وهو إخبارٌ عن دَوَامِه، من قولهم: بَرَكَ الطائرُ على الماءِ أي دَامَ.

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه؛ وما لا ابتداء له ـ هو كلامه القديم ـ فلا انتهاء للكتاب الدالِّ عليه.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

أراد به ما تعرَّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول، لولا أنَّه خصَّه في الابتداء بالتعريف.. وإلَّا متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خَلْقِه لولا ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق؟

ويقال هو ما كاشَفَ به رُوحَهُ قبل إبداعها من تجلِّي الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

خاطَبَ قومه وأباه ببيان التنبيه طمعاً في استفاقتهم من سَكْرَةِ الغفلة، ورجوعهم من ظلمة الغلظة، وخروجهم من ضيقِ الشُّبْهَة.

ثم سأل الله إعانَتُهم بطلب الهداية لهم. فلمَّا تَبَيَّن له أنهم لا يؤمنون، وعلى كفرهم يُصِرُّون تَبَرَّأ منهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾.

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد، فكان من جوابه الحُكْمُ بالتسوية بينهم وبين آبائهم في الضلال، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فأحالَهم على النظر والاستدلال والتعرُّف من حيث أدلة العقول لأنَّ إثبات الصانع لا يُعْرَفُ بالمعجزاتُ، وإنما المعجزاتُ علم بصدق الأنبياء عليهم السلام، وذلك فرع لمعرفة الصانع.

ثم بيَّن لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة، ثم إنه لم يَحْفِلْ بما يُصيبه من البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّدُ بالإبداع، فلا أحد يملك له ضراً من دون الله، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾(١).

أي يذكرهم بالسوء. ويحتمل أن يكون مَنْ فعله.. فاسألوه، فسألوه فقال: بل فَعَلَه كبيرُهم.

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه؟ وكيف تحيلنا في السؤال عليه ـ وهو جماد؟

فقال: وكيف تستجيزون عبادة ما هو جمادٌ لا يدفع عن نَفْسِه السوء؟!

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾(٢).

فقال: شرٌّ وأمرُّ.. كيف تستحق أمثالُ هذه.. العبادة؟!

فلمَّا توجَّهَتْ الحجةُ عليهم ولم يكن لهم جواب دَاخَلَتْهم الأنَفَةُ والحمية فقالوا: سبيلنا أن نقتلَه شَرَّ قتله، وأن نعامِلَه بما يخوفنا به من النار. فقالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾(٣) [الصافات: ٩٧]، فلما رموه في النار:

قوله جل ذكره: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

لو عَصَمَه من نار نمرود ولم يمكنه مِنْ رَمْيه في النار من المنجنيق(٤) لكان ـ في الظاهر ـ أقرب من النصر، ولكنَّ حِفْظَه في النار من غير أَنَّ يَمَسَّه أَلَمٌ أتمُّ في باب النصرة والمعجزة والكرامة.

ويقال إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان كثيراً ما يقول: أواه من النار!

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

فلمَّا رُمِيَ في النار، وجعل اللَّهُ عليه النارَ بَرْداً قيل له: لا تقُلْ بعد هذا. أواه من النار! فالاستعاذةُ بالله مِنَ الله... لا من غيره.

---

(١) الآيتان (٥٧، ٥٨) لم تردا. (٢) الآيات من (٦١ حتى ٦٤) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٦ حتى ٦٨) لم ترد.

(٤) المنجنيق (مع) (مؤ): آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنيقات ومجانق ومجانيق.

قوله: ﴿وسلاماً﴾: أي وسلامةً عليه وله، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنارُ والبَرْدُ عنده سِيّان.

ويقال إن الذي يحرق في النار مَنْ في النار يقدر على حِفْظِه في النار.

ولمَّا سَلِمَ قلبُه من غير الله بكل وجهٍ في الاستنصار والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شيءٍ بكلِّ وجهٍ.. تعرَّض له جبريلُ ـ عليه السلام ـ في الهواء وقد رمي من المنجنيق وقال له:

هل مِنْ حاجة؟

فقال: أمَّا إليكَ.. فَلا!

فجعل اللَّهُ النار عليه برداً وسلاماً؛ إذ لمَّا كان سليمَ القلبِ من الأغيار وَجَد سلامة النَّفْسِ من البلايا والأعلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾.

مَنْ حَفَرَ لأوليائه وقع فيما حَفَر، ومَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقامَ منه سوى الله

قوله جل ذكره: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾.

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ في أنبيائه ـ عليهم السلام ـ أنه إذا نَجَّى منهم واحداً أشرك معه مَنْ كان مُسَاهِماً له في ضُرِّه ومُقَاساةِ مشقته.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾.

مَنَّ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابِداً لله، ذاكراً له، فإنَّ مفاخِرَ الأبناءِ مناقِبُ للآباء، كما أنَّ مناقبَ الآباء شرفٌ للأبناء.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

الإمامُ مُقَدَّمُ القوم، واستحقاقُ رتبةِ الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التي في الأمة فيه، فَمَنْ لم تتجمعْ فيه مُتَفَرِّقاتُ الخِصالِ المحمودةِ لم يستحق منزلةَ الإمامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾.

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مِثلِ ما امْتُحِنَ به قومُه، ثم بخلاصِه منهم بإخراجه إيَّاه مِنْ بينهم، فميزه عنهم ظاهراً وباطناً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

بيَّن أنه أدخله في رحمته ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ فلا محالة مَنْ أدخله في رحمته كان صالحاً.

وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ إخبارٌ عن عين الجمع، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: إخبار عن عين الفرق.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

كان نوح ـ عليه السلام ـ أطولَهم عمراً، وأكثرهم بلاءً. ففي القصة أنه كان يُضرَبُ سبعين مرةً، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول. لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته. وكان نوح ـ عليه ـ يصبر على مقاساة الأذى، ويدعوهم إلى الله، فلمَّا أَيِسَ من إيمانهم، وأُوحِيَ إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فقال تعالى: ﴿**ونوحاً إذ نادى من قبل**﴾ فأزهقَ الشِّرْكَ وأغرقَ أهلَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت.. ففي مسألة واحدة أثبت لسليمان ـ عليه السلام ـ بها خصوصية؛ إذ مَنَّ عليه بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ ولم يَمُنْ عليه بشيءٍ من المُلْكِ الذي أعطاه بمثل ما منَّ عليه بذلك، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين ـ وإن اختلفوا ـ إذا كان اختلافُهم في فروع الدِّين؛ حيث قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلُّقٌ بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

أَمَرَ الجبالَ وسخَّرها لتساعدَ داودَ ـ عليه السلام ـ في التسبيح، ففي الأثر، كان داود ـ عليه السلام ـ يمرُّ وصُفَاحُ[1] الجبالِ تجاوبه، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

---

(١) الصفاح: (ج) الصَّفح من الجبل: سفحه.

سخَّر الله ـ سبحانه ـ لداود الحديد وألانه في يده، فكان ينسج الدروع، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] ليتحصن من السهام في الحروب، قال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] وأحْكِمْ الصنعة وأوثِقِ المسامير.. ولكن لما قصدته سِهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقَتَه حين نظر إلى امرأة أوريا ـ من غير قصدٍ ـ فكان ما كان.

ولقد خلا ذلك اليوم، وأغلق على نَفْسه بابَ البيت، وأخذ يصلي ساعةً، ويقرأ التوراة مرةً، والزبور أخرى، حتى يمضي وينتهي ذلك اليوم بالسلامة. وكان قد أُوحِيَ إليه أنَّه يومُ فتنةٍ، فأَمَرَ الحُجَّابَ والبواب ألا يُؤْذَنَ عليه أَحَدٌ، فَوَقَعَ مِنْ كَوَّةِ البيتِ طيرٌ لم يَرَ مِثْلَه في الحُسْنِ، فهَمَّ أَنْ يأخذه، فتَبَاعَدَ ولم يَطِرْ كالمُطْمِعِ له في أخذه، فلم يَزَلْ يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوَّةِ البيت، فتبعه داودُ ينظرُ إليه من الكوة من ورائه، فوقع بصرهُ على امرأة أوريا، وكانت قد تجرَّدَتْ من ثيابها تغتسلُ في بستانٍ خَلْفَ البيتِ الذي به داود، فحَصَلَ في قلبه ما جصل، وأصاب سَهْمُ التقدير حَدَقَتَه، ولم تَنفَعْهُ صَنْعَةُ اللَّبوسِ التي كان تعلَّمها لِتُحَصِّنَه من بأسه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

سخَّر اللَّهُ له الريحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحُها شَهْرٌ، ولو أراد أن يزيد في قَدْر مسافتها شِبْراً لما استطاع، تعريفاً بأنه موقوفٌ على حكم التقدير، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أُكْرِمَ به من التسخير، ولقد نبَّه ـ سبحانه ـ من حيث الإشارة أن الذي مَلَكَه سليمان كالريح إذا مرَّ وفات، أو أنه لا يَبْقَى باليدِ منه شيء.

وفي القصة أنه لاحَظَ ذلك يوماً فمالت الريح بِبَساطِه قليلاً، فقال سليمانُ للريحِ: استو.

فقالت له الريح: استوِ أنت. أي إنما مَيْلِي بِبِسَاطِكَ لميلك بقلبك بملاحظتك فإذا استويتَ أنتَ استويتُ أنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة. ثم إنه أراد يوماً أن يعودَ إلى مكانه فجاءه مَلَكُ الموتِ فطَالَبَه بروحه، فقال: إليَّ حين أرجع إلى مكاني.

فقال له: لا وجه للتأخير، وقَبضه وهو قائم يتكىء على عصاه وبقي بحالته، ولم تعلم الجِنُّ، إلى أنْ أكَلَتْ دابة الأرض ـ كما في القصة ـ عصاه، فلما خَرَّ سليمان

عَلِمَتْ الشياطينُ بموته، وتحققوا أنَّ الذي بالعصا قِيامُه فَقَهْرُ الموت يلحقه.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي واذكر أيوبَ حين نادى ربَّه. وسمِّي أيوب لكثرة إيابه إلى الله في جميع أحواله في السرَّاء والضرَّاء، والشِّدَّة والرَّخاءِ.

ولم يَقُلْ: ارحمني، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومن علامات الولاية أن يكونَ العبدُ محفوظاً عليه وقتُه في أوانِ البلاء.

ويقال إخبارُه عنه أنه قال: ﴿**مسني الضر**﴾ لم يَسْلُبْه اسمَ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبر، فنادِرُ قالتِه لم يَسْلبْ عنه الغالِبَ من حالته. والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ، أو الإيمانُ بالله فهو الذي يستغرِقُ جميعَ أوقاته، ولا يخلو منه لحظةً؛ ونادِرُ زلَّاتِهِ ـ مع دائمِ إيمانِه ـ لا يُزَاحِمُ الوصفَ الغالب.

ويقال؛ لمَّا لم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ على وجه الاعتراض على التقدير ـ بل كان على وجه إظهار العجز ـ فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر.

ويقال استخرج منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتَنَفَّسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا في حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر.

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى، وإنما كان من حيث الشكر ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ الذي تخصُّ به أولياءك، ولولا أنك أرحم الراحمين لَمَا خصصتني بهذا، ولكن برحمتك أَهَّلْتني لهذا.

ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوب ولكنه استغاثةُ البلاء منه، فلم يُطِقْ البلاءُ صُحْبَتَه فضجَّ منه البلاءُ لا أيوبُ ضَجَّ من البلاء... وفي معناه أنشدوا.

صابَرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ ... فصاح المحبُّ بالصبر صبرا[١]

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة، ومعناه: أيمسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين؟ كما قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل؟

ويقال إن جبريلَ ـ عليه السلام ـ أتى أيوبَ فقال: لِمَ تسكت؟ فقال: ماذا أصنع؟ فقال: إن الله سيان عنده بلاؤك وشفاؤك.. فاسأل الله العافيةَ فقال أيوب: ﴿**أني مسني الضر**﴾ فقال تعالى: ﴿**فكشفنا ما به من ضر**﴾ [الأنبياء: ٨٤] والفاء

---

(١) البيت في الرسالة القشيرية ص١٨٦.

تقتضي التعقيب، فكأنه قال: فعافيناه في الوقت. وكأنه قال: يا أيوب، لو طلبتَ العافيةَ قبل هذا لاستَجْبْنا لك.

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على موضعها، فعقرته عقرةً عِيلَ صَبْرُه فقال: مسني الضر، فقيل له: يا أيوب: أتصبر معنا؟ لولا أني ضربتُ تحت كل شَعْرَةٍ من شعراتك كذا خيمة من الصبر.. ما صَبَرْتَ ساعةً!

ويقال كانت الدوداتُ التي تأكل منه أكلت ما عَلَا بَدَنَه، فلم يَبْقَ منه إلا لسانُه وقلبه، فصعدت دودة إلى لسانه، وأخرى إلى قلبه فقال:

﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾... فلم يَبْقَ لي إلا لسانٌ به أذكرك، أو قلبٌ به أعرفك، وإذ لم يَبْقَ لي ذلك فلا يمكنني أن أعيشَ وأصبر!

ويقال استعجمت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً... وكذلك كانت صحبته.

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سَلْ العافية فقال:

عِشْتُ في النِّعم سبعين سنة فحتى يأتي عليَّ سبعون سنة في البلاء... وعندئذٍ أسألُ الله العافية!

وقيل لمَّا كَشَفَ الله عنه البلاء قيل له: ما أشدُّ ما لقيتَ في أيام البلاء؟ فقال شماتة الأعداء.

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم، وحرَّقوا ما كتبوه عنه وقالوا: لو كان لك عند الله منزلةٌ لمَا ابْتلاكَ بكل هذا البلاء!

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجُه، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام، فهي التي بقيت معه وكانت تخدمه وتتعهده.

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب ـ عليه السلام.

وقيل إنما قال: مسني الضرُّ لمَّا قال لها الشيطان: إنْ أردتِ أنْ يَشْفَى مريضُكِ فاسجدي لي، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها في صورة إنسان، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

ويقال لمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومُه وقالوا لها: أَخْرِجي هذا المريضَ من قريتنا، فإننا نخاف العَدْوَى وأنْ يَمَسَّنَا بلاؤه، وأنْ تُعْدَى إلينا عِلَّتُه، فأَخْرَجَتْه إلى باب القرية فقالوا: إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارُنا عليه، فنتشاءم به، فأبْعِديه عن أبصارنا، فحملَتْه إلى أرضٍ قَفْرٍ، وكانت تدخل البلد، وتُسْتَأْجَر للخَبْزِ والعمل في الدور، فتأخذ

الأجرة وتحملها إليه، فلما عَلِموا أنَّها امرأتُه استقذروها ولم يستعملوها.

ويقال إنها كانت ذات ذوائب[1] وقرون، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه، فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء، وأن شعرها جُزَّ في ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أنْ يَجْلِدَها إذا صحَّ حَدْسُه، وكانت المحنةُ على قلبِ تلك المرأة أشَدَّ مما على بَدَنِ أيوب من كل المحن.

وقيل إن امرأته غَابَتْ ودخلَتْ البلدَ، فعافى اللَّهُ أيوبَ عليه السلام، وعاد شاباً طرياً كما قال في قصته قوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. فلما رجعت امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ، فأخذت تبكي وتولول، فقال لها أيوب ـ وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً ـ مالَكِ يا امرأة؟

قالت: كان لي ها هنا مريض فَفَقَدْته. فقال لها أيوب: أنا ذاك الذي تطلبينه!

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال: إنْ أردتَ العافيةَ فاسجُدْ لي سجدةً، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

ويقال إن أيوب ـ عليه السلام ـ كان مُكَاشَفاً بالحقيقة، مأخوذاً عنه، فكان لا يُحِسُّ بالبلاء، فَسَتَرَ عليه مرةً، وردَّه إليه، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالة، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية.

ويقال أوحى الله إلى أيوب ـ عليه السلام ـ أنَّ هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قَبْلَكَ فما اخْتَرْتُه إلا لَكَ، فلمَّا أراد كَشْفَه عنه قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقيل كوشف بمعنىً من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ البلاء فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ لِفَقْدِي أَلَمْ الضُّرِّ.

وقال جعفر الصادق[2]: حَبَسَ عنه الوحيَ أربعين يوماً فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾

---

(١) الذوائب: (ج) الذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة.

(٢) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ ـ ١٤٨هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٥م) الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قطَ. له أخبار مع الخلفاء من بين العباس وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق. له «رسائل» مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون. مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام ٢/١٢٦، ووفيات الأعيان ١/١٠٥، وصفة الصفوة ٢/٩٤، وحلية الأولياء ٣/١٩٢.

لما لحقه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّته ليقوم بحقِّ الطاعة.

ويقال طلب الزيادةَ في الرضا فاستُجيبَ له بكَشْفِ ما كان به من ضعف الرضا.

ويقال إن الضرَّ الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية، وبليته كانت ببقيته، فلمَّا أُخِذَ عنه بالكلية زال البلاء، ولهذا قال: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤] وكانت نَفْسُه ضُرَّه، ورَدَّ عليه السلامةَ والعافية والأمل ـ في الظاهر ـ لمَّا صار مأخوذاً بالكلية عنه، مُنَقّىً عن كل بقية، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية، والوجود والفقد.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم قال:

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

بيَّنَ الحُكْمَ والمعنى؛ الحكمُ صبرُهم وصلاحُهم، والمعنى إدخالُه إياهم في الرحمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿مُغَٰضِبًا﴾: على مَلِكِ وقته حيث اختاره للنبوة، وسأله: لِمَ اخترتَني؟ فقال: لقد أوْحَى اللَّهُ إلى نَبِي: أنْ قُلْ لفلانِ المَلِك حتى يختار واحداً لِيُرْسَلَ إلى نينوى[1] بالرسالة. فثقُلَ على ذي النون لما اختارَه المَلِكُ؛ لأن علم أن النبوةَ مقرونةٌ بالبلاء، فكان غضبُه عليه لذلك.

ويقال مغاضباً على قومه لمَّا امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم.

ويقال مغاضباً على نفسه أي شديد المخالفة لهواه، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفيه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي أنْ لن نُضَيِّقَ عليه بطن الحوت، من قوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيَّق.

ويقال فظنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِه في بَطْنِ الحوت.

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ بأنَّ الله يُعَذِّب قومَه، وخرج بأهله.

ويقال إن السبعَ افترس أهله في الطريق، وأخذ النَّمِرُ ابناً صغيراً له كان معه، وجاء موج البحر فأغرق ابنَه الآخر، وركب السفينة، واضطرب البحر، وتلاطمت أمواجُه،

---

(١) نِيْنَوَى: وهي قرية يونُس بن متى عليه السلام، بالموصل؛ وبسواد الكوفة ناحية يقال لها: نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه. (معجم البلدان ٥/ ٣٣٩).

وأشرفَتْ السفينةُ على الغرق، وأخذ الناسُ في إلقاء الأمتعة في البحر تخفيفاً عن السفينة، وطلباً لسلامتها من الغَرَقِ، فقال لهم يونس: لا تُلْقُوا أمْتِعَتَكم في البحر بل أطرحوني فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا. فنظروا إليه وقالوا: نرى عليكَ سيماء الصلاح، وليست تسمح نفوسُنا بإلقائك في البحر، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] أي فقارعهم، فاستهموا، فوقعت القُرْعَةُ عليه.

وفي القصة أنه أتى حَرْفَ السفينة، وكان الحوتُ فاغراً فاه، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك، حتى جاز كل جانب. ثم لمَّا عَلِمَ أنه مُرَادٌ بالبلاء ألقى نَفْسَه في الماء فابتلعه الحوت «وهو مليم»: أي أتى بما يُلام عليه، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وأوحى الله إلى السمك: لا تَخْدِشْ منه لَحماً ولا تَكْسِرْ منه عَظْماً، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك. فَبَقِي في بطنه ـ كما في القصة ـ أربعين يوماً.

وقيل إن السمك الذي ابتلعه أُمِرَ بأن يطوف في البحر، وخلق الله له إدراك ما في البحر، وكان ينظر إلى ذلك.

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له: ذا النون، ولم تبطل عنه هذه النسبة.. فما ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبَدَه ـ سبحانه ـ سبعين سنة، ولازم قلبه محبته ومعرفته طولَ عمره.. ترى أيبطل هذا؟ لا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذلك!

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ـ هذا بيان التفسير، ويحتمل أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

استجبنا له ولم يَجْرِ منه دعاءٌ؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه.

ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ يعني: كُلُّ مَنْ قال من المؤمنين ـ إذا أصابه غمٌّ، أو استقبله مُهِمٌّ ـ مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون.

قوله جل ذكره: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

سأل الوَلَدَ، وإنما سأله ليكون له مُعِيناً على عبادةِ ربِّه وليقوم في النبوة مقامَه، ولئلا تنقطعَ بركةُ الرسالة من بيته، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قَطْعَه بالمنشار، ولما التجأ إلى الشجرة انشقت له وتَوَسَّطَها، والتأمت الشجرة، وفطنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار، وصبر لله، وسبحان الله!

كان انشقاق الشجرة له معجزة، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته، ولعلَّهم ـ لو قتلوه ـ لم يُصِبْه من الألم القدْرُ الذي لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة، فَقَوِي بذلك يقينُه لمَّا رأى عجيبَ الأمر فيه من نَقْضِ العادة، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق، ولقد قال قائلهم: «إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى».

قوله جل ذكره: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

سمي يحيى لأنه حَيِيَ به عقر أمه.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: لتكون الكرامةُ لهم جميعاً بالولد، ولئلا يستبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها.. وهذه سُنَّةُ الله في باب إكرام أوليائه، وفي معناه أنشدوا:

إنَّ الكـرامَ إذا مـا أيسـروا ذكـروا مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا﴾ وفي هذا بشارة لجميع المؤمنين، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر[١]، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر[٢].

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ، وكان لهم ذلك على الدوام.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

يعني مريم، وقد نَفَى عنها سِمَةَ الفحشاء وهجنة الذم.

ويقال فنفخنا فيها من روحنا، وكان النفخُ من جبريل عليه السلام، ولكن لمَّا كان بأمره ـ سبحانه ـ صحَّتْ الإضافةُ إليه، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول، فإنه يكون بإنزال مَلَكٍ فتَصِحُّ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره.. وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص، كقوله: (ناقة الله، وبيتي)... ونحو ذلك: **﴿وجعلنا وابنها آيةً للعالمين﴾**: ولم يقل آيتين لأن أمرهما كان معجزة ودلالة، ويصح أن يراد أنَّ كلَّ واحدٍ منهما آيةٌ ـ على طريقة العرب في أمثال هذا.

---

(١) هنا إشارة إلى سورة الحجر آية (٥٦).

(٢) كذلك هنا إشارة إلى سورة الأعراف آية (٩٩).

وفيه نفي لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله... تعالى الله عن قولهم!

قوله ﴿آية للعالمين﴾: وإن لم يهتد بهما جميعُ الناس... لكنهما كانا آيةً. ومَنْ نَظَرَ في أمرهما، ووضَعَ النظرَ مَوضِعَه لاهتدى، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر في بابها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

أي كلكم خِلْقَتُه، وكلكم اتفقتم في الفقر، وفي الضعف، وفي الحاجة. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾: وخالقكم على وصفِ التَّفَرُّد.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾.

اختلفوا وتنازعوا، واضطربت أمورهم، وتفرَّقَتْ أحوالُهم، فاستأصلتهم البلايا.

قوله: ﴿كل إلينا راجعون﴾: وكيف لا... وهم ما يتقلبون إلاَّ في قبضة التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

مَنْ تَعنَّى لله لم يخسر على الله، ومَنْ تَحَمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حقُّه على الله:
قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بعد قوله: ﴿يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً ففائدة قوله ها هنا: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في المآل والعاقبة، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة، فيكون في الحال مؤمناً وعملُه يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أي لا نهلك قوماً وإن تمادوا في العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون، وأنه بالشقاوة تُخْتَمُ أمورُهم.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

أي يحق القولُ عليهم، ويتم الأجلُ المضروبُ لهم، فعند ذلك تظهر أيامهم، وإلى القَدْرِ المعلومِ في التقدير لا تحصلُ نجاةُ الناسِ من شرِّهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

تأخذهم القيامةُ بغتةً، وتظهر أشراطُ الساعة فجأة، ويُقِرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم، ولكن في وقتٍ لا تُقْبَلُ فيه مَعْذِرَتُهم، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي الأصنام التي عبدوها، ولم تدخل في الخطاب الملائكة التي عبدها قومٌ، ولا عيسى وإن عبدَه قومٌ لأنه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقلْ إنكم ومن تعبدون. فيُحْشَرُ الكافرون في النار، وتُحْشَرُ أصنامُهم معهم. والأصنامُ جماداتٌ فلا جُرْمَ لها، ولا احتراقها عقوبة لها، ولكنه على جهة براءة ساحتها، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ إلا جماداتٌ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

القوم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فعَلِمُوا أن الأصنامَ جماداتٌ، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً، وأنَّ مَنْ عبدها يَقْرُبُ بعبادتها من الله، فَبَيَّنَ اللَّهُ لهم ـ غداً ـ بأنَّها لو كانت تستحق العبادة، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَا أُلْقِيَتْ في النار، ولَمَا أُحْرِقَتْ.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ﴾: أي لِعَبَدَةِ الأصنام، ﴿فِيهَا﴾ أي في النار، ﴿زَفِيرٌ﴾ لحسرتهم على ما فاتهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ مِنْ نداءٍ يبشرهم بانقضاءِ عقوبتهم.

وبعكس أحوالهم عُصاة المسلمين في النار فَهُمْ ـ وإنْ عُذِّبوا حيناً ـ فإنهم يسمعون قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرهم يوماً بانقضاء عذابهم ـ وإن كان بعد مدة مديدة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: أي الكلمة بالحسنى، والمشيئة والإرادة بالحسنى، لأن الحسنى فعله، وقوله: ﴿سَبَقَتْ﴾ إخبار عن قِدَمِه، والذي كان لهم في القِدمِ هو الكلمة التي هي صفة تعلَّقتْ بهم في معنى الإخبار بالسعادة.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي عن النار، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ العالِمُون أن المدارَ على التقدير، وسَابقِ الحُكْم من الله، لا على تَبَاعُدِ العبد أو بتقرُّبه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

يدل على ذلك أنهم لا يُعَذَّبون فيها بكل وجهٍ. والمراد منه العِبَادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم.

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾: مقيمين لا يبرحون.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قيل الفزَعُ الأكبرُ قول المَلَكِ: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ويقال إذا قيل: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويقال إذا قيل: يا أهلَ الجنةِ.. خلوداً لا موتَ فيه، ويا أهل النار. خلوداً لا موت فيه!

وقيل إذا: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق. وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك.

قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وُعِدْتُم فيه بالثواب؛ فمنهم مَنْ يتلقَّاه المَلَكُ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عليه الخطاب والتعريف من المَلِك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

إنما كانت السماءُ سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياءُ تحتها، والأرضُ كانت فِراشاً إذ كانوا عليها، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم. على العادة بين الخَلْقِ من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب.

ويقال نطوي السماء التي إليها عَرَجَت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تشهدَ عليهم بالإجرام، وتُبَدَّلُ الأرضُ التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام.

أو نطوي السماء لنُقَرِّبَ قَطْعَ المسافات على الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

﴿ٱلذِّكْرِ﴾ هنا هو التوراة، و«كَتَبَ»: أي أخبر وحَكَمَ، و﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أمة محمد ـ ﷺ: أنَّ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هم الذين يرثونها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

أمَّا مَنْ أسلم فَبِكَ ينجون، وأمَّا مَنْ كفَرَ فلا نعذبهم ما دُمْتَ فيهم؛ فأنت رحمة مِنَّا على الخلائق أجمعين.

---

(١) الآية (١٠٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله، واحد بلا قسيم، واحد بلا شبيه، واحدٌ بلا شريك.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون في عقد التوحيد بالتبرّي عن كلِّ غيرٍ في حسبان صَلَاحِيَّتِهِ للألوهية؟

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ: إني بالالتزام أعلمتُكم، ولكن للإكرام ما ألهمتكم، فتَوَجَّهَتْ عليكم الحجة واستبهمَتْ عليكم المحجة.

قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾ إنَّ علمي متقاصِرٌ عن تفصيل أحوالكم في مآلكم، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أهوالكم، ولكنَّ حُكْمَ الله غيرُ مستأخرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

لا يخفى عليه سرُّكم ونجواكم، وحالكم ومآلكم، وظاهركم وباطنكم.. فعلى قَدْرِ استحقاقكم يُجازيكم، وبموجِب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ليس يحيط عِلْمي إلا بما يُعْلِمُني، وإعْلامُه إياي ليس باختياري، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادي وإيثاري.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الرحمن كثير الرحمة عامةً لكل أحد، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد.

السورة التي يذكر فيها «الحج»

بسم الله الرحمن الرحيم

سماعُ «بسم الله» يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم. وسماع «الرحمن الرحيم» يوجب الأُنس والقربة، وذلك وقت صحوهم.. فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سِلْكٍ واحد.

سماعُ «بسم الله» يوجِب انزعاجَ القلوب وعنده يحصل داء جنونهم، وسماعُ «الرحمن الرحيم» يوجِب ابتهاجَ القلوبِ وبه يحصل شفاءُ فتونهم، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء علامة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤] نداء كرامة، وبكلٍّ واحدٍ من القسمين يفتتح الحقُّ خطابه في السُّوَر، وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرةً، وصفة التبصير أخرى.

والتقوى هي التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات. وتجنب المحظورات فَرْضٌ، وتجنب الفضلات والشواغل ـ وإن كان من جملة المباحات ـ نَفْلٌ، فثوابُ الأول أكثر ولكنه مؤجَّل، وثوابُ النَّفْلِ أقلُّ ولكنه مُعَجَّل.

ويقال خوَّفهم بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ﴾. ثم سكَّن ما بهم من الخوف بقوله: ﴿رَبَّكُمْۚ﴾ فإنَّ سماعَ الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية.

قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾: وتسمية المعدوم «شيئاً» توَسُّعٌ، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظِ يقتضيه، وكذلك القول في تسميته «شيئاً» هو توسُّع.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

لكلِ ذلك اليومَ شُغلٌ يستوفيه ويستغرقه، وترى الناس سكارى أي من هَوْلِ ذلك

اليوم عقولهم ذاهبة، والأحوال في القيامة وأهوالها غالبة. وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، ولشِدَّتِه يحيرهم ولا يبقيهم على أحوالهم. وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سُكَارَى، ولكنَّ موجِبَ ذلك يختلف؛ فمنهم مَنْ سُكْرُه لِمَا يُصِيبه من الأهوال، ومنهم من سُكْرُه لاستهلاكه في عين الوصال.

كذلك فَسُكْرُهم اليومَ مختلفٌ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب. وشتّان بين سُكْرٍ وسُكْر! سُكْرٌ هو سُكْرُ أهلِ الغفلة، وسُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الوصلة[١].

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾.

المجادلة لله ـ مع أعداء الحق وجاحدي الدِّين ـ من موجبات القربة، والمجادلة في الله، والمماراة مع أوليائه، والإصرارُ على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة، وما كان لوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار.

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

مَنْ وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلَّا إلى الضلال، ثم إنه في الآخرة يتبرأ من موافقته ويلعن جملةَ مُتَّبِعيه. فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

التبس عليهم جواز بعثه الخَلْق واستبعدوه غاية الاستبعاد، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان، واحتجَّ عليهم في ذلك بما قطع حجتهم، فَمَنْ تَبِعَ هُداه رَشِدَ، ومَنْ أَصرَّ على غَيِّه تَرَدَّى في مهواة هلاكه.

واحتجَّ عليهم في جواز البعث بما أقروا به في الابتداء أن الله خَلَقَهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى؛ فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها... إلى أَنْ نَقَلَهم من حال شبابهم إلى زمان شَيْبِهم، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم.

واحتجَّ أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض ـ في حال الربيع ـ بعد موتها، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة. والذي يَقْدِرُ على هذه

---

(١) انظر حديث القشيري عن السكر في الرسالة القشيرية ص ٧١، ٧٢.

الأشياء يقدر على خَلْق الحياة في الرِّمة البالية والعظام النخرة.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]: زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجبة عقب المشاهدة.

ويقال أرذل العمر السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق.

ويقال أرذل العمر الزلة في زمان المشيب.

ويقال أرذل العمر الإقامة في منازل العصيان.

ويقال أرذل العمر التعريج في أوطان المذلة.

ويقال أرذل العمر العِشرةُ مع الأضداد.

ويقال أرذل العمر عَيْشُ المرءِ بحيث لا يُعْرَفُ قَدْرُه.

ويقال أرذل العمر بأن يُوكَل إلى نَفْسِه.

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله.

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس، والعَمَى عن شهود تقدير الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الله هو الحقُّ، والحق المطلق الوجود، وهو الحق أي ذو الحق.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الأرض التي أصابتها وَحْشَةُ الشتاء يحييها وقتَ الربيع.

ويقال يحيي النفوسَ بتوفيق العبادات، ويحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات.

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم.

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر، ثم بجميلِ الرضا وسكونِ الجأش عند جريان التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(١).

دليل الخطاب يقتضي جواز المجادلة في الله إذا كان صاحب المجادلة على عِلم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه، قال سبحانه لنبيِّه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ومَنْ لم يُحْسِنْ مذهبَ الخَصْم وما يتعلق به من الشُبَهِ لم يمكنه الانفصال عن شُبْهَتِه، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء منهم، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول، وفي هذا ردٌّ على مَنْ جَحَدَ ذلك.

---

(١) الآية (٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

يريد أنه متكبِّر عن قبول الحق، زاهِدٌ في التحصيل، غيرُ واضعٍ نظره موضعه؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلُّص من شُبْهته.

ثم قال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ﴾ أي مذلة وهوان، وفي الآخرة عذاب الحريق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

يعني يكون على جانبٍ، غير مخلص... لا له استجابة توجب الوفاق، ولا جَحْداً يبين الشقاق؛ فإنْ أصابه أَمْنٌ وخير ولينٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة ارتدَّ على عقبيه ناكساً، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكساً. ومَنْ كانت هذه صفته فقد خسر في الدارين، وأخفق في المنزلتين.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

أي يعبد مَنْ المضَرَّةُ في عبادتِه أكثرُ من النَّفْع منه، بل ليس في عبادته النفع بحالٍ، فالضُّرُّ المُتَيَقَّنُ في عِبادتهم الأصنام هو بيانُ ركاكة عقولِهم، ورؤيةُ الناسِ خطأَ فِعْلِهم. والنفع الذي يتوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة.

ثم قال: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: أي لبئس الناصرُ الصَّنَمُ لهم، ولبئس القومُ هم للصنم، ولِمَ لا.؟ ولأَجْلِه وقعوا في عقوبة الأبد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي صَدَّقوا ثم حقَّقوا؛ فالإيمانُ ظاهِرُه التصديق وباطنه التحقيق، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق.

ويقال الإيمان انتسام الحق في السِّرِّ.

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان، ففي الحال يجب الإيمان وفي المآل يوجب الأمان، فمُعَجَّلُ الإيمان من (...)[2] المسلمين، ومؤجَّلُه الخلاصُ من صحبة الكافرين الفاسقين.

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويصلح للثواب، وهو أن يكون على الوجه الذي تعلَّق به الإيمان.

---

(١) الآية (١٠) لم ترد.

(٢) بياض في الأصل.

والجنان التي يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة، فالمُؤَجَّلَة ثواب وتوبة، والمعَجَّلةُ أحوالٌ وقربة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

أي أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يرغم أعداءَ رسول الله ﷺ، فَمَنْ لم تَطبْ نفْسُه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتلْ نَفْسَه من الغيظ خَنقاً، ثم لا ينفعه ذلك، كما قيل:

إنْ كنتَ لا ترضى بما قد ترى فدونَكَ الحَبْلَ به فاخْنق

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾.

﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: أي دلالات وعلامات نَصبَهَا الحقُّ سبحانه لعباده، فمن الآيات ما هو قضية العقل، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل، ومنها ما هو تعريفات في أوقات المعاملات فما يجده العبد في حالاته من انغلاقٍ، واشتدادِ قبضٍ، وحصول خسران، ووجوه امتحان.. لا شكَّ ولا مرية إذا أَخَلَّ بواجبٍ أو أَلَمَّ بمحظور. أو تكون زيادة بَسْطٍ أو حلاوة طاعة، أو تيسير عسيرٍ من الأمور، أو تجدد إنعامٍ عند حصول شيءٍ من طاعاته.

ثم قد يكون آيات في الأسرار، هي خطابُ الحقّ ومحادثةٌ معه، كما في الخبر: «لقد كان في الأمم مُحَدَّثون فإن يك في أمتي فعمر»(١).

ثم يقال الآيات ظاهِرةٌ، والحجج زاهرة، ولكن الشأن فيمن يستبصر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم: الوليُّ والعدوُّ، والموحِّد والجاحد يُجْمَعُون يومَ الحشر، ثم الحقُّ ـ سبحانه ـ يعامِل كلاً بما وَعَدَه؛ إما بوصالٍ بلا مَدَى، أو بأحوالٍ بلا منتهى. الوقتُ واحد؛ وكلُّ واحدٍ لما أُعِدَّ له وافد، وعلى ما خُلِقَ له وارد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣)، والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل (٦، ٥٥).

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة، وأربابُ الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة.

وفـــي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ تـــدُلُّ عـــلـــى أنـــه واحـــدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

أما الذين كفروا فلهم اليومَ لباسُ الشركِ وطِرازُه الحرمان، ثم صدار الإفك وطرازه الخذلان. وفي الآخرة لباسهم القطران[1] وطرازه الهجران، قال تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

أمّا أصحابُ الإيمانِ فلِباسُهم اليومَ التقوى، وتنقسم إلى اجتناب الشِّرْكِ ثم مجانبة المخالفة، ثم مباينة الغفلة، ثم مجانبة السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله. وفي الآخرة لِباسُهم فيها حريرٌ، وآخرون لباسهم صدار المحبة، وآخرون لباسهم الانفراد به، وآخرون هم أصحاب التجريد؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محلَّ وهم الغُرَباءُ[2]، وهم الطبقة العليا، وهم أحرار من رِقِّ كل ما لَحِقهُ التكوين[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

التحلية تحصينٌ لهم، وسَتْرٌ لأحوالهم؛ فهم للجنة زينة، وليس لهم بالجنة زينة:

وإذا الـــدُّرُّ زَانَ حُـــسْـــنَ وجـــوهٍ كـــان لـــلـــدُّرِّ حُـــسْـــنُ وَجْـــهِـــكَ زَيْـــنَـــا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾.

الطيبُ من القول ما صَدَر عن قلبٍ خالصٍ، وسِرٍّ صافٍ مما يَرْضَى به علم التوحيد، فهو الذي لا اعتراض عليه للأصول.

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين، ويقال الطيبُ من القول هو إرشاد المريدين إلى الله.

---

(١) القطران: مادة سوداء سائلة لزجة تُستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس والحديد من الصدأ.

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التصوف: سُئل أحمد بن الجلاء: ما معنى صوفي؟ فقال: لا نعرفه في شرط العلم ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب، كان مع الله تعالى بلا مكان، ولا يمنعه الحق سبحانه سن علم كل مكان، فسمي صوفياً. (الرسالة القشيرية ص٢٨٣).

(٣) الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢) لم ترد.

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويقال الدعاء للمسلمين.

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ ويُرْجَى.

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص.

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً وهو مُسْتَنْطَقٌ.

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد بريءٌ من الذنوب.

ويقال الإقرار بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

ويقال أَنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لَكَ فيه نصيب.

وأَمَّا ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم: مسجد الجامع أي المسجد الجامع والصراط الحميد: الطريق المرضي وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة، وليس للحقيقة عليه نكير.

ويقال الصراط الحميد: ما كان طريق الاتباع دون الابتداع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل، وبِغَصْبِ المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام.

قوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم.

ومشهد الكِرَام يستوي فيه الإقدام، فَمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيبَ ولا ردَّ، وبعد الوصول فلا زَجْرَ ولا صدَّ، أمَّا في الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ ولكن في الوصول فلا تفاوتَ ولا تباين، ثم إذا اجتمعت النفوسُ فالموضع الواحد يجمعهم، ولكنْ لكلِّ حالٌ ينفرد بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

أصلحنا له مكانَ البيت وأَسكنَّاه منه؛ وأرشدناه له، وهديناه إليه، وأَعنَّاه عليه، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناءِ البيت على أساسه القديم. قوله ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾، أي لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءَك له.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ...﴾ يعني الكعبة ـ وذلك على لسان العلم، وعلى بيان الإشارة فَرِّغْ قَلبَكَ عن الأشياء كلِّها سوى ذِكْرِه ـ سبحانه.

وفي بعض الكتب: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرِّغ لي بيتاً أسكنه، فقال ذلك الرسول: إلهي. . . أي بيت تشغل؟ فأوحى الله إليه: ذلك قلب عبدي المؤمن». والمراد منه ذكر الله تعالى؛ فالإشارة فيه أن يفرِّغ قلبه لذكر الله. وتفريغ القلب على أقسام: أوله من الغفلة ثم مِنْ توهُّم شيءٍ من الحدثان من غير الله.

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بِصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال.

ويقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: أي قَلبكَ عن التطلع والاختيار؛ بألا يكون لك عند الله حظٌّ في الدنيا أو في الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية.

ويقال ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: أي بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلعِ إكرام، أو تَطَلُّبِ إنعام، أو إرادة مقام، أو سبب من الاختيار والاستقبال.

ويقال طَهِّرْ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق. ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ وهي الأشياء المقيمة من مستودعات العرفان في القلب من الأمور المُغْنِيةِ عن البرهان، ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعيان كما في الخبر: «كأنك تراه»(١).

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة، والرجاء والمخافة، والقبض والبسط، وفي معناه أنشدوا:

لست من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلبَ بيتَه والمقاما

وطوافي إجالةُ السِّرِّ فيه ... وهو ركني إذا أردتُ استلاما

قوله: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾: لا تلاحظ البيتَ ولا بِنَاءكَ للبيت.

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربِّ البيت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

أَذَّن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحج ونادى، وأسمع اللَّهُ نداءَه جميعَ الذرية في أصلابِ آبائهم، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج.

وقدَّم الرَّجالةَ على الركبان لأنَّ الحَمْلَ على المركوب أكثر.

(١) هنا الخبر إشارة إلى الحديث: «أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك في الموتى» أخرجه المنذري في (الترغيب والترهيب ٤/١٠٦ ـ ٢٤٣).
أو إلى حديث «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» سبق تخريجه.

ولتلك الجِمالِ على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب، وفي قريبٍ من معناه أنشدوا:

وإنَّ جِمالاً قد علاها جَمَالُكُم ـ وإن قُطِّعَتْ أكبادنا ـ لحبائب

ويقال ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم.

وكم قَدْرُ مسافةِ الدنيا بجملتها!؟ ولكنْ لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيمِ صنيعِهم يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

أرباب الأموال منافعهم أموالُهم، وأرباب الأعمال منافعُهم حلاوةُ طاعتهم، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاءُ أنفاسهم، وأهلُ التوحيد منافعهم رضاهم باختيارِ الحقِّ ما يبدو من الغيب لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

لأقوامٍ عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هَدْيِهم[1]. وآخرون يذكرون اسمه عند ذَبحِهِم أمانيَّهم واختيارهم بسكاكين اليأس.. حتى يقوموا بالله لله بِمَحْوِ ما سوى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾.

شَاركُوا الفقراءَ في الأكل من ذبيحتكم ـ الذي ليس بواجب ـ لتلحقكم بركاتُ الفقراء. والإشارة فيه أن ينزلوا ساحةَ الخضوع والتواضع، ومجانبة الزَّهْوِ والتكبُّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾.

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودَهم، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم، فَمَنْ كان عقدُه التوبة فوفاؤه ألا يرجعَ إلى العصيان. ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ فَشَرْطُ وفائه تركُ تقصيره. ومن كان عهدُه ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلُّع إكرامِ فوفاؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق بألا يرجع إلى استعجالِ نصيبٍ واقتضاءِ حظٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنَفْسه حولَ البيت، وبقلبه في ملكوت السماء، وبِسِرِّه في ساحات الملكوت.

---

(١) الهَدْي: ما يُهدى إلى الحرم من الإبل والبقر والغنم ليُنحر ويذبح هناك ويُتصدق بلحومه. الواحدة هدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

تعظيم الحرمات بتعظيم أمره؛ وتعظيمُ أمرِهِ بِتَرْكِ مخالفته.

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه، ولا محالةَ سيلقى سريعاً غِبَّه.

ويقال تعظيم حرماته بالغيرة على إيمانه وما فَجَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط.

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة، وترك الحرمة يوجِبُ الفُرْقة.

ويقال كلُّ شيءٍ من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق، وتَرْكُ الحرمة على خَطَرِ ألا يُغْفر. وذلك بأن يؤدي ثبوتُه بصاحبه إلى أَنْ يختَلَّ دِينُه وتوحيدُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

فالخنزير من جملة المحرمات، وكذلك النطيحة[1] والموقوذة[2]، وما يجيء تفصيله في نَصّ الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

«من» ها هنا للجِنس لا للتبعيض، وهوى كلّ من اتبعه معبودُه، وصنمُ كلّ أحدٍ نَفْسُه.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قولُ القلب ونطقه، ومَنْ عاهد اللّهَ بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور.

قوله جلّ ذكره: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

الحنيف المائلُ إلى الحق عن الباطل في القلبِ والنَّفْسِ، في الجهر وفي السِّرِّ، في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾: الشِّركُ جَلِيٌّ وخَفِيٌّ.

قوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا. . .﴾ كيف لا. . وهو يهوي في جهنم وتتجاذبه ملائكة العذاب؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق. . وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

---

(١) النطيحة: الشاة المنطوحة تموت فلا يَحِل أكلها. (اللسان ٢/ ٦٢١ مادة: نطح).

(٢) الموقوذة: الشاة ونحوها تُضرب حتى تموت ثم تؤكل. وقيل: المضروبة حتى تموت ولم تُذَكّ. (اللسان ٣/ ٥١٩ مادة: وقذ).

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً، وبخواطر الإلهام سِرّاً. وكما لا تجوز مخالفةُ شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنّ خاطر الحقّ لا يكذِبُ، وعزيزٌ مَنْ له عليه وقوف. وكما أنَ النَّفْسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب، وإذا خولف القلبُ عَمِيَ في المستقبل، وانقطعت عنه تعريفاتُ الحقيقة، والعبارة والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير. ويقوي القلبُ بتحقيق المنازلة؛ فإذا خرست النفوسُ، وزالت هواجسها، فالقلوب تنطق بما تُكاشَفُ به من الأمور.

ومنَ الفَرْقِ بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم صاحبُه أولاً ثم يعمل مختاراً، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه ذلك معناه، ولا يكون الذي يجْرِي عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى ما يُجْرَى. وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار، بل يكون مختاراً ولكنّ سببَه عليه مشكلٌ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

لكلٍّ من تلك الجملة منفعةٌ بِقَدْره وحدِّه؛ فلأقوام بركاتٌ في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم، ولآخرين في لذاذاتِ بَسطِهم، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم، ولآخرين في أُنسِ أنفاسهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف، ثم هم فيها مختلفون: فقومٌ هم أصحاب التضعيف[١] فيما أوجب عليهم وجعل لهم، وقومٌ هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وُعدَ لهم. قوله ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ﴾ وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام: منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم.. وذلك من حيث الشكر، ثم يذكرون اسمه على ما وفّقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يُثيبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

أي استَسلموا لِحُكمه بلا تَعبيسٍ ولا استكراهٍ من داخل القلب.

---

(١) قال القشيري برسالته: إن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. (الرسالة القشيرية ص٣٨٠).

والإسلام يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال، ثم تصفية الأنفاس. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة. ومنْ أماراتِ الإخباتِ كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع، وذلك بإطراق السريرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الوجَلُ الخوفُ من المخافة، والوجَلُ عند الذكر على أقسام: إما لخوفِ عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم، أو لخروجٍ من الدنيا على غفلَةٍ من غير استعدادٍ للموت، أو إصلاح أُهْبَةٍ، أو حياءٍ من الله سبحانه في أمورٍ إذا ذكَرَ اطلاعه ـ سبحانه ـ عليها لمَا بَدَرَت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة.

ويقال الوجَلُ على حسب تجلي الحق للقلب؛ فإن القلوب في حال المطالعةِ والتجلي تكون بوصف الوجل والهيبة.

ويقال وَجلٌ له سبب وجل بلا سبب؛ فالأول مخافةٌ من تقصير، والثاني معدودٌ في جملة الهيبة[1].

ويقال الوجَلُ خوفُ المَكْرِ والاستدراج، وَأقربُهم من الله قلباً أكثرهُم من الله ـ على هذا الوجه ـ خوفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

أي خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراهٍ ولا تمني خَرْجةٍ، ولا رَوْمِ فُرْجةٍ بل يستَسلِمُ طوعاً:

ويقال الصابرين على ما أصابهم. أي الحافظين معه أسرارهم، لا يطلبون السلوة بإطلاعِ الخَلق على أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محلِّ النجوى:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً ... تمنَّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسمَعَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

عند المعاملة من أموالهم، وفي قضايا المنازلة بالاستسلام، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير؛ فينفقون أبدانَهم على تحمل مطالبات الشريعة، وينفقون قلوبَهم على التسليم والخمود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٥٨ ـ ٦١.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أَقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحَمْل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بِخِلْقَتِها كيف سُخِّرتْ للناس على قوتها وصورتها، ثم كيف تنقاد للصبيان في البروكِ عند الحَمْل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في الأسفار، وعلى قليل العَلَف، ثم ما في طبْعِها من لُطْفِ الطبع، وحيث تستريح بالحُدَاءِ[1] مع كثافة صورتها إلى غير ذلك.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: أي سقطت على وجه الأرض في حال النَّحْرِ فأطعموا القانع الذي ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس، والمُعْتَرَّ الذي هو في تَحَمُّله مُتَحَمِّلٌ، ولمواضِع فاقته كاتم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لا عِبْرةَ بأعيان الأفعال سواء كانت بدنيةً محضة، أو ماليةً صِرْفة، أو بما له تعلُّق بالوجهين، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص فإذا انضافَ إلى أكسابِ الجوارح إخلاصُ القصود، وتَجَرَّدَتْ، عن ملاحظة أصحابِها للأغيارَ صَلُحَتْ للقبول.

ويقال التقوى شهودُ الحقِّ بِنَعْتِ التفرُّدِ؛ فلا يُشَابُ تَقَرُّبُكَ بملاحظةِ أحدٍ، ولا تأخذ عِوَضاً على عملٍ من بَشَرٍ.

﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: أي هداكم وأرشدكم إلى القيام بحقِّ العبودية على قضية الشرع.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: والإحسان كما في الخبر: «أن تعبد الله كأنك تراه..».

وأمارةُ صحته سقوطُ التعبِ بالقلبِ عن صاحبِهِ، فلا يستثقلُ شيئاً. ولا يتبرم بشيءٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

يدفع عن صدورِهم نزغاتِ الشيطان، وعن قلوبِهم خطراتِ العصيان، وعن أرواحهم طوارقَ النسيان.

والخيانةُ على أقسام: خيانةٌ في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية، وخيانة في الأعمال، وخيانة في الأحوال؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع، وخيانة الأحوال

(١) الحُداء: سوق الإبل والغناء لها. (لسان العرب ١٤/ ١٦٨ مادة: حدا).

بالملاحظة والإعجاب والمساكنة، وشرُّها الإعجابُ، ثم المساكنةُ وأخفاها الملاحظة.

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا على طلب الأعواض ليجدوا في الآخرة حُسْنَ المآل.. وهذا إخلاص الصالحين. ولكنه عند خواص الزهاد خيانة؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العِوَض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله.

وخيانةُ العابدين أن يَدَعُوا شهواتِهم ثم يرجعون إلى الرُّخَص، فلو صدقوا في مرماهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها.

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب.

وخيانة المحبين روم فرحة مما يمسهم من برحاء المواجيد، وابتغاء خرجة مما يَشْتَدُّ عليهم من استيلاء صَدٍّ، أو غلبات شوقٍ، أو تمادي أيامِ هَجْرٍ.

وخيانة أربابِ التوحيد أن يتحرك لهم للاختيارِ عِرْقٌ، ورجوعُهم ـ بعد امتحائِهم عنهم ـ إلى شظية من أحكام الفَرْقِ، اللهم إلا أن يكونَ ذلك منهم موجوداً، وهم عنه مفقودون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسَّهم ـ ما هو في الظاهر ـ ذُلٌّ من الأعادي يجري عليهم ضَيْمٌ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاءٌ وظلمٌ.. فالحقُّ ـ سبحانه ـ ينتقِمُ من أعدائهم لأَجْلِهم، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال، وتفاصيلُ الأقدارِ جاريةٌ باستئصالِ مَنْ يناويهم، وبإحالة الدائرة على أعاديهم. وفي بعض الأحايين ينصبهم الحقُّ سبحانه بنعت الغَلَبَةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَرِ، وتمامِ حصولِ الدائرة على مَنْ نَاصَبَهم، وأخزاهم بأيديهم، وكلُّ ذلك يتفق، وأنواعُ النصرةِ من الله ـ سبحانه ـ حاصلةٌ، واللَّهُ ـ في الجملةِ ـ غالِبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]. وقد يجري من النَّفْسِ وهواجِسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ وأهلِ القصةِ ـ ظُلْمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ، وتستولي غَاغَةُ النَّفس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال، كما قال قائلهم:

أنعي إليكَ قلوباً طالما هَطَلَتْ ... سحائبُ الجودِ فيها أبْحُرَ الحِكَم

فَيَهْزِمُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بجنودِ الإقبالِ أَرَاذِلَ الهواجسِ، وينصرُ عَسْكَرَ التحقيقِ بأَمْدَادِ الكشوفات. ويَتَجَدَّدُ دارسُ العهد، وتطْلُعُ شموسُ السَّعْدِ في ليالي الستر، وتُكْنَسُ القلوبُ وتتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفسِ، كما قيل:

أطـلالُ سُـعْـدَى بـالـلِّـوى تَـتَـجَـدَّدُ

فإذا هبَّتْ على تلك القلوب رياحُ العناية، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صَوْبَ[1] التجلِّي، وأنبت فيها أزهارَ البَسْط فيتضح فيها نهارُ الوَصْلِ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام.. وتلك سُنَّةٌ أجراها الله لاستنقاء منازل العبادة، واستصفاء مناهل العرفان. ولا تحويل لِسُنَّتِه، ولا تبديل لكريم عادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

إذا طالت بهم المدةُ، وساعَدَهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم في استجلاب حظوظهم، ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا.

وقوله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الظاهر، واستداموا المواصلات في الباطن.

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها؛ فتَعْلَمَ ـ بين يدي الله ـ مَنْ أنت، ومَنْ تناجي، وَمنْ الرقيب عليك، ومن القريب منك.

وقوله: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم، وفقراؤهم يُؤْتُون زكاةَ أحوالهم؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خَمْسَة للفقراء والباقي لهم، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نَفَسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله، ونصف جزء من نَفَسٍ ـ من المائتين ـ لَكَ.. وذلك أيضاً عِلَّةٌ.

قوله: ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: يبتدئون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأَنفُسِهم ثم بأغيارهم، فإذا أخذوا في ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم.

ويقال «الأمر بالمعروف» حفظ الحواس عن مخالفة أمره، ومراعاة الأنفاس معه إجلالاً لِقَدْرِه.

---

(١) الصَّوْب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

ويقال الأمر بالمعروف على نَفْسك، ثم إذا فَرَغْتَ من ذلك تأخذ في نهيها عن المنكر. ومنْ وجوهِ المنكرِ الرياءُ والإعجابُ والمساكنةُ والملاحظةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

في الآيات تسليةٌ للنبي ـ ﷺ، وأمرٌ حَتْمٌ عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاءِ وصنوفِ الأسواء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

الظلمُ يوجِبُ خرابَ أوطانِ الظالم، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه، فالوحشةُ التي هي غالبةَ على الظَّلَمَةِ من ضيقِ صدورهم، وسوءِ أخلاقهم، وفَرْطِ غيظ مَنْ يَظْلِمُونَ عليهم.. كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم.

ويقال خرابُ منازلِ الظَّلَمَةِ ربما يتأخر وربما يتعجل. وخرابُ نفوسهم في تعطلها عن العبادات لِشُؤْم ظُلْمِهم، وخرابُ قلوبهم باستيلاءِ الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم.. نقدٌ غير مستأخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

الإشارة في ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾: إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم، وكانوا يستقون منها، وفي ذلك الاستقاء حياةُ أوقاتِهم من غلبات الإرادة وقوة المواجيد، فإذا اتصفوا بظلمهم غَلَبَ غُثاؤها[1] وانقطع ماؤها بانسداد عيونها.

والإشارة في ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأُنْس، وخُلُوّ أرواحهم من أنوار المحابّ، وسلطان الاشتياق، وصنوف المواجيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

كانت لهم قلوبٌ من حيث الخلقة، فلما زايلتها صفاتُها المحمودةُ صارت كأنها لم تكن في الحقيقة. ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصم. وإذا صَحَّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صَحَّ وصفُه بسائر صفات الحيِّ من وجوه الإدراكات؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدْرِكُ نسيمُ الإقبال بِمَشَامِّ السِّرِّ، وفي الخبر:

---

(١) الغُثاء: ما يحمله السيل من القمش. أو ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره. (لسان العرب ١٥/ ١١٥ ـ ١١٦ مادة: غثا).

«إني لأجد نَفَسَ ربكم من قِبَل اليمن»(١) وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريح في الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهم على استعمال ما توعدهم به، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ولو آمنوا لصدَّقوا، ولو صدَّقوا لَسَكَنُوا. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾: أي إنَّ الأيامَ عنده تتساوى، إذ لا استعجالَ له في الأمور؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة؛ إذ مَنْ لا يَجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجرِي الزمانَ فَسَوَاء عليه وجودُ الزمانِ، وعدم الزمان وقِلة الزمانِ وكَثْرَةُ الزمانِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

الإمهال يكون من الله ـ سبحانه وتعالى، والإمهال يكون بأَنْ يَدَعَ الظالمَ في ظُلْمِه حيناً، ويوسِّع له الحَبْل، ويطيل به المهل، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير، وذلك ظنه الذي أراده، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتَقِب، فيعلوه نَدَمٌ، ولات حينه، وكيف يستبقي بالحيلة ما حق في التقدير عَدَمُه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أُشابِهُكُم في الصورة ولكني أُبَايِنُكم من حيث السريرة، وأنا لِحُسْنِكم بشير، ولِمُسِيئِكُم نذير، وقد أَيَدْتُ بإقامةِ البراهينِ ما جِئتكم به من وجوهِ الأمر بالطاعة والإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

الناس ـ في المغفرة ـ على أقسام: فمنهم من يستر عليه زَلَّتَه، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة، ومنهم من يستر حاله لئلا تُصيبَه مِنَ الشهرةِ فتنةٌ، وفي معناه قالوا:

لا تُنْكِرَنْ جُحْدِي هَوَاكَ فإنما ... ذاك الجحودُ عليكَ سِتْرٌ مُسْبَلُ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه، لذلك وَرَدَ في الكتب: «أوليائي في قبائي، لا يشهد أوليائي غيري».

---

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل..» أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٥١ ـ ٣٠٤.

﴿والرزق الكريم﴾ ما يكون من وجه الحلال. ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِب العبدُ.

ويقال هو الذي يبدو ـ من غير ارتقابٍ ـ على رِفْقٍ في وقت الحاجة إليه.

ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوقَ على صَرْفه في وَجْهِ القربة. ويقال ما فيه البركة.

ويقال الرزق الكريم الذي يُنال من غير تعب، ولا يتقلد مِنَّةَ مخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

في الحال في معَجَّلِه الوحشةُ وانسدادُ أبوابِ الرشدِ، وتنغصُ العَيْش، والابتلاءُ بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله.

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الإجرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطانَ ولا تأثيرَ في أحوالهم منهم، ونبيُّنا ـ ﷺ ـ أفضل الجماعة.

وإنما من الشيطان تخييلٌ وتسويل من التضليل. وكان لنبيِّنا ـ ﷺ ـ سَكَتَاتٌ في خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات، فيتلَفَّظ الشيطانُ ببعض الألفاظ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلٌ تَوَهَّمَ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ ـ عليه الصلاة والسلام وصار فتنةً لقوم.

أما ـ الذين أيدهم بقوة العصمة، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُم ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

إذا أراد اللَّهُ بِعَبْدِه خيراً أمدَّه بنور التحقيق، وأَيَّده بحسن العصمة، فيميِّز بحسن البصيرة بين الحق والباطل؛ فلا يُظِلُّه غمامُ الرَّيْبِ، وينجلي عنه غطاءُ الغَفْلة، فلا تأثير لضبابِ الغَداةِ في شُعاع الشمس عند متوع النهار، وهذا معنى قوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

لم يتخصص مُلْكه ـ سبحانه ـ بيوم، ولم تتحدد له وقتيةُ أمرٍ، ولا لجلاله قَدْرٌ، ولكنَّ الدعاوى في ذلك اليوم تنقطعُ، والظنون ترتفع، والتجويزات تتلاشى؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نِعَمٌ، وللكفار وأصحاب الشقاق نِقَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

هؤلاء لهم عذاب مهين، وهؤلاء لهم فضل مبين.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ...﴾: للقلوب حلاوةُ العرفان، وللأرواح حُلَّةُ المحاب، وللأسرار دوام الشهود.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلٗا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾.

إدخالاً فوق ما يَتَمَنّونه، وإبقاءً على الوصف الذي يُهْدَوْنه.. ذلك في أوان صحوهم لينالوا لطائفَ الأُنسِ على وصف الكمال، ويتمكنوا من قضايا البَسْطِ على أعلى أحوال السرور.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾.

نَصْرُه ـ سبحانه ـ للأولياء نَصْرٌ عزيز، وانتقامه بتمام، واستئصالُه بكمال، وإزهاقه أعداءَه بتمحيق جملتهم، وألا يحتاجَ المنصورُ إلى الاحتيالِ أو الاعتضادِ بأشكال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾.

كما في أفقِ العَالَم لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار؛ فعند التجلي نهار وعند الستر ليل، ولليلِ السِّرِّ ونهاره زيادةٌ ونقصان، فبمقدار القبض ليلٌ وبمقدار البسط نهارٌ، ويزيد أحدُهما على الآخرِ وينقص.. وهذا للعارفين. فأمَّا المحقِّقُون فَلَهُم الأُنسُ والهيبةُ مكانَ قبضِ قوم وبَسْطِهم، وذلك في حَالَيْ صحوِهم ومحوهم، ويزيد أحدهما وينقص، ومنهم من يدوم نهارُه ولا يد[illegible] [illegible]له ليلٌ.. وذلـ[illegible] لأهل الأُنس فقط.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

إذا بدا عِلْمٌ من الحقائق حَصَلَت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلي،

ثم يزيد ظهورُ ما يبدو ويغلب، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى، قال: ﷺ: «إذا أَقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا» فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ بما دون اللَّهِ فلا يشهد أولاً الأشياءَ إلا للحقِّ، ثم لا يشهدها إلا بالحقِّ، ثم لا يشهد إلا الحق.. فلا إحساسَ له بغير الحق، ومِنْ جملة ما ينساه.. نَفْسُه والكونُ كله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ماءُ السماءِ يحيي الأرض بعد موتها، وماءُ الرحمةِ يحيي أحوال أهلِ الزَّلةِ بعد تَرْكِها، وماءُ العناية يحيي أحوال (...)[1] بعد زوال رونقها، وماء الصولة يحيي أهل القربة بعد نضوبها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

المُلْكُ له، وهو عن الجميع غني، فهو لا يستغني بمُلْكه، بل مُلْكه بصير موجوداً بخَلْقِه إياه؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك.

ويقال كما أنه غنيٌّ عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غنيٌّ عن الأكابر وجميع الأولياء.

ويقال إذا كان الغنيُّ حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِي حتى يُشْكَر.

ويقال الغنيُّ الحميد المستحِقُّ للحمد: أعطى أو لم يُعْطِ؛ فإن أَعْطى استحقَّ الحمدَ الذي هو الشكر، وإنْ لم يُعْطِ استحق الحمد الذي هو المدح.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أراد به تسخيرَ الانتفاع بها؛ فما للخَلْقِ به انتفاع ومُيَسَّرٌ له الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه، ثم يُرَاعَى فيه الإذنُ؛ فَمَنْ استمتع بشيءٍ على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ، ومَنْ كان بالعكس فمكرٌ واستدراج.

وأمَّا السفينة.. فإلهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها؛ بالحَمْل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد، ثم ما يحصل بها من قَطْع المسافات البعيدة، والتوصل بها إلى المضارب النائية، والتمكن من وجوه الانتفاع ففي ذلك أعظمُ نعمة، وأكملُ عافية.

---

(١) بياض في الأصل.

وجعل الأرضَ للخَلْقِ قراراً من غير أن تميد، وجعل السماءَ بناء من غير وقوع، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام، ثم هي زينة السماء ـ وفي ذلك من الأدلة ما يوجب ثَلَجَ الصدر وبَرْدَ اليقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾.

إحياءُ النفوسِ وإماتتها مراتٌ محصورةٌ، وإحياءُ أوقاتِ العُبّاد وإماتتها لا حَصْرَ له ولا عَدَّ، وفي معناه أنشدوا.

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا ... فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ

ويقال يُحْيي الآمالَ بإشهادِ تفضله، ثم يميتها بالإطلاع على تعَزُّزِه.

ويقال هذه صفة العوام منهم، فأمّا الأفاضل فحياتُهم مسرمدة وانتعاشهم مؤبّد. وأنّى يحيا غيرُه وفي وجوده ـ سبحانه ـ غُنْيَةٌ وخَلَفٌ عن كل فائت؟

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

جَعَلَ لكلِّ فريقٍ شِرْعةً هم واردوها، ولكلِّ جماعةٍ طريقةً هم سالكوها.

وجعلِ لكلٍّ مقام سُكّانه، ولكلٍّ محلٌّ قُطّانه، فقد ربط كُلّا بما هو أهلٌ له، وأوصل كلاً إلى ما جعَله محلاً له؛ فبِساط التَّعَبُّدِ موطوءٌ بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معمورةٌ بأصحاب التكلف من المجتهدين، ومجالسُ أصحابِ المعارفِ مأنوسةٌ بلزوم العارفين، ومنازلُ المحبين مأهولةٌ بحضور الواجدين.

قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ...﴾ اشهَدْ تصاريفَ الأقدار، واعمل بموجِب التكليف، وانتهِ دون ما أُذِنْتَ له من المناهل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

كِلْهُم إلينا عندما راموا من الجدال، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال، فإنهم قوالبُ خاويةٌ، وأشباحٌ عن المعاني خالية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾.

أمّا الأجانب فيقول لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وأمّا الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً، وأقوام مخصوصون يقول لهم: بيني وبينكم حساب؛ فلا جبريلَ يحكم بينهم ولا ميكائيل، ولا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميعَ خصمائه، ويأمر بإرضاء جميع غُرَمَائِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

يعلم السِّرَّ والنجوى، وما تكون حاجةُ العبدِ له أَمَسَّ وأقوى، وبكلِّ وجهٍ هو بالعبد أَوْلى، وله أن يحمل له النُّعْمى، ويزيل عنه البَلْوى، ولا يسمع منه الشكوى، فله الحُكْمُ تبارك وتعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾.

الآية تشير أَنَّ مَنْ جملة خواصِّه أفرده ـ سبحانه ـ ببرهان، وأَيَّده ببيان، وأعزَّه بسلطان. ومَنْ لا سلطانَ له يمتد إليه قَهْرُه، ومن لا برهان له ينبسط عنه ـ إلى غيره ـ نورُه، فهو بِمَعْزِلٍ عن جملته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

لِسَمَاع الخطابِ أَثَرٌ في القلوبِ من الاستبشارِ والبهجة، أو الإنكار والوحشةِ. ثم ما تخامره السرائرُ يلوحُ على الأسِرّةِ في الظاهر؛ فكانت الآياتُ عند نزولِها إذا تُلِيَتْ على الكفارِ يلوح على وجوهِهم دُخَانُ ما تنطوي عليه قلوبُهم من ظلماتِ التكذيب، فما كان يقع عليهم طَرْفٌ إلّا نَبَأ عن جحودهم، وعادت إلى القلوب النُّبُوءةُ عن إقلاعهم.

ثم أخبر أنَّ الذي هم بصَدَدِه في الآخرةِ من أليم العقوبةِ شرٌّ بكل وجهٍ لهم مِمَّا يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم. وإنّ المناظِرَ الوضيئةَ للرائين مُبْهِجةٌ، والمناظِرَ المُنْكَرةَ للناظرين إليها موحِشَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾.

نَبه الأفكارَ المُشتَّتةَ، والخواطرَ المتفرقة على الاستجماع لِسماع ما أراد تضمينه فيها؛ فاستحضرها فقال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ . . .﴾.

ثم بيَّنَ المعنى فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وتسمونها آلهة أنها

للعبادة مستحقة لن يخلقوا بأجمعهم مذباباً، ولا دونَ ذلك. وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذهم ذلك منه، ومَنْ كان بهذه الصفة فَسَاءَ المَثَلُ مَثلُهم، وضَعُفَ وصفُهم، وقَلَّ خَطَرُهم.

ويقال إن الذي لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهْون بِقَدْرِه!

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

ما عرفوه حقَّ معرفتِه، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت. ومَنْ لم يكن في عقيدته نَقْصٌ لِمَا يستحيل في وصفه ـ سبحانه ـ لم تُباشِرْ خلاصةُ التوحيدِ سِرَّه، وهو في تَرَجُّم فِكْرٍ، وتجويز ظنٍ، وخَطَرَ تعَسُّف، يقعُ في كل وهدة من الضلال.

ويقال العوامُ اجتهادُهم في رَفْضِهم الأعمالَ الخبيثةَ خوفاً من الله، والخواص جهدهم في نَقْضِ عقيدتِهم للأوصافِ التي تَجِلُّ عنها الصمدية، وبينهما (. . . .)[1] بعيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي أي قادر على أن يُخلقَ مَنْ هو فوقهم في التحصيل وكمال العقول. ﴿عَزِيزٌ﴾: أي لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه ـ إلا بما يليق بصفة البشر ـ بِقَدرٍ من العرفان.

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصُور، ولكنْ كلٌّ بِوَجْدِه مربوطٌ، وبحدِّه في همته موقوف، والحق سبحانه عزيز.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

الاجتباء والاصطفاءُ من الحق سبحانه بإثبات القَدْرِ، وتخصيص الطَّوْلِ، وتقديمهم على أشكالهم في المناقب والمواهب.

ثم بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ؛ فالفضيلةُ بحقِّ المُرْسِلِ، لا لخصوصيةٍ في الخِلْقةِ في المُرْسَلِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

يعلم حالَهم ومآلَهم، وظاهرهَم وباطنهم، ويومَهم وغدَهم، ويعلم نَقْضَهم عَهْدَهم؛ فإليه مُنْقَلَبُهم، وفي قبضتِه تَقلُّبُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الركوعُ والسجودُ والعبادةُ كُلُّها بمعنى الصلاة؛ لأنَّ الصلاةَ تشتمل على هذه الأفعال جميعها، ولكنْ فَرَّقَها في الذكر مراعاةً لقلبِكَ من الخوف عند الأمر بالصلاة؛

---

(١) بياض في الأصل.

فَقَسَّمها ليكونَ مع كلّ لفظةٍ ومعنى نوعٌ من التخفيف والترفيه، ولقلوبِ أهلِ المعرفةِ في كل لفظةٍ راحة جديدة.

ويقال لَوَّنَ عليهم العبادةَ، وأَمَرَهم بها، ثم جميعُها عبادةٌ واحدةٌ، ووَعَدَ عليها من الثوابِ الكثيرِ ما تقْصُرُ عن عِلْمه البصائر.

ويقال عَلِمَ أَنَّ الأحبابَ يُحِبُّون سماعَ كلامِه فَطَوّلَ عليهم القولَ إلى آخر الآية؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أُنساً على أُنسٍ، ورَوْحاً على روْح، ومُعَادُ خطابِ الأحبابِ وهو رَوْحُ رُوحهم، وكمالُ راحتهم.

ثم قال بعد هذا: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ فأدخل فيه جميعَ أنواع القُرَبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: حق الجهاد ما وافق الأمر في القَدْرِ والوقتِ والنوعِ، فإذا حَصَلَتْ في شيءٍ منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جهاده.

ويقال المجاهدة على أقسام: مجاهدةٌ بالنَّفسِ، ومجاهدةٌ بالقلبِ، ومجاهدةٌ بالمال. فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بَذَلَه في الطاعة بتحمل المشاق، ولا يطلب الرخص والإرفاق. والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُه عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة، والعزمُ على المخالفات، وتذكرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات. والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار.

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق، وتقديم الأشق على الأسهل ـ وإنْ كان في الأَخَفِّ أيضاً حق.

ويقال حق الجهاد ألا يَفْتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النَّفْس لحظةً، قال قائلُهم:

يا رَبِّ إنَّ جهادي غيرُ مُنقطِعٍ فكلُّ أرضٍ لي ثَغرٍ طرسوس

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾.

يحتمل أنه يقول مِنْ حَقِّ اجتبائه إياكم أَنْ تُعَظِّمُوا أَمْرَ مولاكم.

ويحتمل أن يقال هو الذي اجتباكم، ولولا أنه اجتباكم لَمَا جَاهَدْتُم، فلاجتبائه إياك وَفَّقَكَ حتى جاهدتَ.

ويقال عَلِم ما كنتَ تفعله قبل أَنْ خَلَقَكَ ولم يمنعه ذلك مِنْ أَنْ يَجْتَبِيَكَ، وكذلك إنْ رأى ما فَعَلْتَ فلا يمنعه ذلك أَنْ يتجاوزَ عنك ولا يعاقبك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الشرع مبناه على السهولة، والذي به تصل إلى رضوانه وتستوجِب جزيلَ فضله وإحسانه، وتتخلَّص به من أليم عقابه وامتحانه ـ يسيرٌ من الأمر لا يستغرق كُنْه

إمكانك؛ بمعنى أنَّك إنْ أَرَدْتَ فِعْلَه لَقَدَرْتَ عليه، وإنْ لم توصَفْ في الحال بأنَّك مستطيعٌ ما ليس بموجودٍ فيك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

أي اتَّبِعوا والزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم عليه السلام في البَذْلِ والسخاء والجود والخلة والإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

اللَّهُ هو الذي اجتباكم، وهو الذي بالإسلام والعرفان سَمَّاكم المسلمين. وقيل إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، نَصَبَ الرسولَ بالشهادة علينا، وأمره بالشفاعة لأمته، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقى للشفاعة موضعاً ومحلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله، ومَنْ كانت له شهادة عند أحد ـ وهو كريم ـ فلا يجرح شاهده، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ بحكم الإتمام، ونعت الاستدامة، وجميل الاستقامة.

والاعتصامُ بالله التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. ويقال الاعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة.

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ نِعْمَ المولى: إخبارٌ عن عظمته، ونعم النصير: إخبارٌ عن رحمته.

ويقال إن قال لأيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤] ولسليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] فلقد قال لنا: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، ومدحه لِنفسه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك.

ويقال: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: بَدَأَكَ بالمحبة قبل أنْ أحببته، وقبل أن عَرَفْتَه أو طَلَبْتَه أو عَبَدته.

﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: إذا انصرف عنكَ جمع مَنْ لَكَ فلا يدخل القبرَ معك أحدٌ كان ناصِرَك، ولا عند السؤال أو عند الصراط.

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو، وللمسمى بهذا الاسم استحقاقُ العلو، فالاسم اسم لسموِّه من القِدَم، والحقُّ حقٌّ لعلوِّه بحق القِدَم.

ويقال مَنْ عرف «بسم الله» سمت هِمَّتهُ عن المرسومات، ومَنْ أَحبَّ بسم الله صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات.

اسمٌ مَنْ طَلَبَه نَسِيَ من الدارين أَرَبَه، ومَنْ عَرَفَه وَجَدَ بقلبه ما لا يعرِف سَبَبَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

ظَفِرَ بالبُغْيَةِ وفاز بالطِّلْبَةِ مَنْ آمَنَ بالله.

و «الفَلَاحُ»: الفوزُ بالمطلوبِ والظَّفَرُ بالمقصود.

والإيمانُ انتسامُ الحقِّ في السريرة، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةَ القلب، واستمكانُ التحقيقِ من تأمور[1] الفؤاد.

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السِّرِّ على بِساطِ النَّجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة، والذوبانِ تحت سلطان الكشف، والامتحاءِ عند غَلَبَاتِ التَّجلِّي.

ويقال أَدرَكَ ثَمَرَاتِ القُرْبِ وفَازَ بكمالِ الأُنْسِ مَنْ وَقَفَ على بِساط النجوى بنعت الهيبة، ومراعاةِ آداب الحضرة. ولا يَكْمُلُ الأُنْسُ بلقاءِ المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب. وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النَّفْسُ؛ فلا راحةَ للمُصَلِّي مع حضورِ نَفْسه، فإذا خنس عن نَفْسِه وشاهِدِه عَدِمَ إحساسَه بآفاتِ نَفْسِه، وطابَ له العيشُ، وتَمَّتْ له النُّعْمَى، وتَجلَّتَ له البُشْرى، ووَجَدَ لذَّةَ الحياةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

ما يَشغَلُ عن الله فهو سَهْوٌ، وما لي لله فهو حَشْوٌ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمعقولٍ مع الله فهو لَغْوٌ، وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ، والتعريجُ على شيءٍ من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ.

---

(١) التامور: دم القلب وحبّته وحياته، وقيل: هو القلب نفسه. (لسان العرب ٤/ ٣٣ مادة: أمر).

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومَدْحِه من كلام خُلْقِه فكل ذلك لغو.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾.

الزكاةُ النَّماءُ، ومَنْ عَمَلُه للنماءِ فأمارةُ ذلك أن يكونَ بنقصانه في نفسِه عن شواهده ولا يبلغ العبدُ إلى كمالِ الوصفِ في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

لفروجِهم حافظون ابتغاءَ نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللَّهِ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

أي مَنْ جَاوزَ قَصْدَ إيثار الحقوق، وجَنَحَ إلى جانب استيفاء الحظوظ... فقد تَعدَّى مَحَلَّ الأكابر، وخالف طريقتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

الأماناتُ مختلفةٌ، وعند كلِّ أحدٍ أمانةٌ أخرى، فقومٌ عندهم الوظائفُ بظواهرهم، وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم، ولقومٍ معاملاتُهم، ولآخرين منازلاتهُم، ولآخرين مواصلاتهم.

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم مَنْ عاهده ألا يَعْبُدَ سواه، ومنهم مَنْ عَاهَده ألا يشهدَ في الكونين سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين، ولا يدْعُوهم المُنَادِي وهم ليسوا بالباب، فهم في الصف الأول بظواهرهم، وكذلك في الصف الأول بسرائرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

الإرث على حسب النَّسب، وفي استحقاق الفردوسِ بوصف الإرثِ لِنَسَبِ الإيمان في الأصل، ثم الطاعات في الفضل.

وكما في استحقاق الإرث تفاوتٌ في مقدار السهمان: بالفرض أو بالتعصيب ـ فكذلك في الطاعات؛ فمنهم مَنْ هم في الفردوس بنفوسهم، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (...)[1] عن حالات قلوبهم.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾.

عَرَّفهم أصلَهم لئلا يُعْجَبُوا بِفعلِهم.

ويقال نَسَبَهُم لئلا يخرجوا عن حَدِّهم، ولا يغلطوا في نفوسهم.

ويقال خَلَقَهم من سُلالَةٍ سُلَّتْ من كل بقعه؛ فمنهم مَنْ طينته من جَرْدَةٍ[١] أو من سَبْخَةٍ أو من سَهْلٍ، أو من وَعْرٍ... ولذلك اختلفت أخلاقهم.

ويقال بَسَطَ عُذْرَه عند الكافة؛ فإنَّ المخلوقَ من سلالة من طين... ما الذي يُنْتَظرُ منه؟!

ويقال خلقهم من سلالة من طين، والقَدْرُ للتربية لا للتربة.

ويقال خلقهم من سلالة ولكنَّ مَعْدِنْ المعرفةِ ومَرْتَعْ المحبةِ ومتعلقَّ العناية منه لهم؛ قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويقال خَلَقَهم، ثم من حالٍ إلى حالٍ نَقَلَهم، يُغَيِّر بهم ما شاء تغييره.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾.

قطرةٌ أجزاؤُها متماثِلةٌ، ونُطْفَةٌ أبعاضُها متشاكِلة، ثم جعل بعضها لَحماً وبعضَها عَظْماً، وبعضَها شَعْراً، وبعضها ظُفراً، وبعضها عَصَباً، وبعضها جِلْداً، وبعضها مُخّاً، وبعضها عِرْقاً. ثم خَصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ، وكلَّ جُزْءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ. ثم الصفاتُ التي للإنسان خَلَقَها متفاوتةً، من السَّمْع والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلم والإرادةِ والشجاعةِ والحقد والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحَصْرُ والعَدُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

في التفاسير أنه صورة الوجه، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة، واخْتُصَّ به السَّمْع والبصر والعقل والتمييز، وما تفرَّد به بعضٌ منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات.

ويقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: وهو أن هَيَّأهم لأحوالٍ عزيزة يُظْهِرها عليهم بعد بلوغهم، إذا حصل لهم كما التمييز من فنون الأحوال؛ فلقوم تخصيصٌ بزينة العبودية، ولقومٍ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية، ولآخرين تحقُّقٌ بالصفاتِ الصَّمدية بامتحائهم عن الإحساس بِمَا هم عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية.

---

(١) الجرد: من الأرض: ما لا نبات فيه (ج) أجارد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

خلق السمواتِ والأرضين بجملتها، والعرشَ والكرسيَّ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها ـ ثم لمَّا أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خَلْقِهِ بني آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً، وإفراداً لهم من بين المخلوقات.

ويقال إنْ لم يَقُلْ لَكَ إنَّكَ أحسنُ المخلوقاتِ في هذه الآية فلقد قال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين ـ ولم يُثْنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثني عليك.

ويقال لما ذكر نعتَك، وتاراتِ حالِكَ في ابتداء خَلْقَك، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق، ولا بيانُ مدحٍ ينطلق... نَابَ عنك في الثناء على نفسه، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

أنشدوا:

آخر الأمر ما ترى　　　القبر واللحد والثرى

وأنشدوا:

حياتُنا عندنا قروضٌ　　　ونحن بعد الموت في التقاضي
لا بُدَّ مِنْ ردِّ ما اقترضنا　　　كلُّ غريمٍ بذاك راضي

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وكلُّ ما هو آتٍ فقريب.

ويقال كسر على أهلِ الغفلة سطوةَ غفلتهم، وفلَّ دونهم سيفَ صولتِهم بقوله: ثم إنكم بعد ذلك لميتون، وللجمادِ مُضاهون، وعن المكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لَمُبْعَدُون، وفي عِداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ، والسؤالُ والعتابُ، ويتبين المقبولُ من المردودِ، والموصولُ من المهجور.

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالَم حتى لو قيل للقيامة: ممن تخافين؟ لقالت من القيامة. وفي القيامة ترى الناسَ سُكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالَهم، ولا يتحققون بما

تؤول إليه أمورهم، إلى أن يتبيَّنَ لكلِّ واحدٍ أَمْرُه؛ خَيْرُه وشَرُّه: فيثقل بالخيرات ميزانُه، أو يخف عن الطاعاتِ أو يخلو ديوانهُ. وما بين الموت والقيامة: فإمَّا راحاتٌ مُتَّصِلَة، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ لا يستتر عن رؤيته مُدْرَكٌ، ولا تخفى عليه ـ من مخلوقاته ـ خافية. وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْقَ وبصائرهم؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجُبِ. وكذلك إذا حلَّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول، وانسدَّت بصائرها، وانتفت فهومها.

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة؛ ففي الظاهر السمواتُ حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنْية والشهوة، والإرادات الشاغلة، والغفلات المتراكمة.

أمَّا المريدون فإذا أَظَلَّتْهُم سحائب الفَتْرَةِ، وسَكَنَ هيجانُ إرادتِهم فذلك من الطرائق التي عليهم.

وأما الزاهدون فإذا تحرّكَ بهم عِرْقُ الرغبة انْفَلَّتْ[١] قوة زهدهم، وضَعُفَتْ دعائمُ صَبْرِهم، فَيَتَرَخَّصُون بالجنوح إلى بعضِ التأويلاتِ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً، وتَخْتَلُّ رتبةُ عزوفهم، وتَنْهَدُّ دعائم زهدهم، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم.

وأما العارفون فربما تِظِلُّهم في بعض أحايينهم وَقفةٌ في تصاعد سرّهم إلى ساحاتِ الحقائق، فيصيرون مُوقَفِين ريثما يتفضّلُ الحقُّ ـ سبحانه ـ عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً، ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق.

وفي جميع هذا فإنَّ الحقَّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ، ولا تاركٍ للعِبادِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

أنزل من السماءِ ماءَ المطر الذي هو سببُ حياةِ الأرضين، وذلك بقدرٍ معلوم. ثم... البلادُ مختلفةٌ في السَّقْي: فبعضها خِصْبٌ، وبعضها جَدْبٌ، وسَنةٌ يزيد وسَنَةٌ ينقص، سنةٌ يفيض وسنةٌ يغيض.

كذلك أنزلنا من السماءِ ماءَ الرحمة فيحيي القلوب، وهي مختلفة في الشُّرْب:

---

(١) الفَلّ: الثلم في السيف. (اللسان ١١/ ٥٣٠ مادة: فلل).

فمِنْ موسَّعٍ عليه رزقه منه، ومِنْ مُضَيَّقٍ مُقَتَّرٍ عليه. ومِن وقتٍ هو وقت سحٍّ، ومنْ وقتٍ هو وقت حَبْسٍ.

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرنَ العُصاةِ وآثارَ زلّتِهم وأوضارَ عثرتِهم، وماء هو سقي قلوبهم يزيل به عطَشَ تحيهم، ويحيي به موات أحوالهم؛ فَتَنْبُت في رياض قلوبهم فنونُ أزهار البسط، وَصنوف أنوار الروح. وماءٌ هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، وَيسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز، وَيحملها على التجاسرِ ببذلِ الرُّوح؛ فإذا شربوا طَرِبوا، وإذا طَرِبوا لم يُبالوا بما وَهَبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

كما يحيي بماءِ السماءِ الغياضَ والرياض، ويصنّف فيها الأزهارَ والأنوارَ، وتثمر الأشجارُ وتجري الأنهار... فكذلك يَسْقِي القلوبَ بماءِ العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر، وتؤتي أُكلَها: من طيب عيشٍ، وكمالِ بسطٍ، ثم وفورِ هيبة ثم رَوْح أُنسٍ، ونتائج تَجَلٍّ، وعوائد قُرْبٍ... إلى ما تتقاصر العباراتُ عن شرحه، ولا تطمع الإشاراتُ في حَصْره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1].

الإشارات منه أنَّ الكدوراتِ الهاجمةَ لا عِبْرَةَ بها ولا مبالاة؛ فإنَّ اللَّبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوي حواياها عليه من الوحشة، لكنه صافٍ لم يؤثر فيه منها بحُكم الجِوار، وكذلك الصفاءُ يوجد أكثره من عين الكدورة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقٌّ ولا باطل. ومَنْ أشرفَ على سِرِّ التوحيد تحقَّقَ بأنَّ ظهور جميع الحدثان من التقدير، فتسقط عنه كلفة التمييز، فالأسرار عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾: لازمةٌ لكم، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم:

إنّي - على جَفَواتِها - بربِّها وبكلِّ متَّصِلٍ بها مُتَوَسِّلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

يحفظهم في الفينة في بحار القطْرة، ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

بحار القُدْرة، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها، والناسُ فيها غَرْقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ ـ سبحانه ـ في سفينة العناية.

وصفةُ أهلِ الفُلكِ إذا مستْهم شِدَّة خوفِ الغَرَقِ ما ذكَر الله في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ، والتجأ إلى صِدْق الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ ـ سبحانه ـ من مخلوقات التقدير. ويقال إنَّ وَجهَ الأرضِ بحارُ الغفلة، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارٌ مهلكةٌ والناس فيها غرقى. وكما قال بعضهم:

الناسُ بحرٌ عميقٌ والبعدُ عنهم سفينهْ

وقد نصحتُك فانظر لِنفسِكَ المسكينهْ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

كَرَّرَ قصةَ نوح لِمَا فيها من عظيم الآيات من طولِ مقامه في قومه، وشدةِ مقاساة البلاء منهم، وتمام صبره على ما استقبله في طول عمره، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أصرّ على كفرانه، ثم لم يغادِرْ منهم أحداً، ولم يبال ـ سبحانه ـ بأنْ أهلك جملتهم. ولقد ذكر في القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ، فَحَمَلَتْه وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان، فلمَّا بلغ الماءُ إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها ـ قدْرَ ما أمكنها ـ إبقاءً على وَلَدِها، وإشفاقاً عليه من الهلاك، إلى أن غلَبَها الماءُ وتَلِفَتْ وولدها. فأوحى الله إلى نوح ـ عليه السلام ـ لو أني كنتُ أرْحَمُ واحداً منهم لَرَحِمْتُ تلك المرأة وولدها.

وفي الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر، ولكثرة ما كان يبكي أوحى الله إليه: يا نوح... إلى كم تنوح؟ فسمَّاه نوحاً. ويقال إنّ ذنبَه أنه مرّ يوماً بكلبٍ فقال: ما أوحشه!

فأوحى الله إليه: اخلق أنت أَحْسَنَ من هذا! فكان يبكي معتذراً عن قالته تلك. وكان قومُه يلاحظونه بعين الجنون، وما زاد لهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوةً، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة.

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان، وأدخل في السفينة أَهْلَه، تعرّض له إبليسُ ـ كما جاء في القصة ـ وقال: احْمِلْني معك في السفينة، فأبى نوح وقال: يا شقيُّ... تطمع في حملي إياك وأنت رأسُ الكفَرَةِ؟!

فقال إبليسُ: أَمَا عَلِمْتَ ـ يا نوحُ ـ أَنّ الله أَنْظَرني إلى يوم القيامة، وليس ينجو اليومَ أحدٌ إلّا في هذه السفينة؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليسُ مع نوح في السفينة، ولم يكن لابنه معه مكانٌ في السفينة. وفي هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول لأنه إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِه فبإبليس يُشكل... ولكنها أحكامٌ غيرُ معلولة، وجاز له ـ سبحانه ـ أن يفعل ما يريد: يَصِلُ مَنْ شاء ويَرُدُّ مَنْ شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾(١).

الإنزالُ المباركُ أن يكون بالله ولله، وعلى شهودِ الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفاً لأمر الله.

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرْب عليك، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلِّي حتى لا تبقى عين ولا أثر، فإذا تَمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك؛ لأنك بلا أنت... بكليتك من غير بقيةٍ أو أثرٍ عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾(٢).

تتابعت القرونُ على طريقةٍ واحدةٍ في التكذيب، وغرّهم طولُ الامهالِ، وما مكنَّهم من رَفَهِ العيش وخَفْض الدّعَةِ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم، ولم يَسْمُ لهم طَرَفٌ إلى مَنْ فوقهم في الحال والمنزلة، فقالوا: أنؤمن بمن يتردد في الأسواق، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لَسَلَكنا سبيلَ الغَيِّ، وتَنَكَبْنا سُنَّةَ الرُّشْدِ. فأجراهم اللّهُ في الإهانةِ وإحلال العقوبة بهم مجرًى واحداً، وأذاقهم عذابَ الخزْي. وأعظمُ ما دَاخَلَهم من الشُّبهةِ والاستبعادِ أمرُ الحشرِ والنشر، ولم يرتقوا للعلم بأنَّ الإعادة كالابتداء في الجواز وعدم الاستحالة، والله يهدي مَنْ يشاء ويُغْوِي مَنْ يريد.

ثم إن الله في هذه السورة ذَكَرَ قصةَ موسى عليه السلام، ثم بعده قصةَ عيسى عليه السلام، وخَصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٣).

كلوا من الطيبات مما أَحلّ لكم وأباح، وما هو محكوم بأنه طيب ـ على شريطة مطابقة رُخْصَةِ الشريعة ـ مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه. وكذلك

---

(١) الآيات من (٢٤ ـ ٢٨) لم ترد. (٢) الآية (٣٠) لم ترد.
(٣) الآيات (٣٢ ـ ٥٠) لم ترد.

أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

معبودكم واحدٌ، ونبيُّكم واحد، وشرعكم واحد؛ فأنتم في الأصول شرعٌ سواءٌ، فلا تسلكوا ثِنْيَاتِ الطرق[1] فتطيحوا في أودية الضلالة. وعليكم باتباع سَلَفِكم، واحذروا موافقة ابتداع خَلَفكم.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ خافوا مخالفةَ أمري، واعرفوا عظيمَ قَدْرِي، واحفظوا في جريان التقدير سِرِّي، واستديموا بقلوبكم ذكري، تجدوا في مآلكم غفري، وتَحْظَوْا بجميلِ بِرِّي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

فمستقيم على حَقِّه، وتائه في غَيِّه، ومُصِرٌّ على عصيانه وفِسْقِه، ومقيمٌ على إحسانه وصِدْقه، كُلٌّ مربوطٌ بحدِّه، موقوفٌ بما قُسِمَ له في البداية من شأنه، كلٌّ ينتحل طريقَته ويَدَّعي بحسن طريقته حقيقةً، وعند صحوِ سماءِ قلوبِ أربابِ التوحيدِ لا غُبارَ في الطريق؛ وهم على يقين معارفهم؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهة.

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهم، وغبارِ جُحْدِهم، وظلمة تقليدهم، ومحنة شكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

إنَّ مدةَ أَخْذِهم لقريبةٌ، والعقوبة عليهم ـ إذا أُخِذُوا ـ لشديدة، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتلبيس المنهاج؛ رَأَوا سَرَاباً فَظَنُّوه شراباً، ودَس لهم في شهْدِهم صاباً فتوهموه عِذاباً[2]، وحين لقوا عَذَاباً عَلِموا أنهم لم يفعلوا صواباً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾.

أمارةُ الإشفاق من الخشيةِ إطراقُ السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد الأدب، ومحاذرةُ بَغَتَاتِ الطَّرْد، لا يستقر بهم قرارٌ لِمَا داخَلَهم من الرُّعْبِ، واستولى عليهم من سلطانِ الهيبة.

---

(١) الثني من الوادي: منعطفه.

(٢) العِذاب: (ج) العَذْب: من الشراب والطعام: كل مستساغ. (لسان العرب ١/ ٥٨٣ مادة: عذب).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

تلك الآياتُ مختلفةٌ؛ فمنها ما يُكاشَفون به في الأقطار من اختلاف الأدوار، وما فيه الناس من فنون الهِمَمَ وصنوفِ المُنى والإرادات، فإذا آمن من العبدُ بها، واعتبر بها اقتنع بما يرى نَفْسَه مطالَباً به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

يَذَرُون جَليَّ الشِّرْكِ وخَفِيَّه؛ والشِّرْكُ الخفيُّ ملاحظةُ الخَلْق في أوانِ الطاعات، والاستبشارُ بمَدْحِ الخَلْقِ وقبولهم، والانكسارُ والذبولُ عند انقطاع رؤية الخلْق.

ويقال الشِّرْكُ الخفيُّ إحالةُ النادرِ من الحالات ـ في المَسَارِّ والمَضَارِّ ـ على الأسباب كقول القائل: «لولا دعاءُ أبيك لهلكت» و«لولا هِمَّةُ فلان لما أفلحت». . . وأمثال هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفاءِ من شُرْبِ الدواء.

فإذا أيقن العبدُ بِسرِّه ألا شيء من الحدثان، ولم يتوهم ذلك، وأيقن ألَّا شيء إلا من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشِّرْكِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

يُخْلِصُون في الطاعات من غير إلمام بتقصير، أو تعريج في أوطانِ الكسل، أو جنوحِ إلى الاسترواح بالرُّخَص. ثم يخافون كأنَّهم ألَمُّوا بالفواحش، ويلاحظون أحوالَهم بعينِ الاستصغار والاستحقار، ويخافون بغتاتِ التقدير، وقضايا السخط، وكما قيل:

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسناتُه آثامُ

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

مُسارِعٌ بِقَدَمِه من حيث الطاعات، ومُسارِعٌ بِهِمَمِه من حيث المواصلات، ومُسارِعٌ بِنَدَمِه من حيث تجرُّع الحسرات، والكلُّ مصيبٌ، وللكلِّ من إقباله ـ على ما يليق بحاله ـ نصيب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

المطالباتُ في الشريعةِ مُضَمَّنَةٌ بالسهولة، وأمَّا مطالباتُ الحقيقة فكما قالوا: ليس إلَّا بَذْل الروح، ولهذا فهم لا تشغلهم التُّرَّهَات[1]. قال لأهل الرخص والمستضعفين في الحال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وأمَّا أربابُ الحقائق؛

---

(١) الترهات: الأباطيل، واحدتها تُرهة، وهي في الأصل الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم. (اللسان ١٣/ ٤٨٠ مادة: تره).

فقال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: لولا غفلتُهم عن مواضع الحقيقة لما خوَّفهم بكتابة المَلَكِ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوَّفهم باطلاعِ الملائكة، وكتابَتِهم عليهم أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

لا يَصْلُحُ لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال، لا شغلَ له في الدنيا والآخرة، فأمَّا مَنْ له شُغْلٌ بدنياه، أو على قلبِه حديثُ عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه، وفي الخبر «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(١).

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم، وأرباب العُقبى مشغولون بعُقباهم، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولاه ـ حين الفراغ ـ عزيز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾.

إنه ـ سبحانه ـ يُمْهِلُ ولكنَّه لا يُهْمِلُ؛ فإذا أخَذَ فَبَطْشُه شديدٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. . . فإذا أخَذَ أصحابُ الكبائرِ ـ حين يحل بهم الانتقامُ ـ في الجوابِ رُدُّوا في الهوان، ويقال لهم:

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

فإذا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره.

ويقال للجناية سراية؛ فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٠٩)، والترمذي في (السنن ٢٣٠٤)، وابن ماجه في (السنن ٤١٧٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ٣٧٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٥٥) والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٩/ ٢٢٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٤٤٣)، وابن المبارك في (الزهد ٢)، والذهبي في (الطب النبوي)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ٤٣٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٤٤٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٣٨٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/ ٧٤، ٨/ ١٧٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

ذَكَرَ هذا من باب إملاءِ العُذْرِ، وإلزام الحجة، والقطع بألا ينفعَ ـ الآنَ ـ الجزعُ ولا يُسْمَعُ العُذْرُ، والملوكُ إذا أبرموا حُكْماً، فالاستغاثةُ غيرُ مُؤَثِّرَةٍ في الحاصل منهم، قال قائلهم:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجهٍ ـ آخِرَ الدهرِ ـ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

يعني أنهم لو أنعموا النظر، وسلطوا على أحوالهم صائبَ الفِكْر لاستبصروا في الحال، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجامُ والإشكال، ولكنهم استوطنوا مركبَ الكسل، وعرَّجُوا في أوطان التغافل، فتعودوا الجهل، وأيِسوا من الاستبصار.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

ذُهِلُوا عن التحقيق فتطَوَّحُوا في أودية المغاليط، وتَرجَّمَتْ بهم الظنونُ الخاطئةُ، ومَلَكَتْهُم كواذبُ التقديرات، فأخبر اللَّهُ (الرسول)[1] عن أحوالهم؛ فمرةً قابلوه بالتكذيب، ومرةً رَمَوْه بالسِّحرِ، ومرةً عابوه بتعاطيه أفعالَ العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب، ومرةً قَدَحُوا فيه بما هو فيه من الفقر وقِلَّةِ ذات اليد... فأخبر اللَّهُ عن تَشَتُّتِ أحوالِهم، وتَقَسُّم أفكارهم[2].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وذلك لتضادِّ مُنَاهم وأهوائِهم؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد، وتحصيلُ ذلك مُحَالٌ تقديرُه في الوجود. فَبَيَّنَ الله ـ سبحانه ـ أنه لو أجرى حُكْمَه على وفق مرادِهم لاختلَّ أمرُ السمواتِ والأرض، ولَخَرَجَ عن حَدِّ الإحكام والإتقان.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرٍ، ولا بإعطاءِ عِوَضٍ حتى تكونَ بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة. أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لكَ الرياسة. ثم قال: والذي لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنيك عن التصدِّي لنَيْل ما يكون في حصوله منهم مطمع. وهذا كان سُنَّة الأنبياء والمرسلين؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله. والعلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء فسبيلُهم التوقِّي عن التَّدَنُّسِ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) الآية (٧٠) لم ترد.

بالأطماع، والأكلِ بالدِّين فإنه رِياءٌ مُضِرٌّ بالإيمان؛ فإذا كان العملُ لله فالأجرُ مُنتَظَرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَل الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الصراطُ المستقيم شُهودُ الربِّ بنعت الانفراد في جميع الأشياء، وفي الإيجاد، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراهِ الحُكْم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

زاغوا عن الحجة المُثْلى بقلوبهم فوقعوا في جحيم الفرقة، وستميل وتزل أقدامُهم غداً عن الصراط، فيقعون في نار الحرقة؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أخبر عن صادق علمه بهم، وذلك صادر عن سابق حُكْمِه فيهم، فقال: لو كشفنا عنهم في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المآل، ولقد عَلِمَ أنهم سيكفرون، وحَكَمَ عليهم بأنهم يكفرون؛ إذ لا يجوز أن يكون حُكْمُه فيهم بخلافِ عِلْمه بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أذقناهم مقدماتِ العذابِ دونَ شدائِده... تنبيهاً لهم، فما انتبهوا وما انزجروا، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهالِ لأسرع اللَّهُ زواله عنهم، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أمراً كان مفعولاً.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

لما أحللنا بهم أشدَّ العقوبات ضَعُفُوا عن تَحمُّلِها، وأُخِذُوا بغتةً، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهال، فَيَئِسُوا عن الإجابة، وعرَّجوا في أوطان القنوط.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم بأن خَلَقَ لهم هذه الأعضاء، وطالَبَهم بالشكر عليها.

وشُكْرُهُمْ عليها استعمالُها في طاعته؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ ألا تسمعَ إلا بالله ولله، وشُكْرُ البَصَر ألا تنظرَ إلا بالله لله، وشكرُ القلب ألَّا تشهدَ غيرَ الله، وألَّا تحبَّ به غيرَ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الابتداءُ للحادثاتِ من الله بدءاً، والانتهاءُ إليه عوداً، والتوحيد ينتظم هذه المعاني؛ فتعرف أنَّ الحادثات بالله ظهوراً، ولله مِلْكاً، ومن الله ابتداءً، وإلى الله انتهاءً.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يُحْيي لنفوسَ ويُميتُهَا والمعنى في ذلك معلومٌ، وكذلك يحيي القلوبَ ويميتها؛ فموتُ القلب بالكُفرِ والجُحد، وحياةُ القلبِ بالإيمان والتوحيد، وكما أنَّ للقلوبِ حياةً وموتاً فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ، فحياةُ الأوقاتِ بيُمْنِ إقباله، وموتُ الأوقاتِ بمحنة إعراضه، وفي معناه أنشدوا:

أمـــوت إذا ذكــرتــك ثــم أحــيــا   فــكــم أحــيــا عــلــيــك وكــم أمــوت

قوله: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ فليس كلُّ اختلافها في ضيائها وظلمتها، وطولها وقِصَرِها، بل ليالي المحبين تختلف في الطول والقِصَر، وفي الروح والنوح؛ فَمِنَ الليالي ما هو أضوأ من اللآلي، ومن النهار ما هو أشدُّ من الحنادس، يقول قائلهم: ليالِيّ بعد الظاعنين شُكُولُ.

ويقول قائلهم:

وكَمْ لظلامِ الليلِ عِنْدِيَ من يدٍ   تُخَبِّرُ أَنَّ المانويةَ تَكْذِبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا:

ليالي وصالٍ قد مَضَيْن كأنَّها   لآلي عقودٍ في نحور الكواعبِ[1]

وأيامُ هَجْرٍ أعقبتها كأنَّها   بياضُ مشيبٍ في سواد الذوائبِ

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

سلكوا في التكذيب مَسْلَكَ سَلَفِهم، وأسرفوا في العناد مثل سَرَفِهم، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتَلَفِهم.

قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ لمَّا طال عليهم وقتُ الحشر، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنَّشر زادَ ذلك في ارتيابهم، وجعلوا ذلك حُجَّةً في لَبْسِهم واضطرابهم، فقالوا: لقد وُعِدْنا مثل هذا نحن وآباؤنا، ثم لم يكن لذلك تحقيق، فما نحن إلَّا أمثالُهم. فاحتجَّ اللَّهُ عليهم في جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخَلْق:

فقال جل ذكره: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

---

(١) نحور. (ج) نحر: أعلى الصدر، وموضع القلادة منه.
الكواعب: (ج) الكاعب: كعبت الفتاة: نهد ثديها.

أَمَرَه ـ عليه السلام ـ أَنْ يُلَوِّنَ عليهم الأسئلة، وعَقَّبَ كُلَّ واحدٍ من ذلك ـ مُخْبِراً عنهم ـ أنهم سيقولون: لله، ثم لم يَكْتَفِ منهم بقالتهم تلك، بل عاتَبَهم على تجرُّدِ قولهم عن التَّذَكُّر والفَهْم والعلم، تنبيهاً على أن القول ـ وإن كان في نفسه صدقاً ـ فلم تكن فيه غنية؛ إذ لم يصدر عن علمٍ ويقينٍ.

ثم نَبَّهَهُمْ على كمالِ قدرته، وأنَّ القدرة القديمة إذا تعلَّقت بمقدورٍ له ضدٌّ تعلَّقت بضدِّه، ويتعلق بمثل متعلقه.

والعَجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله، ثم تجويزهم عبادةَ الأصنامِ التي هي جماداتٌ لا تحيا، ولا تضرُّ ولا تنفع.

ويقال أولاً قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقدَّمَ التذكُرَ على التقوى؛ لأنهم بتذكرهم يَصلُون إلى المغفرة، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاءُ مخالفته. ثم بعد ذلك: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؛ أي بعد وضوح الحجة فأيُّ شَكٍّ بَقِيَ حتى تنسبوه إلى السِّحْرِ؟

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

بَيَّنَ أنهم أصرُّوا على جحودهم، وأقاموا على عُتُوِّهم ونُبُوِّهم، وبعد أن أُزِيحت العِللُ فلات حين عذرٍ. وليس لتجويز المُسَاهَلَةِ موجِبٌ بَتّاً.

قوله جل ذكره: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك، والأمران جميعاً داخلان في حدِّ الاستحالة، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة في القَدْرِ، والصمدية تتقدَّسُ عن جواز أن يكون له مِثْلٌ أو جنس.

قوله جل ذكره: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كُلُّ أمرٍ نِيطَ[(١)] باثنين فقد انتفى عنه النظامُ وصحةُ الترتيب، وأدلة التمانع مذكورة في مسائل الأصول.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تقديساً له، وتنزيهاً عما وصفوه به. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: تَنَزَّهَ عن أوهام مَنْ أشرك، وظنون مَنْ أفِك.

قوله جل ذكره: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾.

يقول إن عجلت لهم ما تتوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم، ولا توصل إليَّ

---

(١) نيط عليه الشيء: عُهد به إليه.

سوءاً مثلما توصل إليهم ممن عقوبتهم. وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقِّ أن يفعلَ ما يريد، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً[١].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾.

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عَلِمَ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك، فَصَحَّتْ القدرةُ على خلاف المعلوم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

الهمزة في ﴿**أحسن**﴾ يجوز ألا تكون للمبالغة؛ ويكون المعنى ادفع بالحسن السيئة. أو أن تكون للمبالغة؛ فتكون المكافأة جائزةً والعفوُ عنها ـ في الحُسْنِ ـ أشدَّ مبالغةً.

ويقال ادفع الجفاءَ بالوفاء، وجُرْمَ أهل العصيانِ بحكم الإحسان.

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له.

ويقال اسلك مسلكَ الكَرَم، ولا تجنح إلى طريق المكافأة.

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القَلبُ، والسيئةُ ما تدعو إليه النَّفسُ.

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان.

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائقِ، والسيئةُ ظلمةُ الخلائق.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

الاستعاذة ـ على الحقيقة ـ تكون بالله من الله كما قال ﷺ: «أعوذ بك منك»[٢]، ولكنه ـ سبحانه ـ أراد أن نَعْبُدَه بالاستعاذة به من الشيطان، بل مِنْ كلِّ ما هو مُسَلَّطٌ علينا، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجري العادة. وإلَّا.. فلو كان بالشيطان من إغواء الخَلْقِ شيءٌ لكان يُمْسِكُ على الهدايةِ نَفْسَه! فَمَنْ عَجَزَ عن أنْ يحفَظَ نَفْسَه كان عن إغواءِ غيرِه أشَدَّ عجزاً، وأنشدوا:

جحودي فيك تلبيس ... وعقلي فيك تهويس
فمَنْ آدم إلَّاكَ ... ومن في (...)[٣] إبليس

---

(١) الآية (٩٤) لم ترد.

(٢) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥)، والترمذي (دعوات ١١٢) والنسائي (طهارة ١١٩)، (سهو ٨٩)، وابن ماجه (دعاء ٣)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨، ٢٠١.

(٣) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

إذا أخذ البلاءُ بخناقهم، واستمكن الضُّرُّ من أحوالهم، وعلموا ألّا محيصَ ولا محيدَ أخذوا في التضرُّع والاستكانة، ودون ما يرومون خرطُ القتادِ! ويقال لهم هلّا كان عُشْرُ عشرِ هذا قبلَ هذا؟ ولقد قيل:

قلتُ للنفسِ: إنْ أردتِ رجوعاً ... فارجعي قبل أنْ يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطعُ الأسبابُ، ولا ينفع الندم، وسيلقى كلُّ غِبَّ ما اجترم؛ فَمَنْ ثَقُلَتْ بالخيرات موازِينُه لاحَ عليه تزيينُه. ومن ظهرَ ما يشينه فله من البلاء فنونه؛ تلفح وجوههم النار، وتلمح من شواهدهم الآثار، ويتوجه عليهم الحِجاج، فلا جواب لهم يُسْمَع، ولا عُذْر منهم يُقبل، ولا عذاب عنهم يُرْفَع، ولا عقابُ عنهم يُقْطَع(1).

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

نطقوا بالحقّ... ولكن في يومٍ لا ينفع فيه الإقرار، ولا يُقْبَلُ الاعتذار، ثم يقولون:

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

والحقُّ يقول: لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. عِلَمَ أنّ ردَّهم إلى الدنيا لا يكون، ولكنه عِلم أنّه لو كان فكيف كان يكون.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

عند ذلك يتمُّ عليهم البلاء، ويشتدُّ عليهم العناء، لأنهم ما داموا يذكرون الله لم يحصل الفراق بالكلية، فإذا حِيلَ بينهم وبين ذكره تتم لهم المحنة، وهو أحدُ ما قيل في قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وفي الخبر: «أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواءٌ كعواء الذئب». وبعض الناس تغار من أحوالهم؛ لأن الحق يقول لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾، فيقولون: يا ليتنا يقول لنا! أليس هو يخاطبنا بذلك؟! وهؤلاء يقولون: قَدْحُ الأحباب ألذُّ من مَدْح الأجانب، وينشدون في هذا المعنى:

أتاني عنكِ سَبُّكِ لي.. فسُبّي ... أليس جرى بِفيكِ اسمي؟ فحسْبي

(1) الآيات من (١٠٢ حتى ١٠٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ ينتقم من أعدائه بما يطيِّبُ به قلوبَ أوليائه، وتلك خصومةُ الحق، فيقول: قد كان قومٌ من أوليائي يُفْصِحون بمدحي وثنائي، ويتصفون بمدحي وإطرائي، فاتخذتموهم سخرياً. . . فأنا اليوم أُجازيهم، وأنتقم ممن كان يناويهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عددُ سنين الأشياء ـ وإن كانت كثيرة ـ فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى ما يوفي ويُرْبِي عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض؛ إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شدائد فتتلاشى في جنب ما يرونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

العبثُ اللهو، واللَّعِبُ والاشتغالُ بما يُلْهِي عن الحقِّ، والله لم يأمر العبادَ بذلك، ولم يَدْعُهم إلى ذلك، ولم يندبهم إليه.

والعابثُ في فِعْلِهِ مَنْ فِعْلُه على غير حدِّ الاستقامة، ويكون هازلاً مُسْتَجْلِباً بفعله أحكامَ اللهوِ إلى نَفْسه، متمادياً في سهوه، مستلذَّ التفرقةِ في قصده. وكلُّ هذا من صفات ذوي البشرية، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنزَّهُ النَعت عن هذه الجملة، فلا هو يفعل شيءِ عابث، ولا بشيء منَ العَبَث آمِرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

الحقُّ ـ بنعوت جلاله ـ متوحِّدٌ، وفي عِزِّ آزاله وعلوِّ أوصافه متفرِّدٌ، فذاتُه حقٌّ، وصفاته حقٌّ، وقولُه صِدْقٌ، ولا يتوجَّه لمخلوق عليه حقٌّ، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شيء منها بمستحق.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾: ما تَجمَّلَ بالعرشِ، ولكن تَعزَّزَ العرشُ بأنَّهُ أضافه إلى نَفْسِه إضافة خصوصية.

والكريمُ الحَسَنُ، والكرمُ نَفْيُ الدناءة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

حسابُه على الله في آجِلِه. وعذابُه من الله له في عاجله، وهو الجهل الذي أودعَ

قلبَه حتى رَضِيَ بأن يَعْبُدَ معه غيرَه. وقولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كلامٌ حاصلٌ من غير دليل عقل، ولا شهادة خبرٍ أو نقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقولٌ ليس يساعده برهان.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

اغفرْ الذنوبَ، واسترْ العيوبَ، وأجْزِلْ الموهوب. وارحمْ حتى لا تستولي علينا هواجمُ التفرقة ونوازل الخطوب. والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز.

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُه، اسم بشيرُ الحياة وصلته، اسم سببُ الرَّوْح عرفانُه، اسم راحةُ الرُّوح إحسانُه، اسم كمالُ الأُنْسِ إقبالُه، اسم فتنةُ قلوبِ المُهَيَّمين جمالُه، اسم مَنْ شَهِدَه دامت سلامته، اسم مَنْ وَجَدَه قامت قيامتُه، اسم لا إليه حظوة، ولا بدونه سلوة.

قوله جل ذكره: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ [النور: ١].

سورة هي شَرَفٌ لك ـ يا محمد ـ أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدي سورة؛ فكلُّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة، بيَّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام، وبيَّنا فيها من الأحكام لكم به اهتداء، وللقلوب من غمرة الاستعجام شفاء.

أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ، ودلائلَ واضحاتٍ، وحُجَجاً لائحات؛ لتتذكروا تلك الآيات، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبينات.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾.

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة، ولكن جعل إثباتَ أمره وتقريرَ حُكْمِه والقطعَ بكونه على أكثر الناسِ خصلةً عسيرةً بعيدةً؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقولُ: رأيتُ ذلك منه في ذلك منها! وذلك أمرٌ ليس بالهيِّن، فسبحان مَنْ أَعْظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاء، ثم جعل الأمر في إثباتها بغايه الكدِّ والعناء! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له ﷺ: «لعلَّك قَبَّلْتَ... لعلَّك لامَسْتَ» وقال لبعض أصحابه: «استنكهوه»[1] وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحدِّ عنه، إلى أن ألحَّ وأصرَّ على الاعتراف.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٣٨ ـ ٢٧٠ ـ ٢٨٩)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٣٦١)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٣٣٨)، والدارقطني في (السنن ٣/ ١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/ ١٠٥).

والرحمة من موجب الشرع وهو المحمود، فأمّا ما يقتضيه الطَّبعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود. ونهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ، وتَرَكَ الأمرَ، وأساءَ الأدبَ، وانتصبَ في مواطنِ المخالفة.

ويقال نهانا عن الرحمة بهم، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم ـ بتلك الفَعْلة الفحشاء ـ رقم الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلّة إيمانه مع قبيح جُرْمِهِ وعصيانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِيَكُونَ عليهم أشَدَّ، وليكون تخويفاً لمتعاطي ذلك الفعل، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضعَ أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مِثْله، وكيف عَصَمَهم من ذلك. وإن جرى منهم شيءٌ من ذلك يذكروا عظيمَ نعَمةِ الله عليهم؛ كيف سَتَرَ عليهم ولم يفضحهم، ولم يُقِمْهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المُبْتَلَى به. وسبيلُ من يشهد ذلك الموضعَ ألا يُعَيِّرَ صاحبَه بذلك، وألا ينسى حُكْمَ الله تعالى في إقدامه على جُرْمِه.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الناسُ أشكالٌ؛ فكلُّ نظيرٍ مع شكله، وكلُّ يُساكِنُ شكله، وأنشدوا:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقَارَنِ يقتدي

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ١٧٨، ٧/ ١٣٦، ٨/ ١٩٥ ـ ١٩٧)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ب٢٤ رقم ١٠٠ ـ ١٠٥)، وأبو داود في (السنن ٤٦٨٩)، والترمذي في (السنن ٢٦٢٥)، والنسائي في (السنن ٨/ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٣١٣)؛ وابن ماجه في (السنن ٣٩٣٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٧٦، ٣/ ٣٤٦، ٦/ ١٣٩)، وعبد الرزاق في (المصنف ٣٦٨٨) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٨٦)، والدارمي في (السنن ٢/ ١١٥)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٥٢، ٧/ ٢٩٥)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٤/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥، ٨/ ٦ ـ ٩ ـ ١١، ١٤، ٣٢، ٣٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٢٤٤، ١٢/ ٣٤٦)، وابن عبد البر في (التمهيد ٤/ ٢٣٦، ٩/ ٢٤٣ ـ ٢٥٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٥٤، ٨/ ٥١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٣٠٩ ـ ١٣١٠، ١٣١١ ـ ١٣٢٥، ١٣٢٦ ـ ١٧٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١١٩، ١٢/ ٨١ ـ ١١٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٢٤٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/ ١٦٤ ـ ٣٢٢ ـ ٣٦٩ ـ ٢٥٦، ٨/ ١١٧ ـ ٢٥٧) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٧)، والآجري في (الشريعة ١١٣)، وابن أبي شيبة في (الإيمان ٣٩ ـ ٤٠)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢/ ١٤٢، ٥/ ٢٢٣، ١١٨، ١٠/ ٤٥٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/ ٢٩٨ ٢/ ٥٠٧ ـ ٥٤٢ ـ ٦٢٧ ـ ٦٣١، ٥/ ١٨٧، ٦/ ٢٢٠٥، ٧/ ٢٧٠٧).

فأهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم ـ وإنْ تَبَاعَدَ مزارُهم وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم ـ وإن تناءت ديارهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

لئلا يستبيحوا أعراضَ المسلمين، ولئلا يهتكوا أستارَ الناس أمَرَ بتأديبهم، وإقامةِ الحدِّ عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء.

ثم بالَغَ في عدد الشهود، وألّا تُقبَلَ تلك الشهادةُ إلّا بالتضرع التام، ثم أكمله بقوله ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾. وفي الخبر المسند قوله عليه السلام: «مَنْ أتى منكم بشيءٍ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإنَّ مَنْ أبدى لنا صفحته، أقمنا عليه حدَّ الله»[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

جَعَلَ من شرطِ قبولِ شهادتِهِ صِحَّةَ توبته، وجعل علامةَ صحةِ توبته إصلاحَه، فقال: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾، وهو أن تأتي على توبته مدةٌ تنتشر فيها بالصلاح صفتُه، كما اشتَهَرتْ بِهَتْكِ أعراضِ المسلمين قالتهُ.. كلُّ هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

لمّا ضاق الأمرُ على من رأى أهلَه على فاحشة، إذ أن في ذلك قبول نسبٍ غير صحيح ـ فقد نهى الشرعُ عن استلحاقه ولداً مِنْ غيره. وكان أمراً محظوراً هتكُ عِرْضِ المرأة والشهادةُ عليها بالفحشاء، إذ يجوز أن يكون الأمر في المُعيب؛ أي بخلاف ما يدَّعيه الزوجُ. ولأن ذلك أمرٌ ذو خَطَرٍ شَرَعَ اللَّهُ حُكْمَ اللعان[(٢)] ليكون للخصومة

---

(١) للحديث روايات أخرى: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله..» أخرجه الموطأ (حدود ١٢).

وراوية تقول: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها» أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٠).

(٢) اللعان: لاعن امرأته في الحكم ملاعنة ولعان، ولاعن الحاكم بينهما لعاناً: حكم، والملاعنة بين الزوجين إذا قذف الرجل امرأته أو رماها برجل أنه زنى بها، فالإمام يُلاعن بينهما ويبد أبا لرجل ويقفه حتى يقول: أشهد بالله أنها زنت بفلان، وإنه لصادق فيما رماها به، فإذا قال ذلك أربع مرات قال في الخامسة: وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به، ثم تُقام المرأة فتقول أيضاً أربع مرات: أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا، ثم تقول في الخامسة: وعليّ غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فرغت من ذلك بانت منه ولم تحل له أبداً، وإن كانت حالاً فجاءت بولد=

قاطعاً، وللمُقْدِم على الفاحشة زاجراً، ففي مثل هذه الأحوال عنها خَرْجَةٌ. ولولا أنَّ الله على كل شيءٍ قدير وإلا ففي عادة الناس.. مَنِ الذي يهتدي لِمِثْلِ هذا الحكم لولا تعريفٌ سماوي وأمر نبوي، من الوحي مُتَلَقَّاهُ، ومنِ اللَّهِ مُبْتَداهُ وإليه منتهاهُ[1]؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

لبقيتم في هذه الواقعة المعضلة، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشكلة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه قصة عائشة رضي الله عنها، وما كان من حديث الإفك.

بَيَّنَ اللَّهُ ـ سبحانه ـ أنه لا يُخْلِي أحداً من المحنة والبلاء، في المحبة والولاء؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه، كذلك قال ﷺ «يُمْتَحَنُ الرجلُ على قَدْرِ دينه»، وقال: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

ويقال إن الله ـ سبحانه ـ غيورٌ على قلوب خواصِّ عباده، فإذا حصلت مساكنةُ بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِي الله ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه، ويردُّه إلى نفسه، وأنشدوا:

إذا عَلِقَت روحي بشيءٍ، تعلَّقَتْ ... به غِيَرُ الأيام كي تسلُبَنِّيا

وإن النبي ـ ﷺ ـ لمَّا قيل له: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»[2] فساكنها.

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت: «يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك»...

= فهو ولدها ولا يلحق بالزوج، لأن السنة نفته عنه سمي ذلك كله لعاناً لقول الزوج: عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين، وقول المرأة: عليها غضب الله إن كان من الصادقين. (لسان العرب ١٣/ ٣٨٨ مادة: لعن).

(١) الآيات (٧، ٨، ٩) لم ترد.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥/ ٦ ـ ٢٠٩)، ومسلم (فضائل الصحابة ٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٠٣)، والبيهقي في (الأسماء الصفات ٦/ ٣٧٠، ٧/ ٢٩٩، ١٠/ ٢٣٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠١٤)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٣/ ١، ١٢٥، ٨/ ٤٦) والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ٤٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٢٨)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٥٧٧، ٥٧٨)، والبخاري في (التاريخ الصغير ٢/ ١٢٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/ ١٨، ٨/ ٧٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٦٣٩، ٣٥٦٤٠ ـ ٣٥٦٥١ ـ ٣٥٦٦٢ ـ ٣٥٦٨٧ ـ ٣٦٤٤٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/ ٢٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ٩٤ ـ ١٣٢) وابن كثير في (البداية والنهاية ٣/ ٢٣١، ٥/ ٢١٩). والقرطبي في (التفسير ١٤/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٦٥١ ـ ٢٦٦٦).

فأجرى اللَّهُ حديثَ الإفك حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ عنها إلى الله، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله؛ حيث قال ـ لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها: بحمد الله لا بحمدك كشف الله عنها به تلك المحنة، وأزال الشكَّ، وأظهر صِدْقَها وبراءة ساحتها.

ويقال إن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسةَ المؤمن فإنَّ المؤمن ينظر بنور الله»، فإذا كانت الفراسةُ صفة المؤمن فأوْلى الناس بالفراسةِ كان رسولَ الله ﷺ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءةُ ساحتها، حتى كان يقول: «إنْ فَعَلْتِ فتوبي».

والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يَسُدُّ اللَّهُ على أوليائه عيونَ الفراسةِ إكمالاً للبلاء. وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يميِّز ولم يعرف الملائكة حيث قَدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيذَ[1]، وتوهمهم أضيافاً. ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة.

ويقال إنه كان ـ ﷺ ـ يقول لعائشة: «يا حُمَيْرَاء»[2].

فلما كان زمان الإفك، وأرسلها إلى بيت أبويها، واستوحش الأبوان معها، ومَرِضَتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ من الحزن والوجد، كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول:

«كيف بيتكم؟ لا عائشة ولا حميراء فما كان يطيب بالتغافل عنها، فتعبيره ـ إن لم يُفهَمْ بالتصريح ـ فيُفْقَهُ بالتلويح.

ثم إنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾: فبمقدار جُرْمِهم احتمل كلُّ واحدٍ ما يخصُّه من الوِزْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها، وتَرْكِهم الإعراض عن حُرَم النبي ﷺ. ثم قال: وهلَّا جاءوا على ما قالوا بالشهداء؟ وإذا لم يجدوا ذلك فَهَلَّا سكتُوا عن بَسْطِ اللسان[3]؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) العجل الحنيذ: المحنوذ المشوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (لسان العرب ٣/ ٤٨٤ مادة: حنذ).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٥٥)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ٣٥٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٨٩).

(٣) الآية (١٣) لم ترد.

لأنه أخبر أن جُرْمَهم ـ وإنْ كان عظيماً ـ فإنه في عِلْم اللَّهِ عنهم غير مُؤَثِّر، ولولا أن الله ـ سبحانه ـ ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعلَّه لم يذكُرْ هذه المبالغة في أمرهم؛ فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق ـ سبحانه ـ بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُرْبي على كل سوء ـ ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم، ولا يمنع عنهم أرفاقهم، ولكن ما تتعلَّق به حقوقُ أوليائه ـ لا سيما حق الرسول ﷺ ـ فذاك عظيمٌ عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

بالَغَ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تأذَّى به قلبُ الرسولِ ـ ﷺ ـ وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين.

ثم قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾: وسبيلُ المؤمنِ ألا يستصغرَ في الوفاق طاعةً، ولا يستصغرَ في الخلافِ زَلَّةً، فإنَّ تعظيمَ الأمْرِ تعظيمٌ للآمِرِ. وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون مَنْ الآمرُ به.

ويقال: يَسيرُ الزَّلَّةِ ـ يلاحِظُها العبدُ بعين الاستحقار ـ فتُحْبِط كثيراً من الأحوال، وتكدِّر كثيراً من صافي المشارب.

واليسير من الطاعة ـ ربما يَسْتَقِلُّها العبدُ ـ ثم فيها نجاتُه ونجاةُ عالَمٍ معه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

استماعُ الغيبةِ نوعٌ من الغيبة، بل مستمِعُ الغيبة شَرُّ المغتابين؛ إذ بسماعه يَتِمُّ قَصْدُ صاحِبه. وإذا سمِع المؤمنُ ما هو سوءُ قالةٍ في المسلمين ـ مما لا صِحَّةَ له في التحقيق ـ فالواجبُ الردُّ على قائله، ولا يكفي في ذلك السكوتُ دون النكير، ويجب ردُّ قائله بأحسنِ نصيحةٍ، وأدقِّ موعظةٍ، ونوع تَشَاغُلٍ عن إظهار المشاركة له فيما يستطيب من نَشْرِه من اخجالٍ لقائله موحشٍ، فإن أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن؛ لأنه إن لم يسْتَحِ قائلهُ من قوله فلا ينبغي أن يستحيَ المستمعُ من الرَّدِّ عليه.

قوله جل ذكره: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

يتعلَّق هذا بأنَّ مَنْ بَسطَ لسانَه في عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية، ولعمري قائلُ ذلك مرتكبُ كبيرةٍ ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك؛ أي ينبغي للمؤمن ألا يتكلم في هذا، وهذا كما يقول القائل: «إذا كُنْتَ أخي

فواسِني عند شِدَّتي؛ فإنْ لم تواسِني لم تخرج عن الأُخوَّةِ بذلك». . ومعنى هذا القول أنَّه ينبغي للأخ أن يواسِيَ أخاه في حال عَثْرَتِه، وتَرْكُ ذلك لا يُبْطِلُ النسبَ[١].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هؤلاء في استحقاق الذمِّ أقبحُ منزلةً، وأشدُّ وِزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين، ومن أركان الدين مظاهرةُ المسلمين، وإعانةُ أولي الدِّين، وإرادةُ الخير لكافة المؤمنين. والذي يودُّ فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخَلْق، واللَّهُ لا يرضى منه بحاله، ولا يؤهله لمنالِ خلاصة التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

كرَّر قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لِيُبيِّنَ للجميع أنَّ حُسْنَ الدفعِ عنهم كان بفضله ورحمته وجميل المنح لهم، وكلٌّ يشهد حُسنَ المَنحِ ويشكر عليه، وعزيزٌ عبدٌ يشهد حُسْنَ الدفع عنه فيحمده على ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾.

إذا تَنَقى القلبُ عن الوساوس، وصفا عن الهواجس بَدَتْ فيه أنوارُ الخواطر، فإذا سما وقتُ العبدِ عن ذلك سَقَطَتْ الخواطر، وبدت فيه أحاديث الحق ـ سبحانه ـ كما قال في الخبر: «لقد كان في الأمم محدَّثون فإن يكن في أمتي فعُمَر». وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد، ولا يكون فيه احتمالٌ ولا إشكال ولا إزعاج، وصاحبُه يجب أن يكون أميناً، غيرَ مُظْهِر لِسِرِّ ما كوشِفَ به.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ردَّهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منَّ الحقُّ في قسمي النفع والدفع، وحالتي العسر واليسر، والزُّكى من الله، والنُّعمى من الله، والآلاءُ من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ﴾.

تحرَّك في أبي بكر عِرْقٌ من البشرية في وصف الانتقام من مسطح[٢] حين شرع

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف (٢٢ق هـ ـ ٣٤هـ = ٦٠١ ـ ٦٥٤م) من=

وخَاضَ في ذلك الحديث، وكان في رفق أبي بكر فقطع عنه ذلك، وأخبر به الرسول ـ ﷺ ـ وانتظر الأمرَ من الله في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُرْ﴾ فلم يرضَ من الصديق رضي الله عنه أن يتحرك فيه عِرْقٌ من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله في ماضي أيامه. والإحسان إلى المحسن مكافأة، وإلى مَنْ لا يسيء ولا يحسن فضل، وإلى الجاني فُتُوَّةٌ وكَرَمٌ، وفي معناه أنشدوا:

وما رضوا بالعفو عن كلِّ زَلَّةٍ حتى أنالوا كَفَّه وأفادوا

قوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾: العفو والصفح بمعنىً، فكررهما تأكيداً.

ويقال العفو في الأفعال، والصفح في جنايات القلوب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا من كمال تلطفه ـ سبحانه. وفي الخبر: أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر ـ رضي الله عنه: «لي، أُحِبُّ يا رب»، وعفا عن مسطح. وإن الله يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم، وأنَّى بالكراهة مِنَ الخَلْق والمتفرِّدُ بالإيجاد اللَّهُ؟! وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ رامٍ لي بأحجار الأذى لم أجِدْ بُدّاً من العطف عليه
فعسَى أن يَطْلعَ اللَّهُ على قَدَحِ القومِ فيُدْنيني إليه

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بالغ في توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم.

ووَصَفَ المحصنات بالغفلة: أي بالغفلة عما يُنْسَبْنَ إليه؛ فليس الوصف على جهة الذمِّ، ولكن لبيان تباعدهن عمَّا قيل فيهنّ.

واستحقاقُ القَذَفَةِ لِلْعَنةِ ـ في الدنيا والآخرة ـ يدل على أنه لشؤم زلتهم تتغير عواقبهم، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

= قريش، أبو عباد، صحابي من الشجعان الأشراف. كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه أمه بنت خالة أبي بكر، وكان أبو بكر يمونه لقرابته منه، فلما كان حديث أهل الإفك في أمر عائشة جلده النبي ﷺ مع من خاضوا فيه، وحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه. فنزلت الآية ﴿ولا يأتل...﴾ فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه، وأطعمه رسول الله ﷺ بخيبر خمسين وسقاً، وهو ممن شهد معه بدراً وأحداً والمشاهد كلها.

الأعلام ٧/ ٢١٥، والإصابة ت ٧٩٣٧، وأسد الغابة ٤/ ٣٥٤، ونسب قريش ٩٥.

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم، فالعين كما تشهد: أنه نَظَر بي، تشهد بأنه بكى بي.. وكذلك سائر الأعضاء.

ويقال شهادةُ الأعضاء في القيامة مُؤجَّلَةٌ، وشهادتها في المحبة اليومَ مُعَجَّلة؛ من صُفْرَةِ الوجهِ إذا بدا المحبوب، وشحوبِ اللون، ونحافةِ الجسم، وانسكابِ الدموع، وخفقان القلب، وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

يجازيهم على قَدْر استحقاقهم؛ للعابدين بالجنان والمثوبة على توفيةِ أعمالِهم، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفيةِ أحوالِهم؛ فهؤلاء لهم عُلوُّ الدرجات، وهؤلاء لهم الأُنس بعزيز المشاهدات ودوام المناجاة.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾: فتصيرُ المعرفةُ ضروريةً؛ فيجدون المُعافَاةَ من النَّظَر وتَذَكُّرِهِ، ويستريح القلبُ من وَصْفَيْ تَرَدُّدِهِ وتَغَيُّرِه: لاستغنائه ببصائره عن تَبَصُّرِهِ.

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحقَّ؛ فهم قائمونَ بالحق للحق مع الحق، يبيِّن لهم أسرار التوحيد وحقائقه، ويكون القائم عنهم، والآخذَ لهم منهم من غير أَنْ يُرَدَّهم إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: من الأعمال وهي المحظورات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾: من الرجال المُؤْثِرين لها طوعاً، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها، كلٌّ مربوطٌ بما يليق به؛ فالفِعْلُ لائقٌ بفاعله، والفاعلُ بِفِعْلِهِ في الطهارة والقذارة، والنفاسة والخساسة، والشرفِ والسَّرَفِ.

ويقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: من الأحوال؛ وهي الحظوظُ والمُنَى والشهواتُ لأصحابها والساعين لها. والساعون لمثلها لها، غيرَ ممنوعٍ أَحَدُهما من صاحبه، فالصفةُ للموصوف مُلازِمة، والموصوفُ لِصِفَتِهِ ملازِمٌ.

ويقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: من الأشياء للخبيثين من الأشخاص، وهم الراضون بالمنازل السحيقة... وإنَّ طعامَ الكلابِ الجِيَفُ.

ويقال ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: من الأموال ـ وهي التي ليست بحلال ـ لمن بها رتبته، وعليها تعتكف هِمَّتُه؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلّا لمثل تلك الأموال، وتلك الأموال لا تساعد إلا مثلَ أولئك الرجال.

قوله جل ذكره: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾: من الأعمال هي الطاعات والقُرَبُ للطيبين، والطيبون هم المُؤْثِرُون لها والساعون في تحصيلها.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾: من الأحوال ـ وهي تحقيق المواصلات بما هو حقُّ الحق، مُجَرَّداً عن الحظوظ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتهم عن كلِّ مُبْتَذَلٍ خسيس، ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالي، وهي التجمُّلُ بالتذلل لِمَنْ له العِزَّةُ.

ويقال الطيبات من الأموال ـ وهي التي لا نكيرَ للشرع عليها، ولا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيها ـ للطيبين من الرجال، وهم الأحرار الذين تخلَّصوا من رِقِّ الكون.

ويقال ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الأشخاص وهن المُبَرَّاتُ من وهجِ الخطر، المتنقيات عن سفساف أخلاق البشرية، وعن التعريج في أوطان الشهوات ـ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال الذين هم قائمون بحقِّ الحقِّ؛ لا يصحبون الخلْقَ إلا للتعفُّفِ، دون استجلابِ الشهوات.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لهم مغفرةٌ في المآل، ورزقٌ كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشرافٍ، ولا تطلب طمعٍ، ولا ذلِّ مِنَّةٍ ولا تقديم تعَبٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الخواصُ لا يَرَوْنَ لأنفسِهم مِلْكاً يتفردون به؛ لا مِنَ الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة، فَمَنْ فاتحهم بشيءٍ منها فلا يكون منهم مَنْعٌ ولا زَجْرٌ، ولا حَجْبٌ لأحدٍ ولا حظْرٌ.. هذا فيما نيط بهم. أمَّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرَّضون لمن هي في أيديهم؛ لا باستشرافِ طَمَع، ولا بطريقِ سؤالٍ، ولا على وجهِ انبساطٍ. فإن كان حكمُ الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحقُّ يُلجِىءُ مَنْ في يده الشيءُ ليحمِلَه إليه بحكم التواضع والتقرُّب، والوليُّ يأخذ ذلك بنعتِ التعزُّزِ، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة، وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وإني لأستحي مِنَ الله أنْ أُرَى ... أسيرَ بخيلٍ ليس منه بعيرُ
وأنْ أسألَ المرءَ اللئيمَ بعيره ... وبعران ربِّي في البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

في هذا حِفْظُ أَمْرِ الله وحِفْظُ حُرْمةِ صاحب الدارِ؛ لأنَّ مَنْ دَخَلَها بغيرِ إذْنِ صاحبِها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يطَّلِعَ عليه غيرُه، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

إن قيل لكم: ارجعوا... فارجعوا؛ فقد تكون الأعذارُ قائمةً، وصاحبُ الملكِ بِملْكِه أَوْلى.

قوله جل ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

رَفَعَ اللَّهُ الجُناحَ والحَرَجَ في الانتفاعِ بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبُه بغير إذْنِهِ؛ كدخولِ أرضٍ للداخلِ فيها أغراضٌ لقضاءِ حاجته ـ ولا يجد طريقاً غير ذلك ـ إذا لم يكن في دخوله ضَرَرٌ على صاحبها، وجرى هذا مجرى الاستظلال بظِلِّ حائطٍ إذا لم يكن قاعداً في مِلْكِه، وكالنظر في المرآة المنصوبة في جدار غيره.. وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون قضية العقل ـ على ما توهمَّه قومٌ.

قوله جل ذكره: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿يَغُضُّوا۟﴾: من أبصار الظواهر عن المُحَرَّمات، ومن أبصار القلوب عن الفِكَرِ الرَّدِيّة، ومن تصوُّرِ الغائبات عن المعاينة، ولقد قالوا: إنَّ العينَ سببُ الحَيْن، وفي معناه أنشدوا:

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَك رائداً لقلبِك ـ يوماً ـ أَتْعَبَتْكَ المناظرُ

وقالوا: مَنْ أرسل طَرْفَه اقتضى حَتْفَه.

وإن النظرَ إلى الأشياء بالبَصَرِ يوجِبُ تَفْرِقَةَ القلوب.

ويقال إن العدوَّ إبليسَ يقول: قومي القديمُ وسهمي الذي لا يخطىء النظرُ. وأرباب المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحَسَّات ـ وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم في المجاهدة في أحوال الرياضة.

ويقال قَرَنَ اللَّهُ النهي عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفَرْجِ فقال: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل.

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق ـ سبحانه ـ يكاشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرُّضٍ أو تكلف.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمولِ التكليف للجنسين، فالواجبُ عليهن تركُ المحظوراتِ، والندبُ والنَّفْلُ لهن صونُ القلب عن الشواغل والخواطر الردية، ثم إنِ ارتقَيْنَ عن هذه الحالة فالتعامي بقلوبِهن عن غيرِ المعبود، والله يختص برحمته من يشاء.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ما أباح الله ـ سبحانه ـ على بيان مسائل الفقه فمُستثنى من الحظرِ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات في الآجل، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده. والله سبحانه كما يحفظ أولياءه عما يضرهم في الدِّين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخَلْق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ.

وفي الجملةِ ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره؛ فكما أنَّ للنساءِ عورةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك مَنْ أظهر للخَلْق ما هو زينة سرائره من صفاء أحواله، وزكاء أعماله انقلب زَيْنُه شَيْناً، إلا إذا ظهر على أحدٍ شيءٌ ـ لا بتعمله ولا بتكلُّفه ـ فذلك مستثنىً لأنه غير مُؤاخَذٍ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه، فذوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُسْتَثْنَى حُكْمُهن عن الحَظْر.

قوله جل ذكره: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

تُراعى في جميع ذلك آدابُ الشرع في الإباحة والحظر.

قوله جل ذكره: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التوبةُ الرجوعُ عن المذموماتِ من الأفعال إلى أضدادها المحمودة، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة، فتوبةٌ عن الزَّلَّةِ وهي توبة العوام، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص. . وتوبةٌ على محاذرة العقوبة، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر.

ويقال أَمَر الكافة بالتوبةِ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق، وخاصَّ الخاصِّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفِّق.

ويقال أَمَرَ الكلَّ بالتوبة لئلا يخجلَ العاصي من الرجوع بانفراده.

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء ـ رِفْقاً بهم ـ من أمارات الكَرَمِ.

ويقال في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتبين أنَّه أَمَرَهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحقِّ ـ سبحانه ـ بتوبتهم وطاعتهم تجمُّلٌ.

ويقال أحوجُ الناس إلى التوبة مَنْ تَوَهَّمَ أنَّه ليس يحتاج إلى التوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

إذا كان القصدُ في المناكحة التأدب بآداب الشرع يكفي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاءِ نسْلٍ يقوم بحقِّ الله.

قوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يُغْنِيهمُ اللَّهُ في الحال، أولاً بالنفس ثم غِنَى القلب؛ وغنيُّ القلبِ غَنِي عن الشيء، فالغَنِيَ عن الدنيا أَتَمُّ من الغني بالدنيا.

ويقال إن يكونوا فقراء في الحال يُغْنِهم الله في المستأنف والمآل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

مَنْ تَقاصر وسعهُ عن الإنفاق على العيال فليصبر على مقاساة التحمل في الحال، فَعَنْ قريبٍ تجيبه نَفْسُه إلى سقوط الأرب، أو الحق ـ سبحانه ـ يجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يَحْتَسِب، ولا تخلو حالُ المتعفِّفِ عن هذه الوجوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

أي إن سَمَحَتْ نفوسكم بإزالة الرِّقِّ عن المماليك ـ الذين هم في الدين إخوانكم ـ من غير عِوَضٍ تلاحظون منهم فلن تخسروا على الله في صفقتكم. وإن أبيتم إلا العوض ودعوا إلى الكتابة، وعلمتم بغالب ظنكم صحة الوفاء بمال الكتابة من قِبَلِهم فكاتبوهم[1]، ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجهٍ؛ من قدْرٍ يحط من مال الكتابة، وإعانةٍ لهم من فروض الزكاة، وإمهالٍ بِقَدْرِ ما يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له.

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرِّفقِ حتى يصل المملوكُ المسكينُ إلى عتقه فبالحريِّ أن يسمو الرجاءُ إلى الله بجميل الظنِّ أن يُعْتَقَ العبدُ من النار بكثرة تضرعه، وقديم سعيه ـ بقدر وسعه ـ من عناءِ قاساه، وفضلٍ من الله ـ عن قديمِ ـ رجاه.

ثم في الخبر: «إن المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم»[2]: والعبد يسعى بجهده ليصل إلى تحرر قلبه، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار

---

(١) معنى الكتاب والمكاتبة: أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال يُنجّمه عليه، ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه، في كل نجم كذا وكذا، فهو حر، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه، فقد عتق، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه. (لسان العرب ١/ ٧٠٠ مادة: كتب).

(٢) أخرجه أبو داود (عتاق ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

وإرادة شيءٍ من الأغيار فهو بكمال رِقِّه وليس في الحقيقة بِحُرّ. فالمكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حامِلُ العاصي على زَلَّتِه، والداعي له إلى عَثْرَته، والمُعينُ له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوِزرِ أكثرُ مِنْ غيره، وبعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً، ولم يترك الحقُّ ـ سبحانه ـ للإشكال محلاً؛ بل أَوْضَحَ المنهاج وأضاءَ السِّراجَ، وأنار السبيلَ وألاح الدليل، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ، ولا يمسُّه تعبٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أي هادي أهلِ السمواتِ والأرض، ومنه نورهما والذي منه الشيء يسمى باسمه الشيء. ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى.

ويقال نور السموات والأرض أي منورُها وخلقُ ما فيها من الضياء والزينة، وموجِدُ ما أودعها من الأدلة اللائحة.

ويقال نوَّر اللَّهُ السماءَ بنجومها فقال: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] فكذلك زينَ القلوب بأنوارٍ هي نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العِلْم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد، فلكلِّ شيءٍ من هذه الأنوار مطرحُ شعاعٍ بقدره في الزيادة والنقصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..﴾: أراد بهذا قلب المؤمن وهو معرفته، فشبَّهَ صدرَه بالمشكاة، وشبَّه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة، وشبَّه القنديلَ ـ الذي هو قلبه ـ بالكوكب الدريّ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدُّ السراج في الاشتعال. ثم وصفَ الزيتَ بأنَّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه، أو

خلَلِ مسَّه، ثم وصف ذلك الزيت ـ في صفوته ـ بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسَّه نار.

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى ـ ﷺ ـ ودينه الحنيفي، فما كان يهودياً ـ وهم الذين قبلتُهم إلى جانب المغرب، ولا نصرانياً ـ وهم الذين قبلتهم في ناحية المَشرق.

وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم، أو عيان أضافه إلى بيانهم، فهو نور على نور.

ويقال أراد به قلب محمد ـ ﷺ ـ ونورُ معرفته موقدٌ من شجرةٍ هي إبراهيم عليه السلام، فهو ﷺ على دين إبراهيم.

قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ بحيث تصيبه الشمس بالعشي دون الغداة، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشي، بل تصيبه الشمسُ طولَ النهارِ ليتمَّ نضج زيتونه، ويكمل صفاءُ زيته. والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن، بل هما يعتدلان؛ فلا يغلب أحدهما الآخر؛ تقابل هيبتهم أُنسهم، وقبضُهم بسطَهم، وصحوهُم محوَهم، وبقاؤهم فناءهم، وقيامُهم بآداب الشريعة تحقُّقهم بجوامع الحقيقة.

ويقال ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: أي أن هِمَمَهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً، ولا علوياً ولا سفلياً، ولا جنياً ولا إنسياً، ولا عَرْشاً ولا كرسياً، سطعت عن الأكوان، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحقَّ مُنَزَّهٌ عن اللحوق والدرك، فبقيت عن الحق منفصلة، وبالحق غير متصلة؛ وهذه صفة الغرباء.. «وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»(١).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٢٣٢)، والترمذي في (السنن ١٦٢٩)، وابن ماجه في (السنن ٣٩٨٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣١٨)، والدارمي في (السنن ٢/ ٣١٢) والدولابي في (الكنى والأسماء ١/ ١٩٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٣٨٠، ٥٣٨١، ٥٣٨٢، ٥٣٨٣ ـ ٥٣٨٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١١٩٢، ١١٩٣ ـ ١١٩٨، ١١٩٩ ـ ١٦٨٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٠٦ ـ ١٥٦، ٧/ ٢٥٩ ـ ٢٧٨)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٢٣، ٧/ ٢٣٩) والبغوي في (شرح السنة ١/ ١١٨)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ١٤٠)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ١٠٤)، والطبري في (التفسير ١٥/ ٧٥)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٥٦)، والسيوطي ني (الدر المنثور ٦/ ٣٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٦٥)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٩٨)، وصاحب (تاريخ واسط ١٤٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢١٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٧٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٢٠٢ ـ ٣١٤، ٨/ =

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرِّج في أقطار الكسل، فيصل سَيْرَه بِسُراه في استعمالِ فكرِه، والحقُّ يمده: بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارضِ الاجتهادِ شيءٌ من حُبِّ رياسةٍ، أو ميلٍ لسوءٍ، أو هوادة. فإذا أسفر صُبْحُ غفلته، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة. ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهْد، وحصول الوَجْدِ عند أداء الوِرْد.

ثم بعده نور المعاملة، ثم نور المنازلة، ثم متوّع نهار المواصلة. وشموس التوحيد مشرقة، وليس في سماءِ أسرارِهم سحابٌ ولا في هوائِها ضبابٌ، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة، فإذا نَظَرَ في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة، فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرَّعُ كاساتِ نَدَمِهِ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِه، والتَّنَقِّي عما كان عليه في أوقات فترته. فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة؛ فيعلم أنَّه ـ سبحانه ـ مُطَّلِعٌ عليه. وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدو في السرائر. ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلِّي الصفات. ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلُه نهاراً، ونجومُه أقماراً، وأقمارُه بدوراً، وبدورُه شموساً. . ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد، ثم ما لا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ، فالعبارات ـ عند ذلك ـ خُرْسٌ، والشواهد طُمْسٌ، وشهود الغير عند ذلك محال. عند ذلك: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٤]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وانفطرت. . . فهذه كلها أقسام الكون. وما منَ العَدَمِ لهم صار إلى العدم. القائمُ عنهم غيرُهم، والكائن عنهم سواهم. وجلَّتْ الأحديةُ وَعَزَّتْ الصمدية، وتَقَدَّسَتْ الديمومية، وتنزهت الإلهية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

= ١٧٩، ١٠/ ١٢٢، ١١/ ٧٠)، والخطيب البغدادي في (شرف أصحاب الحديث ٣٧، ٣٨، ٣٩)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ١/ ٢، ٨٢)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٤٨)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٣٦، ٢٣٧)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٢١٢، ٢/ ٨٣)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٢٤٤، ٥٢٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٣٣)، وابن حبان في (المجروحين ٢/ ٢٢٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٦٢، ٤/ ١٦١٥، ٥/ ١٨٢٣).

المساجدُ بيوتَه ـ سبحانه ـ وإنَّ الله أَذِنَ أَنْ تُرْفَعُ الحوائجُ فيها إليه فيقضيها، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار. المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة؛ فالعابدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله، والقاصدُ يصل بإرادته إلى الله.

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة، والأرواحُ مَشاهِدُ المحبة، والأسرار محالُّ المشاهدة.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ . . .﴾ لم يقل: لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون، بل قال: لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، فإنْ أمكن الجمع بينهما فلا بأسَ ـ ولكنه كالمتعذر ـ إلّا على الأكابر الذين تجري عليهم الأمورُ وهم عنها مأخوذون.

ويقال هم الذين يُؤْثِرون حقوقَ الحقِّ على حظوظ النَّفْس.

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن: حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع، وقاموا الأداء حقه.

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عِوَضٍ أو مطالعة سبب.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤَجَّلٌ لهم، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ تَرَقُّبِ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مَنْ رَفَعَ الحسابَ من الوَسَط يَرْفَعْ معه الحساب، ومَنْ هو في أَسْرِ مطالباته فالوزنُ يومئذٍ الحقُّ.

والرزقُ بغير حسابٍ في أرزاق الأرواح، فأمَّا أرزاقُ الأشباح فمحصورةٌ معدودةٌ؛ لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ؛ وهي وجودُ أفضال وفنونُ نوالٍ. وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أن يأتيَ عليه العَدَدُ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجَلال فذلك على الدوام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. ومَنْ أَمَّل السرابَ شراباً فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعلمَ أنَّه كان تخييلاً؛ فالعَطَشُ يزداد، والروح تدعو للخروج.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ .

ظلماتُ الحسبان، وغيومُ التفرقة، وليالي الجُحْدِ، وحنادسُ الشَّكِّ إذا اجتمعت فلا سِراجَ لصاحبها ولا نجوم، ولا أقمارَ ولا شموسَ. . . فالويلُ ثم الويل!

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: إذا لم يسبق لعبدٍ نورُ القسمة، ولم يساعده تَعَلُّقٌ فجهدُه وكدُّه، وسَعْيُه وجِدُّه عقيمٌ من ثمراته، موئِسٌ من نَيْل بركاته. والبدايات غالبةٌ للنهايات؛ فالقبولُ لأهْلِه غيرُ مُجْتلَبٍ، والردُّ لأهله غير مُكْتَسَبٍ. وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة في عِلْمِه في آزاله، وأراد كونَ ما عَلِمَ من أفعاله يكونَ، وأخبر أن ذلك كذلك يكون، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلِمَ.

وهكذا القول في الشقاوة؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ، ولا تتوجَّهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

التسبيح على قسمين: تسبيحُ قولٍ ونطقٍ، وتسبيحُ دلالة وخَلْق؛ فتسبيحُ الخَلْقِ عام من كل مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ، منه تسبيحٌ خاصٌّ بالحيوانات، وتسبيحٌ خاصٌّ بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين: تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير بصيرة؛ فالذي قرينته البصيرة مقبولٌ، والذي تجرَّدَ عن العرفان مردود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْك، والملك القدرة على الإيجاد؛ فالمقدورات ـ قَبْلَ وجودها ـ للخالق مملوكة، كذلك في أحوال حدوثها بعد عَدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه، فَمُلْكهُ لا يحدث ولا يزوال ولا يؤُولُ شيءٌ منه إلى البطول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ۞ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ .

تعرَّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنْعِه في بديع حكمته، وبما يدل منها على كمال قدرته، وشمول علمه وحكمته، ونفوذ إرادته ومشيئته. فَمَنْ أنعم النظرَ وَصَلَ إلى بَرَدِ اليقين، ومَنْ أعرض بقي في وَهْدَةِ الجُحْدِ وظلمات الجهل.

ترتفع بمدرته بخاراتُ البحرِ، وتصعد بتسييره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب، ثم يُديرها إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرةً قطرةً؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْبٍ فيقلبه عَذْباً، ويُسِحُه

السحاب سَكْباً، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ أو يُنَزَّلُ، ولا بالحيلةِ يُسْتَنْزلُ على المكانِ الذي لا يُمْطِره.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار.. ذلك تقدير العزيز العليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد خلقَ كُلَّ حيوانٍ من ماء، يخرج من صُلْب الأب وتريبة الأمّ. ثم أجزاءُ الماءِ متساويةٌ متماثِلة، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن، فيختصُّ كلُّ عضو وينفرد كل شِلْوٍ[1] بنوع من الهيئة والصورة، وضَرْبٍ من الشكلِ والبِنْيَةِ. ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب، ثم في القامة والمنظر، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجِلْدٍ وعَظْمٍ وسِنٍّ ومخٍّ وعَصب وعِرْقٍ وشَعْرٍ.

فالنظرُ في هذا ـ مع العبرة به ـ يوجِبُ سجودَ البصيرةَ وقوة التحصيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآيات بَيِّنةٌ ولكنَّ اللَّهَ يهدي إليها قوماً ويُلَبِّس على آخرين، والذي سُدَّ بَصَرُه أنَّى ينفعه طلوعُ الشمسِ والنجوم؟ وكذلك الذي سُدَّت بصيرته أنَّى تنفعه شواهدُ العلوم ودلائل الفهوم؟ وقالوا في معناه:

وما انتفاعُ أَخي الدنيا بمقلته   إذا اسْتَوَتْ عِنْدَه الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يستسلمون في الظاهر ويُقِرُّون باللسان، ثم المخلص يبقى على صدقه.

والذي قال لخوفِ سيفِ المسلمين، أو لِغَرَضٍ له آخر فاسد يتولى بعد ذلك، وينحاز إلى جانب الكفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم، فيمن عَلم أنه قاسط في خصومته لم يَطِب نَفْساً بحُكْمِه. وكذلك المريبُ يَهْرَبُ من الحقّ، ويجتهد في الفرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

---

(١) الشِّلْو: العضو (ج) أشلاء.

منقادين يميلون مع الهوى، ولا يقبلون حُكمه إيماناً. وكذلك شأن المريض الذي يميل بين الصحة والسقم؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم، فليس منهم نَفْيٌ بالقطع ولا إثباتٌ بالعلم، فهم متطوّحون في أودية الشك، وهذا معنى قوله:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فلمَّا انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظُلَمِ الشك، ولما لم يكن لهم يقينٌ في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنُهم قيامُهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق. ومن يُقابِلْ أمرَ الله بالطاعة، ويستقبلْ حُكمه بالاستخذاء.. فأولئك هم الصادقون في الحقيقة، السالكون في الطريقة، الآخذون بالوثيقة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أقسموا بالله غاية اليمين، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل، فقال: لا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به؛ فطاعةٌ في الوقت أَوْلى من تسويفٍ بالوعد.

ثم قال: قُلْ يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول.. فإن أجابوا سَعِدُوا في الدارين، وأحسنوا إلى أنفسهم. وإنْ تَوَلّوْا عن الإجابة فما أَضَرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل عليهم، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم، وليس على الرُّسلِ إلا حُسْنُ البلاغ. ويومَ الحَشْرِ يُعْطَى كُلُّ أحدٍ كتابَه، ويُعامَلُ بمقتضى حساب نفسه[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وَعْدُ الله حقٌّ وكلامُه صدقٌ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه ـ بالإجماع ـ لم يتقدمهم في الفضيلة ـ إلى يومنا ـ أحدٌ؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم، وصدَق وعدُ الله فيهم، وهم على الدين المرضيّ من قِبلِ الله، ولقد أَمِنُوا بعد خوفهم، وقاموا بسياسة المسلمين، والذَّبِّ عن حوزة الإسلام أحسنَ قيام.

---

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

(٢) الآية (٥٤) لم ترد.

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلَّة ودعائم الإسلام، الناصحون لعباده، الهادون مَنْ يسترشِدُ في الله؛ إذ الخَلَلُ في أمر المسلمين من الولاةِ الظَّلَمَة ضَرَرُه مقصورٌ على ما يتعلَّق بأحكام الدنيا، فأما حفَّاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف:

قومٌ هم حفَّاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفّاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزنةِ، وقوم هم علماءُ الأصولِ الرادُّون على أهلِ العِناد وأصحابِ البِدَع بواضح الأدلة، وهم بطارِقةُ الإسلام وشجعانُه.

وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدِّيَات، وما في معاني الأَيمانِ والنذور والدعاوى، وفصل الحُكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في المُلْك.

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدِّين كخواصِّ المَلِك وأعيان مجلس السلطان؛ فالذين معمورٌ بهؤلاء ـ على اختلافهم إلى يوم القيامة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

إنَّ الباطلَ قد تكون له دولةٌ ولكنها تخييل ـ وما لذلك بقاء ـ وأقلُّ لُبْثاً من عارضٍ ينشأ عن الغيظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾.

ضيَّق الأمر من وجهٍ ووسَّعَه من وجهٍ، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحُرُم، والتحرر من مخاوف الفتنة، وإذا كانت الجوانبُ محروسةً صارت المخاوفُ مأمونة[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يحدث تأثيرٌ بالمضَرّة لبناتِ الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة؛ فإذا سَكنَتْ تلك الثائرة سَهُل البابُ، وأُبيحت الرُّخَصُ وأُمِنَتْ الفتنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾.

(١) الآية (٥٦) لم ترد.
(٢) الآية (٥٩) لم ترد.

إذا جاءت الأعذار سُهلَ الامتحانُ والاختيارُ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة في الارتفاق.

ثم قال: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]: وعزيزٌ منْ يصدُقُ في الصداقة؛ فيكون في الباطن كما يُرَى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرآة ومِنْ ورائِك كالمقْراض[1]، وفي معناه ما قلت:

مَنْ لي بمن يثق الفؤاد بودِّه — فإذا تَرحَّلَ لم يزغ عن عهده
يا بؤس نفسي من أخ لي باذلٍ — حسنَ الوفاء بوعده لا نَقْدِه
يُولِي الصفاءَ بنُطقه لا خُلقه — ويدسُّ صاباً في حلاوة شَهْده
فلسانُه يبدي جواهر عقده — وجَنانه تغلي مراجلُ حقده
لا هُمَّ إني لا أطيق مِراسَه — بك أستعيذ من الحسود وكيده

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١] مَنْ تُؤمَنُ منه هذه الخصال وأمثالها.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

السلامُ الأمانُ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللّهِ على نَفْسِه؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسلَم نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله، إذ لا يحل لمُسلِم أَنْ يفتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه ـ سبحانه ـ ظِلَّ عِصْمَتِه؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ في الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

شرطُ الاتباع موافقةُ المتبوع، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] و «العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ»[2]. والمريدون لشيوخهم

---

(١) المقراض: المقص، وهو ما يقرض به الثوب أو غيره، وهما مقراضان. والمقراض: آلة تقرض بها تذكرة الراكب في القطار وغيره. (ج) مقاريض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٢٢٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٧١ ـ ٣٣٨ ـ ٤٥٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٦٧٩) والقرطبي في (التفسير ٤/ ٤١، ١٣/ ١٦٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٣٣٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠)، والعجلوني في=

كالأُمَّةِ لنبيِّهم؛ فَشَرْطُ المريدِ ألا يَتَنَفَّسَ بِنَفَسٍ إلا بإذن شيخه، ومَنْ خَالَفَ شيخَه في نَفَسٍ ـ سِرّاً أو جَهْراً ـ فإنه يرى غِبَّه سريعاً في غير ما يُحبُّه. ومخالفةُ الشيوخ فيما يستسرونه عنهم أشدُّ مِمَّا يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالخيانة. ومَنْ خَالَفَ شيخَه لا يُشمُّ رائحةَ الصِّدقِ، فإن بَدَرَ منه شيءٌ من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عمَّا حَصَلَ منه من المخالفة والخيانة، لِيَهْدِيَه شيخُه إلى ما فيه كفَّارةُ جُرْمِه، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه. وإذا رجع المريدُ إلى شيخه بالصدق وَجَبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهمته؛ فإن المريدين عِيالٌ على الشيوخ؛ فُرِضَ عليهم أن يُنْفِقُوا عليهم من قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

أي عَظِّموه في الخطاب، واحفظوا في خدمته الأدبَ، وعانِقوا طاعتَه على مراعاةِ الهيبة والتوقير.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سعادة الدارين في متابعة السنَّة، وشقاوة المنزلين في مخالفة السُّنَّة. ومِنْ أَيْسَرِ ما يُصيب مَنْ خَالَفَ سُنتَه حرمانُ الموافقة، وتَعَذُّرُ المتابعة بعده، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إنَّ لليوم غداً، ولِمَا يفعلُ العبدُ حساباً، وسيُطالَبُ المكَلَّفُ بالصغيرِ والكبير، والنقير والقطمير.

= (كشف الخفاء ٢/ ٢٢ ـ ٨٣)، والسهمي في (تاريخ جرجان ٣٣٦)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٣٠ ـ ٢٤٧).

سورة الفرقان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعالُه، ونَطَقَتْ بجماله أفضالُه. دَلَّتْ على إثباتِه آياتُه، وأَخْبَرَتْ عن صفاتِه مفعولاتُه.

بسم الله اسم عزيز عُرِفَتْ بفعله قدرتُه، اسم كريم شَهِدَتْ بفضله نصرته.

بسم الله اسم عزيز عَرَفَه العقلاءُ بدلالات أفعاله، وعَرَفَه الأصفياءُ باستحقاقه لجلاله وجماله؛ فبلطف جماله عرفوا جودَه، وبكشف جلاله عرفوا وجودَه.

بسم الله اسم عزيز مَنْ دعاه لبَّاه، ومَنْ توكل عليه كَفَاه، ومَنْ تَوَسَّلَ إليه أكرمه وآواه، ومن تَنَصَّلَ إليه رَحِمَه وأدناه، ومن شكا إليه أشكاه، ومن سأله خوَّله وأعطاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

يقال بَرَكَ الطيرُ على الماء إذا دام وقوفُه على ظهر الماء. ومَبَارِكُ الإبلِ مَواضِعُ إقامتها بالليل. وتبارك على وزن تَفَاعَل تفيد دوامَ بقائه، واستحقاقَه لِقِدَمِ ثبوته وبقاء وجوده لا عن استفتاحٍ ولا إلى انقطاع.

وفي التفاسير ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعظَّمَ وتَكبَّر. وعند قوم أنه من البركة وهي الزيادة والنفع، فدوامه وجودُه، وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلّية، والبركة أو الزيادة تشير إلى فَضْلِه وإحسانه ولُطْفِه.

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة: ثناء عليه بذكر ذاته وحقِّه، وثناء بذكر وصفه وعِزِّه، وثناء بذكر إحسانه وفضله؛ فكلمةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ مجمعُ الثناء عليه ـ سبحانه.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، وهو القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: فأكرمه بأن نَبَّاه وفَضَّلَه، وإلى الخَلْق أرسله، وبَيَّنَ مُعْجِزَتَه وأمارةَ صِدْقه بالقرآن الذي عليه أنزله، وجعله بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

تَفَرَّدَ بالمُلْكِ فلا شريكَ يساهمه، وتَوَحَّدَ بالجلالِ فلا نظيرَ يُقاسِمُه؛ فهو الواحد بلا قسيم في ذاته، ولا شريك في مخلوقاتِه، ولا شبيهٍ في حَقِّه ولا في صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

اتخذوا من دون اللَّهِ آلهةً لا يملكون قطميراً، ولا يخلقون نقيراً، ولا يدفعون عنهم كثيراً ولا يسيراً، ولا ينفعونهم ولا يُسهِّلُون عليهم عسيراً، ولا يملكون لأحدٍ موتاً ولا نُشوراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ظنوه كما كانوا، ولمَّا كانوا بأمثالِهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورِهم، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا ـ فقد قالوا من غير حُجَّةٍ وتَقَوَّلُوا، ولم يكن لقولهم تحصيل، ولأساطيرُ الأولين تُرَّهاتُهم التي لا يُدْرَى هل كانت؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت ومتى كانت؟

ثم قال: يا محمد، إن هذا الكتاب ـ الذي أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السموات والأرض ـ لا يَقْدِر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا من الوقت الذي أتى به أعداء الدينِ، وهم على كثرتهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته؛ فادَّعوا تكذيبه. وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمال، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله. فانتفى الرَّيْبُ عن صِدْقِه، ووَجَبَ الإقرارُ بحقِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم يمْشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نَزَّلَ عليه الملائكةَ فَيرَوْنَ عياناً؟ وهلَّا جعل له الكنوزَ فاستكثر مالاً؟ وهلَّا خُصَّ بآياتٍ ـ اقترحوها ـ فتَقْطَعَ العُذْرَ وتُزِيلَ عنَّا إشكالاً؟! وما هذا الرجلُ إلا بشرٌ تعتريه مِنْ دواعي الشهوات ما يعتري غيره! فأيُّ خصوصيةٍ له حتى تلْزَمَنا متابَعَتهُ ولن يُظْهِرَ لنا حجةً؟ فأجاب الله عنهم وقال: إنَّ الحقَّ قادرٌ على تمليكك ما قالوا وأضعافَ ذلك، وفي قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضعافُ ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخير بعدما أزيح العذرُ بإظهار معجزة

واحدة، واقتراح ما يَهْوَوْنَ تحكُّمٌ على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا؛ لأن حُكْمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

فهم في حُكم الله من جملة الكفار، والله أعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيدَ الأبدِ.. فلا محالة يُمتحنون به.

قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: دليلٌ على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبدُ في الحالِ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً، وهم معاتبُون مُكلَّفُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

فوحشةُ النارِ توجد من مسافة بعيدة قبل شهودِها والامتحان بها، ونسيمُ الجنةَ يوجد قبل شهودِها والدخولِ فيها، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قَبْلَ المستَمتِعين بها. وكذَبَ مَنْ أحال وجودهما قبل كون سكانهما وقطانهما من المنتفعين أو المعاقبين، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التي لا تكون إلا بموجود حيث قال:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

راحةُ الجنة مقرونة بسعتها، ووحشة النار مقرونة بضيقها، فيُضيِّق عليهم مكانَهم، ويضيِّق عليهم قلوبهم، ويضيق عليهم أوقاتهم. ولو كانت حياتُهم تبطل وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتناهى، ومِحَنٌ لا تنقضي؛ كلما راموا فرجةً قيل لهم: فلن نزيدكم إلا عذاباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

المتقون أبداً في النعيم المقيم؛ حور وسرور وحبور، ورَوْحٌ وريحان، وبهجة وإحسان، ولطف جديد وفضل مزيد، وألذُّ شرابٍ وكاساتٌ محابٌ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ، وكمال أُنسٍ ودوام طرب وتمام جَذَلٍ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس[1] وإستبرق[2]. والأسماء أسماءٌ في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها.

---

(١) السندس: رقيق الديباج ورفيعه. وقيل: السندس ضرب من البُزيون يُتخذ من المرعزيّ (معرّب). (لسان العرب ٦/ ١٠٧ مادة: سندس).

(٢) الإستبرق: هو الديباح الصفيق الغليظ الحسن، وهو اسم أعجمي أصله بالفارسية استَفْره ونقل من العجمية إلى العربية كما سمي الديباج وهو منقول من الفارسية. (لسان العرب ١٠/ ٥ مادة: إستبرق).

ثم فيها ما يشاؤون، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون، ولا هم عنها يخرجون.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادةَ ما عَلِم أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتُهم، ويمنع من قلوبهم مشيئتَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾.

اللَّهُ يحشرُ الكفارَ ويحشر الأصنامَ التي عبدوها من دون الله، فَيُحْيِيها ويقول لها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيتبرأون... كلُّه تهويلٌ وتعظيمٌ للشأن، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن. فالأصنام تُتبرأ منهم، وتقابلهم بالتكذيب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلالِ، فيُلْقَوْن في النار، ويَبْقَوْنَ في الوعيد إلى الأبد[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أخبر أن الذين تَقَدَّموه من الرسل كانوا بَشَراً، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهورَ المعجزات عليهم. وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة، ثم قال:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

فَضَّلَ بعضاً على بعض، وأمر المفضولَ بالصبر والرضاء، والفاضلَ بالشكر على العطاء وخصَّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء، وخصَّ قوماً بالعوافي، وآخرين بالأسقام والآلام، فلا لِمَن نَعَّمَه مناقب، ولا لِمَنْ امتحنه معايب... فبحُكمِه لا بِجُرْمهم، وبفضله لا بفعلهم، وبإرادته لا بعبادتهم، وباختياره لا بأوضارهم، وبأقداره لا بأوزارهم، وبه لا بهم.

قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ؟﴾ استفهام في معنى الأمر، فَمَنْ ساعَدَه التوفيقُ صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبي وكفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا. وكما كانوا لا يخافون العذابَ، ولا ينتظرون الحَشْرَ كذلك كانوا لا يُؤمِنون لقاءَ الله. فَمُنْكِرُ الرؤيةِ من أهل القِبْلَةِ ـ ممن يؤمن بالقيامة والحشرِ ـ مُشَارِكٌ لهؤلاء في

---

(١) الآيتان (١٨، ١٩) لم ترد.

جُحْدِ ما وَرَدَ به الخبرُ والنقلُ؛ لأن النَّقْلَ كما وَرَدَ بكوْنِ الحَشْرِ وَرَدَ بكون الرؤية لأهل الإيمان.

فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم ورؤية ربهم. وذلك وإن كان في القدرة جائزاً ـ إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

اقترحوا شيئين: رؤيةَ الملائكةِ ورؤيةَ اللّهِ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفيْ، ولكن تقول الملائكةُ لهم: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ!﴾.

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي حراماً ممنوعاً يعني رؤية الله عنهم، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره، وحَمْلُه على ذلك أَوْلى من حَمْلِه على الجنة، ولم يجرِ لها هنا ذكْرٌ. ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة، قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] فكما لا تكون للكفار بشارةٌ بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤيةُ للكفار وتكون للمؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

هذه آفة الكفار؛ ضاع سعيُهم وخاب جُهْدُهم، وضاع عمرُهم وخَسِرَتْ صفقتُهم وانقطع رجاؤهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رَوْحِهم، وتتأدّى إلى قلوبهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحهُم، ويتقاصر عن ثنائه نُطقُهم، حيث يسمعون قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحقُّ لأجله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ...﴾ فَهُمْ إذا سمعوا ذلك وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ ويقولون: يا ليت لنا أعمال أهل الدارين ثم لا تُقْبَلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ...﴾! لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدُّواً ذلك من أجلِّ ما ينالون من الإحسان إليهم، وفي معناه أنشدوا:

سأرجع من حجٍّ عامِيَ مُخْجِلاً لأنَّ الذي قد كان لا يُتَقَبَّلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها، الواصلون إليها، والمُكتَفون بوجدانها، فحسُنَتْ لهم أوطانُهم، وطابَ لهم مُستَقرُّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

يريد يومَ القيامة إذا بَدَتْ أهوالُها، وظَهَرت للمبعوثين أحوالُها عَمِلوا وتحققوا ـ ذلك اليومَ ـ أنَّ المُلْكَ للرحمن، ولم يتخصص ملكُه بذلك اليوم، وإنما علْمُهم ويقينهُم حَصَلَ لهم ذلك الوقت.

ويقال تنقطع دواعي الأغيار، وتنتفي أوهامُ الخلْق فلا يتجدَّدُ له ـ سبحانه ـ وصفٌ ولكن تتلاشى للخلْق أوصاف، وذلك يومٌ على الكافرين عسير، ودليل الخطاب يقتضي أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرقُ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلَّا وذلك اليوم يكون عليه هيناً[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

يندم الكافر على صحبة الكفار. ودليل الخطاب يقتضي سرورَ المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم في الله، وأمَّا الكافر فيُضِلُّ صاحبَه فيقع معه في الثبور، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾.

شكا إلى الله منهم، وتلك سنَّةُ المرسلين؛ أخبر الله عن يعقوب ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] فمَنْ شكا من الله فهو جاحد، ومنْ شكا إلى الله فهو عارف واجد.

ثم إنه أخبر أنه لم يُخلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلَّطَ عليه عَدُوّاً في وقته، إلا أنَّه لم يغادِرْ من أعدائِهم أحداً، وأذاقهم وبالَ ما استوجبوه على كفرهم وغَيِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته، وغداً نصيراً على رؤيته.

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ما ورد في الخبر: «أن كل أمة ترى في القيامة الصنم الذي عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار، فيُلْقَوْن فيها ويبقى المؤمنون، فيقال لهم: ما وقفكم؟ فيقولون: إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نرَ معبودنا! فيقال لهم: ولو رأيتموه. . . فهل تعرفونه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: بِمَ تعرفونه؟

(١) الآية (٢٦) لم ترد. (٢) الآية (٢٩) لم ترد.

فيقولون: بيننا وبينه علامة. فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم: أنا معبودكم. فيقولون: معاذ الله... نعوذ بالله منك! ما عبدناك. فيتجلَّى الحقُّ لهم فيَسجدون له».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي إنما أنزلناه متفرقاً لِيسُهل عليك حِفْظُه؛ فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين... وكثرةُ نزوله كانت أوجبَ لسكون قلبه وكمال رَوْحه ودوام أُنْسه، فجبريل كان يأتي في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة، وذلك أبلغُ في كونه معجزةً، وأبعدُ عن التهمة من أن يكون من جهة غيره، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

كان الجوابُ لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحماً، ولفساد ما يقولونه موضحاً، ولكن الحقَّ ـ سبحانه ـ أجرى السُّنّة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شِفَاءً وبصيرةً، ولهم إلا عَمىً وشبهة.

ثم أخبر عن حالهم من مآلهم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يحشرون على وجوههم وذلك أمارة لإهانتهم، وإن في الخبر: «الذين أمْشاهم اليومَ على أقدامهم يُمْشيهم غداً على وجوههم»(١) وهو على ذلك قادر، وذلك منه غير مستحيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾.

قَلَّما يجري في القرآن لنبينا ـ ﷺ ـ ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عُقَيْبَه موسى عليه السلام. وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت في باب البلاغة أتمَّ لا سيما إذا كانت في كل مرة فائدةٌ زائدة.

---

(١) أخرجه البخاري (تفسير سورة ٢٥، ١)، ومسلم (منافقين ٥٤)، والترمذي (تفسير سورة ١٧ ـ ١٢)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٥٤، ٣٦٣.

ثم بيَّن أنه قال لهما:

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي فَذَهَبا فَجَحَدَ القومُ فدمرناهم تدميراً أي أهلكناهم إهلاكاً، وفي ذلك تسليةٌ للنبي ـ ﷺ ـ فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء، ووَعْدٌ له بالجميل في أنه سَيُهْلك أعداءَه كُلَّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أَحْلَلْنا بهم العقوبة كما أحللنا بأمثالهم، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم. ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرَّسِّ[1]، ومَنْ ذكرهم على الجملة من غير تفصيل، وما أهلك به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث... كل ذلك تطييباً لقلبه ﷺ، وتسكيناً لِسرِّه، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديه، ويدمِّر مَنْ يناويه، وقد فَعَلَ من ذلك الكثير في حال حياته، والباقي بعد مُضِيِّه ـ عليه السلام ـ من الدنيا وذهابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾[2].

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته، فإذا أخبر اللَّهُ وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أَوْجَبَ للسَّلْوَةِ وأقربَ من الأُنس، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلُهم:

يودُّ بأن يمشي سقيماً لَعَلَّها ... إذا سمعت منه بشكوى تراسله

ويهتزُّ للمعروفِ في طَلَبِ العلَى ... لتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه ـ عليه السلام ـ بعين الازدراءِ والتصغيرِ لشأنه؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَه، قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3] [الأعراف: ١٩٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

(١) أصحاب الرس: يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، ويُروى أن الرس قريسة باليمامة يقال لها: فلج، ويروى أنهم كذبوا نبيهم ورسّوه في بئر أي دسّوه فيها حتى مات. (لسان العرب ٦/ ٩٨ مادة: رسس).

(٢) الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) لم ترد.

(٣) الآية (٤٢) لم ترد.

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْن؛ يستبدلون صنماً بصنم، وكانوا يَجْرُون على مقتضى ما يقع لهم. والمؤمنُ بِحُكْمِ اللَّهِ لا بحكم نفسه، وبهذا يتضح الفرقان بين رجلٍ وبين رجل. والذي يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه، وملتحِقٌ بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوءِ في هذه الآية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

كالأنعام التي ليس لها هَمٌّ إلَّا في أَكْلَةٍ وشَرْبَة، ومَنْ استجلب حظوظَ نَفْسِه فكالبهائم. وإنَّ الله ـ سبحانه ـ خَلَقَ الملائكةَ وعلى العقلِ جَبَلَهم، والبهائمَ وعلى الهوى فَطَرَهم، وبنى آدم وركّبَ فيهم الأَمْرَيْن؛ فَمَنْ غَلَبَ هواه عَقْلَه فهو شرٌّ من البهائم، ومَنْ غَلَبَ عَقْلُه هواه فهو خيرٌ من الملائكة... كذلك قال المشايخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

قيل نَزَلَ الرسول ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خَلْقاً كثيراً فَمَدَّ اللَّهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعَهم وكانوا كثيرين، فأنزل الله هذه الآية، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام.

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرضَ كلَّها ظلاً، ثم إذا طلعت الشمسُ، وانبسط على وجه الأرض شعاعُها فكلُّ شخصٍ يُبْسَطُ له ظِلٌّ، ولا يُصيب ذلك الموضعَ شعاعُ الشمس، ثم يتناقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال. وذلك من أماراتِ قدرة الله تعالى؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظلّ والضوء والفيء.

قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾: أي دائماً: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ أي حال ارتفاعِ الشمسِ ونُقصانِ الظلّ.

ويقال: ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه؛ فقومٌ هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية، والفقراء في ظل الكفاية، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية.

ظلٌّ هو ظل العصمة، وظل هو ظل الرحمة؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء، والرحمة للمؤمنين، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين. ويقال قوله للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ثم قوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ستراً لما كان كاشفة به أولاً، إجراءً للسُّنَّةِ في إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَانِي﴾

[الأعراف: ١٤٣]. وقال لنبينا عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وشتان ما هما!

ويقال أحيا قلبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى أن قال: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فجعل استقلاله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى أن سمع ذكر الظل. ويقال أحياه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وكذا سُنَّتُه مع عباده؛ يُردِّدُهم بين إفناءٍ وإبقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾[1].

جعل الليلَ وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين؛ فأربابُ الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم إنْ كانوا في رَوْح الوصال، فلا يأخذهم النومُ لكمال أُنسِهم، وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم، فالسَّهرُ للأحباب صِفَةٌ: إمَّا لكمال السرور أو لهجوم الهموم. ويقال جعل النومَ للأحباب وقتَ التجلِّي بما لا سبيلَ إليه في اليقظة، فإذا رَأَوْا ربَّهم في المنام يؤثِرون النومُ على السَّهر[2]، قال قائلهم:

وإني لأَستغفي وما بي نَعْسَةٌ لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وقال قائلهم:

رأيتُ سرورَ قلبي في منامي فأحببتُ التَّنَعُّسَ والمناما

ويقال النوم لأهلِ الغفلة عقوبةٌ ولأهلِ الاجتهادِ رحمةٌ؛ فإن الحقَّ ـ سبحانه ـ يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المجاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَم فتهب على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارِّه، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُكْفَى بالله لله، ويرسِلُ رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاةِ فتحملهم على النَّدَم، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحبابَ فتزعجها عن المساكنات، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا تستقِرُّ إلا بالكشف والتجلِّي.

---

(١) السُّبات: النوم أو النوم الخفيف أو النوم الثقيل.

(٢) انظر حديث القشيري بالرسالة عن رؤيا القوم ص٣٦٤، ٣٧٧ ففيها ترى الكرامات التي تحققت للأولياء أثناء نومهم.

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نسيمَ القُرْبِ هَامَ في ملكوت الجلال، وامتحى عن كل مرسومٍ ومعهود.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

أنزل من السماء ماء المطرِ فأحيا به الغياضَ والرياضَ، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمةِ فغَسَلَ العصاةُ ما تلطخوا به من الأوضار، وما تدنَّسوا به من الأوزار.

و﴿**الطَّهور**﴾ هو الطاهرُ المُطَهِّرُ، وماءُ الحياء يُطهِرُ قلوبَ العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها في بعض الأحيان من الغفلات. وماء الرعاية يُحْيي به قلوبَ المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلِّي حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

إنَّ الله ـ سبحانه ـ خصَّ نبينا ﷺ بأن فضَّله على الكافة، وأرسله إلى الجملة، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُه إلى الأبد. وبهذه الآية أدَّبه بأدقِّ إشارة، حيث قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ وهذا كما قال: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وَقَصْدُ الحقِّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم.

وفي القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسْأل، فأوحى الله في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رُسلاً، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام، فضاق قلبُ موسى وقال: يا رب، إني لا أطيق ذلك! فقبض اللَّهُ أرواحهم في ذلك اليوم.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

أي كُنْ قائماً بحقِّنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بِمَنْ سوانا، فإنَّا نَعْصِمُكَ بكلِّ وجهٍ، ولا نرفع عنك ظِلَّ عنايتنا بحالٍ.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

البحر المِلْح لا عذوبة فيه، والعَذْبُ لا ملوحة فيه، وهما في الجوهرية واحد، ولكنه سبحانه ـ بقدرته ـ غَايَر بينهما في الصفة، كذلك خَلَقَ القلوبَ؛ بعضُها مَعْدِنُ اليقينِ والعرفانِ؛ وبعضُها مَحَلُّ الشكِّ والكفران.

ويقال أثبت في قلوب المؤمنين الخوف والرجاء، فلا الخوف يغلب الرجاء، ولا الرجاء يغلب الخوف.

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين: قلبَ المؤمن مضيئاً مشرقاً وقلبَ الكافر أسود مظلماً، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم.

ويقال قلوبُ العوام في أسْرِ المطالب ورغائب الحظوظ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالب، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الخَلْقُ متشاكلون في أصل الخِلْقة، متماثلون في الجوهرية، متباينون في الصفة، مختلفون في الصورة؛ فنفوسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة. والخلْقُ بَشَرٌ.. ولكن ليس كلُّ بَشَرٍ كبشر؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسعى إلا في مخالفته، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظِّه، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحة والخساسة، وواحدٌ وليٌّ لا يَفْتَرُ عن طاعته، ولا يَنْزِل عن هِمَّتِه، فهو في سماء تعززه بمعبوده.

وبينهما للناس مناهل ومشارب؛ فواحِدٌ يكون كما قال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

يكتفي بالمنحوتِ من الخشب، والمصنوعِ من الصَّخْرِ، والمُتَّخَذِ من النحاس، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع.

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرش ـ وإن علا، ولا ينقاد بقلبه لمخلوقٍ ـ وإنِ لمتصف بمناقب لا تُحْصَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

رسولاً مِنَّا، مأموراً بالإنذار والتبشير، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ، غيرَ طالبٍ منهم أجراً، وغير طامعٍ في أن تجد منهم حظّاً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع؛ إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربِّهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم، فهو لِمَنْ أقْبَلَ بشيرٌ، ولِمَنْ أعرض نذير.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله. وحقُّه وأصْلُهُ عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصِلةٌ من الله تعالى، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه.

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه ـ إذا عَلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله ـ حصل

له أصل التوكل. وهذا القَدْرُ فَرْضٌ، وهو من شرائط الإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وما زاد على هذا القَدْرِ ـ وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار ـ فهي أحوال تلحق بالتوكل(١) على وجه كماله.

فإن تقرَّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام، ولكلٍّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم: إمَّا من حيث الاشتقاق، أو من حيث الاصطلاح.

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما في يده، ولا يطلب زيادة عليه، ويستريح قلبه من طلب الزيادة.. وتسمى هذه الحالة القناعة، وفيها يقف صاحبها حيث وقف، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاءُ كلِّ أحدٍ يختلف في القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحِرصِ وإرادة الزيادة.

ثم بعد هذا سكونُ القلب في حالة عَدَمِ وجود الأسباب، فيكون مجرداً عن الشيء، ويكون في إرادته متوكلاً على الله. وهؤلاء متباينون في الرتبة، فواحد يكتفي بوعده لأنه صَدَقَه في ضمانه، فيسكن ـ عند فقد الأسباب ـ بقلبه ثقةً منه بوعد ربه.. ويسمى هذا توكلاً، ويقال على هذا: إن التوكل سكون القلب بضمان الربِّ، أو سكون الجاش في طلب المعاش، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد.

وألطف من هذا أن يكتفي بِعِلْم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله؛ ويعمل على طاعته؛ ولا يراعي إنجاز ما وَعَدَه؛ بَل يَكِلُ أمرَه إلى الله.. وهذا هو التسليم.

وفوق هذا التفويض(٢)، وهو أنْ يَكِلَ أمرَه إلى الله، ولا يقترح على مولاه بحالٍ، ولا يختار؛ ويستوي عنده وجودُ الأسباب وعَدَمُها؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله؛ ولا يفكر في حال نَفْسِهِ؛ ويعلم أنه مملوكٌ لمولاه؛ والسيِّدُ أَوْلَى بِعَبْدِهِ من العبد بنفسه(٣).

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٦٢ ـ ١٧٣ حديث القشيري عن التوكل.

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التوكل: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض: فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. ويقول: التوكل بداية، والتسليم واسطة والتفويض نهاية. وقال: التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين، فالتوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص وكان يقول: التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ. (الرسالة القشيرية ص١٦٦، ١٦٧).

(٣) قال القشيري في حديثه عن نفس الموضوع: وقيل: دخل جماعة على الجنيد، فقالوا: أين نطلب الرزق؟ فقال: إن علمتم في أي موضع فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك، فقال: إن علمتم أنه ينساكم فاذكروه، فقالوا: ندخل البيت فنتوكل، فقال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ فقال: ترك الحيلة. (الرسالة القشيرية ص١٦٨، ١٦٩).

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً في المَنْع؛ واستعذب ما يستقبله من الرَّدِّ.. وتلك هي مرتبة الرضا[١]؛ ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لِمَنْ دونَه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا الموافقة؛ وهي ألا يجد الراحة في المَنْعِ، بل يجد بَدَلَ هذا عند نسيم القربِ زوائد الأُنس بنسيان كلِّ أرَبٍ، ونسيان وجود سببٍ أو عدم وجود سبب؛ فكما أنَ حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرْدِ الرضا ـ وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً ـ فكذلك أهل الأُنسِ بالله. بنسيانِ كلِّ فَقْدٍ ووَجْدٍ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزولَ إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال.

ثم بعد هذا استيلاءُ سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء.. وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فعند ذلك لا أُنسَ ولا هيبة، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة.

هذا بيان ترتيبهم فأمّا دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين ـ على تباين شِرْبِهم ـ يختلف على حسب اختلاف محالِّهم.

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد؛ لا شيء مِنْ قِبَلِه إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضانته[٢].

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجاري الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح في توكله.

ويقال عوامُ المتوكلين إذا أُعْطُوا شكروا، وإذا مُنِعُوا صبروا. وخواصُّهم إذا أُعْطُوا آثروا، وإذا مُنِعُوا شكروا.

ويقال الحقُّ يجود على الأولياء ـ إذا توكلوا ـ بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب.. وإذا لم يكن الأرَبُ فمتى يكون الطلب؟

ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ، فأمّا التوكل على الله في إصلاحه ـ سبحانه ـ أمورَ آخرةِ العبدِ فهذا أشدُّ غموضاً، وأكثرُ خفاءً. فالواجبُ في الأسباب

---

(١) انظر حديث القشيري عن الرضا برسالته ص١٩٢ ـ ١٩٧.

(٢) القشيري هنا تأثر بشيوخه حيث قال برسالته بهذا المعنى: قيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه تعالى. (الرسالة القشيرية ص١٦٨).
وقال دلف الشبلي بهذا المعنى: الصوفية أطفال في حجر الحق. (الرسالة القشيرية ص٢٨٢).

الدنيوية أن يكونَ السكونُ عن طلبها غالباً، والحركةُ تكون ضرورةً. فأمّا في أمور الآخرة وما يتعلَّقُ بالطاعةِ فالواجبُ البِدارُ والجِدُّ والانكماشُ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفشل.

والذي يتَّصِفُ بالتواني في العبادات، ويتباطؤ في تلافي ما ضيَّعَه من إرضاء الخصوم والقيام بحقِّ الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكِّلٌ على الله وأنه ـ سبحانه ـ يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ، ممكورٌ مُسْتَدْرَجٌ، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه. ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستنِدُ إلى سكونه وحركته، ويتبرأ بِسِرِّه من حَوْلِهِ وقوَّتِه. ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أن يخلوَ من مخافته، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك ـ إذا حَصَلَ ـ فالوقتُ غالِبٌ، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم: الوقت سيف[1].

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

انتظم به الكونُ ـ والعرشُ من جملة الكون ـ ولم يتجمَّل الحقُّ ـ سبحانه ـ بشيءٍ من إظهار بَرِيَّتِه؛ فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

أقبل الحقُّ ـ سبحانه ـ بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزِه فلذلك جحدوه؛ فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعْدِ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصدِّ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

زيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وخَلَقَ فيها البروجَ، وبَثَّ فيها الكواكب، وصان عن الفطورِ والتشويش أقطارَها ومناكبَها، وأدار بقدرته أفلاكها، وأدام على ما أراد إمساكها.

وكما أثبت في السماء بروجاً أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة.

---

(١) قال القشيري عند حديثه عن الوقت بالرسالة: وقالوا: الوقت سيف أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب. وقيل: السيف لين مسّه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردى، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت.
وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك. (الرسالة القشيرية ص٥٥، ٥٦).

وبروجُ السماء بيوتُ شمسها وقمرها ونجومها، وبروجُ القلب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شموسها ونجومها. وتلك النجوم هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم، وقمرُ القلوبِ المعرفةُ.

قمرُ السماء له نقصان ومحاق، وفي بعض الأحايين هو بَدْرٌ بوصف الكمال، وقمر المعرفة أبداً له إشراق وليس له نقصان أو محاق، ولذا قال قائلهم:

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لها بَدْرٌ تذلُّ له البدور

فأمّا شمسُ القلوب فهي التوحيد، وشمسُ السماءِ تغرب ولكن شمسَ القلوب لا تغيب ولا تغرب، وفي معناه قالوا:

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوب ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب سلطانُها في الضوء والطلوع بالليل أتمُّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

الأوقاتُ متجانِسةٌ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة في البعض أفضل والثوابُ عليها أكثر. والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليلِ، فَمَنْ وقع له في طاعة الليل خَلَلٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبْرانه، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففي ذلك إتمامٌ لنقصانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفِّقوا للطاعات، فبرحمتِه وصلوا إلى التوفيق للطاعة. وعِبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته.. هكذا بيان الحقيقة، وبطاعتهم وصلوا إلى جَنَّتِه.. هكذا لسان الشريعة.

ومعنى ﴿هَوْنًا﴾ متواضعين متخاشعين.

ويقال شرْطُ التواضع وحَدُّه ألا يستَحْسِنَ شيئاً من أحواله، حتى قالوا(١): إذا نَظَرَ إلى رِجْلِه لا يستحسن شِسْعَ نَعْلِهِ(٢)، وعلى هذا القياس لا يُساكِنُ أعماله، ولا يلاحظ أحواله.

---

(١) انظر هذا القول للدقاق في الرسالة القشيرية ص١٤٥.

(٢) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الاصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. (اللسان ٨/ ١٨٠ مادة: شسع).

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: قيل سداد المنطق؛ ويقال مَنْ خاطَبَهم بالقَذْح فهم يجاوبونه بالمدح له.

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرِّفق، وحُسْنِ الخُلقِ، والقولِ الحَسَنِ والكلام الطيب.

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم في أمانٍ من المجافاة.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾.

يبيتون لربهم ساجدين، ويصبحون واجدين؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم، كذا في الخبر: «مَنْ كَثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار»[1] أي عَظُم ماءُ وجهه عند الله، وأحسنُ الأشياء ظاهِرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ.

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة، ويقفون موقف أهل الاعتذار، ويخاطبون بلسان التَنَصُّل كما قِيل:

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى ... حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النَّفس، فأمّا ما كان لله فليس فيه إسراف، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله. فأمّا التضييقُ على النَّفْس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتتعودَ الاجتزاء باليسير فليس بالاقتار المذموم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار، المنحوتة من الأشجار.

وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبْشارُ فكذلك توَهُّمُ المبارِّ والمضارِّ من الأغيار شِرْكٌ.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ من النفوس المُحَرَّم قَتْلُها على العبد نَفْسه المسكينةُ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقَتْلُ النفس من غير حقٍّ تمكينُك لها من اتباع ما فيه هلاكُها في الآخرة؛ فإنَّ العبدَ إذا لم يُنْهَ مأمورُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٧٤.

ثم دليل الخطاب أن تقتلها بالحقّ، وذلك بِذَبْحِها بسكين المخالفات، فما فَلاحُكَ إلا بقتل نَفْسِكَ التي بين جنبيك.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

يضاعَفُ لهم العذابُ يومَ القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة. وآخرون يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان. بل مَنْ كان مضاعَفَ العذاب في عقباه فهو الذي يكون مضاعَفَ العذاب في دنياه؛ جاء في الخبر: «مَنْ كان بحالةٍ لقي الله بها».

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

إلا من تاب من الذنب في الحال؛ وآمن في المآل.

ويقال: ﴿وَءَامَنَ﴾ أن نجاته بفضل الله لا بتوبته، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لا ينقض توبتُهُ.

ويقال إن نقَضَ توبته عَمِلَ صالحاً أي جَدَّدَ توبتَه؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾. ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان.

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم.

ويقال يمحو ذِلَّة زَلَّاتِهِم، ويثبت بَدَلَها الخيرات والحسنات، وفي معناه أنشدوا:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلةٍ حتى أنالوا كفَّه وأفادوا

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[2].

يستمكنون في مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً، وقولاً وفعلاً. وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضين لا يساكِنون أهل تلك الحالة.

ويقال نزلت الآية في أقوام مرُّوا ـ لمَّا دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبدون فيها الأصنام مرةً ـ متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللَّهُ لهم ذلك.

ثم قال في صفتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل قابلوها بالتفكير والتأمل، واستعمال النظر.

---

(١) الآية (٦٩) لم ترد.

(٢) الآية (٧١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قرة العين مَن به حياة الروح، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقّ الله قائماً.

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقاً.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمام مَنْ يُقْتَدى به ولا يَبْتَدِع.

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع، ولم يدَّعوا فيها اختيارهم؛ فالإمامةُ بالدعاء لا بالدعوى، فقالوا: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

يعطي ـ سبحانه ـ الكثير من عطائه ويعده قليلاً، ويقبل اليسيرَ من طاعة العبد ويعده كثيراً عظيماً، يعطيهم الجنة؛ قصوراً وحوراً ثم يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ ويقبل اليسير من العبد فيقول: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٢].

لَيَروْه من غير تكلف نقل، ولا تحمل قطع مسافة.

ويقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]: اليومَ يحضر العبدُ بيتَه لأداء العبادة، وينقل أقدامه إلى المساجد، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطعَ المسافة، فهم على أرائكهم ـ في مستقرّ عِزِّهم ـ يسمعون كلام الله، وينظرون إلى الله.

قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي صبروا عمَّا نهوا عنه، وصبروا على الأحكام التي أجراها عليهم بِتَرْكِ اختيارهم، وحُسْن الرضا بتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

مقيمين لا يبرحون منازلهم، وفي أحوالهم حَسُنَ مستقرُّهم مستقراً، وحَسُن مقامهم مقاماً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾.

لولا عبادتكم الأصنامَ ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادةِ وتسميتكم لها آلهةً.. متى كان يخلدكم في النار؟

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال لأدام بكم البلاء، ولكن لما أخذْتُم في الاستكانةِ والدعاء، وتضرَّعتُم رحِمَكم وكَشَفَ الضرَّ عنكم.

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز يرتضي من الزاهد تَرْكَ دنياه، ومِنَ العابِدِ مخالفة هواه، ومن القاصدِ قَطْعَ مُناه، ولا يَرْضَى مِنَ العارِفِ أنْ يُساكِنَ شيئاً غيرَ مولاه. إنْ خَرَجَ عن كُلِّ مرسوم - بالكلية، وانسلخ عن كل معلوم - مِنْ غير أن تبقى له منه بقية فلعلَّه يَجِدُ شظيَّة. وإنْ عَرَّجَ على شيء، ولم يَصْفُ مِنَ الكدورات - حتى عن يسيرها - وإنْ دَقَّ - فإنه كما في الخبر: «المُكَاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه درهم»[1].

قوله جل ذكره: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

ذَكَرْنَا فيما مضى اختلافَ السَّلَفِ في الحروف المُقَطَّعَة؛ فعند قوم: الطاءُ إشارة إلى طهارة عِزِّه وتَقَدُّسِ عُلُوِّه، والسين إشارةٌ ودلالةٌ على سناء جبروته، والميم دلالةٌ على مَجْدِ جلاله في آزاله.

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى[2]، والسين إلى سِدْرَةِ المُنتهى[3]، والميم إلى اسم محمد ﷺ؛ أي ارتقى محمدٌ ليلةَ الإسراء عن شهوده شجرةَ طوبى حتى بَلَغَ سدرةَ المنتهى، فلم يُسَاكِنْ شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعُقْبى.

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح، والسين سرورُ العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده والميم إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التخيُّر على الله، وحُسْنِ الرضا باختيار الحق لهم.

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طيبِ قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لكمال العَيْشِ بمعرفة وجود الرزَّاق بَدَلَ طيب قلوب العوام بوجود الأرْفاق والأرزاق.

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، والسين إشارة إلى سلامة

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١) والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٢) الطوبى: الحسنى، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال وغنى بلا فقر.

(٣) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.

قلوبهم عن مساكنة كلِّ مخلوق، والميم إشارة إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِحِرْصِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريبٌ مِنْ أنْ تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تَرْكِهم الإيمان.

فلا عليكَ ـ يا محمد ـ فإنه لا تبديلَ لِحُكْمِنَا؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يُؤْمِن. ليس عليك إلا البلاغ؛ فإن آمنوا فبها، وإلّا فكُلُّهُمْ سَيَرَوْنَ يومَ الدِّين ما يستحقون.

قوله جل ذكره: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

أخبر عن قدرته على تحصيل مرادِه من عباده، فهو قادرٌ على أن يُؤْمِنوا كَرْهاً؛ لأن التقاصُرَ عن تحصيل المراد يوجِبُ النقصَ والقصورَ في الألوهية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

أي ما نُجَدِّد لهم شَرْعاً، وما نرسل لهم رسولاً.. إلا أعرضوا عن تأمل برهانه، وقابلوه بالتكذيب. فلو أنهم أنعموا النظرَ في آياتِ الرسل لاتضح لهم صِدْقُهم، ولكن المقسوم لهم من الخذلان في سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق. فقد كَذَّبوا، وعلى تكذيبهم أصَرُّوا، فسوف تأتيهم عاقبةُ أعمالِهم بالعقوبة الشديدة، فيذوقون وبالَ شِرْكهم[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فنونُ ما ينبت في الأرض وقتَ الربيع لا يأتي عليه الحَصْرُ، ثم اختصاصُ كلِّ شيءٍ منها بلون وطعم ورائحة مخصوصة، ولكلِّ شكلٌ وهيئةٌ ونَوْرٌ مخصوص، وورق مخصوص... إلى ما تَلْطُفُ عنه العبارة، وتَدِق فيه الإشارة. وفي ذلك آياتٌ لِمَن استبصر، ونَظَرَ وفكَّرَ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: القاهرُ الذي لا يُقْهَر، القادر الذي لا يُقْدَر، المنيعُ الذي لا يُجْبَر. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: المحسنُ لعباده، المريدُ لسعادة أوليائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾.

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلِمَ أن شديد الخصومة، قد غَرَّتْه نَفْسُه فهو لا يبالي بما فعل. وأخَذَ (موسى)[(٢)] يتعلَّلُ ـ لا على جهة الإباء والمخالفة ـ ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عَلِمَ أنَّ الأمرَ به جَزْمٌ، والحُكْمَ به عليه حَتْمٌ.

---

(١) الآية (٦) لم ترد.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾.

سأل موسى ـ عليه السلام ـ أن يَشفَعَه بهارون ويُشركَه في الرسالة. وأخبر أنه قَتَلَ نَفساً، وأنه في حُكمِ فرعون عليه دَمٌ، فقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ إلى أنْ قال له الحقُّ:ـ

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرفُ رَدْعٍ وتنبيه؛ أي كلا أن يكون ذلك كما توهمتَ، فارْتَدِعْ عن تجويز ذلك، وانتَبِهْ لغيرِه. إني معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة، واليدُ ستكون لكما، والسلطانُ سيكون لكما دونَ غيركما، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم، وأُبْصِرُ ما يُبْصِرُونَ وما تُبْصِرُون أنتم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ويقال في القصة: إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدا طريقاً إليه. ثم بعد سَنَةٍ عَرَضَا الرسالة عليه، فقابلهما بالتكذيب، وكان من القصة ما كان[1].. وقال فرعون لمَّا رأى موسى:

﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فلم يكن لموسى ـ عليه السلام ـ جوابٌ إلا الإقرارَ والاعترافَ، فقال:

﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

قال: كل ذلك قد كان، وفررت منكم لمَّا خفتكم، فأكرمني الله بالنبوة، وبعثني رسولاً إليكم..

ويقال: لم يجحد حقَّ تربيته، والإحسانَ إليه في الظاهر، ولكن بَيَّنَ أنه إذا أمر اللَّهُ بشيءٍ وَجَبَ اتباعُ أمره. ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجِبُ حَقّاً فتربيةُ اللَّهِ أوْلَى بأن يُعَظِّمَ العبدُ قَدْرَها.

قوله: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾: يجوز حَمْلُه على ظاهره، وأنه خاف منهم على نَفْسِه. والفرارُ ـ عند عَدَمِ الطاقة ـ غيرُ مذمومٍ عند كلِّ أحد.

ويقال: فررت منكم لمَّا خِفْتُ أن تنزل بكم عقوبةٌ من الله لِشُؤْمِ شِرْكِكِم، أو من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

---

(١) الآية (١٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ذَكَرَ فرعونُ ـ من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه ـ أنه استحياه بين بني إسرائيل، ودفع عنه القتلَ، فقال موسى: أو تلك نعمة تمنها عليَّ؟ هل استعبَادُك لبني إسرائيل يَعُدُّ نعمةً؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة، ولا لَكَ فيها مِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

نَظَرَ اللعينُ بجَهْلِهِ، وسألَ على النحو الذي يليق بِغَيِّه؛ فسأل بلفظ ﴿ما﴾ ـ و«ما» يُسْتَخْبَرُ بها عمَّا لا يعقل، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه، وأخبر عمَّا يصحُ في وصفه تعالى فقال:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

فَذَكَرَ صفتَه ـ سبحانه وتعالى ـ بأنَّه إلهُ ما في السموات والأرض، فأخذ في التعجب، وقال:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فحاد فرعونُ عن سنن الاستقامة في الخطاب، وأخذ في السفاهة قائلاً:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

لأنه يزعم أنَّ هناك إلهاً غيره. ولم يكن في شيءٍ مما يجري من موسى ـ عليه السلام ـ أو مما يتعلَّق به وصفُ جنونٍ. ولم يُشْغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي إن كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ. فقال فرعون:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

مضى فرعونُ يقول: لأفعلنَّ، ولأصنعنَّ... إن اتخذتَ إلهاً غيري وجرى ما جرى ذِكْرُه وشَرْحُه في غير موضع.

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا، وقَلَبَها ـ سبحانه ـ ثعباناً كاد يلتقم دار فرعون بمن فيها، ووثَبَ فرعونُ هارباً، واختفى تحت سريره، وهو ينتفض من الخوف، وتَلَطَّخَتْ بِزَّتُه[1] وافتضح في دعواه، واتضحت حالته، فاستغاث بموسى واستجاره، وأخذ موسى الثعبان فردَّه الله عصاً.

---

(١) البِزَّة: الهيئة والشارة واللبسة (اللسان ٥/ ٣١٢ مادة: بزز).

ولمَّا فَارقَه موسى ـ عليه السلام ـ تداركته الشقاوة، وأدركه شؤمُ الكفر، واستولى عليه الحرمانُ، فجَمَعَ قومَه وكلَّمهم في أمره، وأجمعوا كلُّهم على أنه سَحَرَهم. وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه. . . كما قيل:

إذا ارعَوَى عَادَ إلى جَهْلِه كَذِي الضَّنَى عاد إلى نُكْسِه

ثم إنه جَمَعَ السَّحَرَة، واستعان بهم، فلمَّا اجتمعوا قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]. فنطقوا بخساسة هِمَّتِهم، فَضَمَنَ لهم أجْرَهم. وإنَّ مَنْ يعمل لغيره بأُجْرَةٍ ليس كَمَنْ يكون عملُه لله. ومَنْ لا يكون له ناصِرٌ إلَّا بضمانِ الجَعَالَة وبَذْل الرِّشَا فعَنْ قريبٍ سيُخْذَل[1].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

قال فرعون: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ومَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوقٍ فإنَّ ما يصل إليه من الذُّلِّ يزيد على ما أمَّله من العِزِّ في ذلك التَقرُّب. والمُقَرَّبون من الله أوَّلُ من يدخل عليه يومَ اللقاء، فهم أولُ مَنْ لهم وصولٌ. والمُقَرَّبون من الله لهم على الله دَخْلَة، والناسُ بوصف الغفلة والخَلْقُ في أسْرِ الحجبة.

ثم لمَّا اجتمع الناسُ، وجاء السَّحَرةُ بما مَوَّهُوا، التقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به، وعادت عصاً، وتلاشت أعيانُ حِبَالِهم التي جاءوا بها، وكانت أوقاراً، وأُلْقِيَ السحرةُ سُجَّداً، ولم يحتفلوا بتهديد فرعون إياهم بالقَتْل والصَّلْب والقَطْع، فأصبحوا وهم يُقْسِمُون بعِزَّة فرعون، ولم يُمْسُوا حتى كانوا يقولون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢].

ثم لمَّا ساعَدَهم التوفيقُ، وآمنوا بالله كان أهمَّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم، وهذه هي غاية هِمَّةِ الأولياء، أن يستجيروا بالله، وأن يستعيذوا من عقوبة الله، فأعْرَفُهُم بالله أخْوَفُهُم مِنَ الله.

ولمَّا أَمَرَ اللَّهُ موسى بإخراج بني إسرائيل، وتَبِعَهم فرعونُ بجَمْعِه، وقال أصحابُ موسى[2].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

فكان كما قال، إذ هداهم اللَّهُ وأنجاهم، وأغْرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] يُنَجِّيهم من كلِّ بلاء، ويَخُصُّهم بكل نعمة[3].

---

(١) الآيات من (٣٠ حتى ٤١) لم ترد. (٢) الآيات من (٤٣ حتى ٦٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

عاتب إبراهيمُ أباه وقومَه، وطالَبَهُم بالحجة على ما عابَهم به وقال لِمَ تعبدون ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ؛ ولا ينفع ولا يَضُرُّ، ولا يُحِسُّ ولا يَشْعُر؟ فلم يرجعوا في الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافَهم، وقالوا:

على هذه الجملة وَجَدْنا أسلافَنَا. فنطق إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ بعد إقامة الحجة عليهم والإخبار عن قبيح صنيعهم بمَدْح مولاه والإغراق في وصفه، وقال:

﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ذَكَرَهم بأقلِّ عبارة فلم يقل: فإنهم أعداءٌ لي، بل وَصَفَهم بالمصدر الذي يصلح أن يوصَفَ به الواحد والجماعة فقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذا استثناء منقطع، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهم صفحاً حتى يتوصَّلَ إلى ذكر الله، ثم أخذ في شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت، إذ مضى يقول: والذي... والذي.. والذي..، ومن أمارات المحبة كَثْرَةُ ذِكْرِ محبوبك، والإعراضُ عن ذكرِ غيرِه، فتَنَزُّهُ المحبين بتقلُّبِهم في رياض ذِكْرِ محبوبهم، والزهَّادُ يعددون أورادهم، وأربابُ الحوائج يعددون مآربَهم، فيطنبون في دعائهم، والمحبون يُسْهِبون في الثناء على محبوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾.

كان مهتدياً، ولكنه يقصد بالهداية التي ذَكَرها فيما يستقبله من الوقت، أي: يهديني إليه به، فإنّي مَحقٌ في وجوده وليس لي خَبَرٌ عنّي!

والقوم حين يكونون مستغرقين في نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم، فيهديهم عنهم إلى ربهم، ويصيرون في نهايتهم مستهلكين في وجوده، فانين عن أوصافهم، وتصير معارِفُهم ـ التي كانت لهم ـ واهيةً ضعيفةً، فيهديهم إليه[1].

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: قال محمد الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله تعالى وافتقار إليه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: أراد محمد الواسطي بهذا أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته. (الرسالة القشيرية ص٣١٣).
وقيل لذي النون المصري: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة ص٣١٥).

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

لم يُشِرْ إلى طعام معهودٍ أو شراب مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم، وإلى شراب محبته الذي يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

لم يَقُلْ: وإذا أمرضني لأنه حفظ أدبَ الخطاب.

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً، ولكنه أراد تمارضاً، كما يتمارض الأحبابُ طمعاً في العيادة، قال بعضهم:

إن كان يمنعكَ الوشاةُ زيارتي فادخُلْ عليَّ بِعلَّةِ العُوَّادِ

ويقول آخر:

يَوَدُّ بأن يمشِي سقيماً لَعَلَّها إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُرَاسِلُه

ويقال ذلك الشفاءُ الذي أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْعَثَ إليه جبريلَ ويقول له: يقول لَكَ مولاك.. كيف كنتَ البارحة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

أضاف الموتَ إلى الله؛ فالموتُ فوق المرض، لأن الموتَ لهم غنيمةٌ ونعمةٌ؛ إذ يَصِلُون إليه بأرواحهم.

ويقال: ﴿يُمِيتُنِى﴾ بإعراضه عني وقت تعزُّزِه، ﴿ويحييني﴾ بإقباله عليَّ حين تَفَضُّلِه. ويقال يميتني عني ويحييني به.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

خطيئةُ الأحبابِ شهودُهم محنتَهم، وتعنُّيهم عند شدة البلاء عليهم، وشكواهم مما يمُسهم من برحاء[1] الاشتياق، قال بعضهم:

وإذا محاسني ـ اللاتي أُدِلُّ بها ـ كانت ذنوبي.. فَقُلْ لي: كيف أعتذر

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

﴿هَبْ لِى حُكْمًا﴾: على نفسي، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره.

﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: فأقومَ بحقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيءٍ دون حقك.

---

(١) البُرحاء: الشدة والمشقة. (اللسان ٢/ ٤١٠ مادة: برح).

قوله جل ذكره: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾.

في التفاسير: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي ثناء حسناً على لسان أمة محمد ﷺ.

ويقال لا أذكرك إلا بك، ولا أعرفك إلا بك.

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك(١)، وأذكرك بعد قبض روحي إلى الأبد بذكرٍ مُسرمَدٍ.

ويقال أذكرنيَ على لسان المخبرين عنك.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

على لسان العلماء: قالَه بعد يأسه من إيمان أبيه، وأمَّا على لسان الإشارة فقد ذَكَرَه في وقت غَلَبَاتِ البَسْطِ ويُتَجاوَزُ ذلك عنهم.

وليست إجابةُ العبد واجباً على الله في كل شيء، فإذا لم يُجَبْ فإنَّ للعبد سلوةً في ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدي إليه كلُّ أحدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي لا تُخجِلْني بتذكيري خلَّتي، فإنّ شهودَ ما مِن العبد ـ عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص ـ أشَدُّ عقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

قيل: «القلب السليم» اللديغ.

وقيل هو الذي سَلِمَ من الضلالة ثم من البِدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجبة ثم من المُضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة. هذه كلها آفاتٌ، والأكابرُ سَلِمُوا منها، والأصاغرُ امتُحِنُوا بها.

ويقال: «القلب السليم» الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

﴿**أزلفت**﴾: أي قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ في الوقت، فإنَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وبالعين أُحْضِرَتْ. وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَبْعُد إدناءُ الجنة من المتقين.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أُظْهِرَتْ؛ فتؤكِّدُ الحُجَّةُ على أرباب الجحود، ويُعْرَضُون على النار، وتُعْرَضُ عليهم منازلُ الأشرار، فَيُكَبْكَبُونَ فيها أجمعين، ويأخذون يُقِرُّون بذنوبهم(٢)، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون:ـ

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) الآلاء: النِّعم.

(٢) الآيات من (٩٢ حتى ٩٦) لم ترِد.

ولا فضيحةَ أقبحُ ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشِّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالِهم ـ التشبيهُ في صفة المعبود[١].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

في بعض الأخبار: يجيء ـ يومَ القيامة ـ عَبْدٌ يُحتَسَبُ فتستوي حسناتُه وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومُ، فيقول الله ـ سبحانه: عبدي... بقيت لك حسنةٌ واحدة، إن كانت أدْخَلْتُكَ الجنةَ.. أُنظُرْ.. وتَطَلَّبْ من الناس لعلَّ واحداً يهب لَكَ حسنةً واحدةً. فيأتي العبدُ في الصفين، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه، ويقول لكلِّ واحدٍ في بابه فلا يجيبه أحدٌ، فالكلُّ يقول له: أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحقُّ ـ سبحانه: ماذا جئتَ به؟

فيقول: يا ربِّ... لم يُعْطِني أحدٌ حسنةً من حسناته.

فيقول الله ـ سبحانه: عبدي.. ألم يكن لك صديق (فيَّ).

فيتذكر العبدُ ويقول: فلان كان صديقاً لي.

فيدله الحقُّ عليه، فيأتيه ويكلِّمه في بابه، فيقول: بلى، لي عباداتٌ كثيرة قَبِلَها اليومَ فقد وهبتُك منها، فيسير هذا العبدُ ويجيء إلى موضعه، ويخبر ربَّه بذلك، فيقول الله ـ سبحانه: قد قَبِلْتُها منه، ولن أنقص من حقِّه شيئاً، وقد غفرت لكَ وله، وهذا معنى قوله.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٢].

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ذكر قصة نوح وما لَقِيَ من قومه، وأنهم قالوا:

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون، لكنهم ـ في حكم الله ـ هم المتقدِّمون الأكرمون. قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بضعفائكم».

وإنَّ اللَّهَ أغرق قومه لمَّا أصرُّوا واستكبروا.

وكذلك فَعَلَ بمن ذَكَرتْهم الآياتُ في هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين.. كلٌّ منهم قابلوا رُسُلَهم بالتكذيب، فَدَمَّر اللَّهُ عليهم أجمعين، ونَصَرَ رسولَه على مقتضى سُنَّتِه الحميدة فيهم. وقد ذَكَرَ الله قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله:ـ

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) الآية (٩٩) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٠٢ و١٠٣) لم تردا والآيات من (١٠٦ حتى ١١٠) لم ترد.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ : القادر على استئصالهم، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي أخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم، ولم يقطع الرزقَ مع قُبحِ فِعالِهم.

وهو ﴿عزيز﴾ لم يُسْتَضَرّ بقبيح أعمالهم، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لمَّا تَجمَّلَ بأفعالهم(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال: ﴿لا أسألكم عليه أجر﴾ ليَعْلَمَ الكافةُ أنّ من عَمِلَ لله فلا ينبغي أن يَطْلُبَ الأجْرَ من غير الله. وفي هذا تنبيهٌ للعلماء ـ الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء ـ أن يتأدَّبوا بأنبيائهم، وألاّ يطلبوا من الناس شيئاً في بَثِّ علومهم، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق في بثّ ما يُذَكِّرُ به من الدِّين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارِكُ اللَّهُ للناس فيما منه يَسْمَعون، ولا للعلماء أيضاً بركةٌ فيما من الناسِ يَأخُذُون، إنهم يبيعون دينَهم بعَرَضٍ يسيرٍ، ثم لا بَرَكَة لهم فيه، إذ لا يبتغون به الله، وسيَحْصُلُون على سُخْطِ الله(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

كلامُ اللَّهِ العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول ـ ﷺ ـ في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام. والكلامُ من الله غيرُ منفصل، وبغير الله غير متصل.. وهو ـ على الحقيقة لا على المجاز ـ مُنَزَّلٌ. ومعناه أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان على السماء. فَسمِعَ من الربِّ، وحَفِظَ ونَزَلَ، وبَلَّغَ الرسولَ. فَمَرَّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه عند نزول الوحي عليه. ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه. ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسْمِعهُ. والرسولُ ـ ﷺ ـ يحفظه ويُؤدِّيه. والله ـ سبحانه ضَمِنَ له أنه سيُقْرِؤُه حتى لا ينساه. فكان يجمع اللَّهُ الحِفْظَ في قلبه. ويُسَهِّلُ له القراءةَ عند لفظه. ولمَّا عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله.. عُلِمَ صِدْقُه في أنّه مِنْ قِبَلِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص، وما في صفةِ الله من استحقاق جلاله ـ موافِقٌ لِما في الكتب المُنَزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه، فمهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم أخبر أنه لو نَزَّل هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغةٍ غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك، ولَقَالوا: لو كان بلساننا لعرفناه ولآمَنَّا به، فأزاح عنهم العِلَّةَ، وأكّد عليهم الحُجَّة.

---

(١) الآيات من (١١٢ حتى ١٢٦) لم ترد.
(٢) الآيات من (١٢٨ ـ حتى ١٩١) لم ترد.

ثم أخبر عن صادق عِلْمِه بهم، وسابِق حُكْمِه بالشقاوة عليهم، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذابَ في القيامة، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولاَ الندامةُ[١].

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

إن أرخينا المُدَّةَ، وأمهلناهم أزمنةً كثيرة ـ وهم بوصف الغفلة ـ فما الذي كان ينفعهم إذا أَخَذَهم العذابُ بغتةً؟!

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكَ أهلَ قريةٍ إلّا بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البيناتِ، فإذا أصَرُّوا على كُفرِهم عَذّبهم[٢].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

وَجَدُوا السمع ـ الذي هو الإدراك ـ ولكن عَدِمُوا الفَهْمَ، فلم يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه. فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنفعهم قَرَابَتُهُم منه، ولا تُقبَلُ شفاعتُه ـ إنْ لم يؤمِنوا ـ فيهم. فليس هذا الأمر من حيث النّسب، فهذا نوحٌ لمَّا كَفَرَ ابنُه لم تنفعه بُنُوَّتُه، وهذا الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أبوه لم تنفع أُبُوَّتُه، وهذا محمدٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كثيرٌ من أقاربه كانوا أشدَّ الناسِ عليه في العداوةِ فلم تنفعهم قرابتُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أَلِنْ جَانِبَكَ وقارِبْهم في الصحبة[٤]، واسحبْ ذيلَ التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير، واحتمِلْ منهم سوءَ الأحوال، وعاشِرْهم بجميلِ الأخلاق، وتحمَّلْ عنهم كَلَّهم، وارْحَمْهُم كُلّهم، فإنْ مرضوا فعُدْهم، وإنْ حرموك فأَعْطِهم، وإنْ ظلموك فتجاوَزْ عنهم، وإنْ قصّرُوا في حقي فاعفُ عنهم، واشفَع لهم، واستغفِرْ لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

لا تفعلْ مثلَ فِعْلِهم، وكِلْ حسابَهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حَدًّا، فعند ذلك لا تأخذْكَ رأفةٌ تمنعكَ من إقامة حدِّنا عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) الآيات من (١٩٧ حتى ٢٠٤) لم ترد. (٢) الآيات من (٢٠٨ ـ ٢١١) لم ترد.

(٣) الآية (٢١٣) لم ترد.

(٤) انظر حديث القشيري عن الصحبة بالرسالة القشيرية ص٢٩٤ ـ ٢٩٨.

انقَطِعْ إلينا، واعتصِمْ بِنا، وتوسَّل إلينا بِنا، وكن على الدوام بنا، فإذا قُلْتَ فَقُلْ بنا، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا، واشهد بقلبك ـ وهو في قبضتنا ـ تتحقق بأنك بنا ولنا.

توكّلْ على ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ تَجِدْ العِزّةَ بتوكلك عليه في الدارين، فإنّ العزيز مَنْ وثق بالعزيز.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقرِّبُ مَنْ تَقرَّبَ إليه، ويُجْزِلُ البِرَّ لِمَنْ تَوسَّل به إليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخَلْق، فإنّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهدٍ من الحقّ رَاعَى دقائقَ أحواله، وخفايا أموره مع الحقّ[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

هَوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته. ولا مشقّةَ لِمَنْ يَعْلَمُ أنّه بمرأى من مولاه، وإنّ حَمْلَ الجبالِ الرواسي على شَفْرِ[2] جَفْنِ العينِ لَيهونُ عند مَنْ يشاهد رَبّه.

ويقال ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بين أصحابك، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم شَمْسٌ، أو هم شموسٌ وأنت بينهم شمس الشمرس.

ويقال: تقلبك في أصلابِ آبائك من المسلمين الذين عرفوا اللَّهَ، فسجدوا له دون مَنْ لم يعرفوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المحبين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحنين العارفين.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المُذْنبين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال المطيعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾.

بيَّن أن الشياطين تتنزَّلُ على الكفار والكهنة فتوحي إليهم بوساوسهم الباطلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.

لمّا ذَكَرَ الوحيَ وما يأتي به الملائكةُ من قِبَلِ الله ذكر ما يوسوس به الشياطينُ إلى

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٤٤.
(٢) شُفْر العين: وهو ما ينبت عليه الشعر وأصل منبت الشعر في الجفن. (اللسان ٤/٤١٨).

أوليائه، وألَحْقَ بهم الشعراءَ الذين في الباطل يهيمون، وفي أعراض الناس يقعون، وفي التشبيهات ـ عن حدِّ الاستقامة ـ يخرجون، ويَعِدُون من أنفسهم بما لا يُوفُون، وسبيلَ الكذبِ يسلكون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

فيكون شِعْرُه خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة، وهذا كما قيل: الشعرُ كلامُ إنسان؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

سيعلم الذين ظلموا سوءَ ما عملوا، ويندمون على ما أسلفوا، ويصدقون بما كَذَّبوا.

---

(١) الآيتان (٢٢٥ ـ ٢٢٦) لم تردا.

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قَصَدَهُ العاصي لِطَلَبِ التخفيف فصار وِزْره مغفوراً، اسم كريم قَصَدَهُ العابِدُ لِطَلَبِ التضعيف فصار أجره موفوراً، اسم جليلٌ أَمَّهُ الوليُّ لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُه مشكوراً، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَتْهُ العِزَّةُ، وطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

جَلَّتْ الأحديةُ.. فأنى بالوصول! وتَقَدَّسَتْ الصمديةُ.. فَمَنْ ذا الذي عليها يقف[1]؟ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]:

وكم باسطين إلى وَصْلِنا أَكُفَّهُمُو.. لم ينالوا نصيبا!

قوله جلّ ذكره: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

بطهارةِ قُدْسِي وسناءِ عِزِّي لا أُخَيِّبُ أَمَلَ من أَمَّلَ لطفي.

بوجود بِرِّي تطيب قلوبُ أوليائي، وبشهود وجهي تغيب أسرار أصفيائي.

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفي، وسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النحل: ١]: هذه دلالات كَرَمِنا، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بِرِّنا، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا، ونُحقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشِفاءٌ، ونورٌ وضياءٌ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان، وأَكَّدْنا لهم الضمان، وكفلنا لهم الإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

يديمون المواصلات، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم

(١) انظر حديث القشيري عن التوحيد بالرسالة ص٢٩٨ ـ ٣٠٣.

وأحوالهم وحركاتِهم وسكناتِهم الزكاة، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسنَ مقام، وينوبون عن ضعفائهم أحسنَ مناب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أغشيناهم فَهُم لا يُبْصِرُون، وعَمَّيْنَا عليهم المسالكَ فهم عن الطريقة المُثْلَى يَعْدِلون، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يَتَرَدُّون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أن يجد الآلامَ ولا يجد التسلِّي بمعرفة المُسَلِّي، ويحمل البلاءَ ولا يحمل عنه ثقلَه وعذابَه شهودُ المُبْلِي.. وذلك للكفار، فأمَّا المؤمنون فيُخَفِّفُ عنهم العذابَ في الآخرةِ حُسْنُ رجائِهم في الله، ثم تضرُّعُهم إلى الله، ثم فَضْلُ الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشي والإفاقة ـ كما في الخبر ـ إلى وقت إخراجهم من النار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

أي أن الذي أكرمكَ بإنزال القرآن عليك هو الذي يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر، ودَجَا عليه الليلُ، وأخذ امرأتَه الطَّلْقُ وهَبَّت الرياحُ الباردة، ولم يورِ الزَّنْد، وضاق على موسى الأمرُ، واستبهم الوقتُ، وتشتتت به الهمة، واستولى على قلبه الشغل. ثم رأى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا إنِّي أبصرتُ ناراً. وفي القصة: إنه تشتت أغنامُه، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعَه فشردت، فقالت امرأتُه:

كيف تتركنا وتمضي والوادي مسبع؟!.

فقال: امكثوا.. فإني لأجلكم أمضي وأتعرف أمرَ هذه النار، لَعَلِّي آتيكم منها إمَّا بِقَبَسٍ أو شعلةٍ، أو بخبرٍ عن قوم نُزُولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة، ومن جهتهم انتفاع. وبَدَتْ لعينه تلك النارُ قريبةً، فكان يمشي نحوها، وهي تتباعد حتى قَرُب منها، فرأى شجرةً رطبةً خضراءَ تشتعل كلُّها من أولها إلى آخرها، وهي نار مضيئة، فَجَمَعَ خُشَيْبَاتٍ وأراد أن يقتبس منها، فعند ذلك سمع النداءَ من الله لا من الشجرة كما تَوَهَّم المخالِفون من أهل البدع. وحصل الإجماعُ أنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله، ولو كان النداء في الشجرة لكان المتكلم به الشجرة، ولأجل الإجماع قلنا: لم

يكن النداء في الشجرة وإلا فنحن نجوِّز أن يخلق الله نداءً في الشجرة ويكون تعريفاً، ولكن حينئذٍ يكون المتكلم بذلك الشجرة.

ولا يُنْكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له، وخَلَقَ كلاماً في الشجرة أيضاً، فموسى سمع كلامَه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة... وهذا من طريق العقل جائز.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي بورِكَ مَنْ هو في طلب النار ومَنْ هو حول النار.

ومعنى بورِكَ لَحِقَتْه البركةُ أو أصابته البَرَكةُ.. والبركةُ الزيادةُ والنَّماءُ في الخير.

والدعاء مِنَ القديم ـ سبحانه ـ بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الذي يُخاطِبُكَ أنا اللّهُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في استحقاق جلالي، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعالي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾.

في آية أخرى بَيَّنَ أنه سأله، وقال له على وجه التقرير: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] وأجابه بقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧] وذَكَرَ بعضَ ما لَه فيها من المآرب والمنافع، فقال الله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ﴾، وذلك لأنه أراد أَنْ يُرِيَه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمالَ اليقين.

وألقاها موسى فَقَلَبَها اللّهُ ثعباناً، أولاً حيةً صغيرةً ثم صارت حيةً كبيرةً، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِراً هارباً، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَها عليه لمّا كان عارفاً بأن الله يعذِّبَ مَنْ يشاء بما يشاء، فقال له الحقُّ:

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

أي لا ينبغي لهم أن يخافوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا يدلُّ على جواز الذَّنْبِ على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط تَرْكِ الإصرار. فأمَّا مَنْ لا يُجِيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة(١).

---

(١) بعض الفقهاء لا يستخدم تعبير [الذنب] بالنسبة للأنبياء، وإنما يطلق على ما يبدر منهم فعل خلاف الأولى تأدباً.

قال القشيري في رسالته: فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً، قيل: إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يصرَّ على الذنوب، إن حصلت آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم. (الرسالة القشيرية ص٣٥٩).

فلمَّا رأى موسى انقلابَ العصا عَلِمَ أنّ الحقَّ هو الذي يكاشفه بذلك.

ويقال: كيف عَلِمَ موسى ـ عليه السلام ـ أنَّ الذي سمعه كلامُ اللَّهِ؟

والجواب أنه بتعريفِ منه إياه، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه، ويجوز أن يكون كَسْبياً، ويكون الدليل له الذي به عَلِمَ صِدْقَه في قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ هو ما ظهر على يَدِهِ ـ في الوقت ـ من المعجزة، من قَلْبِ العصا، وإخراج يده بيضاء[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

من غير سوءٍ أي بَرَصٍ. وفي القصة أن موسى عليه السلام ذَكَرَ اشتغال قلبه بحديث امرأته، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أَوْجَبَتْ انزعاجه، وقَصْدَه في طلب النار، فقال الله تعالى: «إنا قد كفيناكَ ذلك الأمرَ، ووكلنا بامرأتِكَ وأسبابك، فجمعنا أغنامَك وثيرانَك، وسَلِمَتْ لَكَ المرأةُ».

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

لم يُظْهِرْ اللَّهُ ـ سبحانه ـ آيةً على رسولٍ من أنبيائه ـ عليهم السلام ـ إلّا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعوا النظرَ فيها موضعَه لتوصَّلوا إلى حصول العلم وثلج الصدور، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجَحْدِ. قال تعالى وقولُه صِدْقٌ:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وكما يَحْصُلُ من الكافِرِ الجَحْدُ تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالةٌ يعلم فيها ـ بالقطع ـ أن ما يفعله غير جائز، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فِعْلِها من غير أنْ يكونَ متغافلاً عنها أوِ ناسياً لها، ثم يُقْدِمُ على ذلك غيرَ مُخْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوتِه. وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرُها شؤماً، وأشدُّها في العقوبة، وأبْعَدُها عن الغفران.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقتضي حكمُ هذا الخطاب أنه أفْرَدَهُما بجنسٍ من العلم لم يشارِكْهُما فيه أحدٌ؛ لأنه ذَكَرَه على وجه تخصيصهما به، ولا شكّ أنه كان من العلوم الدينية؛ ويحتمل أنه

---

(١) قال القشيري عند حديثه عن كرامات الأولياء بالرسالة: المعجزات دلالات الصدق ـ أي صدق الأنبياء ـ. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص٣٥٣ ـ ٣٥٦).

كان بزيادة بيانٍ لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه.

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به، فيكون إخبارُهما عن ذلك معجزةً لهما.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان.

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات، فأخبر بأنهما شَكَرَ الله على عظيم ما أنعم به عليهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ورث أباه في النبوة، وورثه في أن أقامه مقامه.

قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: وكان ذلك معجزةً له، أظهرها لقومه ليعلموا بها صِدْقَ إخباره عن نبوته. ومَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياءَ كلَّها بالله ومن الله. ويكون مُكَاشَفاً بها من حيث التفهيم، فكأنه يسمع من كل شيءٍ تعريفاتِ الحقِّ ـ سبحانه ـ للعبد مما لا نهاية له، وذلك موجودٌ فيهم مَحْكِيٌّ عنهم. وكما أنَّ ضربَ الطَّبْلِ مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ ـ بالمواضعة ـ عند سماعه وقتُ الرحيلِ والنزولِ فالحقُّ ـ سبحانه ـ يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفاتِ، من سماعِ الأصواتِ وشهودِ أحوال المرئيات في اختلافها، كما قيل:

إذا المرءُ كانت له فِكرةٌ ... ففي كل شيءٍ له عِبْرَةٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

سخَّر اللَّهُ لسليمان ـ عليه السلام ـ الجنَّ والطيرَ، فكان الجنُّ مكلَّفين، والطيرُ كانت مُسَخَّرَةً إلا أنه كان عليها شَرْعٌ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته، حتى النمل كان سليمان يعرف خطابَهم ينفذ عليهم حُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قيل إن سليمان استحضر أميرَ النملِ الذي قال لقومه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ وقال له: أَمَا عَلِمْتَ أنّي معصومٌ، وأنّي لن أُمَكِّنْ عسكري مِنْ أَنْ يطؤوكم؟ فأخبره أميرُ النملِ أنّه لا يعلم ذلك؛ لأنه ليس بواجبٍ أن يكون النملُ عالماً بعصمة سليمان. ولو قال: لعلكم أبيح لكم ذلك.. لكان هذا أيضاً جائزاً.

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان: إني أَخْمِلُ قومي على الزهد في الدنيا، وخَشِيتُ إنْ يَرَوْكُم في مُلْكِكم أنْ يرغبوا فيها، فأَمَرْتُهم بدخول مساكنهم لئلا يتشوَّش عليهم زُهْدُهُم. ولَئِنْ صَحَّ هذا ففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبار لِمَنْ هو في رعيتهم. وفي الآية دليلٌ على حَسْنِ الاحتراز مِمّا يُخْشَى وقوعُه، وأَنَّ ذلك مما تقتضيه عادةُ النَّفْسِ وما فُطِرُوا عليه من التمييز.

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان: ما الذي أعطاك اللَّهُ من الكرامة؟

فقال: سَخَّرَ لي الريحَ.

فقال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإشارة فيه أنه ليس بيدك مما أُعْطِيتَ إلا الريح؟

وهكذا بيَّنَه الكبيرُ على لسان الصغير!.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

التبسُّمُ من الملوكِ يندر لمراعاتهم حُكْمَ السياسة، وذلك يدلُّ على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسُّم، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حُسْنَ سياسته لرعيته.

وفي القصة أنه استعرض جُنْدَه ليراهم كم هم، فَعَرَضَهم عليه، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً، حتى مضى شَهْرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِراً فلم ينتهوا، ومَرَّ سليمانُ عليه السلام.

وفي القصة: أن عظيم النمل كان مثل البغل في عِظَمِ الجثة، وله خرطوم. والله أعلم.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

في ذلك دليلٌ على أن نَظَرَه إليهم كان نَظَرَ اعتبارٍ، وأنه رأى تعريفَ الله إياه ذلك، وتنبيهُه عليه من جملة نِعَمِه التي يجب عليها الشكرُ.

وفي قوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ دليلٌ على أَنَّ شُكْرَ الشاكر لله لا يختص بما أَنْعَمَ به عليه على الخصوص، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ما خَصَّ وعَمَّ من نِعَمِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

سأل حُسْنَ العاقبة، لأنَّ الصالحَ من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾.

تَطَلَّبَه فَلَمَّا لم يَرَه تَعَرَّفَ ما سبب تأخره وغيبته.

ودلَّ ذلك على تيقظ سليمان في مملكته، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته، حيث لم تَخْفَ عليه غيبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعةً واحدةً. وهذا أحسن ما قيل.

ثم تَهَدَّدَه إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديدٍ، وذلك يدلُّ على كمال سياسته وعَدْلِه في مملكته.

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد[1] يعرف أعماقَ الماء بإلهام خُصَّ به، وأنَّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء، فطلبَ الهدهد ليهديَهم إلى مواضع الماء، وهذا ممكن؛ لأن في الهدهد كَثْرَةً. وغيبةُ واحدٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ ـ اللهم إلّا إنْ كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء.. والله أعلم.

وروي أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك، وأنه قيل له: إنْ كان الهدهدُ يرى الماءَ تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى الفَخَّ مخفيًّا تحت التراب؟.

فقال: إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر.

ويقال: إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَةً، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها، فوقع شعاعُ الشمسِ على الأرض، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه، فَعَرَفَ بذلك غَيْبَته.. وهذا أيضاً ممكن، ويدل على كمال تَفَقُّدِه، وكمال تَيَقُّظِه ـ كما ذكرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

في هذه الآية دليل على مقدار الجُرْم، وأنه لا عِبْرَةَ بصغر الجثة وعِظَمِها. وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شَرْعٌ، وأَنَّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً؛ وإن كان لا يُعْرَفُ ذلك على وجه القَطْع.

وتعيين ذلك العذاب الشديدِ غيرُ ممكنٍ قطعاً، إلا تجويزاً واحتمالاً.

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كلَّ ما قيل فيه.

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ في شيءٍ نَقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ.

وقد قيل هو نَتْفُ رِيشه وإلقاؤه في الشمس.

---

(١) الهدهد: جنس طير من الجوائم الرقيقات المناقير، أشهر أنواعه الهدهد الشائع، وهو مبذول في لبنان وغيره. ذو خطوط وألوان كثيرة، وهو متوسط الجسم، له منقار مستطيل وقنزعة على رأسه كبيرة القدّ سوداء الأطراف. وذنبه مقطوم الطرف، أسود اللون أبيض الجانبين والوسط، يألف الهدهد الأماكن المبعثرة الأشجار، وقوته الحشرات والديدان (ج) هداهد وهداهيد، الواحدة هدهدة. يقال: (أبصر من هدهد) قيل: لأنه يرى الماء تحت الأرض.

وقيل يفرِّق بينه وبين أليفه.

وقيل يشتِّت عليه وقته.

وقيل يُلْزِمُه خدمة أقرانه.

والأَوْلَى في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت، وألا يُقْطَعَ بشيءٍ دون غيره على وجه القطع.

فَمِنَ العذاب الشديد أن يُمْنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة. ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأنه ويوكَلَ إلى حَوْلِه ونَفْسِه، ومن ذلك أن يُمْتَحَنَ بالحِرْصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه. ومن العذاب الشديد الطمع في اسم العذر ثم لا يرتفع[١] ومن ذلك سَلْبُ القناعة، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري. ومن ذلك توهم الحدثان وحسبان شيءٍ من الخَلْق.

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِسَّةِ من الناس. ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير. ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم. ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر. ومن ذلك التباس طريق الرُّشد. ومنه حسبان الباطل بصفة الحق، والتباس الحقِّ في صورة الباطل. ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده. ومنه الفقر في الغُرْبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

فلم يلبث الهدهدُ أن جاء، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تَهدَّده، فقال: أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

ثم ذكر حديث بلقيس، وأنها ملكتهم، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم ما عَدَّه، فلم يتغير سليمانُ ـ عليه السلام ـ لذلك، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلْكِ غيرهم[٢]، فلما قال:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ، وغَضِبَ في الله[٣]، و:

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

---

(١) قال القشيري برسالته: وقيل في قوله تعالى: ﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ يعني لأسلبنه القناعة ولأبتلينه بالطمع، يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك. (الرسالة القشيرية ص ١٦٢).

(٢) الآية (٢٣) لم ترد.

(٣) الآيتان (٢٥، ٢٦) لم تردا.

وفي هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحدِ لا يوجِب العلمَ فيجب التوقفُ فيه على حدِّ التجويز، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَح بل يجب أن يُتعَرَّف: هل هو صدق أم كذب؟

ولمَّا عَرَفَ سليمان هذا العُذْرَ تَرَكَ عقوبتَه وما تَوَعَّدَه به.. وكذلك سبيلُ الوالي؛ فإنَّ عَدْلَه يمنعه من الحيفِ على رعيته، ويَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ في صورة المجرمين إذا صَدَقَ في اعتذاره.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كلَّ كلمة، فإنه يَجُرُّ العناء بذلك إلى نَفْسِه؛ وقد كان لسليمان من الخَدَم والحَشَم ومَنْ يأتمر بأمره الكثير، ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذي قال ما قال، فلزمه الخروج من عهدة ما قال.

ويقال لمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكهِ عُوِّضَ عليه فَأُهِّلَ للسفارة والرسالة ـ على ضعف صورته.

فمضى الهدهدُ، وألقى الكتابَ إليها كما أُمِرَ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجَاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

﴿كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وقيل لأنه كان مختوماً، وقيل لأنَّ الرسولَ كان طيراً؛ فَعَلِمَتْ أَنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرة لَهُ لا بُدّ أنه عظيمُ الشأنِ. وقيل لأنه كان مُصَدَّراً ببسم الله الرحمن الرحيم. وقيل لأنه كتب فيه اسم نَفْسِه أولاً ولم يَقُلْ: إنه من سليمان إلى فلانة. ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في المُلْكِ بل كان دُعاءً إلى الله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها، وقَهَرَها؛ فلم يكن لها جواب، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ فلمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلكِها، ورُزِقَتْ الإسلامَ وصُحْبَةَ سليمان.

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة ما لا يتجرَّدُ عن التسمية، وإذا تجرَّدت كان الأمرُ فيها بالعكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

أَخَذَتْ في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام؛ فإن المَلِكَ لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأي والبصيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ .

أجابوا على شرط الأدب، وقالوا: ليس منا إلّا بَذْلُ الوسع، وليس لنا إلّا إظهارُ النُّصح وما علينا إلا متابعةُ الأمر ـ وتمشيةُ الأمرِ وإمضاؤه. . . إليكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ .

ويقال إنَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِها.

ويقال: تغييرُ الملوك إذا دخلوا قريةً ـ عن صفتها ـ معلومٌ، ثم يُنْظَر. . . فإن كان الداخِلُ عادلاً أزال سُنَّةَ الجَوْرِ، وأثبت سُنَّةَ العَدْلِ، وإنْ كان الداخلُ جائراً أزال الحَسَنَ وأثبت الباطلَ. هذا معلوم؛ فإنَّ خرابَ البلادِ بولاةِ السُّوءِ، حيث يستولي أسافلُ الناس وأسقاطُهم على الأعزة منهم، وكما قيل:

يا دولةً ليس فيها ... من المعالي شظيّةْ
زولي فما أنتِ إلّا ... على الكرام بليّةْ

وعمارة الدنيا بولاة الرُّشْدِ، يكسرون رقابَ الغاغة[1]، ويُخَلِّصُون الكرامَ من أَسْرِ السِّفْلة، (ويأخذ القوس باريها)، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها. . . كذلك المعرفةُ والخصالُ المحمودة إذا باشَرَتْ قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنى، وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّحِّ وصِغَرِ الهمة. . . وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتُثْبِتُ بَدَلَها من الأحوال العَلِيَّةِ والأوصاف المَرْضِيَّةِ ما به نظامُ العبد وتمامُ سعادته. ومتى استولت على قلبٍ غاغةُ النَّفسِ والخصالُ المذمومة أزالت عنه عمارته، وأَبْطَلَتْ نضارتَه، فتخرب أوطانُ الحقائق، وتتداعى مساكنُ الأوصاف الحميدة للأفول، وعند ذلك، يَعْظُم البلاءُ وتتراكم المِحَنُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ .

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا، ومن جملتها لَبِنَةٌ مصنوعةٌ من الفضة وأخرى من الذهب. وأن اللَّهَ أخبر سليمانَ بذلك، وأوحى إليه في معناه. وأَمَرَ سليمانُ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميداناً، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللَّبِنِ المصنوعِ من الذهب والفضة من أوله إلى آخره. وأَمَرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك وألا تُنَظَّفَ آثارُها من رَوْثٍ وغيره، وأن يُتْرَكَ موضعان لِلَبِنَتَيْنِ خالِيَيْن في ممرٍّ

---

(١) الغاغة: من الغوغاء أصلها الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، ويجوز أن يكون من الغوغاء الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم. (اللسان ٨/ ٤٤٤ مادة: غوغ).

الدخول. وأقبل رُسُلُها، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين، فلمَّا رَأَوْا الأمر، ووقعت أبصارُهم على طريقهم، صَغُرَ في أعينهم ما كان معهم، وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة... كيف يتخلصون مما معهم؟. فلمَّا رأوا موضع اللِّبنَتَيْن فارغا ظنُّوا أن ذلك سُرِق من بينها، فقالوا لو أظهرنا نُسِبْنا إلى أنَّا سرقناهما من هذا الموضع، فطرحاهما في الموضع الخالي، ودَخَلَا على سليمان:

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

أتهدونني مالاً؟! وهل مثلي يُسْتَمالُ بمثل هذه الأفعال؟ إنكم وأمثالكم تعامِلُون بمثل ما عوملتم! ارجع إليهم: -

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾.

فلمَّا رجعوا إلى بلقيس، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة، فَعَزَمَتْ على المسير إلى خدمته، وأوحى الله إلى سليمان بذلك، وأنها خرجت مستسلمةً، فقال: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا؟﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾.

بسط اللَّهُ ـ سبحانه ـ مُلْكَ سليمان، وكان في مُلْكِه الجِنُّ والإِنسُ والشياطين؛ الجن على جهة التسخير، والإنس على حكم الطوع، والشياطين وكانوا على أقسام.

ولـمَّا قال: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا؟﴾ قال عفريت من الجن ـ وكان أقواهم ـ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، فلم يرغب سليمانُ في قوله لأنه بَنَى القولَ فيه على دعوى قُوَّتِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾.

﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (قيل هو آصف) وكان صاحب كرامة. وكراماتُ الأولياءِ مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء، إذ لو لم يكن النبيُّ صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقه ويكون من جملة أمته.

ومعلومٌ أنه لا يكون في وُسْعِ البَشَرِ الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى. وقَطْعُ المسافة البعيدة في لحظةٍ لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين: إمَّا بأن يُقَدِّم اللَّهُ المسافةَ بين العرش وبين منزل سليمان،

وإمَّا بأن يعدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان. وأيُّ واحدٍ من القسمين كان ـ لم يكن إلّا من قِبَلِ الله، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله ـ سبحانه ـ واستجاب له في ذلك، وأحضر العرش، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وأثبته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه.

ولمَّا رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله ـ سبحانه ـ والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِه، والاستيحاء، والتواضع له، وقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾: لا باستحقاقٍ مني، ولا باستطاعةٍ من غيري، بل أحمد النعمةَ لربِّي حيث جعل في قومي ومِنْ أمتي مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءَه.

وحقيقةُ الشكرِ ـ على لسان العلماء ـ الاعترافُ بنعمة المُنْعِم على جهة الخضوع. والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناءُ على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه، فيدخل في هذا شكرُ اللّهِ للعبد لأنه ثناءٌ منه على العبد بذكر إحسان العبد، وشكرُ العبد ثناءٌ على الله بذكر إحسانه... إلّا أَنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامُه، وإحسانُ العبد طاعتُه وخدمتُه لله، وما هو الحميد من أفعاله.

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة: فالشكرُ صَرْفُ النعمة في وجه الخدمة.

ويقال الشكر أَلَّا تستعينَ بنعمته على معاصيه.

ويقال الشكر شهودُ المنعِم من غير مساكنةٍ إلى النعمة.

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر.

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر.

ويقال الشكر على قسمين: شكر العوام على شهود المزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧]، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد، غيرَ متعرض لمنال العِوَض.

ويقال حقيقةُ الشكرِ قيد النعم وارتباطها؛ لأنَّ بالشكر بقاءَها ودوامَها.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

أراد سليمانُ أن يمتحنَها وأن يختبرَ عقلَها، فأمر بتغيير عرشِها، فلمَّا رأته: ـ ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾.

فاستدلّ بذلك على كمالِ عقلها، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة، فصار لها آية وعلامةً على صحة نبوة سليمان ـ عليه السلام ـ وأسلَمَتْ:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ

حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها. فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبْهَ طبقٍ كبيرٍ صافٍ مضيءٍ، ووَضَعَه فوق بِرْكَةٍ بها ماء كثير عميق، يُرَى الماءُ من أسفل الزجاج ولا يُمَيَّزُ بين الزجاج والماء، وأُمِرَتْ أن تخوضَ تلك البركة، فكَشَفَتْ عن ساقيها؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جِنِّيةُ النَّسَبِ، وأن رجليها كحوافر الدواب، فَتَقَوَّلوا عليها. ولمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماءَ كَشَفَتْ عن ساقيها، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين. وقيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: فصار ذلك أيضاً سبباً وموجِباً ليقينها. وآمنَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

ذكر قصةَ ثمود، وقصة نبيِّهم صالح عليه السلام، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب، وطلبهم منه معجزةً، وحديث الناقة وعقرها، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية... إلى قوله:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ومَكْرُهُم ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح، وعقرهم الناقة خفيةً، وتوريك الذَّنبِ على غير جارمه، والتبرِّي من اختيارهم ذلك.

وأمَّا مَكْرُ اللَّهِ جزاؤهم على مَكْرِهم بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم، ثم إحلالها بهم بغتةً. فالمَكْرُ من الله تخليتُه إياهم مع مَكْرِهم بحيث لا يعصمهم، وتزيينُ ذلك في أعينهم، وتَحِبيبُ ذلك إليهم... ولو شاء لَعَصَمَهُم. ومن أليم مَكْرِه انتشارُ الصيت بالصلاح، والعمر في السِّرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح، وفي الآخرة لا يَجُوزُ في سُوقِها هذا النَّقْدُ!.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

وفي الخبر: «لو كان الظلمُ بيتاً في الجنة لَسَلَّطَ اللَّهُ عليه الخرابَ»؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمت بِزَلَّاتِها خربت بلحوقها شؤم الذِّلة حتى يتعود صاحبُها الكسلَ، ويستوطن مركبَ الفشل، ويُحْرَم التوفيق، ويتوالى عليه الخذلانُ وقسوةُ القلب وجحودُ العين وانتفاءُ تعظيمِ الشريعة من القلب. وأصحابُ القلوبِ إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا

طَرْدَها عن قلوبهمْ. . . خربت قلوبُهم حتى تقسو بعد الرأفة، وتجف بعد الصفوة.

فخرابُ النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة، وخرابُ القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة، وخراب الأرواح باستيلاء الحجبة والوقفة، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

ذَكَرَ قصة لوطٍ وأمته، وما أصرُّوا عليه من الفاحشةِ، وما أَحَلَّ اللَّهُ بهم من العقوبة، وإحلالَ العقوبة بامرأته التي كانت تطابق القومَ، وتخليص الحقّ لوطاً من بينهم، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإهلاكهم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هم الذين سَلَّم عليهم في آزاله وهم في كتم العَدَم، وفي متناول علمه ومتعلق قدرته، ولم يكونوا أعياناً في العَدَم ولا أفادوا، فلمَّا أظهرهم في الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام، ويُسْمِعُهم في الآخرة ذلك السلام. والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبَهِ، ومن فنون البِدَع، ومن وجوه الألم، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ، ثم من الغيبة والحجبة وما ينافي دوام القربة.

ويقال اصطفاهم، ثم هداهم، ثم آواهم، وسَلَّم عليهم قبل أَنْ خَلَقَهم وأبداهم، وبعد أن سَلَّم عليهم بودِّه لَقَّاهم.

ويقال: اصطفاهم بنورِ اليقين وحُلَّةِ الوَصْلِ وكمالِ العَيْش.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾.

فثمراتُ الظاهرِ غذاءُ النفوس، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياءُ القلوبِ، وكما لا تبقى في وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بقيةٌ فلا يبقى في قلوبهم وأوقاتهم من الغيبةِ والحجبةِ والنفرةِ والتهمةِ شَظِيَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾.

نفوسُ العابدين قرارُ طاعتهم، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم، وأرواح الواجدين قرار محبتهم، وأسرار الموحِّدين قرار مشاهدتهم، في أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة، وبها يسكن ظمأُ اشتياقهم وهيجانُ قَلَقِهم واحتراقِهم.

---

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) الآيات من (٥٦ حتى ٥٨) لم ترد.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة.

ويقال ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ اليقين والتوكل.

ويقال الرواسي في الأرض الأبدالُ والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساكَ الأرض، وببركاتهم يَدْفَعُ عن أهلها البلاء.

ويقال الرواسي هم الأئمة الذي يَهْدُون المسترشدين إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ بين القلب والنفس لئلا يغلب أحدُهما صاحبَه.

ويقال بين العبودية وأحكامها، والحقيقة وأحكامها، فلو غَلَبَتْ العبوديةُ كان جَحْداً للحقيقة، ولو غلبت الحقيقةُ العبوديةَ كانت طَيًّا للشريعة.

ويقال: ألْسِنَةُ المريدين مَقَرُّ ذكره، وأسماعُهم مَحلُّ الإدراك الموصِّل إلى الفهم، والعيون مقر الاعتبار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء؛ فالإجابةُ بالقَولِ والكشفُ بالطَّوْلِ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإنعام. ودعاءُ المضطر لا حجابَ له، وكذلك دعاء المظلوم» ولكن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ويقال للجناية: سراية؛ فَمَنْ كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُرْمِه الذي سَلَفَ منه وهو مختارٌ فيه، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم في حال اختيارهم.

وما دام العبدُ يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلَ والحيلة، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه ـ فليس بمضطرٍ، فالمضطرُّ يرى نَفْسَه كالغريق في البحر، أو الضَّالِّ في المتاهة، وهو يرى عِنَانَه بيد سَيِّدِه، وزِمَامه في قبضته، فهو كالميت بين يدي غاسِله، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة(١).

---

(١) إن العبد إذا اطمأن لنفسه، ولاحظ عمله فقد عنصراً من عناصر السير في طريق الإخلاص وفي هذا قال أبو يعقوب السدوسي: حتى شهدوا الإخلاص في إخلاصهم احتاج إلى إخلاص، ويقول أبو عثمان المغربي: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص. (الرسالة القشيرية ص٢٠٨).

ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحدٍ في أن يدعوَ له، لأنَّ اللَّهَ وَعَدَ الإجابة له.. لا لمن يدعو له.

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابةَ وكَشْفَ السوء وَعَدَه بقوله: ـ

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فإنَّ مع العسر يسراً، ولم يقل: العسر إزالة، ولكن قال: مع العسرِ يُسْرٌ؛ فنهارُ اليُسْرِ حاصلٌ بعد ظلام العُسْرِ.

ثم قال: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأنَّ العبدَ إذا زَالَ عُسْرهُ، وكُشِفَ عنه ضُرُّه نَسِيَ ما كان فيه، وكما قال القائل:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَمَوَّلا

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

إذا أظلم الوقتُ على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب، وضاق الأمرُ بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعضٍ بشواهد العقل.. فَمَنْ الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَركِ التدبير، وللاستسلام لحكم التقدير، وللخروج من ظلمات مجوَّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق، والاستسلام لما جَرَتْ به الأقسامُ، وسبَقَت به الأقدار؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

مَنْ الذي يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِه بين يدي أنوار اختياره فيمحوَ آثارَ اختيارِ نَفْسِك، ويعجِّلَ بحُسْن الكفاية لك؟

ويقال: يرسل رياحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأوضار التدبير، ثم يُطْلِعُ شموسَ الرضا فيحصلُ بَردُ الكفاية فوق المأمول في حال سكينة القلب.. ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: من إحالة المقادير على الأسباب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

يُظِهرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِه، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحقَّ فيه قولُه، وسَبَقَ به قضاؤه وقَدَرُه فإذا زال وانتفى وانعدم بعضُ ما يظهر

ويخصص.. فَمَنْ الذي يعيده مثلما بدأه؟ ومن الذي يضيِّق الرزقَ ويُوَسِّعُه؟ ومن الذي يقبض في بعض الأوقات على بعض الأشخاص؟ وفي وقت آخر مَنْ الذي يبسط على قوم آخرين؟

هل في قدرة أحدٍ غيرِ اللَّهِ ذلك؟

إنْ توهمتم شيئاً منذ لك فأَوْضِحُوا عنه حُجَّتَكم.. وإذ قد عجزتم.. فهلَّا صَدَّقْتُم؟ وبالتوحيد أقررتم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿ٱلْغَيْبَ﴾: ما لا يطلع عليه أحد، وليس عليه للخلْق دليل، وهو الذي يستأثر بعلمه الحقُّ، وعلومُ الخَلْق عنه متقاصرة، ثم يريد اللَّهُ أن يخصَّ قوماً بعلمه أفردهم به.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: فإنه أخفى علَم الساعة عن كل أحدٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

فهم في الجملة يَشُكُّون فيه؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه.. وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضِ القلب، فلا حياةَ له في الحقيقة، ولا راحةَ له من يأسه، إذ هو من البعث في شكٍّ، ومن الحياة الثانية في استبعاد:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وُعِدَ آباؤنا بذلك من قبل، ثم لم يكن لهم تحقيق، وما نحن إلا مِثْلُهم، وكانوا يسألون متى الساعة؟(١).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فقال الحقُّ: إنه عن قريبٍ سيحل بهم ميقاته:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

ثم قال جلّ ذكره:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

---

(١) الآيتان (٦٩ ـ ٧٠) لم تردا.

لأنهم لا يُمَيِّزُون بين مِحَنِهِم ومِنَحِهم. وعزيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ بين ما هو نعمةٌ من الله له وبين ما هو محنة؛ فإذاً تقاصَرَ عِلْمُ العبدِ عمَّا فيه صلاحه، فعسى أن يحب شيئاً ويظنَّه خيراً وبلاؤه فيه، ورُبَّ شيءٍ يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها، وهي محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صَرْفِها! وبعكس هذا كم من شيءٍ يظنه الإنسان بخلاف ما هو به!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

لا تَلْتَبِسُ على الله أحوالُهم؛ فصادِقٌ يستوي ظاهِرُه وباطنُه يعلمه، ومنافقٌ يخالف باطنُه ظاهرَه يُلَبِّسُ على الناس حالَه.. وهو ـ سبحانه ـ يعلمه، وكافِرٌ يستوي في الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه يعلمه، وهو يجازي كلاً على ما عَلِمَه.. كيف لا.. وهو قَدَّرَه، وعلى ما عليه قضاه وقَسَمَه؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ما من شيء إلَّا مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُه، ماضيةٌ فيه مشيئته، متعلِّقٌ به عِلْمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهم يُخْفُون بعضاً، وبعضاً يُظْهِرُون، ومع ما يَهْوَوْن يدورون.

وفي هِذ الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابَهم، وعَصَمَ مِنَ التغيير والتبديل ما به يدينون. وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون؛ فالقرآن هدًى ورحمة للمؤمنين، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادقُ أنهم له مُحَرِّفون مُبَدِّلُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المُعِزُّ للمؤمنين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

أي اجتهد في أداء فَرْضِه، وثِقْ بصدق وعده في نصره ورزقه، وكفايته وعَوْنِه. ولا يهولنَّكَ ما يجري على ظواهرهم من أذًى يتصل منهم بك، فإنما ذلك كلُّه بتسليطنا إن كان محذوراً، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً. وإنك لَعَلَى حقٍّ وضياءِ صِدْقٍ، وهم على شكٍ وظلمةِ شِركٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾.

الذين أماتَ اللَّهُ قلوبَهم بالشِّرْكِ، وأَصَمَّهم عن سماع الحق ـ فليس في قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهم للرُّشْدِ أو تنقذهم من أَسْرِ الشكِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالته إلى العرفان، إذ ليست بقُدرَتِكَ الإزالة أو الإمالة.

أنت لا تُسْمِعُ إلّا مَنْ يؤمِن بآياتنا، فلا يَسْمَعُ منك إلّا مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

إذا حقَّ الوعدُ بإقامةِ القيامةِ أوضحنا أشراطَها في كلامِ الدَّابةِ المُخْرجَةِ من الأرضِ وغير ذلك من الآيات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وعند ذلك لا ينفع الإيمانُ ولا يُقْبَلُ العُذْرُ(١): ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

ثم كَرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ليكونَ الليلُ وقتَ سكونِهم، والنهارُ وقتَ طلبِ معاشِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

أخبر أن اليومَ الذي يُنْفَخُ فيه في الصور هو يومُ إزهاق الأرواح، وإخراجها عن الأجساد؛ فَمِنْ روحٍ ترقى إلى عِلّيين، ومِنْ روحٍ تذهب إلى سجِّين(٢).. أولئك في حواصل طيرٍ تسرحُ في الجنة تأوي بالليلِ إلى قناديلَ معلقةٍ من تحت العرش صفتها التسبيح والرَّوْح والراحة، ولبعضها الشهود والرؤية... على مقادير استحقاقهم لِمَا كانوا عليه في دنياهم.

وأمَّا أرواحُ الكفار ففي النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) الآية (٨٤) لم ترد.

(٢) السجّين: وادٍ في جهنم.

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين، هم ساكنون بنفوسهم سائحون في الملكوت بأسرارهم. . قيل: إن الإشارة اليومَ إليهم. كما قالوا: العارف كائنٌ بائِنٌ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره، بائنٌ عن جميع الخَلْق بسرائره.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون ﴿خير﴾ ها هنا للمبالغة؛ لأن الذي له في الآخرةِ من الثوابِ خيرٌ مِمَّا منه من القُرَب: ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها. وهم آمنون مِنْ فَزَعِ القيامة. ومن جاء بالسيئة: فكما أن حالَهم اليوم من المطيعين بالعكس فَحُكْمُهم غداً في الآخرة بالضدّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾.

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفيّ، والتبرّي من الشِّركِ؛ الجليّ منه والخفيّ، وبملازمةِ الطريقِ السّويّ. وأخبر أنَّ مَنْ اتبعه وصَدَّقه أوجب الحقُّ ذمامه وحقَّه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ. . .﴾.

سيريكم ـ عن قريبٍ ـ آياته، فطوبى لِمَنْ رجع قبل وفاته، والويلُ على مَنْ رجع بعد ذهاب الوقت وفواته!.

(١) الآية (٩٢) لم ترد.

سورة القصص

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسَّر له في دنياه وعُقْباه، اسم عزيز مَنْ اشتاق إلى لُقياه استَعْذَبَ فيه ما يلقاه من بَلْوَاه. ومَنْ طَلَبَ غيره مُؤنِساً في دنياه أو عُقْباه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

«الطاء» تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحِّدين عن شهود غير الله. «والسين» تشير إلى سِرِّ اللَّهِ مع العاصين بالنجاة، ومع المطيعين بالدرجات، ومع المحبين بدوام المناجاة. «والميم» تشير إلى مِنَّتِه على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سماعُ قصةِ الحبيبِ من الحبيب يُوجِبُ سلوةَ القلب، وذهابَ الكَرْبِ، وبهجةَ السِّرِّ، وثَلَجَ الفؤاد. وقد كرَّر ذكر قصة موسى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقَدْرِه، ثم زيادةً في البيان لبلاغة القرآن، ثم إفادةً لزوائدَ في المذكورِ قولُه في كل موضع يتكرر فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

تكبَّر فرعونُ بغير حقٍّ فأقماه بحقٍّ، وتجبَّرَ بغير استحقاق فأذَلَّه الله باستحقاق واستيجاب، وجعل أهلها شيعاً يذبِّح أبناءَهم بعد ما استضعفهم، ويستحي نساءَهم، وأفنى منهم من كان (...)[1]، وبالفساد حَكَمَ فيهم، واللَّهُ لم يرضَ بتَرْكِ إتلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

نريد أن نَمُنَّ على المستَضْعَفِين بالخلاصِ من أيديهم، وأَنْ نجعلَهم أئمةً، بهم يَهْتَدِي الخلْقُ، ومنهم يتعلم الناسُ سلوكَ طريق الصدق، ونبارك في أعمارهم، فيصيرون وارثين لأعمار مَنْ يُنَاويهم، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم؛ فهم هُدَاةٌ وأعلامٌ، وسادةٌ وقَادَةٌ؛ بهم يُقْتَدَى وبنُورِهم يُهْتَدَى.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: نُزِيلُ عنهم الخوفَ، ونرزقهم البسطة والاقتدار، ونمد لَهُمْ في الأجل. ونُرِى فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهم على أيديهم؛ وأنَّ الحقَّ يُعْطِي ـ وإن كان عند الخَلْق أنَّهُ يُبْطي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي ألقينا في قلبها، وأوحينا إليها وحيَ إلهامٍ، فاتخذت خاطرها في ذلك، وجرى منها ذلك وهي مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها.

لمَّا وضعت أم موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ في ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبني إسرائيل، رجاءَ أن يقتلَ مَنْ رأى في النوم ما عُبِّر له أن ذهابَ مُلْكِه على يدي إسرائيلي.. فألقى الله في قلبها أن تفعل ذلك.

ثم إنه ربّاه في حِجْرِه ذلك اليومَ ـ ليُعْلَمَ أنَّ الأقدارَ لا تُغَالَبُ.

جعلت أم موسى موسى في تابوتٍ، وألقته في نيل مصر، فجاء الماءُ به إلى بِرْكةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها، فأخذوه وحملوه إليه، وفتحوا رأسَ التابوت، فلمَّا رآه فرعون أخَذَتْ رؤيتُه بمجامع قلبه، وكذلك تمكَّن حُبَّه من قلب امرأةِ فرعون؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: [طه: ٣٩] حيث خَلَقَ الله ملاحةً في عيني موسى؛ فكان من يقع عليه بَصَرُه لا يتمالك من حُبّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم، وقالت امرأةُ فرعون:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلم يكن لهما ولد، وهم لا يشعرون إلى ماذا يؤول أمره.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لمّا ألقته في الماء سَكَّنَ اللَّهُ قلبَها، وربط عليه، وألهمها الصبر، وأصبح فؤادها

فارغاً إن كادت لتبدي به من حيث ضعف البشرية، ولكن الله ربط على قلبها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أمَرَتْ أُمُّ موسى أختَه أن تتبعَ أثره، وتنظرَ إلى ماذا يؤول أمره، فلمَّا وجدوه واستمكن حُبُّه من قلوبهم طلبوا مَنْ يُرضِعه:

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أبى موسى قبولَ ثدي واحدةٍ ممن عُرِضَ عليهن.. فَمَنْ بالغداة كانوا في اهتمام كيف يقتلونه أمسوا ـ وهم في جهدهم ـ كيف يُغذُّونه!

فلمَّا أعياهم أمرُه، قالت لهم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؟ فَقَبِلُوا نصيحتها شفقةً منهم عليه، وقالوا: نعم، فردُّوه إلى أمِّه، فلمَّا وَضَعَت ثَدْيَها في فمه ارتضعها موسى فَسُرُّوا بذلك، وكانوا يَدْعُون أُمَّه حاضنةً ومرضعةً.. ولم يُضِرْها، وكانوا يقولون عن فرعون: إنه أبوه.. ولم ينفعه ذلك!

ولمَّا أخذته أمُّه علمت بتصديق الله ظنها، وسكن عن الانزعاج قلبُها، وجرى من قصة فرعون ما جرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لمَّا كَمُلَتْ سِنُّه وتمَّ عقلُه، واستوى كمال خصاله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾: أي أتممْنا له التحصيل، وَوَفَّرْنا له العلم، وبذلك جَرَتْ سُنَّتُنا مع الأكابر والأنبياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ الآية.

قيل: دخل المدينةَ في وقت الهاجرة[١]، وتَفَرُّقِ الناس، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان: أحدهما إسرائيليٌّ من شيعة موسى وعلى دِينه، والآخرُ قِبطيٌّ مخالفٌ لهما، فاستغاث الإسرائيليُّ بموسى على القبطي، فوكَزَه موسى ليَدْفَعَه عن الإسرائيلي، فمات الرجلُ بذلك الوَكْز، ولم يكن موسى يقصد قَتْلَه، فقال موسى:

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

فقد تمنَّى موسى أنْ لو دَفَعَه عنه بأَيْسَرَ مما دفعه، ولم ينسب القتل إلى الشيطان، ولكنَّ دَفْعَهُ عنه بالغلظةِ نَسَبَه إلى الشيطان بأَنْ حَمَلَه على تلك الحِدَّة.

---

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

وهكذا.. إذا أرده اللَّهُ أمراً أجرى أسباباً ليَحْصُلَ بها مرادُه، ولو أنه أراد فتنةَ موسى لَمَا قَبَضَ روحَ الرجلِ بمثل تلك الوكزة، فقد يُضرَبُ الرجلُ الكثيرَ من الضَّرْبِ والسياط ثم لا يموت؛ فموتُ القبطي بوكزةٍ إجراءٌ لما قضاه وأراده.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تاب موسى عَمَّا جرى على يده، واستغفر ربَّه، وأخبر اللَّهُ أنه غَفَرَ له، ولا عتابَ بعد المغفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

قال موسى ربِّ بما أنعمت عليَّ من توفيقك لي بالتوبة(١) فلن أعودَ بعد ذلك إلى مثل ما سَلَفَ مني.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أصبح في المدينة خائفاً على نَفْسِه من فرعون لأنه كان يَدَّعي أنه يحكم بالعدل، وخاف موسى أن ينسبه في قَتْلِ القبطيِّ إلى العَمْدِ والقصد. فهو ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ علم فرعون وأن يُخْبَر بذلك في وقته.

وقيل ﴿خَآئِفًا﴾من الله مما جرى منه. ويقال ﴿خَآئِفًا﴾ على قومه حلولَ العذابِ بهم. وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ نصرة الله إياه. ويقال ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ مُؤنِساً يأنَسُ به.

فإذا الذي استنصره بالأمس يخاصِمُ إنساناً آخَرَ، ويستعين به لِيُعِينَه، فَهَمَّ موسى بأن يعين صاحبَه، فقال الذي يخاصمه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾؟: قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قَتَلَ الرجلَ بالأمس، ولكن لمَّا قَصَدَ مَنْعَه عن صاحبه استدلَ على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه الناس أنَّ موسى هو الذي قتل القبطيَّ بالأمس، فأمسك موسى عن هذا الرجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

جاء إسرائيليٌّ من معارف موسى يسعى، وقال إن القوم يريدون قَتْلَكَ، وأنا واقفٌ

(١) انظر حديث القشيري عن التوبة برسالته ص٩١.

على تدبيرهم؛ وقد أرادوا إعلامَ فرعون.. فاخرُجْ من هذا البلد، إني لك من الناصحين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

خرج(١) من مصر ﴿خائفاً﴾ أن يقتفوا أثَرَه، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أن يدركه الطلب، وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الكفايةَ والنصرةَ من الله، ودعا الله فقال: ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره، بل خرج على الفتوح، توجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديَه ربُّه إلى النحو الذي هو خيرٌ له، فقال: عسى ربي أن يهديني إلى أَرْشَدِ سبيلٍ لي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

لمَّا وافى مدينَ شعيب كان وقت الهاجرة، وكانت لهم بئر يستقون منها، فيصبون الماءَ في الحياضِ، ويسقون أغنامهم، وكانوا أهل ماشية.

وكان شعيبُ النبيُّ عليه السلام قد كُفَّ بَصَرُه لكثرة بكائه؛ ففي القصة أنه بكى فذهب بَصَرُه، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَه فبكى، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُه، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكي يا شعيب..؟ إنْ كان بكاؤك لخوف النار فقد أَمَّنْتُكَ، وإن كان لِأَجْلِ الجنة فقد أَتَحْتُها لك.

فقال: ربِّ.. إنما أبكي شوقاً إليك. فأوحى الله إليه لأجل ذلك أُخْدَمْتُكَ نَبِيِّي وكليمي عَشْرَ حجج.

وكانت لشعيب أغنامٌ، ولم يكن لديه أجير، فكانت بِنْتاه تسوقان الغنَمَ مكانَ الرعاة، ولم يكن لهما قدرة على استقاء الماء من البئر، وكان الرعاة يستقون، فإذا انقضَوْا فإنْ بَقِيَتْ في الحوضِ بقيةٌ من الماء استقت بنات شعيب.

فلمَّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهَدَ ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبُه لهما وقال: ما خطبُكما؟ فقالتا: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وليس لدينا أجير. فلمَّا انصرف الرعاةُ سَقَى لهما، ثم تولّى إلى ظلِّ جدارٍ بعد ذلك. كان الجوع قد أصابه خلال سَفَرِه، ولم يكن قد تعوَّد، قط الرحلةَ والغُرْبةَ، ولم يكن معه مالٌ، فدعا الله:

(١) هذا يذكرنا بأهمية قضية السفر. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٨٨ ـ ٢٩٤ وص٣٨٣).

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

قيل طَلَبَ قوةً تُزيل جوعَه، وقيل طَلَبَ حالاً يستقِلُّ بها. والأحسن أن يقال جاع فَطَلَبَ كِسْرَة يَسُدُّ بها رَمَقَه - والمعرفة توجب سؤالَ ما تحتاج إليه من الله قليلاً أو كثيراً. فلمَّا انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسَّها بيديه فوجَدَ أثرَ الزيادة في تلك الكرَّة، فسألَهما فذَكَرَتا له القصة، وما سمعتا منه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فقال شعيب: إذاً هو جائع. وبَعَثَ إحداهما لتدعوَه: -

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

قيل إنما استحيَتْ لأنها كانت تخاطِبُ مَنْ لم يكن لها مَحْرَماً.

وقيل لمّا دَعَتْه للضيافة تكلمتْ مستحيةً - فالكريم يستحي من الضيافة.

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لمَّا أَحْسَنَ موسى إليه وأنه لم يكافئه - وإن كان موسى لم يُرِدْ مكافأةً منهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾: لم يَقُلْ: فلما جاءَه قَدَّم السُّفْرَةَ[1] بل قال: وقصَّ عليه القصص.. وهذا طَرَفٌ من قصته.

ويقال: وَرَدَ بظاهرِه ماءَ مدين، ووَرَدَ بقلبه مواردَ الأُنْس والرَّوْح. والموارد مختلفة؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطَفَة، ومواردُ الأرواح مشاهدُ الأرواح فيُكَاشَفُون بأنوار المشاهدة، فيغيبون عن كل إحساسٍ بالنَّفْسِ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ.. وعند ذلك الولاية لله؛ فلا نَفْسَ ولا حِسَّ، ولا قلبَ ولا أُنْسَ.. استهلاكٌ في الصمدية وفناءٌ بالكلية!

ويقال كانت الأجنبيةُ والبعد عن المحرميَّة يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالهما.. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألهما عن قصتهما، كما قيل:

أَجَارَتَنَا إِنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ويقال: لمَّا سألهما وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أمرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤُهم.

ويقال مِنْ كمالِ البلاء على موسى أنَّه وافى الناسَ وكان جائعاً، وكان مقتضى الرِّفْقِ أَنْ يُطْعِموه، ولكنه قَبَضَ القلوبَ عنه، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أَنْ

(١) السُّفرة: طعام يُعد للمسافر أو ما يُحمل فيه الطعام أو المائدة وما عليها من الطعام.

يعملَ عَمَلَ أربعين رجلاً؛ لأن الصخرة التي نَحَّاها عن رأس البئر ـ وَحْدَه ـ كان ينقلها أربعون رجلاً، فلمَّا عَمِلَ عَمَلَ أربعين رجلاً، تولَّى إلى الظِّلِّ، وقال: إنْ رأيتَ أنْ تُطْعِمَني بعد مُقَاساة اللتيا والتي.. فذلك فَضْلُكَ!.

قال ذلك بلسان الانبساط، ولا لسانَ أحلى من ذلك. وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لا مِنْكَ.. بل منه إليه.

ويقال: تولَّى إلى ظلِّ الأُنْس ورَوْح البسط واستقلال السِّرِّ بحقيقة الوجود.

ويقال قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: فَزِدْني فقراً؛ فإنَّ فقري إليك يوجِبُ استعانتي بك.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

كان شُعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير، ولكن لا يسكن قلبُ إلى أحدٍ، فلمَّا رأى موسى، وسمع من ابنته وصفةَ بالقوة والأمانة سأل:

عَرَفْتُ قُوَّتَه.. فكيف عرفْتِ أمانتَه؟

فقالت: كنتُ أمشي قُدَّامَه فأَخَّرَني عنه في الطريق قائلاً: سيري ورائي واهديني، لئلا يَقَعَ بَصَرُه عليَّ.. فقال شعيب:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يعمل عشر حججٍ لشعيب.

وفي القصة أن شعيباً قال لموسى: ادخلْ هذا البيتَ وأَخْرِجْ مما فيه من العِصِيِّ عصاً، وكان البيتُ مظلِماً، فَدَخَل وأخرج العصا، تلك التي أظهر الله فيها معجزاته، ويقال: إنها كانت لآدم عليه السلام، ووقعت لشعيب من نبيٍّ إلى نبيٍّ. إذ يقال: إنه لما هَبَطَ آدمُ إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السِّباع، فأنزل عليه الله عصاً، وأمَرَه جبريلُ أنْ يَرُدَّ السباعَ عن نَفْسِه بتلك العصا.

وتوارث الأنبياءُ واحداً بعد الآخر تلك العصا، فلمَّا أخرج موسى تلك العصا، قال شعيب: ردَّها إلى البيت، واطرحها فيه، وأَخْرِجْ عصاً أخرى، فَفَعَلَ غير مرة، ولم تحصل كلَّ مرة في يده إلا تلك العصا، فلمَّ تَكرَّرَ ذلك عَلِمَ شعيبُ أنَّ له شأناً فأعطاه إياها.

وفي القصة: أنه في اليوم الأول ساق غَنَمه، وقال له شعيب: إنَّ طريقَكَ يتشعب شِعْبَيْن: على أحدهما كَلأٌ كثيرٌ.. فلا تَسْلُكْه في الرعي فإنَّ فيه ثعباناً، واسْلُكْ

الشُّعْبَ الآخرَ. فلمَّا بلغ موسى مَفْرِقَ الطريقين، تَفَرَّقَتْ أغنامُه ولم تطاوعه، وسامت في الشِّعْبِ الكثيرِ الكَلأ، فَتَبِعَها، ووقع عليه النومُ، فلمَّا انتبه رأى الثعبانَ مقتولاً، فإن العصا قتلته، ولمَّا انصرف أخبر شعيباً بذلك فَسُرَّ به[1]. وهكذا كان يرى موسى في عصاه آياتٍ كثيرة، ولذا قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر، فَحَمَلَ ابنَه شعيب، وسارَ بأهله متوجِّهاً إلى مصر. فكان أهلُه في تسييره وكان هو في تسيير الحقِّ، ولمَّا ظَهَرَ ما ظهر بامرأته من أمر الطَّلْقِ استصعب عليه الوقتُ، وبينا هو كذلك إذ آنَسَ من جانب الطور ناراً ـ أي أبصر ورأى ـ فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوعُ أُنْسٍ: وإنَّ اللَّهَ إذا أراد أمراً أجْرَى ما يليق به، ولو لم تقع تلك الحالةُ لم يخرج موسى عندها بإيناس النار، وقد تَوَهَّمَ ـ أول الأمر ـ أنَّ ما يستقبله في ذلك الوقتِ من جملة البلايا، ولكنه كان في الحقيقة سَبَبَ تحقيقِ النبوة. فلولا أسرار التقدير ـ التي لا يهتدي إليها الخَلْقُ ـ لما قال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

ويقال: أراح له ناراً ثم لَوَّح له نوراً، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ. وإنما سماع نداء: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن. . .﴾ الآية.

أخفى تعيين قَدَمِ موسى على الظنون بهذا الخطاب حيث قال: «من شاطىء الواد الأيمن»، ثم قال: «في البقعة المباركة» ثم قال «من الشجرة».

وأَخْلِقْ بأن تكون تلك البقعة مباركة، فعندها سَمِعَ خطابَ مولاه بلا واسطة؛ وأعَزُّ الأماكنِ في العالمِ مَشْهَدُ الأحباب:

وإني لأهوى الدارَ ما يستعزني لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال كم قَدَم وَطِئَتْ لك البقعة، ولكن لم يسمع أصحابُها بها شيئاً!.. وكم ليلةٍ جَنَّت تلك البقعةَ ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة!

ويقال: شتَّان بين شجرة وشجرة؛ شجرة آدم عندها ظهور محنتِه وفتنتِه، وشجرة موسى وعندها افتتاحُ نُبُوَّتِه ورسالتِه!.

---

(١) الآية (٢٨) لم ترد.

ويقال: لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة، ولا يُدْرَى ما الذي كانت تثمره، بل هي شجرة الوصلة؛ وثمرتها القربة، وأصلُها في أرض المحبة وفَرْعُها باسِقٌ في سماء الصفوة، وأوراقها الزلفة، وأزهارها تَنْفَتِقُ عن نسيم الرَّوْح والبهجة:

فلمَّا سمع[1] موسى تغيَّر عليه الحال؛ ففي القصة: أنه غُشِي عليه، وأرسل اللَّهُ إليه الملائكة لِيُرْوحوه بمرواح الأُنس، وهذا كان في ابتداء الأمر، والمبتدىء مرفوقٌ به. وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِقاً، وكان يفيق والملائكةُ تقول له: يا ابن الحَيْض. أمثلك مَنْ يسأل الرؤية؟!

وكذا الحديث والقصة؛ في البداية لُطْفٌ وفي النهاية عُنفٌ، في الأولِ خَتْل وفي الآخرِ قَتْل، كما قيل:

فلمَّا دارت الصهباءُ[2] دعا بالنِّطع[3] والسيفِ
كذا مَنْ يشرب الراحَ[4] مع التِّنِّين[5] في الصيفِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

يا موسى.. اخْلَعْ نعليكَ وألقِ عصاك، وأقِمْ عندنا هذه الليلة، فلقد تَعِبْتَ في الطريق ـ وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال.

يا موسى.. كيف كُنتَ في الطريق؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صوَّبت وكيف شرَّقْتَ وكيف غَرَّبْتَ؟ ما كنتَ في الطريق وحدَك يا موسى! أحصَيْنا خُطَاكَ ـ فقد أحصينا كلَّ شيءٍ عَدَداً. يا موسى.. تعِبْتَ فاسترحْ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَحْ ـ كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافةَ في القيامةِ، وتبوَّأ مَنْزِلَه من الجنة؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سلطانِه. يبتدىء أولاً بخدمة الشُّدَّةِ العَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله. وكذلك اليوم أمرنا؛ إذا أصبحنا كلَّ يوم: ألا نشتغِلَ بشيءٍ حتى نَفْتَتِحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطِبَ المخلوق، نحضر بساط الخدمة ـ أي الصلاة ـ بل نحضر بساط الدنوّ والقربة، قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]: فالمُصَلِّي مُنَاجٍ رَبَّه. ولو عَلِمَ المُصَلِّي مَن يناجي ما التفت؛ أي لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً في التسليم الذي هو التحليل.

---

(١) انظر حديث القشيري برسالته عن السماع ص٣٣٥، ٣٥٠.
(٢) الصهباء: من أسماء الخمر أو هي المعصورة من عنب أبيض.
(٣) النطع: بساط من جلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (ج) أنطاع ونطوع.
(٤) الراح: الخمر.
(٥) التنين: ضرب من الحيات العظيمة. و ـ (في الأساطير) حيوان أسطوري يجمع بين صفات الزواحف والطير، له مخالب أسد وجناحا نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزاً قومياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾.

عندما انقلبت العصا حَيَّةً وَلَّى موسى مُدْبِراً ولم يعقب، وكان موضع ذلك أن يقول: حديثٌ أَوَّلُه تسليطُ ثعبان! مَنْ ذا يُطِيقُ أوَّلَه؟!.

فقيل له: لا تَخَفْ يا موسى؛ إن الذي يَقْدِرُ أنْ يَقْلِبَ العصا حيةً أن يَخْلُقَ لك منها السلامة: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾: ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت، إنما أثبت هذا لأسلطَه على عدوِّك، فهذه معجزتُك إلى قومك، وآيتُك على عدوِّك.

ويقال: شتان بين نبيِّنا ـ ﷺ ـ وبين موسى عليه السلام؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بثعبان سَلَّطَه على عدوِّه، ونبينا ـ ﷺ ـ رجع بعد ما أُسْرِيَ به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى ـ لِيُوَافِيَ أُمَّتَه بالصلاة التي هي المناجاة، وقيل له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.

قيل له: اسلُكْ يَدَكَ في جيبك، لأنَّ المدرعةَ التي كانت عليه لم يكن لها كُم. وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمَّر، وأن يجدَّ، وأن يُخرجَ يَدَه من كُمِّه. وإنه قال لموسى: أَدْخِلْ يَدَكَ في جيبك تخرج بيضاءَ، وألق عصاكَ نجعلْها ثعباناً، بلا ضَرْبِكَ بها، وبلا استعمالِك لها يا موسى: الأمرُ بِنَا لا بِكَ، وأنا لا أنت.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾: يا موسى، في وصف خضوعك تَجِدني، وبتبرِّيك عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك تَصِل إليَّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

تَعلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاءَ أن يُعَافَى من مشقةِ التبليغ ومقاساةِ البلاءِ؛ لأنه عَلِمَ أنَّ النبوةَ فيها مَشَقَّةٌ، فلم يَجِدْ الرُّخصةَ والإعفاءَ مِمَّا كُلِّفَ، وأجاب سُؤْلَه في أخيه حيث سأله أنْ يجعلَ له رِدْءاً، وضمن لهما النصرة.

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١١/٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٥٦)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٦).

ثم إنهما لَمَّا أتيَا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر، وجاوباه بالحجة، ودَعَوَاه إلى سَوَاءِ المحجَّة، فأَبَى إلَّا الجَحْدَ[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

ادَّعى الانفرادَ بالإلهية فزاد في ضلالِه على عَبَدَةِ الأصنام الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ، ثم قال لهامان: «**ابْنِ لي صَرْحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى**» وكان هذا من زيادة ضلاله، حيث تَوَهَّم أن المعبودَ من جهة فوق، وأنه يمكن الوصول إليه. ولعمري لو كان في جهةٍ لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَبَى إلا أنْ يدومَ جحودُه، وعُنوده، فأغرقه اللَّهُ في البحرِ، كما أغرق قلبَه في بحر الكُفْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

لا لِشَرَفِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تَلَفِهم قَدَّمَهم في الخزي والهوان على كلِّ أمة، ولكن لم يُرْشِدُوا إلَّا إلى الضلال. ولم يَدُلُّوا الخَلْقَ إلّا على المُحَال، وما حصلوا إلا على سوءِ الحال، وما ذاقوا إلا خِزْيَ الوبال. أفاضوا على مُتَّبِعِهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا في خِسَّةِ مطلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

كانوا في الدنيا مُبْعَدين عن معرفته، وفي الآخرة مُبْعَدين عن مغفرته، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ، ومن هَجْرٍ إلى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

إنما تطيب المنازلُ إذا خَلَتْ من الأجانب، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتُها بِفَقْدِ الرُّقباء وغَيْبَتِهم، فلمّا أهلك اللَّهُ فرعونَ وقومَه، وأورث بني إسرائيلَ أموالَهم وديارَهم، ومحا عن جميعِها آثارَهم ـ طابَ لهم العيشُ وطَلَعَتْ عليهم شموسُ السعادة.

---

(١) الآيات من (٣٤ حتى ٣٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً، ولكنهم رأوا أنَّ إخبارَك عنهم بحيث لا يكذبك كتابُهم. وبالضرورة عرفوا حالَكَ، وكيف أنك لم تَعْلَمْ هذا من أحدٍ، ولا قَرَأْته من كتاب، لأنَكَ أُمِّيٌّ لا تُحْسِنُ القراءة، وإذاً فليس إخبارُكَ إلا بتعريفنا إياك، وإطلاعنا لَكَ على ذلك.

ويقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى، وكَلَّمْنَاه، وخاطبناه في بابِكَ وبابِ أُمَّتِكَ، ولم تقدح غَيْبَتُكُم في الحال، وكَوْني لكم خيرٌ من كَوْنِكم لكم.

ويقال: لمَّا خَاطَبَ موسى وكَلَّمَه سأله موسى: إنِّي أرى في التوراة أُمَّةً صفتهم كذا وكذا.. مَنْ هم؟ وسأل عن أوصاف كثيرة، وعن الجميع كان يُجابُ بأنَّها أمة أحمد، فاشتاق موسى إلى لقائنا، فقال له: إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم، فإنْ شِئْتَ أسمعتُكَ كلامَهم، فأراد أن يسمعَ كلامنا، فنادانا وقال: يا أمةَ أحمد..، فأجاب الكلُّ من أصلاب آبائهم، فَسمِعَ موسى كلامَهم ولم يُدْرِكْهُم. والغنيُّ إذا سأله فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن يردَّه من غير إحسان إليه. (وفي رواية عن ابن عباس)[1] أن الله قال: «يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتكم قبل أن تسترحموني».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[2] فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذِكْرُ نبيِّنا ﷺ بالجميل. وذكر أمته بحسن الثناء عليهم، فنحن في الوجود مُحْدَثٌ مخلوقٌ وفي ذكره متعلق لا باستفتاح. ولم نكن في العَدَم أعياناً، ولا أشياء، ولكنا كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشيئة. وذكرنا في الخطاب الأزليّ والكلام الصمديّ والقول الأبديّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك، وكما نادينا موسى ـ وهو في الوجود والظهور ـ ناديناكم وأنتم في كتم العَدَمِ، أنشدوا:

كُــنْ لــي كـمــا كُــنْــتَ ... فــي حــالِ لــم أكُــنِ

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٩٥، وفي الإصابة ت٤٧٧٢، وفي حلية ١/ ٣١٤ ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ثاوياً: مقيماً ومستقراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾.

تمنوا في زمانِ الفترة أن يبعث اللّهُ إليهم رسولاً ليهتدوا به، ووعدوا من أنفسِهم الإيمانَ والإجابة، فلمَّا أتاهم الرسولُ كذّبوه، وقالوا: هلّا خُصَّ بمثل معجزات موسى في الظهور، وكان ذلك منهم خطأً، واقتراحاً في غير موضع الحاجة، وتَحكُّماً بعد إزاحة العِلّةِ:

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

ثم قال: أفلا تَذْكُرُون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموهما بالسحر؟

وقال: إنْ ارتبتم أنَّ هذا الكتاب من عند الله فَأْتوا بكتابٍ مِثْلِه، واستعينوا بشركائكم. ومِنْ وقته إلى يومنا هذا لم يأتِ أحدٌ بسورة مِثْلِه، وإلى القيامة لا يأتون بكتابٍ مثله[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أتبعنا رسولاً بعد رسول، وأردفنا كتاباً بعد كتاب، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً[٢]، وجحداً وعتواً. فلا إلى الحقّ رجعوا، ولا إلى الاستقامة جنحوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

مَنْ أكحلنا بصيرتهم بنور الهداية صَدَّقوا بمقتضى مساعدة العناية، ومَنْ أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس في غوايته، وانهمك في ضلالته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق، وانقادوا بِحُسْنِ الاستسلام، فلا جَرَمَ يُؤْتَوْن أجرَهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجالهم، مرةً في الآخرة وهي المثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾.

---

(١) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

(٢) الثبور: الهلاك والويل والخسران.

﴿اللَّغْوَ﴾: ما يُلْهِي عن الله. ويقال ﴿اللَّغْوَ﴾ ما لا يوجِب وسيلةً عند الله، ويقال ما لا يكون بالحقِّ للحقِّ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلبِ غافلٍ، ويقال هو ما يوجِب سماعُه السَّهو.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

الهداية في الحقيقةِ إمالةُ القلبِ من الباطلِ إلى الحقِّ، وذلك من خصائص قدرة الحقِّ ـ سبحانه ـ وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق ـ توسُّعاً، وذلك جائزٌ بل واجبٌ في صفته ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويقال: لَكَ شَرَفُ النبوَّةِ، ومنزلةُ الرسالةِ، وجمالُ السفارةِ، والمقامُ المحمودُ، والحوض المورود، وأنت سيد ولد آدم.. ولكنك لا تهدي من أحببت؛ فخصائصُ الربوبيةِ لا تصلح لِمَنْ وَصْفُه البشرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إنْ صَدَّقْنَاكَ، وآمَنَّا بِكَ، لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم فقال الله تعالى: «وكيف تخافونهم وترون اللَّهَ أظفركم على عدوِّكم، وحَكَمْنا بتعظيم بيتكم، وجعلنا مكةَ تُجْبَى إليها ثمراتُ كل شيءٍ من أقطار الدنيا»؟

ويقال من قام بحقِّ الله ـ سبحانه ـ سَخَّر له الكونَ بجملته، ومَنْ اشتغل برعاية سِرِّه لله، وقام بحقِّ الله، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكِّنَ من التصرُّف بهمته في مملكة الله؛ فالخَلْقَ مُسَخَّرٌ له، والوقتُ طَوعُ أمرِه، والحقُّ ـ سبحانه ـ متولٍ[1] أيامَه وأعماله يُحَقِّقُ ظنَّه، ولا يُضَيِّعُ حقَّه.

أمَّا الذي لا يطيعه فيهلك في أودية ضلاله، ويتيه في مفازات خِزْيِه، ويبوء بوِزْرِ هواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أحوالهم، وانتظامَ أمورهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوهِهم، فَخَرُّوا في أدوية الصغار على أذقانهم، وأذاقهم اللَّهُ

---

(١) انظر حديث القشيري عن الولاية برسالته ص٢٥٩ ـ ٢٦٣.

من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهم؛ فماكنهم منهم خالية، وسقوفُها عليهم خاوية، وغِربانُ الدمار فيها ناعية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾: بالتكليف يأمرهم. ويأمر التكوين ـ على ما يريد ـ يقفهم. وهو ـ سبحانه ـ يبعث الرسلَ إنذاراً ويعمي السُّبَلَ عليهم اقتداراً؛ يُوَضِّحُ الحجةَ بحيث لا شبهة، ولكنه لا يهدي إلا مَنْ سَبَقَت له السعادة بحكم القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الدنيا حلوة خَضِرَة، ولكنها في التحقيق مُرَّةٌ مَذِرَة[١]، فَبِشْرُها يُوهِمُ أنها صَفوٌ ولكن مِن وراءِ صَفْوِها حَسْوٌ[٢] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

الدنيا سمومُ حَنْظَلِها تتلو طمومَ عَسَلِها، وتَلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لُطْفَ ما يظهر من أربها، وليس من أُكْرِمَ بوجدان نعيم عقباه كَمَنْ مُنِيَ بالوقوع في جحيم دنياه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل.. وإلّا فَمِنْ أين لهم الجوابَ فضلاً عن الصواب! والذي يسألهُم هو الذي على ما شاء جَعَلَهم؛ فما وَرَدَ فِعْلٌ إلا على فِعْلِهِ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أصْلِه. وإذْ تَبرّأ بعضُهم من بعض بَيَّنَ أنه لم يكن للأصنام استحقاقُ العبودية ولا لأحدٍ من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةَ أو منه شظيَّة.. كلّا بل هو الواحد القهار[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) مذرت البيضة: إذا غرقلت، فهي مذرة: فسدت، ومذرت نفسه ومعدته: خبثت وفسدت. (اللسان ٥/ ١٦٤ مادة: مذر).

(٢) يقال: يوم كحسو الطير: أي قصير، والعرب تقول: نمت نومة كحسو الطير إذا نام نوماً قليلاً. (اللسان ١٤/ ١٧٦ مادة: حسا).

(٣) الآيتان: (٦٣، ٦٤) لم تردا.

يسألهم سؤالَ هيبةٍ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ، ولا قوةُ عقلٍ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ، قال جلَّ ذكره:

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

إذ استولت عليهم الحَيْرَةُ، واستمكن منهم الدهشُ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يختار ما يشاء ومَنْ يشاء من جملة ما يخلق. ومَنْ ليس إليه شيءٌ من الخَلْقِ.. فما له والاختيار؟!

الاختيارُ للحقِّ استحقاقُ عِزٍّ يوجِبُ أن يكون ذلك له، لأنَّه لو لم يُنَفِّذْ مشيئتَه واختيارَه لم يكن بوصف العِزِّ، فَمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلَّا ذليلاً؛ فالاختيارُ للحقِّ نعتُ عِزٍّ، والاختيارُ للخَلْقِ صفةُ نَقْصٍ ونعتُ بلاءٍ وقصور؛ فاختيارُ العَبْدِ غيرُ مُبَارَكٍ عليه لأنَّه صفةٌ هو غيرُ مُسْتَحِقٍّ لها، ومَنْ اتصف بما لا يليق به افتضح في نَفْسِه، قال قائلُهم:

ومعالٍ إذا ادَّعاها سواه ... لَزِمَتْه جِنَايةُ السُّرَّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَتْ ما هو صفة الحقِّ أظهرت رعونتَها، فما للإنسان والاختيار؟! وما للمملوكِ والمِلْك؟! وما للعبيدِ والتصدُّر في دَسْتِ[1] الملوك؟!

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ولِمَ لا وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟ فالعِلْمُ ـ الذي لا يَعْزُبُ عنه معلومٌ ـ نعتُ من لم يَزَلْ، والإبداع من العَدَمِ إلى الوجود ينفرَّدُ بالقدرة عليه لم يَزَلْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تَوَحَّدَ بِعِزِّ هيبته، وتَفَرَّدَ بجلال ربوبيته، لا شبيهَ يساويه، ولا نظيرَ يُضاهيه. ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ استحقاقاً على عَطِيَّتِه، وله الشكر استيجاباً على نعمته؛ ففي الدنيا المحمودُ اللَّهُ، وفي العقبى المشكورُ اللَّهُ؛ فالإحسان من اللَّهِ لأن السلطانَ

---

(١) الدست: دست الوزارة: منصبها.

للَّهِ، والنعمةُ من اللَّهِ لأنَّ الرحمةَ للَّهِ، والنصرةُ من اللَّهِ لأنَّ القدرةَ للَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

إن دامت ليالي الفترة فَمَنْ الذي يأتي بنهار التوبة غيرُ اللَّهِ؟

وإنْ دامت ليالي الطَّلَبِ فَمَنْ الذي يأتي بصُبْحِ الوجودِ غيرُ اللَّهِ؟

وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسطِ غيرُ اللَّهِ؟

وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصالِ غيرُ الله؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

إنْ دام في الوصلة نهارُكم فأيُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم؟

وإن دام نهارُ معاشِكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إلهٌ غيرُ اللَّهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكنُون فيه إلى الله إلا الله، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللَّهِ إلا الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة، وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها؛ فليالي أهل الوصال ساداتُ الليالي، أهل الفراق أسوأُ الليالي؛ فأهلُ القُربِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامُهم، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم في ليلهم ونهارهم، يقول قائلهم:

والـلـيـالـي إذا نـأيـتِ طـوالٌ ... وأراهــا إذا دَنَــوْتِ قِـصَـار

وقال آخر:

والـليلُ أطولُ وقتٍ حين أفقدها ... والـليـل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث:

يـطـولُ الـيـومُ لا ألـقـاكِ فـيـه ... وحَـوْلٌ نـلـتـقـي فـيـه ـ قـصـيـرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

كلا.. لا حُجَّة لهم، ولا جوابَ يعذرهم، ولا شفيعَ يرحمهم، ولا ناصِرَ يُعِينهم.

اشتهرت ضلالتهُم، واتضحت للكافة جهالتهُم؛ فدامَ عذابُ الأبد، وحاقَ بهم وبالُ السَّرْمَد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى، وكان من أعبد بني إسرائيل، وكان قد اعتزل الناسَ، وانفرد في صومعته[1] يتعبَّد، فتصوَّر له إبليسُ في صورة بَشَرٍ، وأخذ في الظاهر يتعبَّدُ معه في صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته، فقال له يوماً: لسنا في شيء؛ عيونُنا على أيدي الناسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا، ولا بُدَّ لنا من أَخْذِه، فقال له قارون: وكيف يجب أن نفعلَه؟

فقال له: أن ندخل في الأسبوع يوماً السوق، ونكتسب، وننفق ذلك القَدْرَ في الأسبوع، فأجابه إليه. فكانا يحضران السوق في الأسبوع يوماً، ثم قال له: لستُ أنا وأنت في شيء، فقال: وما الذي يجب أن نعمله؟

فقال له: نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا، ويوماً نكتسب ونتصدَّق به، فأجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر: لسنا في شيء، فقال: وما ذاك؟

قال: إنْ مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوتَ يوم، فقال: وما نفعل؟

قال: نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للإدخار، فأجابه إليه.. فلمَّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه وَدَّعَه، وقال:

إنّي مُفارِقُكَ.. فَدُمْ على ما أنت عليه، فصار من أمره ومالِه ما صار، وحَمَلَه حُبُّ الدنيا على جَمْعِها، وَحَمَلَه جَمْعُها على حُبِّها، وحَمَلَه حُبُّها على البغي عليهم، وصارت كثرةُ مالِه سَبَبَ هلاكِه، وكم وُعِظَ بِتَرْكِ الفَرَحِ بوجود الدنيا، وبِتَرْكِ الاستمتاع بها! وكان لا يأبى إلَّا ضلالاً.

ويقال خَسَفَ اللَّهُ به الأرضَ بدعاءِ موسى عليه السلام، فقد كان موسى يقول:

يا أرضُ خُذِيه.. وبينما كانت الأرض تُخْسَفُ به كان يستعين بموسى بحقِّ القرابة، ولكن موسى كان يقول: يا أرضُ خُذِيه.

وفيما أوحى اللَّهُ إلى موسى: لقد ناداك بحقِّ القرابة وأنت تقول: يا أرض خذيه! وأنا أقول: يا عبدُ، نادِني فأنا أقرب منه إليك، ولكنه لم يَقُلْ.

وفي القصة أنه كان يُخْسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة، فلمَّا حَبَسَ اللَّهُ يونسَ في بطن الحوتِ أَمَرَ الحوتَ أن يطوفَ به في البحار لئلا يضيقَ قلبُ يونس، حتى انتهى

---

(١) الصومعة: متعبد الناسك ومنار الراهب إذا كان محله مرتفعاً كأن يكون على جبل.

إلى قارون، فسأله قارونُ عن موسى وحاله، فأوحى الله إلى المَلَك:

لا تَزِدْ في خَسْفِه لحرمة أنه سأل عن ابن عمه، ووَصَلَ به رَحِمَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وَعْظُ مَنْ حُرِمَ القبولَ كمثل البَذْرِ في الأرض السَّبِخَة؛ ولذا لم ينفَعْه نُصْحُهم إياه، ولم يكن للقبول في مساغٌ.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً، ولا يُوجِبُ في الآخرةِ عقوبةً.

ويقال النصيبُ من الدنيا ما يَحمِلُ على طاعته بالنَّفْس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى ذِكْرِه باللسان، وعلى مشاهدته بالسِّرّ.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله؛ لأنَّ الكافرَ لا حَسَنَة له. والآية تدل على أن لله على الكافر نِعَماً دنيوية.

والإحسانُ الذي أُمِرَ به إنفاقُ النعمةِ في وجوهِ الطاعةِ والخدمة، ومقابلتُه بالشكران لا بالكفران.

ويقال الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون تَوَهُّم الاستحقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه.

ويقال السُّمُّ القاتلُ، والذي يطفىء السراجَ المضيءَ النظرُ إلى النَّفْسِ بعين الإثباتِ، وتَوَهُّمُ أَنَّ منك شيئاً من النفي أو الإثبات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

تمنَّى مَنْ رآه مِمَّن كان في حُبِّ الدنيا ساواه أَنْ يُعْطِيَه اللَّهُ مِثْلَ ما أعطاه.

أَمَّا مَنْ كان صاحياً عن خمار غفلته، مُتَيَقِّظاً بنور بصيرته فكان موقفُهم: -

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

وبعد أن كان ما كان، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء[1]:

---

(١) الآية (٨١) لم ترد.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

مَنَّ اللَّهُ علينا فلم نَنْجَرِفْ في نَهْجِه، ولم ننخرط في سِلْكِه، وإذاً لَوَقَعَ بنا الهلاكِ.

أَمَّا المُتَمَنُّون مكانَه فقد نَدِمُوا، وأمّا الراضون بقسمته ـ سبحانه ـ فقد سَلِمُوا؛ سَلِمُوا في العاجل إلى أَنْ تَظْهرَ سعادتُهم في الآجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قيل «العلو في الدنيا» أَنْ تَتَوهَّمَ أَنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك.

و «الفساد» أن تتحرك لحظِّ نَفْسِك ونصيبك ولو بِنَفَسٍ أو خطوةٍ.. وهذا للأكابر، فأمَّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا﴾ كعُلُوِّ فرعون ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ كفَسَادِ قارون.

ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوّاً، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوّاً.

ويقال ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ للعُبَّادِ والزُّهاد، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثواب الحسنةِ في التضعيف، وأمرُ السيئةِ بناؤه على التخفيف.

والمؤمنُ ـ وإن كان صاحبَ كبائر ـ فسيئاتُه تَقْصُرُ في جَنْبِ حسناتِه التي هي إيمانُه ومعرفتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: في الظاهر إلى مكة.. وكان يقول كثيراً: «الوطن الوطن»، فَحَقَّقَ اللَّهُ سُؤْلَه. وأَمَّا في السِّرِّ والإشارة فإنه ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي يَسَّرَ لك قراءةَ القرآن، والمَعَادُ هو الوصفُ الذي كانت عليه روحُك قبل حلول شَجِّك من مُلَادغات القُرْبِ ومطالعات الحقِّ.

وقيل الذي ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادُّك إلى عين الجمع بالتحقُّق بالحقِّ والفناء عن الخَلْق

ويقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادُّك إلى الفناء عنك بمحقك في وجود الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ما كنت تؤمِّل مَحَلَّ النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك، ولا ما أظهرنا عليكَ من أحوال الوجد وحقائق التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

لا يصدنَّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذَّوْبِ والشهود، والإدراك والوجود. لا تتداخَلَنَّكَ تُهْمةُ التجويز وسؤالاتُ العلماء بما يَدَّعُون من أحكام العقول؛ فَمَا يُدْرَكُ في شعاع الشمس لا يَحْكُمُ ببطلانه خفاؤُه في نور السراج.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

كلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله.

كلُّ حيٍّ ميت إلا هو، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]: أي مات؛ فكلُّ شيءٍ مُعَدٌّ لجواز الهلاك والعَدَم، ولا يبقى إلا ﴿وَجْهَهُۥ﴾: ووَجْهُهُ صفةٌ من صفاته لا تستقل إلا به فإذا بقي وجهُه فَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاءُ ذاته؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموجود، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته.

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون العقل؛ فخَصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته.

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَغْداً، وسماعُه يوجب سلوة الواجدين نقداً اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إلى مثوبته في آجله، ومَنْ سمعه حظي بقربته في عاجله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾.

«الألف» إشارة إلى تَفَرُّده عن كل غير بوجه الغِنى، وباحتياج كل شيءٍ إليه؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ.

«واللام» تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تعويج ما، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف ـ فهي منتصبة القامة مثلها، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء ولكن اللام تتصل بغيرها ـ فلا جَرَمَ لا يكون في الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام.

أمّا «الميم» فالإشارة فيه إلى الحرف «مِنْ»؛ فَمِنَ الربِّ الخَلْقُ، ومِنَ العبدِ خدمةُ الحق، ومن الربِّ الطَّوْلُ والفضلُ.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ بمجرد الدعوى في الإيمان دون المطالبة بالبلوى، وهذا لا يكون، فقيمة كلِّ أحدٍ ببلواه، فَمَنْ زاد قَدْرُ معناه زاد قدر بلواه؛ فعلى النفوس بلاءٌ وهو المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل. وعلى القلوب بلاءٌ وهو مطالبتُها بالطلب والفكر الصادق بتطلُّع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم. وعلى الأرواح بلاءٌ وهو التجرُّدُ عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب، والتباعُد عن كل المساكنةِ لشيءٍ من المخلوقات. وعلى الأسرار بلاءٌ وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلِّي إلى أن تصير مُسْتَهْلَكاً فيه.

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات. وأشدُّ الفتنِ حفظُ وجود التوحيد لئلا يجري عليك مَكْرٌ في أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحقّ فيظن أنه الحق، ولا يدري أَنَّه من الحقّ، وأنّه لا يُقال إنّه الحقُّ ـ وعزيزٌ مَنْ يهتدي إلى ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

لم يُخلِهم من البلاء والمِحَن ليُظْهِرِ صبرَهم في البلاءِ أو ضدَّه من الضَجَرِ، وشكرهم في الرخاء أو ضدة من الكفر والبَطَرِ. وهم في البلاءِ ضروب: فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء، ويشكر في حال النَّعماء... وهذه صفة الصادقين. ومنهم مَنْ يضجُّ ولا يصبر في البلاء، ولا يشكر في النعماء.. فهو من الكاذبين. ومنهم مَنْ يؤثِر في حال الرخاء ألّا يستمتعَ بالعطاء، ويستروح إلى البلاء؛ فَيَسْتَعْذِبَ مقاساةَ الضُّرِّ والعناء.. وهذا أَجَلُّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

يرتكبون المخالفاتِ ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة.. ساءَ حُكْمُهم! فمتى ينجو منَ العذابِ مَنْ ألقى جلبابَ التُّقى؟!

ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ، ولا محاسبة ولا مطالبة.

ويقال اغتروا بإمهالنا اليومَ، وتَوَهَّموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا، وظنوا أنهم قد أَمِنُوا.

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئاتِ أَنْ جرى التقديرُ لهم بالسعادة، وأنَّ ذلك يؤخر حُكْمَنا.. كلا، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قسمتُنا له بالسعادة، وهيهات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة!.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

مَنْ خاف عذابَه يوم الحساب فَسَيلْقى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ مِنَّا لأهل الخوف اليومَ. ومَنْ أَمَّلَ الثوابَ يومَ البعثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل. ومَنْ زَجَّى عُمْرَه في رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النَّظَرَ إلينا، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المشتاقين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحنين المحبين الوالهين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

مَنْ أَحْسَنَ فنجاة نفسه طلبها، وسعادة حالة حَصَّلَها. ومن أساء فعقوبة بنفسه جَلَبَها، وشقاوة جَدِّه اكتسبها.

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ.. والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يَمَسُّه من الشِّقاقِ شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ رَفَعَ إلينا خطوة نال مِنَّا خطوة، ومَنْ تَرَكَ فينا شهوةً وَجَدَ مِنَّا صفوة، فنصيبهم من الخيرات موفور، وعملهم في الزلّات مغفور. بذلك أجرينا سُنَّتنا، وهو متناول حُكْمِنا وقضيتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

أَمَرَ اللَّهُ العبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية. وإذا كانت تربيةُ الوالدين ـ وهي إنْ حَسُنَتْ ـ فإلى حدٍّ يوجِبُ رعايتهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى، والإحسانِ العميم بالعبد والامتنان القديم الذي خصَّه به مِنْ قَبْلُ ومِن بَعْدُ؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنْ جاهداك على أن تُشرِكَ بالله فإياك أَنْ تطيعَهما، ولكن رُدَّ بِلُطْفٍ، وخالِفْ برفقٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم، فإن المعهود من سُنَّتِنا إلحاق الشكلِ بشكله، وإجراء المِثْلِ على حُكْمِ مِثْلِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

المحنُ تُظهِرُ جواهرَ الرجال، وهي تَدُلُّ على قِيمَهِم وأقدارهم؛ فَقَدْرُ كلِّ أحد وقيمته يَظْهَرُ عند محنته؛ فَمَنْ كانت محنتُه من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها؛ أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس، أو فَقْد حبيبٍ من الخلْقِ فحقيرٌ قَدْرُه، وكثيرٌ في الناس مثْلُه. ومَنْ كانت محنته في الله ولله فعزيزٌ قَدْرُه، وقليلٌ مَنْ كان مثله، فهم في العدد قليلٌ ولكن في القَدْرِ والخَطَرِ جليلٌ: وبقدر الوقوف في البلاءِ تظهر جواهرُ الرجال، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسُهم.

والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى، ويتشرب ولا يترشح بغير شكوى ولا إظهار؛ كالأرضِ يُلْقَى عليها كلُّ خبيث فتُنْبِتُ كلَّ خضرة وكل نزهة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود ... تبيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) القشيري مما استفاد من قول الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال أيضاً: إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يُظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء. (الرسالة القشيرية ص٢٨١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ضمنوا بما لم يفوا به، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً، بل زادوا على حَمْل نفوسهم؛ فاحتقبوا وِزْرَ ما عَملوا، وطولبوا بوزْر ما به أَمَرُوا، فضاعَفَ عليهم العقوبة، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب[١] أخاه بيثرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتَشبِّهون بأهل الحقائق:

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه ... فَضَحَ الامتحانُ ما يَدَّعيه

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].. وهيهات هيهات!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ...﴾ الآية.

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شَكا في أمره، وجهلا بحاله، ومُرْية في صدقه، ولم يزدد نوح ـ عليه السلام ـ لهم إلّا نُصحاً، وفي الله إلا صبراً. ولقد عرَّفه اللَّهُ أنه لن يؤمِنَ منهم إلا الشِّرْذِمةُ[٢] اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا، وأَمَرَهُ باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً، وَصَدَقَ وَعْدَه، ونَصَرَ عَبْدَه.. فلا تبديلَ لِسُنَّتِه في نصرة دينه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع، وكيف أقام على قومه الحُجّة، وأرشدهم إلى

---

(١) عرقوب: اسم رجل من العمالقة؛ قيل: هو عرقوب بن معبد، كان أكذب أهل زمانه، ضربت به العرب المثل في الخُلف، فقالوا: مواعيد عرقوب، وذلك أنه أتاه أخ له يسأله شيئاً فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة، فلك طلعها، فلما أطلعت أتاه للعدة، فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهواً، فلما أبسرت قال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدّها، ولم يُعط أخاه منها شيئاً، فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. (لسان العرب ١/ ٥٩٥ مادة: عرقب).

(٢) الشرذمة: من الناس: الجماعة القليلة.

سَوَاءِ المحجة، ولكنهم أصروا على ما جحدوا، وتعصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا، وكادوا لإبراهيم كيداً. . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكراً بهم واستدراجاً. ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُه، ولا وَجَد منهم مساغاً وَعْظُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لا يُدْرَى أيهما أقبح. . هل أعمالكم في عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم ـ فيما تزعمون كذباً ـ عن هذه الجمادات؟ وهي لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك.

وبيَّنَ أنهم في هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحظوظ وطلب الأرزاق[1] فقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ لتَصِلوا إلى خير الداريْن.

وابتغاءُ الرزق من الله إدامةُ الصلاة؛ فإن الصلاةَ استفتاحُ بابِ الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ﴾ [طه: ١٣٢].

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى في استجلاب الرزق.

وفي الآية تقديمُ الرزق على الأمر بالعبادة؛ لأنه لا يُمْكِنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة، وبالرزق يجد القوة، قالوا:

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه ... فمكروهَ ما يلقى يكون جزاؤه

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾: حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وبالُ التكذيب عائدٌ على المُكَذِّب، وليس على الرسول ـ بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كي يكون مُبيِّناً ـ شيءٌ آخر. وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام.

وفيما حلَّ بالمكذِّبين من العقوبة ما ينبغي أن يكون عِبْرَةً لِمَنْ بعدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

---

(١) انظر حديث القشيري عن العبودية برسالته ص١٩٧، ٢٠١.

الذي دَاخَلَهم فيه الشَّكُّ كان بعث الخَلْق، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنَةِ بعد تقضِّيها على الوجه الذي كان في العام الماضي. وبَيَّنَ أن جَمْعَ أجزاءِ المكلَّفين بعد انقضاص البِنية كإعادة فصول السنة؛ فكما أن ذلك سائغٌ في قدرته غيرُ مُسْتَنْكَرٍ فكذلك بعثُ الخَلْق.

وكما في فصول السنة تتكرر أحوالُ العِبادة في الأحوال العامة المشتركة بين الكافة، وفي خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس، ثم زوالها، إلى موالاة الطاعات، ثم حصول الفترة، والعود إلى مثل الحالة الأولى، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة. . كذلك تتكرر عليهم الأحوال.

وأربابُ القلوبِ تتعاقب أحوالُهم في القبض والبسط ثم في الهيبة والأُنس، ثم في التجلي والسَّتْر، ثم في البقاء والفناء، ثم في السُّكْر والصحو. . وأمثال هذا كثير. وفي هذا المعنى قوله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا:

كلُّ نـهـرٍ فـيـه مـاءٌ قـد جَـرَى ... فـإلـيـه الـمـاءُ يـومـاً سـيـعـود

قوله جلّ ذكره: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

أجناسُ ما يعذِّبُ به عبادَه وأنواعُ ما يرحم به عباده. . لا نهاية لها ولا حَصْر؛ فَمِنْ ذلك أنه يعذِّب من يشاء بالخذلان، ويرحم من يشاء بالإيمان. يعذِّب من يشاء بالجحود والعنود، ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود. يعذب من يشاء بالحِرْصِ ويرحم من يشاء بالقناعة. يعذِّب من يشاء بتفرقة الهمِّ ويرحم من يشاء بجَمْعِ الهِمَّة. يعذب من يشاء بإلقائه في ظلمة التدبير، ويرحم من يشاء بإشهاده جريانَ التقدير. يعذب من يشاء بالاختيار من نَفْسِه، ويرحم من يشاء برضاه بحُكْم ربِّه. يعذب من يشاء بإعراضه عنه، ويرحم من يشاء بإقباله عليه. يعذب من يشاء بأن يَكِلَه ونَفْسَه، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحُسْنِ تولِّيه. يعذب من يشاء بحبِّ الدنيا ويمنعها عنه ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبَسْطِها عليه. يعذب من يشاء بأن يثبته في أوطان العادة، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة. . . وأمثال هذا كثير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

نُقَلِّب الجملةَ في القبضة، ونُجْري عليهم أحكامَ التقدير: جحدوا أم وَحَّدوا، أقبلوا أم أعرضوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تعجلت عقوبتهم بأنْ يئسوا من رحمته... ولا عقوبةَ أشدُّ من هذا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

لمَّا عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا في معارضته بالتهديد والوعيد، والسفاهة والتوبيخ، والله تعالى صرف عنه كَيْدَهم، وكفاه مَكْرَهم، وأفلج عليهم حُجَّته[1]، وأظهر للكافة عجزَهم، وأخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللَّعْنِ والطردِ، وفنون الهوان والخزْي[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لا تَصِحُّ الهجرةُ إلى الله إلّا بالتبرّي ـ بالكمالِ ـ بالقلبِ عن غير الله. والهجرةُ بالنَّفْسِ يسيرةٌ بالإضافة إلى الهجرة بالقلب ـ وهي هجرة الخواص؛ وهي الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجَمْعِ. والجمعُ بين التعريجِ في أوطان التفرقة والكوْنِ في مشاهد الجَمْعِ مُتنافٍ[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لمَّا لم يُجِبْ قومُه، وبذل لهم النصح، ولم يدَّخر عنهم شيئاً من الشفقة ـ حقَّقَ اللّهُ مرادَه في نَسْلِه، فوهب له أولادَه، وبارك فيهم، وجعل في ذريته الكتابَ، والنبوة، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالُهم للقبول، وأحوالهم للإقبال عليها، ونفوسُهم للقيام بعبادته، وأسرارُهم لمشاهدته، وقلوبهم لمعرفته.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ للدنوّ والزلفة والتخصيص بالقربة.

---

(١) أفلج الله حجته: أظهرها وأثبتها. (٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الجمع والفرق: كان الأستاذ الدقاق يقول: الفرق ما نسب إليك والجمع ما سُلب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال، فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد بشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. (الرسالة القشيرية ص٦٤، ٦٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لامَهُم على خصلتهم الشنعاء، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء، وما يُضَيّعُونه من المعروف ويأتون من المنكر الذي جملته تخليته الفُسَّاق مع فِسقهم، وترك القبض على أيديهم، وقلة الاحتشام من اطّلاع الناس على قبائح أعمالهم. ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر، ومنها التسويف في التوبة، ومنها التفاخر بالزلّة.

فما كان جوابُهم إلا استعجالَ العقوبة، فحلَّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك من شاركهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

التبس على إبراهيمَ أمرُهم فظَنَّهم أضيافاً؛ فتكلَّفَ لهم تقديم العجل الحنيذ[2] جرياً على سُنَّتِه في إكرام الضيف. فلما أخبروه مقصودَهم من إهلاك قوم لوط تكلّم من باب لوط... إلى أن قالوا: إنَّا مُنَجُّوه. وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوطٍ ـ وإنْ كان بريئاً ـ لم يكن ظلماً؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيم عليه السلام ـ مع وفرة عِلْمِه ـ يشكل عليه حتى كان يجادل عنه. بل لله أن يعذِّب مَنْ يعذِّب، ويُعَافِي مَنْ يُعَافِي[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

لمَّا أن رآهم لوطٌ ضاق بهم قلبُه لأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ، فخاف عليهم من فساد قومه: فكان ضِيقُ قلبه لأَجْلِ الله ـ سبحانه، فأخبروه بأنهم ملائكة، وأنَّ قومه لن يَصِلُوا إليهم، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه، وزال ضيقُ صَدْرِه.

ويقال أقربُ ما يكون العبد في البلاءِ من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاءُ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء، لأنه يصير مُضْطَراً، واللَّهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الإجابة. كذلك كان لوط في تلك الليلة، فقد ضاق بهم ذَرْعاً ثم لم يلبث أَنْ وَجَدَ الخلاصَ من ضيقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) الآيتان (٢٩، ٣٠) لم تردا.

(٢) العجل الحنيذ: المشوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (اللسان ٣/ ٤٨٤: حنذ).

(٣) الآية (٣٢) لم ترد.

فَمَنْ أراد الاعتبارَ فله في قصتها عِبْرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآيات.

ذَكَر قصةَ شعيبٍ وقصة عادٍ وثمود وقصة فرعون، وقصة قارون.. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على مِنْوال بعضٍ، وسلك مسلكَهم، ولم يَقْبَلوا النصحَ، ولم يُبَالوا بمخالفة رُسِلِهم، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم، إمضاءً لِسُنّتِه في نصرة الضعفاء وقهر الظالمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه؛ فهو يبني ولكن على نفسه يبني.. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجني.

وبيتُ العنكبوتِ أكثره في الزوايا من الجدران، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ والكتمان، وأمَّا المؤمِن فظاهِرُ المعاملةِ، لا ستر ولا يُدْخِمس[1].

وبيتُ العنكبوت أوهنُ البيوت لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أَدْوَن دَفْع.. كذلك الكافر؛ لا أصلَ لشأنه، ولا أساسَ لبنيانه، يرى شيئاً ولكن بالتخييل، فأمّا في التحقيق.. فَلا[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

الكلُّ يشتركون في سماع الأمثال، ولكن لا يصغي إليها مَنْ كان نَفُورَ القلبِ، كنودَ الحالِ، متعوداً الكسلَ، مُعَرِّجاً في أوطان الفَشَلِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي بالقول الحق والأمر الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، أي على معنى ينبغي للمؤمن أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن قُدِّرَ أن واحداً

---

(١) الدخمس: الخب الذي لا يبين لك معنى ما يريد، وقد دخمس عليه، وأمر مدخمس إذا كان مستوراً. (لسان العرب ٦/ ٧٨ مادة: دخمس).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الإيمان ـ كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة.

ويقال بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءُ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر.

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر. فإن كان ـ وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها.

ويقال الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النّفْس.

ويقال الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ.

ويقال الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل ملاحظتُه الأعواض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها.

ويقال الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العِوض عليها.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلْق مُحْدَث[1].

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى، لأن ذكره لله طاعة، وذكره لغيره لا يكون طاعة.

ويقال ولِذكْرُ اللّهِ لَك أكبرُ من ذكرْك له.

ويقال ذكْرُه لك بالسعادة أكبرُ من ذكْرك له بالعبادة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقى للذاكر معه ذِكْر مخلوق.

ويقال ذكر الله أبر من أن يُبْقى للزَّلةِ معلوماً أو مرسوماً.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره.

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبْقَى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً؛ فلِحُرمة ذكره زَلّاتُ الذاكر مغفورةٌ، وعيوبه مستورةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

ينبغي أن يكون منك للخصم تبيين، وفي خطابك تليين، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصرة ـ لما رآه صحيحاً ـ بالحجة، وتَرْك الميل إلى الشيء بالهوى.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الذكر بالرسالة ص٢٢١ ـ ٢٢٦.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

يعني أنهم على أنواع: فمرحوم نظرْنا إليه بالعناية، ومحرومٌ وسمناه بالشقاوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي تَجَرَّد قلبك عن المعلومات، وتقدّس سرّك عن المرسومات، فصادَفك من غير ممازجة طبْعٍ ومشاركةِ كَسْبٍ وتكلف بشرية، فلما خلا قلبك وسرُّك عن كل معلومٍ ومرسومٍ ورَد عليك خطابُنا وتفهيمنا مقرونٍ بهما ما ليس مِنَّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبينات سِرِّه، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق قلوبهم، وكلُّ شيء يطلبُ من موطنه ومحله؛ فالدرُّ يُطلبُ من الصدف لأنّ ذلك مسكنه، والشمس تطلبُ من البروج لأنها مطلعها، والشهد يُطْلبُ من النّحل لأنه عشُه. كذلك المعرفة تُطْلَبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته، ومنها (. . . .)[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

خفيَتْ عليهم حالتُكَ ـ يا محمد ـ فطالبوكَ بإقامة الشواهد، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ﴾ أوَ لم يَكْفِهم ما أوضحنا عليكَ من السبيل، وألَحْنا لكَ من الدليل؛ يُتْلَى عليهم ذلك، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيءٍ من مثله؟! هذا هو الجحود وغاية الكُنود[2]!

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أنا على حقٍّ واللَّهُ ـ سبحانه ـ يعلمه، وأنتم لستم على حق والله يعلمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الكنود: الجاحد لنعم ربه.

الآية (٥١) لم ترد.

لولا أني ضربتُ لكلِّ شيءٍ أَجَلاً لَعجَّلْتُ لهم ذلك، ولَيَأتِيَنَّهم العذابُ ـ حين يأتيهم ـ بغتةً وفجأةً[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريخ لهم، كذلك ـ اليومَ ـ مَنْ أحاط به العذابُ؛ مِنْ فوقه اللَّعنُ ومن تحته الخَسْفُ، ومن حوله الخِزْيُ، ويُلْبَسُ لباسَ الخذلان، ويوسم بكيِّ الحرمان، ويُسْقَى شرابَ القنوط، ويُتَوَّجُ بتاج الخيبة، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط، ويُغَلُّ بغُلِّ العداوة، فهُمْ يُسْحَبون في جهنم الفراق حُكْماً، إلى أن يُلْقَوْا في جحيم الاحتراق عيناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيقَ بمريدٍ مكانٌ، فإذا نَبَا به منزلٌ ـ لوجهٍ من الوجوه ـ إمَّا لمعلومٍ حصل، أو لقبولٍ من الناس، أو جاهٍ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لِبَلاءِ ضِدٍّ، أو لوجهٍ من الوَجوه الضارة... فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره، كما قالوا:

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيّاً ... أنْ أرى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقتَه مكانٌ انتقل إلى غيره من الأماكن[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطِّن نفسَه على الخروج مستعداً له، ثم إذا لم يحصل الأَجَلُ فلا يستعجل، وإذا حضر فلا يستثقل، ويكون بحُكْمِ الوقت، كما قالوا:

لو قال لي مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعةً ... وقلتُ لداعي الموت: أهلاً ومرحبا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

هم ـ اليومَ ـ في غُرَفِ معارفهم على أَسِرَّةِ وَصْلِهم، مُتَوَّجُون بتيجان سيادتهم، يُسْقَوْن كاساتِ الوَجْدِ، ويَحْبَرُون في جِنانِ القُرْب، وعداً كما قال: ـ

---

(١) الآية (٥٤) لم ترد.

(٢) القشيري يجيز السفر للعارف، ولا يجيزه للمريد. يقول: ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر في غير وقته. (الرسالة القشيرية ص٣٨٣).

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة.

الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء، الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها.

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس.

الصبر صفة توجب معيَّةَ الحقِّ.. وأَعْزِزْ بها!

وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكلفٍ، ثم صبرٌ بسهولة، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً.

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل؛ فلا تتبرَّم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك. التوكل إعراضُ القلب عن غير الربِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي لا تدخره، فمن لم يدخر رزقه في كيسه أو خزائنه فاللَّهُ يرزقه من غير مقاساة تعبٍ منه.

ويقال: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم، وليس لها بيت تجمع فيه القوت، وليس لها خازن ولا وكيل.. الله يرزقها وإياكم.

ويقال إرادةُ اللَّهِ في أن يستبقيكَ ولا يقبض رُوحَك أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تَعَنِّيك لأَجْلِ بقائك.. فلا ينبغي أَنْ يكونَ اهتمامُكَ بسبب عَيْشِك أتَمَّ وأكبرَ من تدبير صانعك لأجل بقائك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

إذا سُئِلوا عن الخالق أقروا بالله، وإذا سُئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله.. هذه مناقَضَةٌ ظاهرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

الرزق على قسمين: رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعاني بحيث لا يحصره تكلف الكلام، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُرَفَّهٌ عليه، وفيهم مرزوق ولكنْ مُضَيَّقٌ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

كما عَلِموا أَنَّ حياةَ الأرضِ بعد موتها بالمطر من قِبَلِ الله فليعلموا أَنَّ حياةَ النفوسِ بعد موتها ـ عند النَّشرِ والبعث ـ بقدرة الله. وكما علموا ذلك فليعلموا أَنَّ حياةَ الأوقات بعد نفرتها، وحياة القلوب بعد فترتها... بماء الرحمة بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الدنيا الأحلام ـ وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم. والآخرة هنالك العيش بكماله، والتخلص ـ من الوحشة ـ بتمامه ودوامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الإخلاصُ تفريغُ القلب عن الكلّ، والثقةُ بأن الإخلاص ليس إلا به ـ سبحانه، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدّين. وإذا توالت عليهم الضرورات، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين فإذا كشف الضُّرَّ عنهم عادوا إلى الغفلة، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذي الضنى عاد إلى نُكْسِه[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

مَنَّ عليهم بدَفْعِ المحن عنهم وكَوْنِ الحَرَمِ آمناً. وذَكَّرَهم عظيمَ إحسانه عليهم، ثم إعراضهم عن شكرِ ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي لا أحدَ أشدُّ ظلماً ممن افترى على الله الكذب، وعَدَلَ عن الصدق، وآثَرَ البهتانَ ولم يتصرف بالتحقق، أولئك هم السُّقّاطُ في الدنيا والآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الذين زَيَّنُوا ظواهرَهم بالمجاهدات حَسُنَتْ سرائرُهم بالمشاهدات. الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف. الذين قاسوا فينا التعبَ من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات.

ويقال الجهاد فيه: أولاً بترك المحرَّمات، ثم بترك الشُّبُهات، ثم بترك الفضلات، ثم بقطع العلاقات، والتنقِّي من الشواغل في جميع الأوقات.

ويقال بحفظ الحواسِّ لله، وبِعَدِّ الأنفاس مع الله.

تم الجزء الثاني، ويليه الجزء الثالث

وأوله: سورة الروم

---

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

فهرس المحتويات

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء
(سورة بني إسرائيل)

سورة الكهف

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت